

السلسلة الكلامية

أبو حاتم الرازي

أعلام النبوة

تحقيق: أسعد جمعة



السّلسلة الكلاميّة

٢٢

أبو حاتم الرّازي

أعلام النّبوّة

تحقيق

أسعد جمعة

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

2014

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – عمارة عدد 3 – شقّة عدد 2 – المنار 2 – أريانة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر : 02-9938
عدد الطّبعة: الثّانية
ت د م ك : 978-9938-02-034-2
تمّ سحب 1000 نسخة من هذا الكتاب

أعلام النّبوّة

لأبي حاتم الرّازي

التّصدير

التّصدير

I – أبو حاتم الرّازي:

قال الذّهبي: «محمّد بن ادريس أبو حاتم الرّازي، الحافظ، سمع الأنصاري وعبيد الله بن موسى، وعنه درس، وولده عبد الرّحمن بن أبي حاتم، والمحاملي. قال موسى بن اسحاق الأنصاري: ما رأيت أحفظ منه. مات في شعبان سنة 277»[1].

وقال السّمعاني: «إمام عصره والمرجوع إليه في مشكلات الحديث، من مشاهير العلماء المذكورين، الموصوفين بالفضل والحفظ والرّحلة، ولقي العلماء»[2].

وقال ابن حجر: «د، س، ق محمّد بن ادريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي، أبو حاتم الرّازي، الحافظ الكبير، أحد الأئمّة... روى عنه: أبو داود والنسائي وابن ماجة في التفسير... قال الحاكم أبو أحمد في الكنى: أبو حاتم محمّد بن إدريس، روى عنه: محمّد بن إسماعيل الجعفي وابنه عبد الرحمن.. ورفيقه أبو زرعة... وآخرون.

قال أبو بكر الخلال: أبو حاتم إمام في الحديث، روى عن أحمد مسائل كثيرة وقعت الينا متفرقة، كلّها غريب.

وقال ابن خراش: كان من أهل الأمانة والمعرفة.

وقال النسّائي: ثقة.

وقال اللاّلكائي: كان إمامًا، عالمًا بالحديث، حافظًا له، متقنًا متثبّتًا.

وقال الخطيب: كان أحد الأئمّة الحفاظ الأثبات، مشهورًا بالعلم، مذكورًا بالفضل... مات بالري 277»[3].

1 – نسبه:

هو محمّد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران.

---

[1] الكاشف 4761/3:6.

[2] الأنساب 2:279.

[3] تهذيب التهذيب 9:28–30.

2 – كنيته:

يكنّى أبا حاتم، وقد اشتهر بهذه الكنية.

3 – نسبته:

يقال له الرّازي نسبة إلى وطنه الري بزيادة زاي، وأصله من أصبهان, ومن أجل ذلك ترجم له أبو نعيم في كتابه أخبار أصبهان، ويقال له الغطفاني، ويقال الحنظلي، وحنظلة بطن من غطفان، ونسبته إليهم نسبة ولاء كما في الخلاصة للخزرجي، وقال ابنه عبد الرحمن كما في اللباب: "نحن من موالي تميم بن حنظلة الغطفاني من غطفان"، وقال ابن الأثير: "وأما أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلي فمنسوب إلى درب بالري يقال له: درب حنظلة".

4 – رحلته في طلب الحديث:

بدأ كتابة الحديث سنة تسع ومائتين أي وعمره أربع عشرة سنة، ورحل في طلبه وهو صغير، فرحل إلى الكوفة والبصرة وبغداد ودمشق وحمص، ورحل إلى مصر وبقي في الرحلة زمانا, وحصل له في ذلك أمور عجيبة قال ابنه: سمعت أبي يقول: "أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ ثم تركت العدد بعد ذلك، وخرجت من البحرين إلى مصر ماشيا، ثم إلى الرملة ماشيا، ثم إلى دمشق ثم إلى أنطاكية ثم إلى طرسوس ثم رجعت إلى حمص ثم منها إلى الرقة ثم ركبت إلى العراق كل ذلك وأنا ابن عشرين سنة، وقال: بقيت بالبصرة سنة أربع عشرة أي ومائتين فبعت ثيابي حتى نفدت، وجعت يومين فأعلمت رفيقي فقال: معي دينار فأعطاني نصفه، وطلعنا مرة من البحر وقد فرغ زادنا فمشينا ثلاثة أيام لا نأكل شيئا ..." إلى آخر القصة، وهي مذكورة في طبقات الشافعية وتذكرة الحفاظ وغيرهما .

5 – ممّن روى عنهم:

روى عن محمّد بن عبد الله الأنصاري وعثمان بن الهيثم وعفّان بن مسلم وأبي نعيم عبيد الله بن موسى وآدم بن أبي إياس وأبي اليمان وسعيد بن أبي مريم وأبي مسهر وغيرهم .

6 – ممّن رووا عنه:

روى عنه أبو داود والنسائي وابن ماجة وابنه عبد الرحمن، وروى عنه عبدة بن سليمان المروزي والربيع بن سليمان المرادي ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عوف

الطائي وهم من شيوخه، ورفيقه وابن خالته أبو زرعة الرازي ومحمد بن هارون الروياني وأبو عوانة الإسفرائيني وابن أبي الدنيا وأبو زرعة الدمشقي وأبو عمرو بن حكيم وغيرهم.

7 – مَن خرّج حديثه:

خرّج حديثه أبو داود والنسّائي وابن ماجة، وقد رمز لإخراجهم حديثه في سننهم الحافظ في *تهذيب التّهذيب* *وتقريبه* والخزرجي في *الخلاصة*، وذكر الحافظ في *تهذيب التّهذيب* أنّ ابن ماجة روى عنه في التّفسير، وقد روى البخاري في *الصّحيح* في باب المحصر عن محمّد غير منسوب عن يحي بن صالح، وفي آخر تفسير سورة البقرة عن محمّد غير منسوب عن النفيلي؛ ويحتمل أن يكون هو أبا حاتم الرّازي كما في *فتح الباري* 7/4 و 206/8. وقال ابن السّبكي في *طبقات الشّافعيّة*: "وقيل إنّ البخاري وابن ماجة رويا عنه، ولم يثبت ذلك".

8 – ثناء الأئمّة عليه:

قال أبو بكر الخلال: "أبو حاتم إمام في الحديث"، وقال ابن خراش: "كان من أهل الأمانة والمعرفة"، وقال النسائي: "ثقة"، وقال أبو نعيم: "إمام في الحفظ والفهم"، وقال اللالكائي: "كان إماما عالما بالحديث حافظا متقنا ثبتا"، وقال ابن أبي حاتم: "سمعت موسى بن إسحاق القاضي يقول: ما رأيت أحفظ من والدك، قلت له فرأيت أبا زرعة؟ قال لا، قال: وسمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: أبو زرعة وأبو حاتم إماما خراسان ودعا لهما وقال: بقاؤهما صلاح للمسلمين"، وقال الخطيب: "كان أحد الأئمة الحفاظ الأثبات مشهورا بالعلم مذكورا بالفضل"، وقال ابن أبي حاتم: "سمعت أبي يقول: قلت على باب أبي الوليد الطيالسي: من أغرب عليّ حديثا غريبا مسندا صحيحا لم أسمع به فله عليّ درهم يتصدّق به وهناك حلق من الخلق أبو زرعة فمن دونه، وإنّما كان مرادي أن أستخرج منها ما ليس عندي، فما تهيأ لأحد منهم أن يغرب عليّ حديثا"، وقال أحمد بن سلمة النّيسابوري: "ما رأيت بعد إسحاق ومحمّد بن يحي أحفظ للحديث ولا أعلم بمعانيه من أبي حاتم"، وقال عثمان بن خرزاذ: "أحفظ من رأيت أربعة: إبراهيم بن عرعرة، ومحمّد بن المنهال الضرير، وأبو زرعة، وأبو حاتم".

وقال أبو حاتم: "قدم محمّد بن يحي النّيسابوري الريّ، فألقيت عليه ثلاثة عشر حديثًا من حديث الزّهري، فلم يعرف منها إلاّ ثلاثة"، قال الحافظ ابن حجر: "وهذا يدلّ على حفظ

عظيم فإن الذهلي شهد له مشايخه وأهل عصره بالتبحر في معرفة حديث الزهري ومع ذلك فأغرب عليه أبو حاتم"، وقال في *تقريب التّهذيب*: "أحد الحفاظ"، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: "أحد الأئمّة الحفّاظ الأثبات العارفين بعلل الحديث والجرح والتّعديل"، وقال الذّهبي في *العبر*: "حافظ المشرق"، وقال: "وكان بارع الحفظ واسع الرحلة من أوعية العلم"، وقال: "كان جاريا في مضمار البخاري وأبي زرعة الرّازي"، وقال في *تذكرة الحفّاظ*: "الإمام الحافظ الكبير أحد الأعلام"، وقال ابن ناصر الدين -كما في شذرات الذهب لابن العماد-: "كان في مضمار البخاري وأبي زرعة جاريًا، وبمعاني الحديث عالمًا، وفي الحفظ غالبًا، وأثنى عليه خلق من المحدّثين"، وقال الحافظ في *تهذيب التّهذيب*: "وقال مسلمة في *الصّلة*: كان ثقة، وكان شيعيًّا مفرطًا، وحديثه مستقيم"، قال الحافظ: "ولم أر من نسبه إلى التّشيّع سوى هذا الرّجل، نعم ذكر السّليماني ابنه عبد الرّحمان من الشّيعة الذين كانوا يُقدّمون عليًّا على عثمان كالأعمش وعبد الرزّاق، فلعلّه تلقّف ذلك من أبيه؛ وكان ابن خزيمة يرى ذلك أيضا مع جلالته".

9 - آثاره:

يوجد في المكتبة الظّاهريّة بدمشق (من كتاب الزّهد عنه) مخطوطًا في المجموعة رقم 28، وفي معهد المخطوطات بالقاهرة: الضعفاء والكذابون والمتركون من أصحاب الحديث عن أبي زرعة وأبي حاتم الرّازيين ممّا سألهم عنه وجمعه وألّفه أبو عثمان سعيد بن عمرو بن عمار البرذعي المتوفّى سنة 292 هـ رقم 719 فهرس قسم التّاريخ، وفي معجم *المؤلّفين* 35/9 من آثاره: *تفسير القرآن*، *الجامع في الفقه*، *الزّينة*، *وطبقات التّابعين*.

10 - وفاته:

توفّي أبو حاتم الرّازي -رحمه الله- سنة سبع وسبعين ومائتين، قال الحافظ في *تهذيب التّهذيب*: "قال ابن المنادى وغير واحد: مات في شعبان سنة سبع وسبعين ومائتين، وقال ابن يونس في تاريخه مات سنة تسع وسبعين ومائتين، قال الحافظ: والأوّل أصحّ"، ثمّ قال: "وكان مولده سنة خمس وتسعين ومائة"، وقال الذّهبي في *التّذكرة*: "توفّي أبو حاتم سنة سبع وسبعين أي ومائتين، وله اثنتان وثمانون سنة" انتهى، وروى الخطيب بإسناده إلى أحمد بن محمود ابن صبيح أنّه قال: "سنة سبع وسبعين ومائتين فيها مات أبو حاتم الرّازي بالريّ".

11 – ممّن ترجم له:

1 – ابن القيسراني في الجمع بين رجال الصحيحين 467.

2 – والذهبي في العبر 58/2. وفي تذكرة الحفاظ 146/2.

3 – وابن حجر في تهذيب التهذيب 31/9. وفي التقريب 143/2.

4 – والخزرجي في خلاصة تذهيب الكمال 278.

5 – وابن كثير في البداية والنهاية 59/11.

6 – والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد 73/2.

7 – والعليمي في المنهج الأحمد 183/1 .

8 – وابن العماد في شذرات الذهب 171/2 .

9 – وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة 284/1 .

10 – وابن السبكي في طبقات الشافعية 299/1 .

11 – وابنه عبد الرحمن في مقدمة الجرح والتعديل 349 .

12 – وأبو نعيم في أخبار أصبهان 201/2 .

13 – وعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين 35/9 .

II – أبو بكر الرّازي:

هو أبو بكر محمّد بن يحيى بن زكريا الرّازي، عالم وطبيب فارسي (ح 250 هـ–5 شعبان311 هـ / 864 م–19 نوفمبر 923 م)، ولد في مدينة الري.

وهو أحد أعظم أطبّاء الإنسانية على الإطلاق، كما وصفته زجريد هونكه في كتابها *شمس الله تسطع على الغرب* حيث ألّف كتاب *الحاوي في الطبّ* كان يضمّ كلّ المعارف الطبيّة منذ أيّام الإغريق حتّى عام 925 م، وظلّ المرجع الطبّي الرّئيسي في أوروبّا لمدّة 400 عام بعد ذلك التاريخ.

درس الرّياضيات، والطبّ، والفلسفة، والفلك، والكيمياء، والمنطق، والأدب.

في الريّ اشتهر الرّازي وجاب البلاد، وعمل رئيسًا لمستشفى، وله الكثير من الرّسائل في شتّى مجالات الأمراض، وكتب في كلّ فروع الطبّ والمعرفة في ذلك العصر، وقد ترجم بعضها إلى اللاّتينيّة لتستمرّ المراجع الرّئيسيّة في الطبّ حتّى القرن

السّابع عشر، ومن أعظم كتبه "تاريخ الطب"، وكتاب "المنصور" في الطبّ، وكتاب "الأدوية المفردة" الذي يتضمّن الوصف الدّقيق لتشريح أعضاء الجسم.

وهو أوّل مَن ابتكر خيوط الجراحة، وصنع المراهم، وله مؤلّفات في الصّيدلة ساهمت في تقدّم علم العقاقير. وله 200 كتاب ومقال في مختلف جوانب العلوم.

1 – حياته ونشأته:

لقد سجّل مؤرّخو الطب والعلوم في العصور الوسطى آراء مختلفة ومتضاربة عن حياة العالم أبي بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي، ذلك الطبيب الفيلسوف الذي تمتاز مؤلّفاته وبعضها باللغة العربية، بأصالة البحث وسلامة التفكير. وكان مولده في مدينة الري، بالقرب من مدينة طهران الحديثة. وعلى الأرجح أنّه ولد في سنة 251 هـ / 865 م.

وكان من رأي الرّازي أن يتعلم الطلاب صناعة الطب في المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان، حيث يكثر المرضى ويزاول المهرة من الأطباء مهنتهم. ولذلك أمضى ريعان شبابه في مدينة السّلام، فدرس الطب في بغداد .وقد أخطأ المؤرخون في ظنّهم أنّ الرّازي تعلّم الطبّ بعد أن كبر في السنّ. وتوصّل المؤرّخون إلى معرفة هذه الحقيقة من نصّ في مخطوط مكتبة بودلي بأكسفورد، وعنوانه "تجارب ممّا كتبه محمّد بن ببغداد في حداثته"، ونشر هذا النص مرفقًا بمقتطفات في نفس الموضوع، اقتبستها من كتب الرّازي التي ألّفها بعد أن كملت خبرته، وفيها يشهد أسلوبه بالاعتداد برأيه الخاص.

بعد إتمام دراساته الطبيّة في بغداد، عاد الرّازي إلى مدينة الري بدعوة من حاكمها، منصور بن إسحاق، ليتولّى إدارة مستشفى الريّ. وقد ألّف الرّازي لهذا الحاكم كتابه "المنصوري في الطب" ثمّ الطب الرّوحاني وكلاهما متمّم للآخر، فيختصّ الأوّل بأمراض الجسم، والثّاني بأمراض النّفس.

واشتهر الرّازي في مدينة الرّي، ثم انتقل منها ثانية إلى بغداد ليتولى رئاسة المعتضدي الجديد، الذي أنشأها الخليفة المعتضد بالله (279 – 289 هـ /892 م- 902 م).

وعلى ذلك فقد أخطأ ابن أبي أصيبعة في قوله أنّ الرّازي كان ساعورًا مستشفى العضدي الذي أنشأه عضد الدّولة (توفّى في 372 هـ/973 م)، ثمّ صحّح ابن أبي أصيبعة خطأه بقوله: "والذي صحّ عندي أنّ الرّازي كان أقدم زمانا من عضد الدولة، ولم يذكر

ابن أبي أصيبعة البيمارستان المعتضدي إطلاقًا في مقاله المطوّل في الرازي. شغل مناصب مرموقة في الريّ وسافر، ولكنّه أمضى الشّطر الأخير من حياته بمدينة الريّ، وكان قد أصابه الماء الأزرق في عينيه، ثمّ فقد بصره وتوفّى في مسقط رأسه إمّا في سنة 313 هـ /923 م، وإمّا في سنة 320 هـ/ 932 م.

يتّضح لنا تواضع الرّازي وتقشفه في مجرى حياته من كلماته في كتاب "السيرة الفلسفية" حيث يقول: "ولا ظهر منّي على شرّه في جمع المال وسرف فيه ولا على منازعات النّاس ومخاصماتهم وظلمهم، بل المعلوم منّي ضدّ ذلك كله والتّجافي عن كثير من حقوقي. وأمّا حالتي في مطعمي ومشربي ولهوي، فقد يعلم من يكثر مشاهدة ذلك منّي أنّي لم أتعد إلى طرف الإفراط، وكذلك في سائر أحوالي ممّا يشاهده هذا من ملبس أو مركوب أو خادم أو جارية، وفي الفصل الأول من كتابه "الطبّ الرّوحاني"، "في فضل العقل ومدحه"، يؤكّد الرّازي أنّ العقل هو المرجع الأعلى الذي نرجع إليه، "ولا نجعله، وهو الحاكم، محكومًا عليه، ولا هو الزّمام، مزمومًا ولا، وهو المتبوع، تابعًا، بل نرجع في الأمور إليه ونعتبرها به ونعتمد فيها عليه.".

كان الطّبيب في عصر الرّازي فيلسوفًا، وكانت الفلسفة ميزانًا توزن به الأمور والنّظريّات العلميّة التي سجّلها الأطبّاء في المخطوطات القديمة عبر السّنين، وكان الرّازي مؤمنًا بفلسفة سقراط الحكيم (469 ق. م– 399 ق. م)، فيقول إنّ الفارق بينهما في الكمّ وليس في الكيف. ويدافع عن سيرة سقراط الفلسفيّة، فيقول: إنّ العلماء إنّما يذكرون الفترة الأولى من حياة سقراط، حينما كان زاهدًا وسلك طريق النسّاك. ثمّ يضيف أنّه كان قد وهب نفسه للعلم في بدء حياته، لأنّه أحبّ الفلسفة حبًّا صادقًا، ولكنّه عاش بعد ذلك معيشة طبيعيّة.

كان الرّازي مؤمنًا باستمرار التّقدّم في البحوث الطبيّة، ولا يتمّ ذلك، على حد قوله، إلاّ بدراسة كتب الأوائل، فيذكر في كتابه "المنصوري في الطبّ" ما هذا نصّه: "هذه صناعة لا تمكن الإنسان الواحد إذا لم يحتذ فيها على مثال من تقدّمه أن يلحق فيها كثير شيء ولو أفنى جميع عمره فيها لأن مقدارها أطول من مقدار عمر الإنسان بكثير. وليست هذه الصناعة فقط، بل جلّ الصّناعات كذلك. وإنّما أدرك مَن أدرك من هذه الصّناعة إلى هذه الغاية في ألوف من السنين ألوف، من الرجال. فإذا اقتدى المقتدي أثرهم صار أدركهم كلهم له في زمان قصير. وصار كمن عمر تلك السنين وعنى بتلك العنايات. وإن

هو لم ينظر في إدراكهم، فكم عساه يمكنه أن يشاهد في عمره. وكم مقدار ما تبلغ تجربته واستخراجه ولو كان أذكى الناس وأشدهم عناية بهذا الباب. على أن من لم ينظر في الكتب ولم يفهم صورة العلل في نفسه قبل مشاهدتها، فهو وإن شاهدها مرات كثيرة، أغفلها ومر بها صفحا ولم يعرفها البتّة"، ويقول في كتابه *في محنة الطبيب وتعيينه*، نقلاً عن جالينوس: "وليس يمنع من عني في أي زمان كان أن يصير أفضل من أبقراط".

وله إسهامات في مجال علوم الفيزياء حيث اشتغل الرّازي بتعيين الكثافات النّوعيّة للسّوائل، وصنف لقياسها ميزانًا خاصًّا أطلق عليه اسم الميزان الطّبيعي.

ويظهر فضل الرّازي في الكيمياء، بصورة جليّة، عندما قسم الموادّ المعروفة في عصره إلى أربعة أقسام هي:

- الموادّ المعدنيّة.
- الموادّ النّباتيّة.
- الموادّ الحيوانيّة.
- الموادّ المشتقّة.

كما قسّم المعادن إلى أنواع، بحسب طبائعها وصفاتها، وحضّر بعض الحوامض، وما زالت الطرق التي اتّبعها في التحضير مستخدمة إلى الآن. وهو أوّل من ذكر حامض الكبريتيك الذي أطلق عليه اسم زيت الزاج أو الزاج الأخضر.

وقد حضّر الرازي في مختبره بعض الحوامض الأخرى، كما استخلص الكحول بتقطير مواد نشوية وسكرية مختمرة. وكان يفيد منه في الصّيدليّة من أجل استنباط الأدوية المتنوّعة.

2 – كتب الرّازي الطبّيّة:

يذكر كلّ من ابن النديم والقفطي أنّ الرّازي كان قد دون أسماء مؤلفاته في "فهرست وضعه لذلك الغرض. ومن المعروف أنّ النّسخ المخطوطة لهذه المقالة قد ضاعت مع مؤلّفات الرّازي المفقودة. ويزيد عدد كتب الرّازي على المائتي كتاب في الطبّ والفلسفة والكيمياء وفروع المعرفة الأخرى. ويتراوح حجمها بين الموسوعات الضخمة والمقالات القصيرة.

ويجدر بنا أن نوضّح هنا الإبهام الشّديد الذي يشوب كلا من "الحاوي في الطبّ" و"الجامع الكبير". وقد أخطأ مؤرّخو الطبّ القدامى والمحدثون في اعتبار هذين العنوانين كأنّهما لكتاب واحد فقط، وذلك لترادف معنى كلمتيْ الحاوي والجامع.

تمّت ترجمة كتب الرّازي إلى اللّغة اللاّتينيّة ولا سيما في الطب والفيزياء والكيمياء كما ترجم القسم الأخير منها إلى اللّغات الأوروبية الحديثة ودرست في الجامعات الأوروبية لا سيما في هولندا حيث كانت كتب الرازي من المراجع الرّئيسيّة في جامعات هولندا حتى القرن السّابع عشر.

وهنالك قصّة شهيرة تدلّ علي ذكاء الرّازي هي: أمره أحد الخلفاء ببناء مستشفي في مكان مناسب في بغداد وفكر ووضع قطع لحم في عمود خشبي في أماكن كثيرة في بغداد؛ وكان يمرّ عليها لكي يري أيّ القطع فسدت، وعندما عرف آخر قطعة فسدت أمر ببناء المستشفي في هذا المكان، لأنّ جوّه نقيّ خال من الدخان والتّراب، لأنّ المرضى يحتاجون إلى هواء نقيّ خال من الملوّثات. ومن ذلك الحدث اشتهر الرّازي شهرة كبيرة بذكائه.

ومن المعروف أنّه كان يحبّ الشّعر والموسيقي في صغره، وفي كبره أحبّ الطبّ.

*** كتاب الحاوي في الطبّ:**

يعتبر من أكثر كتب الرّازي أهمّية، وقد وصفه بموسوعة عظيمة في الطبّ تحتوي على ملخّصات كثيرة من مؤلّفين إغريق وهنود إضافة إلى ملاحظاته الدّقيقة وتجاربه الخاصّة.

وقد ترجم *الحاوي* من اللّغة العربيّة إلى اللّغة اللاتينية، وطبع لأوّل مرّة في بريشيا في شمال إيطاليا عام 1486، وقد أعيد طبعه مرارًا في البندقية في القرن السّادس عشر الميلادي.

وتتّضح مهارة الرّازي في هذا المؤلّف الضّخم، ويكاد يجمع مؤرّخو الرّازي بأنّه لم يتم الكتاب بنفسه، ولكن تلاميذه هم الذين أكملوه.

3 - آراء الرّازي في الدّين:

كتب الرّازي أيضًا في مجال الأديان التي انتقدها، وقد خصّص عبد الرّحمن بدوي الفصل الأخير من كتابه *من تاريخ الإلحاد في الإسلام* لآراء الرّازي الفلسفيّة في نقد الأديان.

إلاّ أنّ الرّازي لم ينكر وجود الله بل أقرّ بوجوده، وقال بأنّه منح العقل للإنسان ليفكّر به.

وقد تمّ انتقاد آرائه الجريئة في نقد الدّين من طرف العديد من العلماء والمفكرّين من بينهم ابن سينا الذي يعتبر عند البعض فيلسوفًا مسلمًا بينما اعتبره رجال الدّين المسلمين كافرا كأبي حامد الغزالي وابن تيميّة.

رفض الرّازي فكرة النّبوّة قائلاً: "من أين أوجبتم أن الله اختص قوما بالنبوة دون قوم، وفضّلهم على النّاس، وجعلهم أدلّة لهم، وأحوج النّاس إليهم؟ ومن أين أجزتم في حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك، ويعلي بعضهم على بعض، ويؤكّد بينهم العداوات، ويكثر المحاربات، ويهلك بذلك النّاس؟".

ويتحدّث عن العلاقة بين العنف والدّين، فيقول أنّه كان من الأولى "بحكمة الحكيم ورحمة الرّحيم أن يلهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم، ولا يفضِّل بعضهم على بعض، فلا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا، وذلك أحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمة لبعض، فتصدق كل فرقة إمامها، وتكذب غيره، ويضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف ويعم البلاء".

ويقول عن ما يراه عدم تسامح المتدينين مع نقد الدّين: "إن سئل أهل هذه الدعوى عن الدليل على صحة دعواهم، استطاروا غضبا، وهدروا دم من يطالبهم بذلك، ونهوا عن النّظر، وحرضوا على قتل مخالفيهم، فمن أجل ذلك اندفن الحق أشدّ اندفان، وانكتم أشدّ انكتام.

منذ بدء التأريخ، كلّ الذين زعموا أنّهم أنبياء، كانوا في أسوأ افتراض لهم، مراوغين وفي أفضل افتراض كانوا يعانون من مشاكل نفسيّة.

4 – مؤلّفاته:

- كتاب الشّكوك على جالينوس
- كتاب "في الفصد والحجامة
- مخارق الأنبياء
- حيل المتنبّيين

III – مضمون الكتاب:

كتاب جمع فيه المؤلّف ما يدلّ على إثبات صحّة النّبوّة ويزيل شبه المستريب، وقد تضمّن الكتاب أمريْن:

– أحدهما: ما اختصّ بإثبات النّبوّة من إعلامها.

– والثّاني: فيما يختلف من أقسامها وأحكامها ليكون الجمع بينهما أنفى للشبهة وأبلغ في الإبانة الكتاب على ما به من مباحث شيقة وبداهة خاطفة لماحة واستدلال مفحم ورشاقة في الحوار يقدم لنا صورة جلية عن عظمة الثقافة الإسلامية وعن مدى الموسوعيّة التي كان يتمتع بها العالم الذي يستحقّ أن يوصف بكونه عالما إسلاميا فقد وضع حقيقة الأديان الواحدة أمام أهل الأديان جميعا وبين الخلاف بين فروع الشّرائع وأسبابه والتّرابط والاتّحاد بين أصولها وضروراته بما لا يدع مجالاً لمختلف أن يتخلف إلاّ أن يكون مرضه القلبي مزمنا وعلّته العقليّة مستعصية أو يكون جاهلاِ بكتابه الذي يعتقد به.

وينفرد *أعلام النبوّة* بأنّه صان فلسفة "المُلحِد" أبي بكر الرّازي من الضّياع، وكرّسه فيلسوفًا عقلانيًّا، اعتقد منذ القرن الرابع الهجري بغلبة العقل والمنطق والفلسفة على الفكر الدّيني، ومهّد لِمّا عادت وقامت عليه بعد قرون طويلة "فلسفة الأنوار" في عصر النهضة الأوروبية، وبشّر بها فيلسوفها العقلاني فولتيرز كما جاء نموذجًا مكتملاً ومعبّرًا عن أدب المساجلات والمناظرات الفكريّة التي تفتقده الثقافة العربية المعاصرة في زمن انحدارها.

يطرح هذا الكتاب إشكاليّة المواجهة بين منطق العقل ومنطق المعجزة، ويقدّم نموذجًا نادرًا عن تفكير –وبالتالي تكفير– فيلسوف رجيم أربك المؤسّسة الدينيّة المهيمنة بآرائه الفلسفيّة العقلانيّة.

يعود هذا الكتاب لسجالات فكريّة جرت بحضور العامّة في القرن العاشر بحضور محافظ ري، وهي واحدة من أهمّ المدن الإيرانيّة بالقرب من مدينة طهران اليوم.

نفى الطّبيب والفيلسوف أبو بكر زكّريا الرّازي النّبوّة حيث قال بأنّ العقل والذي يمتلّكه كلّ بني البشر يعطي الطريق الوحيد للخلاص.

كان منافسه الدّاعي الإسماعيلي الكبير للريّ أبو حاتم الرّازي، والذي توفّي عام 934 م، والذي شكّل عمله واحدًا من أهمّ الأعمال المبكّرة في علم اللاهوت الإسماعيلي.

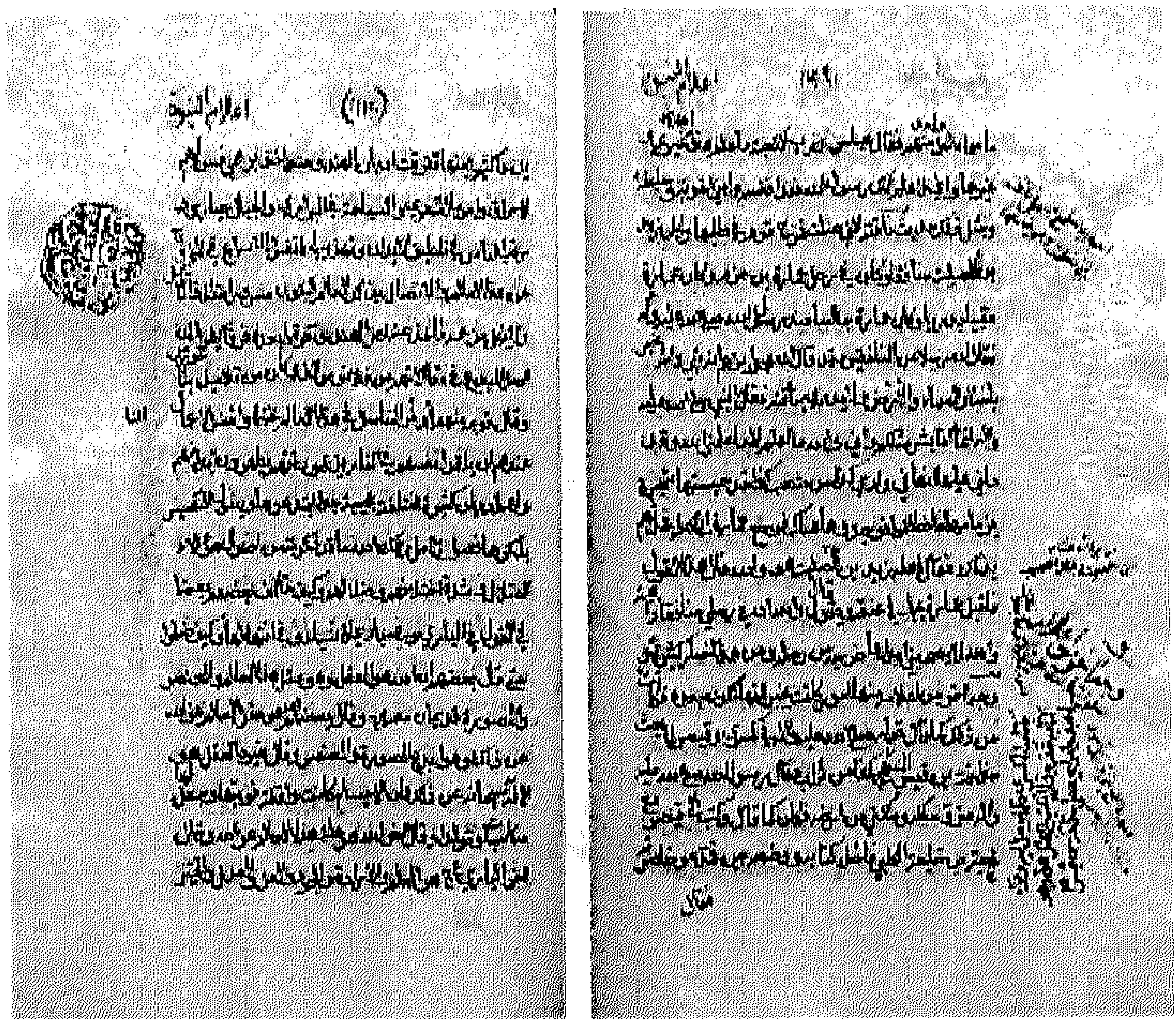
جادل أبو حاتم بأنّ كلّ من الفلسفة والعلوم ليست نتاج العقل البشري، ولكنّها من أصل إلهي. كذلك أيّد صلاحيّة عالميّة النّبوّة، وليس فقط في إطار التّقاليد الإسلاميّة، وإنّما أيضًا في تعاليم الدّيانات الأخرى، بما فيها الزّرادشتيّة وكذلك المسيحيّة واليهوديّة.

IV – النّسخة الخطية المعتمَدة في التّحقيق:

إنّ هذا المخطوط واحد من اثنين في مجموعة حمداني، كتب بشكل جميل بخطّ اليد وبطريقة علميّة واضحة، وربّما يعود إلى أواخر القرن الثّامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر. تحمل صفحة العنوان العديد من الطّوابع وأختام الملكية العائدة للأجيال المتعاقبة من أسرة حمداني.

تمّ توريث مخطوطات حمداني من الأب إلى الابن على مدى عدّة أجيال، منذ القرن الثّامن عشر حتّى الحاضر، وتشكّل هذه الطّوابع وأختام الملكيّة تاريخ العائلة الثمين.

صورة من الصّفحة الأولى من نسخة
أعلام النّبوّة لأبي حاتم الرّازي الخطّيّة



صورة من الصّفحة الأخيرة من نسخة
أعلام النّبوّة لأبي حاتم الرّازي الخطيّة

أعلام النّبوّة

لأبي حاتم الرّازي

الباب الأوّل

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الفصل الأوّل

فيما جرى بيْني وبيْن الملْحد

أنّه ناظرني في أمْر النّبوّة، وأوْرد كلامًا نحو ما رسمه في كتابه الذي قد ذكرناه؛

- **فقال:** من أيْن أوْجبتم أن الله اختصّ قومًا بالنّبوّة دون قوم، وفضّلهم على النّاس، وجعلهم أدلّة لهم وأحْوج النّاس إليهم؟

ومن أين أجزْتم في حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك، ويشلي بعضهم على بعض، ويؤكّد بينهم العدوات، ويكثر المحاربات، ويهلك بذلك النّاس؟

- **قلتُ:** فكيْف يجوز عندك في حكمته أن يفعل؟!

- **[قال:]** الأوْلى بحكمة الحكيم ورحمة الرّحيم أن يلْهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارّهم في عاجلهم وآجلهم؛ فلا يفضّل بعضهم على بعض، ولا يكون بينهم تنازعٌ ولا اختلافٌ، فيهلكوا. وذلك أحْوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمّة لبعض؛ فتصدّق كلّ فرقة إمامها وتكذّب غيره؛ ويضرب بعضهم وجوه بعض بالسّيف، ويعمّ البلاء ويهلكون بالتّعادي والمجاذبات؛ وقد هلك بذلك كثيرٌ من النّاس كما نرى.

- **قلتُ:** ألستَ تزعم أنّ الباري -جلَّ جلالُه- حكيمٌ رحيمٌ؟

- **قال:** نعم!

- **قلتُ:** فهل ترى الحكيم فَعَل بخلْقه هذا الذي تزعم أنّه أوْلى بحكمته ورحمته؟ وهل احتْاط لهم، فألهَمَ الجميعَ ذلك، وجعل هذه الهبة عامّة، ليستغني النّاس بعضهم عن بعض، وترْتفع عنهم الحاجة، إذا كان ذلك أوْلى بحكمته ورحْمته؟

- **قال:** نعم!

- **قلتُ:** أوْجدني حقيقة ما تدّعي. فإنّا لا نرى في العالم إلاّ إمامًا ومأمومًا، وعالمًا، ومتعلّمًا في جميع الملل والأديان والمقالات من أهل الشّرائع وأصحاب الفلسفة التي هي أصْل مقالتك؛ ولا نرى النّاس يستغني بعضهم عن بعض، بل كلّهم محتاجون بعضهم

إلى بعض، غير مستغنين بإلهامهم عن الأئمّة والعلماء، ولم يُلهموا ما ادّعيتَ من منافعهم ومضارّهم في أمْر العاجل والآجل، بل أحوجوا إلى علماء يتعلّمون منهم، وأئمّة يقتدون بهم، وراضة يروّضونهم؟

وهذا عيانٌ لا يقْدر على دفْعه إلاّ مباهتٌ ظاهر البهْت والعناد. وأنت، مع ذلك، تدّعي أنّك قد خُصّصت بهذه العلوم التي تدّعيها من الفلسفة، وأنّ غيْرك قد حُرم ذلك وأوجب[1] إليك، وأوجبتَ عليهم التّعلّم منك والإقتداء بك.

– **قال:** لم أُخَصّ بها أنا دون غيري، ولكنّي طلبتها وتوانوا فيها؛ وإنّما حُرِموا ذلك لإضرابهم عن النّظر، لا لنقْص فيهم.

والدّليل على ذلك: أنّ أحدهم يفْهم من أمْر معاشه وتجارته وتصرّفه في هذه الأمور، ويهتدي بحيله إلى أشياء تدقّ عن فهْم كثير منّا، وذلك لأنّه صرف همّته إلى ذلك؛ ولو صرف همّته إلى ما صرفتُ همّتي أنا إليه وطلب ما طلبتُ، لأدْرك ما أدركتُ.

– **قلتُ:** فهل يستوي النّاس في العقْل والهمّة والفطْنة أم لا؟

– **قال:** لو اجتهدوا واشتغلوا بما يعنيهم، لاستووا في الهمم والعقول.

– **قلتُ:** كيف تجيز هذا وتدفع العيان؟! وإنّا نرى ونعاين أنّ النّاس على طبقات وتفاوت مراتب، ولستَ تقدر على دفع ما اتّفق النّاس عليه، أن يقولوا: "فلان أعقل من فلان"، و"فلان عاقل وفلان أحمق"، و"فلان أكْيس من فلان"، و"فلان كيّس وفلان بليد"، و"فلان لطيف الطّبع وفلان غليظ الطّبع"، و"فلان فطن وفلان غبيّ"؛ ومَن دفع هذا، فقد كابر وعاند.

وإذا ثبَت هذا، فقد وقعتْ الخصوصيّة. وقد علمْنا أنّ الأحمق البليد الطّبع الغبيّ لا يدرك بفطْنته ونظره ما يدركه العاقل الكيّس الفطن اللّطيف الطّبع من العلوم الدّقيقة والجليلة في باب المعاش والصّناعات التي ذكرتَ أنّ النّاس اشتغلوا بها عن النّظر في العلوم الدّقيقة، وأنّهم بلغوا في تلك الصّناعات ما يدقّ عن أفهامنا.

والنّاس في ذلك أيضًا يتفاوتون في المراتب والطّبقات ويتفاضلون في كلّ صناعة. وفي كلّ طبقة من النّاس فاضل ومفضول، وعالم ومتعلّم، ولا نرى أحدًا يدرك شيئًا من الأمور بفطْنته وكيسه وعقله إلاّ بمعلّم يرشده، وبقانون يرجع إليه، ثمّ يحْتذي على مثاله ويبْني عليه أمْره؛ وهذا ما لا مريّة فيه، ولا يقدر أحدٌ على دفْعه.

---

[1] في الأصل: أوج.

وإذا ثبت هذا، فقد جاز أن يقع التّفاضل في النّاس، والتّفاوت في مراتبهم؛ كما قد أجزتَ لنفسك ما تدّعيه أنّك أدركتَ من علوم الفلسفة، بالعقل الكامل، والهمّة البعيدة، والطّبع التّامّ، ما لا يقدر على بلوغه مَن هو ناقصُ العقل متخلّفٌ في الهمّة، ولا يتعلّمه وإن عُلّم، ولا يتوجّه له وإن هُدِيَ إليه، لبلادته ونقصان طبعاه؛ وهذا موجودٌ في جبلّة النّاس. فإنّ البليد الجافي لا يبلغ معرفة ما يبلغه الفطن ولا يطيقه، وإن تكلّفه واجْتهد فيه.

فإذا وجب هذا، وثبت أن تختلف أحوال النّاس في العقل والكيس والفطنة، فقد وجَب أن يحوج بعضهم إلى بعض، وأن يتعلّم بعضهم من بعض، فيكون فيهم عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، في جميع الأسباب في الدّين وفي الأمور الدّنيويّة، كما نشاهده عيانًا.

وقد انْتقض قولك: إنّه لا يجوز في حكْمة الحكيم ورحمة الرّحيم أن يجعل النّاس بعضهم أئمّة لبعض، وأنّه يجب أن يُلهِم عباده أجمعين معْرفة منافعهم ومضارّهم في عاجلهم وآجلهم، وأن لا يحوّج بعضهم إلى بعض؛ وزعمتَ أنّ ذلك أحْوط لهم، وأوْلى بحكمته. فإنّ هذا غير موجود في جبلّة النّاس.

ونرى الحكيم الرّحيم قد فعل بعباده خلاف ما تدّعيه أنّه أحْوط لهم وأوْلى بحكمته، إلاّ ما نجد في طبائعهم مَن تساويهم في أشياء طُبعوا عليها، كما طُبع عليها سائر أصناف الحيوان من البهائم والسّباع والطّير ودوابّ الماء وجميع الأجناس، من طلب الغذاء والتّناسل، وأُلهِمتْ معرفة ما لها من المنافع والمضارّ في ذلك؛ فكلّ جنس من الحيوان لا تفاضل فيه ولا درجات بيْنه، بل استوتْ في ذلك، وهي مطبوعة عليه؛ فلا درجات بينها ولا مراتب، لأنّها ليست بمأمورة، ولا منهيّة، ولا مُستعبَدة، ولا مُكلّفة، ولا مُثابَة[1]، ولا مُعَاقبَة؛ من أجل ذلك لا درجات بينها.

وخصّ البشر بأن يكون فيهم عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، وفاضل ومفضول، ليقوم الأمر والنّهي، وتظهر الطّاعة والمعصية، ويثبت الاستعْباد، ويقع الثّواب والعقاب على حسب ما يكون من أعمالهم باختيار لا بإجبار.

وهذا أوْجب في حكمة الحكيم ورحمة الرّحيم من أن يكون سبيلُ البشر سبيلَ البهائم وسائر الحيوان.

---

[1] في الأصل: مثابتة.

وليس يخلو الأمر من إحدى ثلاث خلال:

– إمّا أن تقول: إنّ الحكيم ترك ما ادّعيتَ أنّه أولى به في حكْمته ورحْمته، وأنّه أعمّ نفعًا لبريّته وأحْوط لهم، فلم يفعله بهم وهو يقدر عليه. فإنّ الذي تدّعيه من هذا الباب هو معدومٌ في العالم.

وأنّه فعل بهم ما هو أعمّ ضررًا وأقْرب إلى هلاكهم على زعمك؛ فيكون قد فعل ما لا توجبه الحكمة والرّحمة؛ فإنّا نراه قد فعل بهم هكذا من إحْواج بعضهم إلى بعض.

– أو تقول: أراد ذلك وأوْجَبَهُ، فلم يقْدر عليه؛ فتُلزمه العجْز.

– أو تقول: إنّ الأولى بحكمته ورحْمته ما قد فعلَه بهم، على نحو ما ادّعيناه؛ فترجع عن أصلك، وتدَع اعتقادك السّقيم ودعواك البشعة التي قد نقضتها على نفسك حين زعمتَ أنّك أدركتَ بفطنتك ودقّة نظرك ما لم يدركه كثير من الفلاسفة القدماء.

وهم كانوا لك أئمّة، وفي أصولهم نظرتَ، وكتبهم درستَ، وبها استدركتَ ما تدّعيه.

فمرّة تزْعم أنّه لا يجب أن يكون النّاس أئمّة بعضهم لبعض، وأنّه يجب أن يتساووا، فلا يحوج بعضهم؛ ثمّ تنتقض على نفسك، كما قد أجزتَ أن تتفاوتَ مراتب الفلاسفة حتّى يدرك بعضهم ما لا يدركه البعض، وأن يكون بعضهم أئمّة لبعض؛ كما اتّفقت عليه الفلاسفة أنّ أفلاطون[1] الحكيم كان إمامًا لأرسطاطاليس[2]، وأنّ أرسطاطاليس كان تلميذًا له؛

---

[1] يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطرن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر، فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، و يسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف له. فمن ذلك قول سمّاه *ثالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه خرميس في العفّة، قولان سمّاهما *القيبادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245–ص246. بيروت. د. ت.

[2] هو الفيلسوف اليوناني المشهور عند فلاسفة الإسلام باسم المعلّم الأوّل. وُلد سنة 384 ق. م. وتوفّي سنة 322 ق. م. من مصنّفاته: *المقولات*، *والعبارة*، *والقياس*، *والبرهان*، *والجدل*، *والأغاليط*، *والسّماع الطّبيعي*، *والميتافيزيقا* (ما بعد الطّبيعة) *والأخلاق إلى نيقوماخوس والخطابة والشّعر*... كان صاحب

كما ادّعيتَ أنّهم قد نقصوا عن مرتبتك حين أدركتَ ما تدّعي أنّهم لم يدركوه من الصّواب الذي زعمتَ أنّهم أخطأوا فيه، وإنّه واجبٌ عليهم الرّجوع إلى قولك والإقتداء بك.

أولَيس قد أثْبتَّ بهذه الدّعوى المراتبَ والدّرجات، وأثْبتَّ أن يكون في النّاس عالم ومتعلّم وإمام ومأموم، وأنّ بعضهم تعجز فطْنته عن فطْنة غيره وإن اجتهد؟! أولَيس قد انْكسر عليك قولك الأوّل؟!

ولَعمري إنّ هذا هو أشْبه بالصّواب وأثْبت.

وإذا ثبت هذا، وجاز أن يكون في النّاس عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، وأن تكون فيهم مراتب ودرجات، جاز أن يختصّ اللهُ بحكمته ورحمته قومًا، ويصطفيهم من خلْقه، ويجعلهم رُسُلاً إليهم، ويؤيّدهم ويفضّلهم بالنّبوّة، ويعلّمهم بوحْي منه ما ليس في وسْع البشر أن يعلموه؛ ليعلّموا النّاس، ويرشدوهم إلى ما فيه صلاح أمورهم دينًا ودنيًا، ويسوسوا الخلائق بمثل ما يرى من هذه السّياسة العجيبة التي يرتاض عليها الخاصّ والعامّ، والعالم والجاهل، والكيّس والبليد، ويستقيم أمْر العالم بهذه السّياسة التي نشاهدها بالشّرائع التي شرعوها، واستغنى بها البليد الغليظ الطّبع عن النّظر في دقائق علوم الفلسفة التي يتحيّرون فيها، وتبْهر عقولهم، ويعجزون عن ضبطها، وإن اجتهدوا.

فأيّ الأمريْن أوْلى بحكْمته ورحْمته، وأوْجب عليك أن تأخذ به: أن يختصّك بهذه الفضيلة التي ادّعيتها لنفسك ونقضتَ بها دعواك الأولى، فتثبت دعوى مَن يقول بأنّ في العالم إمامًا، ومأمومًا، وعالمًا، ومتعلّمًا؟ أو دعواك الأولى أنّه لا يجوز في حكْمته أن يكون في العالم إمام، ومأموم، وعالم، ومتعلّم؟

فاختْر أيّهما شئتَ! فإن اخترتَ هذه الدّعوى، بَطُلَتْ دعواك وانْكسرت عليك، وأنت نقضتَ على نفسك.

وإن اختْرتَ الأخرى، وأجزتَ في حكمة الحكيم أن يختصّك بهذه الفضيلة دون غيرك، وأن يحوج النّاس إليك وإلى التّعلّم منك، فلِمَ أنكرتَ أن يختار -عزّ وجلّ- رُسُلاً،

مدرسة فلسفيّة في الأنطولوجيا، والمعرفة، والأخلاق، والسّياسة، ظلّ تأثيرها حتّى قيام الفلسفة الحديثة مع ريني ديكارت.

حول ترجمته راجع: *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* ليوسف كرم، *تاريخ الفكر الفلسفي* لمحمّد علي أبو ريّان؛ *أرسطو* لعبد الرّحمان بدوي؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا.

ويختصّهم بالنّبوّة، ويجعلهم أئمّة إلى النّاس، ويحوّج النّاس إليهم وإلى التّعلّم منهم، ليكونوا ساسة للنّاس في أولاهم، وقادة لهم في أمْر دينهم؛ كما تراه أنّه قد فعله؟

ولِمَ جاز أن يفيض عليك نعْمته، فيجعلك إمامًا للنّاس، وأنت لا تقْدر على سياسة رجليْن؛ ولم يجز أن يفيضها على أنبيائه الذين اصْطفاهم وجعلهم أئمّة للنّاس، حتّى ساسوا العالم بأبْنية شرائعهم وأحكامهم؟

فهذا ما جرى في هذه المسألة، وإن كان الكلام يزيد وينقص والألفاظ تختلف؛ كان جملته ومعانيه ما قد ذكرته.

وقد كان ادّعى في غير هذا المجلس ما احتججتُ به، أنّه أدْرك من العلوم ما لم يدْركه مَن تقدّمه من الفلاسفة، إلى غير ذلك ممّا قد ذكرْته من دعاويه.

الفصل الثّاني
في ذكر القدماء الخمسة
والقول في التّقليد والنّظر

وطالبته في مجلس آخر؛

– **وقلتُ له:** "أخبرني عن الأصل الذي تعتقده من القول بقدم الخمسة: الباري، والنّفس، والهيولى، والمكان، والزّمان؛ أهو شيء وافقك عليه القدماء من الفلاسفة، أم خالفوك فيه؟".

– **قال:** "بل للقدماء في هذا أقوال مختلفة، ولكنّي استدركتُ هذه بكثرة البحث والنّظر في أصولهم، فاستخرجتُ ما هو الحقّ الذي لا مدْفع له، ولا محيص عنه".

– **قلتُ:** "فكيف عجزَتْ فطنُ هؤلاء الحكماء واختلفتْ أقاويلهم، وكانوا بزعمك مجتهدين قد صرفوا هِمَمهم إلى النّظر إلى الفلسفة، حتّى أدركوا العلوم اللّطيفة وصاروا فيها علماء وقدْوة؟

وأنت تزْعم أنّك أدركتَ ما لم يدركوا بكثرة نظرك في رسومهم وكتبهم؛ وهم لك أئمّة، وأنت لهم تبعٌ، لأنّك درستَ رسومهم، ونظرتَ في أصولهم، وتعلّمتَ من كتبهم؟

فكيف يجوز أن يكون التّابع أعلى من المتْبوع، والمأموم أتمّ في الحكمة من الإمام؟!".

– **قال:** "أنا أورد عليك في هذا ما تعلم أنّ الأمر كما ذكرتُه، وتعرف الصّواب من الخطأ في هذا الباب.

اعلم أنّ كلّ متأخّر من الفلاسفة إذا صرف همّته إلى النّظر في الفلسفة، وواظب على ذلك، واجتهد فيه، وبحث عن الذي اختلفوا فيه لدقّته وصعوبته، عَلِمَ عِلْمَ مَن تقدّمه منهم وحفظه، واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى؛ لأنّه مَهَرَ بعلْم مَن تقدّمه، وفَطِنَ لفوائد أُخَر واستفْضلها؛ إذ كان البحث والنّظر والاجتهاد يوجب الزّيادة والفضل".

– **قلتُ:** "فإن كان الذي استدْركه المتأخّر خلافًا على مَن تقدّمه، كما خالفتَ أنت مَن تقدّمك، فإنّ الخلاف ليس بفائدة؛ بل الخلاف شرّ زيادة في العمى، وتقوية للباطل، ونقْض وفساد.

ونحن نجدُكم لم تزدادوا بكثرة البحث والنّظر بآرائكم إلاّ اختلافًا وتناقضًا.

فإذا شرطتَ على نفسك أنّ المتأخّر يدْرك ما لم يدْركه المُتقدّم، كما زعمتَ أنّك أدْركته وأوْردتَ الخلاف على مَن تقدّمك، لا تأمن أن يجيء بعْدك مَنْ يجتهد فوْق ما اجتهدتَ، فيعْلم ما قد علمتَ ويستفضل، ويدرك بفطنته واجتهاده ونظره ما لم تدْركه أنت؛ فينْقض ما حكمتَ به ويخالفك في أصْلك، كما نقضتَ على مَن تقدّمك قد أخطأ حين خالفك، وكما قد خالف بعضكم بعضًا.

وعلى هذه الشّريطة، فإنّ الفساد قائمٌ في العالم والحقّ معدومٌ أبدًا والباطل منتظمٌ، والذين خالفوك قد مضوا على الباطل والضّلال، لأنّ الخلاف باطلٌ والخطأ ضلالٌ.

ويلْزمك أيضًا على هذه الشّريطة أن تمْضي على الباطل والضّلال، إذ كان الذي يجيء بعدك يأتي بفائدة ويصيب ما لم تصبه، على قياس قولك.

– **قال:** ليس هذا باطلاً ولا ضلالاً، لأنّ كلّ واحد منهما مجتهد. فإذا اجتهد وشغل نفسه بالنّظر والبحث، فقد أخذ في طريق الحقّ؛ لأنّ الأنفس لا تصفو من كدورة هذا العالَم، ولا تتخلّص إلى ذلك العالم إلاّ بالنّظر إلى الفلسفة.

فإذا نظر فيها ناظرٌ وأدْرك منها شيئًا، ولو أقلّ قليل، صفَت نفسك من هذه الكدورة وتخلّصت.

ولو أنّ العامّة الذين قد أهلكوا أنفسهم وغفلوا عن البحث نظروا فيها أدْنى نظر، لَكان في ذلك خلاصهم من هذه الكدورة، وإن أدْركوا القليل من ذلك.

– **قلتُ:** "ألستَ أوْجبتَ أن النّظر في الفلسفة هو الوصول إلى الحقّ والخروج عن الباطل؟".

– **قال:** نعم!

– **قلتُ:** فقد زعمتَ أنّ النّاس هلكوا بالتّعادي والاختلاف.

فعلى زعمك، لا يزداد مَن ينظر في الفلسفة إلاّ هلاكًا، لأنّك قد أقررتَ أنّ للفلاسفة أقاويل مختلفة؛ وأنّ الذي تعتقده خلاف ما كان عليه مَن تقدّمك.

وألْزمتَ نفسك هذه الشّريطة: أنّ الذي يجيء بعْدك يجوز أن يخالفك ويخالف غيرك. فعلى هذه الشّريطة، يقوى سبب الهلاك في كلّ يوم، ويزداد الباطل والضّلال.

– **قال:** أنا لا أعدّ هذا باطلاً ولا ضلالاً، لأنّ مَن نظر واجْتهد هو مُحِقٌّ، وإن لم يبلغ الغاية على ما قد وصفتُه لك، ولأنّ الأنفس لا تصفو إلاّ بالنّظر والبحث.

– **[قلتُ:]** هذا هو جملة القول فقط. أمّا إذا أصررتَ على هذه الدّعوة، ورددتَ الحقّ وعاندتَ، فأخْبرني ما تقول فيمَن نظر في الفلسفة وهو معتقِدٌ للشّرائع الأنبياء: هل تصفو نفسه؟ وهل ترجو له الخلاص من كدورة هذا العالم؟

– **قال:** كيف يكون ناظرًا في الفلسفة، وهو مُعتقِدٌ لهذه الخرافات، مقيمٌ على الاختلافات، مُصِرٌّ على الجهل والتّقليد؟!

– **قلتُ:** أولَيس ادّعيتَ أنّ مَن نَظَر في الفلسفة، وإن لم يتبحّر فيها، ونظر في أقلّ قليل منها، صفَتْ نفسه؟!

– **قال:** نعم!

– **قلتُ:** فإنّ هذا الذي لم يتبحّر ونظر في القليل، قد اقْتدى بمَن تقدّمه وقلّده، ولم يحصل إلاّ على الإقتداء بالخلاف وعلى التّقليد.

فأيّ خرافات أكْثر من هذه، وأيّ تقليد فوْق هذا، وأيّ جهْل أعظم منه، وأيّ تصفية لنفس هذا؟!

وعلى ماذا حصل إلاّ على رفْض الشّرائع، والكفْر بالله وأنبيائه ورسله، والدّخول في الإلْحاد، والقول بالتّعطيل؟!

أولَيس هذا أوْلى بأن يُسمّى جاهلاً مُقلّدًا مُعتقِدًا للخرافات والاختلاف من جميع النّاس؟

– **قال:** إذا انتهى الكلام إلى هذا، فيجب أن يسكتَ!!

الفصل الثّالث

قوله: إنّ الخمسة قديمة لا قديمة غيرها

القول في الزّمان والمكان

وطالبته في مجلس آخر،

– **وقلتُ له:** أخبرني، ألستَ تزعم أنّ الخمسة قديمة لا قديم غيرها؟

– **قال:** نعم!

– **قلتُ:** فإنّا نعرف الزّمان بحركات الفلك، وبمرّ الأيّام واللّيالي، وعدد السّنين والأشهر، وانْقضاء الأوقات؛ فهذه قديمة مع الزّمان أم مُحدَثة؟

– **قال:** لا يجوز أن تكون هذه قديمة، لأنّ هذه كلّها مُقدَّرة على حركات الفلك، ومعدودة بطلوع الشّمس وغروبها؛ والفلك وما فيه مُحدَث.

وهذا قول أرسطاطاليس في الزّمان. وقد يخالفه غيره؛ وقالوا فيه أقاويل مختلفة.

وأنا أقول: إنّ الزّمان زمانٌ مُطلَقٌ، وزمانٌ محصورٌ.

فالمُطلَق هو المدّة والدّهر، وهو القديم، وهو مُتحرّك غير لابث.

والمحْصور هو الذي بحركات الفلك، وجرْي الشّمس والكواكب.

وإذا ميّزتَ هذا وتوهّمتَ حركة الدّهر، فقد توهّمتَ الزّمان المُطلَق؛ وهذا هو الأبد السّرمد. وإن توهّمتَ حركة الفلك، فقد توهّمتَ الزّمان المحصور.

– **قلتُ:** فأوجدني للزّمان المُطلَق حقيقة نتوهّمها. فإنّا إذا رفعنا حركات الفلك، ومرّ الأيّام واللّيالي، وانقضاء السّاعات عن الوهْم، ارتفع الزّمان عن الوهْم، فلا نعرف له حقيقة؛ فأوْجدني حركة الدّهر الذي ذكرتَ أنّه الزّمان المُطلَق.

– **قال:** ألاَ ترى كيف ينقضي أمر هذا العالم بمرّ الزّمان: "طفّ، طفّ، طفّ"؟ هو شيء لا ينقضي ولا يفنى. وهكذا حركة الدّهر إذا توهّمتَ الزّمان المُطلَق.

– **قلتُ:** إنّما ينقضي أمر العالم بمرّ الزّمان الذي هو بحركات الفلك، والعالم مُحدَث والفلك مُحدَث، وأنت مقرٌّ بذلك؛ والزّمان من أسباب العالَم، وهو مُحدَث معه؛ ومرّ الزّمان وانقضاؤه مع انقضاء أمْر العالَم، كما أنّ حدوثه مع حدوثه؛ ولا نعرف للزّمان حقيقة

إلاّ ما ذكرنا من حركات الفلك، والشّمس، وعدد السّنين، والأشهر، والأيّام، والسّاعات؛ فإذا رفعتَ هذه عن الوهْم ارتفع الزّمان، فلا زمان كما ذكرنا.

فإمّا أن تجعل هذه أيضًا قديمةً مع الزّمان حتّى يكثر عدد الأشياء القديمة، ويكون الفلك وما يدبّره داخلاً في هذه الجملة؛ فيكون من ذلك الرّجوع إلى القول بقدم العالم؛ أو نقرّ بأن الزّمان مُحدَث كما هذه مُحدثَة؛ أو توجدني للزّمان إنّية غير هذه، يكون واقعًا تحت الوهْم، كما أنّه الآن واقعٌ تحت الوهْم، بوقوع هذه تحت الوهْم.

وهذه الألْفاظ التي أوردتها، قولك: "طفّ، طفّ، طفّ"، هو أيضًا شيءٌ يقع عليه العدد، ولا يقع تحت الوهْم إلاّ من جهة النّطْق والعدد؛ والنّطْق والعدد مُحدَثان.

وإذا كان كذلك، فلم تورد بعدُ شيئًا حين أوردتَ هذه الألْفاظ التي يستحي العاقل من مثلها.

فهاتِ ما تكون له حقيقة، ويقع تحت الوهْم!!

– **قال:** هذا لا ينقضي القول فيه، وقد عرّفتك أنّ أرسطاطاليس كان يعْتقد ما تقول أنتَ، وقد خولف فيه. وقول أفلاطُون[1] لا يكاد يخالف ما نعتقده في الزّمان؛ وهذا عندي أصوبُ الأقوال.

– **قلتُ:** فإذا رجعتَ إلى التّقليد وإلى الاختلاف الذي أنكرتَه، واقتديتَ بأفلاطون[2] في هذا الباب وقلّدته، وتركتَ قول أرسطاطاليس وخالفتَه، فقد سلّمناه لك.

ويلْزمك أيضًا في المكان مثل ما قد لزمك في الزّمان.

– **قال:** كيف؟

– **قلتُ:** أخبِرني عن المكان، أهو مُحيط بالأقطار، أم الأقطار مُحيطة به؟

– **قال:** بل الأقطار محيطة بالمكان.

– **قلتُ:** كيف لا تُعَدّ الأقطار مع الخمسة التي زعمتَ أنّها قديمة؟ لأنّه إن كان المكان قديمًا، فقد أوجبتَ أنّ الأقطار، وهما شيءٌ واحدٌ، لا فرْق بينهما.

– **قلتُ:** كيف لا يكون الفرْق بينهما؟ وكيف يكونان شيئًا واحدًا، وقد أعطيتَني أنّ الأقطار تحيط بالمكان، والمكانَ لا يحيط بالأقطار؟!

أوَليس قد فرّقتَ بهذا القول بين المكان والأقطار؟

---

[1] في الأصل: أفلاطن.

[2] في الأصل: أفلاطن.

ولَعمري إنّ الصّواب أن تفرّق بينهما، ولكن قد اضطرّك الأمرُ إلى أن تُباهتَ وتقول: إنّهما شيءٌ واحدٌ، حين انْتقض عليك قولُك بقدم المكان دون الأقطار.

فإمّا أن تجْعل الأقطار السّتّة قديمة مع المكان، حتّى يصير عدد الأشياء القديمة أحد عشر، أو ترجع عن القول بقدم المكان.

– **قال:** قد اختلف قول الفلاسفة في الأقطار، فأنْكر بعضهم أن تكون ستّة، وقالوا في هذا أقوالاً كثيرة.

فلمّا رأيْته قد فزع إلى هذا القول يريد أن يخرج إلى كلام آخر، قلتُ: لا نبالي، اختلفوا في عددها أم اتّفقوا، زادوا أم نقصوا، قالوا إنّ أعدادها كثيرة أو قالوا هو قطْرٌ واحدٌ؛ فإنّ تلك الكثيرة أو هذا الواحد، هو مع المكان.

فإن كان المكان قديمًا، فإنّ القطْر قديمٌ؛ وإن كان القطْر مُحدَثًا، فإنّ المكان مُحْدَثٌ؛ ولا بدّ للمكان من الأقطار؛ لأنّه إن لم تكن أقطارٌ، فلا مكانٌ.

– **قال:** فإنّي أقول في المكان أيضًا: إنّه مكان مُطلَقٌ ومكان مُضافٌ. فالمكان المُطلَقُ، مثاله مثال الوِعَاء الذي يَجْمَعُ أجسامًا، وإن رُفِعت الأجسام عن الوهْم، لم يرتفع الوعاء؛ كما لو أنّا رفعْنا الفلك عن الوهْم، لم يرْتفع الشّيء الذي هو فيه عن الوهْم؛ بل هو باقٍ في الوهْم، كالدّنّ بتّة.

والمكان المُضاف إنّما هو مُضافٌ إلى المتمكّن. فإذا لم يكن المتمكّن، لم يكن مكان.

وهذا مثلُ العرَضِ الذي إذا رفعته عن الوهْم ارْتفع الجسم؛ كما أنّك إذا رفعتَ الخطَّ عن الوهْم، ارْتفع السّطح عن الوهْم.

– **قلتُ:** فإنّ السّطح من الخطّ، وليس مثالُه مثال المكان من المتمكّن؛ إنّما المثال كقولك الأوّل في الفلك.

ولكنّ الأمْر خلاف ما ذكرتَ أنّك إذا رفعتَ الفلك عن الوهْم، لم يرتفع المكان عن الوهْم؛ بل يرتفع المكان عن الوهْم بارْتفاع الفلك عن الوهْم. والذي قلتَ في باب الدّنّ والشّراب هو أيضًا مثل الخطّ والسّطح؛ لأنّ كِلاهما جسْمان، وليس مثل المكان والمتمكّن.

– **قال:** فأوْجَدْنِي للأقطار إنّية يُشار إليها!

– **قلتُ:** أجبني! هل نحن في المكان؟

– **قال:** نعم!

– **قلتُ:** فأشرْ إلى المكان الذي نحن فيه.

- **قال:** هذا الذي نحن فيه لا يدفعه أحدٌ.

- **قلتُ:** قولك إن أشرتَ إلى الأرض، قلنا: "هذه أرض ولها أقطار"؛ وإن أشرتَ إلى الهواء[1]، قلنا: "هذا هواءٌ وله أقطارٌ"؛ وإن أَشَرْتَ إلى السَّماء، قُلْنَا: "هذه سماء ولها أقطار".

- **قال:** هذه كلّها متمكّنة في المكان، والمكان ليس له جرمٌ يُشار إليه، إنّما يُعرَف بالوهْم.

- **قلتُ:** وكذلك الأقطار التي تحيط بالمكان، ليس لها[2] جُرمٌ يُشار إليه، إنّما تُدرَك بالوهْم؛ كما يُدرَك المكان بالوهْم. فإن ارتفعت الأقطار عن الوهْم، ارتفع المكان. فإذًا لا مكان ولا أقطار، وسبيلهما في الواقع تحت الوهْم سبيلٌ واحدٌ.

وهذه المسألة مثل ما جرى في باب الزّمان.

- **قال:** أجلْ لَعمري، والذي أقوله أيضًا في باب المكان هو قول أفلاطُون[3]؛ والذي تشبّثتَ فيه أنتَ هو قولُ أرسطاطاليس.

وأنا قد وضعتُ في المكان والزّمان كتابٌ. فإن أردْتَ الشّفاء في هذا الباب، فانْظرْ في ذلك الكتاب.

- **قلتُ:** لستُ أدري ما في ذلك الكتاب، ولا ما قاله أفلاطون[4] وأرسطاطاليس، فهات على ما تدّعيه بُرهانًا، ولا تُحِلْني على كتاب.

- **قال:** هو ما قد قُلتُ لَك.

ثمّ سَكَتَ.

---

1 في الأصل: الهوى.

2 في الأصل: له.

3 في الأصل: أفلاطن.

4 في الأصل: أفلاطن.

الفصل الرّابع

[في] أنّ العالم محدَث

– **قلتُ:** قد انقضى هذا.

ألستَ تزعم أنّه لا قديم إلاّ هذه الخمسة، وأنّ العالم مُحدَثٌ؟

– **قال:** نعم!

– **قلتُ:** وأيٌّ هذه الخمسة أحْدثَ العَالَم؟

– **قال:** نعم!

– **قلتُ:** تكلّم في هذا الباب؛ فإنّه أنفع، فقد كثرت المطالبة من الدّهريّةِ[1] لنا بالعلّة في حَدَثِ العَالَم.

---

[1] يعرّف محمّد الخوارزمي في كتاب *مفاتيح العلوم* (الباب الثّاني في الكلام) هذه الفرقة قائلاً: "الدّهريّة: الذين يقولون بقدم الدهر". أمّا ابن حزم الظّاهري فقد أومأ إلى مذهبهم في كتاب الأحكام في *أصول الأحكام* (الجزء الثّاني، ص583) بقوله: "الدهريّة [هم] الذين جعلوا برهانهم في إبطال الخالق، لما رأوا الأمور لا تجري على المعهود فيما يحسن في عقولهم، وأنّه لا بدّ من علّة للمفعولات، وإذ لا بدّ من علّة فلا بدّ لتلك العلّة من علّة، وهكذا أبدًا حتى يوجبوا كون أشياء لا أوائل لها". ومذهب الدّهريّة من زرفان، زروان=دهر، الذي صار، كما في الأخبار المأثورة، دينًا ظاهرًا يجاهر النّاس بالاعتراف به في عهد يزدجرد الثّاني من الدّولة السّاسانيّة (438–457 م)، هو أعظم من ذلك تأثيرًا في المفكّرين الذين لا يتّصل تفكيرهم بالدّين. في هذا المذهب أُلغيت النّظرة الاثنينيّة للكون، وذلك بأن جعل الزّمان الذي لا نهاية له هو المبدأ الأسمى، واعتبر هو عين القدر أو الفلك الأعظم أو حركة الأفلاك؛ وقد نال هذا المذهب الجديد إعجاب أهل النّظر الفلسفي، فتبوّأ مكانًا بارزًا في الأدب الفارسي وفي الآراء الشّعبيّة تحت ستار الإسلام أو من غير ستار؛ ولكنّ متكلّمي الإسلام أنكروه إنكارهم للماديّة والكفر بالله الخالق وما إليهما. ويُسمّى أصحاب الدّهر بالماديّين أو الحسّيّين أو منكري الخالق أو أهل التّناسخ أو نحو ذلك من الأسماء، ولكنّا لا نعرف عن آرائهم شيئًا أدقّ من هذا. يقول الغزالي في *المنقذ من الضّلال* عند كلامه عن أصناف الفلاسفة إنّ الدّهريّين: "طائفة من الأقدمين جحدوا الصّانع المدبّر العالم القادر، وزعموا أنّ العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النّطفة، والنّطفة من الحيوان، كذلك كان وكذلك يكون أبدًا؛ وهؤلاء هم الزّنادقة". أمّا الشّهرستاني (*الملل*، ص74 من الجزء الثّاني من طبعة القاهرة 1347 هـ. على هامش *الفصل* لابن حزم)، فهو في إحصائه لأهل الأهواء والنّحل المقابلين لأهل الدّيانات يقول عن طائفة يسمّيهم الطّبيعيّين الدّهريّين إنّهم معطّلة

– **قال:** للنّاس فيه أقاويل غير مُقنِعة، وليست عليهم حجّة أوْكد ممّا استدركتُه، ولا تثبت لأحد حجّة في ذلك دون الرّجوع إلى ما اعتقدُه.

– **قلتُ:** وما تلك الحجّة المُقنِعة؟

– **قال:** أنا أقول: إنّ الخمسة قديمة، وإنّ العالَم مُحْدَثٌ؛ والعلّة في إحداثِ العالَم أنّ النّفس اشتهت أن تتجبّل في هذا العالم، وحرّكتها الشّهوةُ لذلك، ولم تعلَم ما يلْحقها من الوبال إذا تجبّلت فيه؛ واضطربت في إحداث العالَم، وحرّكت الهيولي حركات مضطربة مُشوَّشة على غير نظام، وعجزتْ عمّا أرادتْ.

فرحمها الباري –جلّ وتعالى–، وأعانها على إحداث هذا العالم، وحملها على النّظام والاعتدال رحمة منه لها، وعلمًا أنّها إذا ذاقت وبال ما اكتسبت، عادت إلى عالمها، وسكن اضطرابها، وزالت شهْوتها واستراحت. فأُحدثت هذا العالم بمعاونة الباري لها.

لولا ذلك، لَمَا قدرت على إحداثه؛ ولولا هذه العلّة، لَمَا أُحدِث[1] العالم.

وليست لنا حجّة على الدّهريّة أوْكد من هذه. وإن لم يكن هكذا، فلا حجّة لنا عليهم بتّة بتّة، لأنّا لا نجد لإحداث العالم علّة ثبتت بحجّة ولا برهان.

– **قلتُ:** أمّا الحجج على الدّهريّة في إحداث العالم فكثيرة، ولكنّها خفيت عليك؛ لأنّ هواك فيما تدّعيه قد غلب.

وإن لم يكن على الدّهريّة حجّة في إحداث العالم إلاّ ما ذكرتَ، فقد ضعف مَن قال بحدوث العالم –ونعوذ بالله من ذلك–، لأنّ الذي تدّعيه ينْكسر عليك من وجوه كثيرة.

لا اعتقاد لهم بشيء ولا يؤمنون بالمعاد وينكرون كلّ ما وراء المحسوس، ولا يثبتون معقولاً، وإن كان يقول في موضع آخر (ص76) إنّ الطّبيعيّين الدّهريّين يقولون بالمحسوس و ينكرون المعقول، على حين أنّ الفلاسفة الدّهريّين يقولون بالمحسوس والمعقول وينكرون الحدود والأحكام، وأقدم كلام عن الدّهريّة ما يقوله الجاحظ في كتاب *الحيوان* (ج7/ص5–ص6 من طبعة القاهرة 1324 هـ.–1906 م) من أنّهم ينكرون الخالق والنّبوّات والبعث والثّواب والعقاب، ويردّون كلّ شيء إلى فعل الأفلاك، ولا يعرفون خيرًا ولا شرًّا سوى اللذّة والمنفعة.

انظر: مادّة "دهريّة" في *دائرة المعارف الإسلاميّة*؛ الشّهرستاني، *الملل والنّحل*، المجلّد الثّاني، ص3–ص4. تحقيق محسن سيّد كيلاني. دار المعرفة. بيروت. 1961.

[1] في الأصل: أحْدث.

- **قال:** ومن أين ينْكسر عليّ؟

- **قلتُ:** أخبرني! ألستَ تزعم أنّ النّفس اشتهتْ أن تتجبّل في هذا العالم، فاضطربتْ في إحداثه، على ما حكيتَ من القول، فأعانها الباري رحمة منه لها؟

- **قال:** نعم!

- **قلتُ:** فهل علِمَ الباري أن يلْحقها في ذلك الوبال إن تجبّلت فيه؟

- **قال:** نعم!

- **قلتُ:** أليس لو لم يعاونها على إحداث هذا العالم ومنعها من التّجبّل فيه، كان أوْلى بالرّحمة لها من أن أعانها وأوْقعها في هذا الوبال العظيم على زعمك؟

- **قال:** لم يقدر على منْعه من ذلك.

- **قلتُ:** قد ألزمْتَ الباري العجْز!

- **قال:** لم أُلزمه العجْز!

- **قلتُ:** ألستَ تزعم أنّه لم يقدر على منْعها؟ فقولك: "لم يقدر" أليس هو عجزًا؟

- **قال:** لم أعْنِ أنّه لم يقدر، لأنّه عجز عن منْعِها؛ ولكنّي أضْرب لك مثلاً تعرف منه صواب ما أوردتُه.

إنّما المثل في هذا كمثل رجل له ولد صغير يحبّه ويرْحمه ويشْفق عليه ويمْنع منه الآفات، فتطلّع ولده هذا في بستان، فرأى ما فيه من الزّهر والغضارة، وفي البستان شوك كثير وهوامّ تلسع، والصّبيّ لا يعرف ما فيه من الآفات، إنّما يرى الزّهر والغضارة؛ فتحرّكه الشّهوة وتنازعه نفسه إلى الدّخول إلى هذا البستان، ووالده يمنعه لعلْمه بما في البستان من الآفات، وهو يبكي وينزع إلى ذلك جهلاً منه بما يلْحقه من الوبال من جهة الشّوك والهوّام.

فيرْحمه والده، وهو يقْدر على منْعه من الدّخول؛ ولكن يعلم أنّه لا ينتهي، وتزول شهْوته، وتتريّح نفسه؛ فيخلّيه حتّى يدخله. فإذا دخله لسعتْه عقربٌ، فرجع ثمّ لم تنازعه نفْسه بعد ذلك إلى العوْد إليه، واستراح.

فهكذا مثال النّفس مع الباري -جلّ وتعالى-، وهذا معنى قولي: "لم يقْدر على منعها"، ولم أُلزمه العجز.

- **قلتُ:** وهذا أيضًا منكسرٌ من جهات.

- **قال:** كيف؟

- **قلتُ:** أليس تقول إنّ الباري -جلّ وعزّ- تامّ القدرة؟

- **قال:** نعم!

- **قلتُ:** فكيف لم يُعْرِف النّفس ما ينالها من الوبال إذا تجبّلت في هذا العالم قبل أن تتجبّل فيه، وهو قادرٌ تامّ القدرة؟

فإنّ ذلك أتمّ في الحكمة وأبلغُ في الرّحمة من أن ألْقاها في هذا الوبال الطّويل هذا الدّهر المديد.

فإن زعمتَ أنّه لم يقْدر أنّ يُعَرِفْها إلاّ بعد تجبّلها في هذا العالم، فقد عجّزته؛ لأنّ المخلوق أيضًا لا يقدر أن يعرّف الصّبي إلاّ بعْد دخوله البستان؛ فإذًا قد استوى الخالق والمخلوق في القدرة؛ وهذا هو العجْز التامّ -جلّ الله وتعالى عن ذلك-.

وإن زعمتَ أنّه قدر ولم يفعل، فقد أدخلتَ النّقص في رحمته وحكْمته -عزّ الله عن ذلك-.

وينْكسر أيضًا من جهات أُخر: ألستَ تزعم أنّ النّفس كانت جاهلة بما يلحقها من الوبال إذا تجبّلت في هذا العالم، وضربتَ المثل بالصّبيّ والبستان؟

- **قال:** نعم!

- **قلتُ:** فقد وجدْنا البستان مع وجود الصّبيّ ينظر إليه وتحرّكه الشّهوة الغريزيّة للدّخول إليه، فهل كان العالم موجودًا مع النّفس حتّى تطلّعت فيه وحرّكتها الشّهوة للتجبّل فيه؟

فإن زعمتَ أنّ العالم كان موجودًا مع النّفس، فقد رجعتَ عن القول بحدث العالم؛ لأنّك زعمتَ أنّه موجود مع النّفس؛ والنّفس عندك أزليّة قديمة.

وإن زعمتَ أنّ العالم كان معدومًا، فمن أين عرفتَ النّفس جاهلة بما نالها من الوبال في ذلك؛ فهي بأن تجهل عالمًا ليس بموجود أولى.

وإن زعمتَ أنّها علمت أنّ عالمًا يكون على هذا المثال قبل أن كان، فقد قضيتَ عن النّفس بالعلْم.

فكيف يجوز أن تعلم أنّ عالمًا يكون بهذه الصّفة، ولم تَعْلَم ما يلْحقها من الوبال لمّا تجبّلت فيه؟

وإن زعمتَ أنّ العالم ليس بقديم مع النّفس، وأنّه أُحدِثَ العالَم، ثمّ تطلّعت النّفسُ فيه، فقد نقضتَ قولك: إنّ علّة إحداث العالم أنّ النّفس اضطربتْ وحرّكتها الشّهوة للتّجَبّل في هذا العالم، فأعانها الباري حتّى أحدثتْه.

وفي وجْه آخر: أخبرني عن هذه الحركة التي بعثت شهْوة النّفس على التّجبّل في هذا العالم: أهي غريزيّة، أم قسْريّة؟

فإن ادّعيتَ أنّها غريزيّة، فقد لزمك أن تقول إنّ هذه الحركة والشّهوة قديمتان مع النّفس.

وإذا كان كذلك، فيجب أن يكون سبعة أشياء قديمة، لأنّ الحركة والشّهوة قديمتان.

ويلْزمك أيضًا أن يكون العالم قديمًا معها، لأنّه إذا كانت علّة تجبّلها في العالم الحركة والشّهوة، وهما قديمتان؛ فالعالم إذًا قديمٌ مع علّته.

وإن زعمتَ أنّ الحركة التي بعثت الشّهوة مُحدَثة غير طبيعيّة، فلا بدّ أن تكون قسريّة، ولا بدّ من قاسِر قسَرها. ولا يجوز أن يكون شيء قسَرها إلاّ الباري –جلّ وتعالى–؛ إلاّ أن تجعل القاسِر لها الهيولي أو المكان أو الزّمان؟ وهذا خُلْفٌ غير ممكن.

– **قال:** فإنّي أقول إنّ هذه الحركة ليْست طبيعيّة، ولا هي قسريّة.

– **قلتُ:** فإنّ الفلاسفة اتّفقوا على أنّ الحركة حركتان: طبيعيّة وقسريّة؛ ولا ثالثة لهما.

– **قال:** صدقتَ، هذا قول القدماء. ولكنّي قد استدركتُ في هذا شيئًا لطيفًا، واستخرجتُ منه ما لم يسبقني إليه أحدٌ غيري. وأنا أقول: إنّ الحركات ثلاث: طبيعيّة، وقسريّة، وفلتيّة.

– **قلتُ:** فهذه الثّالثة لم نسْمع بها ولا نعْرفها، فعرّفناها كيف تكون؟

– **قال:** أنا أضْرب لك مثلاً يتصوّر لك وتعرف وجْه الصّواب فيه.

وجرتْ هذه المناظرة بيْني وبيْنه في دار بعض الرّؤساء، وكان ذلك الرّئيس قاعدًا مع قاضي البلد يتناظران في أمْر بينهما، وهما بحيْث نراهما؛ وحضر هذا المجلس معنا المعروف بأبي بكر خِتن التّمار المتطبّب.

فقال المُلحِد في باب المثل الذي أراد أن يثبت به الحركة الفَلْتِيَّةَ التي أبدعها: "هل تَرى هذا القاضي قاعدًا مع الأمير؟".

– **قلتُ:** نعم!

- **قال:** أرأيتَ لو أنّه تناول طعامًا رياحيًّا، فتحرّكت الرّياح في جوْفه واشتدّت، وهو يمْسكها ويضبْط نفسه، وهو لا يرسلها حذرًا من أن يتأذّى الأمير بنتْنها، أو حذرًا من أن يكون لها وقع، فيفتضح؛ ثمّ تغلبه الرّياح، فتفلتُ منه؛ فليست هذه الحركة طبيعيّة ولا قسريّة، بل هي فلْتيّة.

- **قلتُ:** ألستَ تزعم أنّ علّة هذه الرّياح التي انفلتت من القاضي هي الطّعام الذي تناوله؟

- **قال:** نعم!

- **قلتُ:** فيجب إذًا أن تكون لهذه الحركة الفلْتيّة التي تزعم أنّها حرّكت شهوة النّفس علّة قد تقدّمت الحركة حتّى أحدثتها في النّفس، كما أنّ الطّعام علّة لهذه الرّياح.

وإذا كانت هنالك علّة قد تقدّمت، فلا بدّ أن تكون قديمة مع النّفس، أو أحْدثها مُحْدِثٌ. فإن كانت قديمة معها، فهي طبيعيّة. ويجب أن تكون النّفس أبدًا مُتحرّكة بهذه الحركة، لأنّ الطّبع لا يفْتُرُ عن عمله؛ ويجب أيضًا أن تعدّها مع هذه الخمسة التي تزْعم أنّها قديمة. وإن كانت الحركة مُحدثة، فهي قسريّة. فمَن ذا الذي أحدثها، وقسَر النّفس عليها؟

فلمّا انتهى الكلام إلى هاهنا، ضحك خِتن التّمار شامتًا به، وكان يحْضر هذه المناظرات، فيظهر الشّماتة به إذا انْكسر، لِمَا كان بينهما من الخلاف في قِدَم العالم وحدثه.

فلمّا ضحك متعجّبًا لِمَا أورده، خجل المُلْحِد من ضحكه، وأقْبل عليه وقال له: "وأيّ مقدار للدّهريّ حتّى يستهزئ ويضْحك ويسيءَ أدبه! دعْ عنك الضّحك، وتكلّم على مذْهبك من القول بالدّهر وقِدَم العالم، لأعرّفك مقدارك".

قال له خِتن التّمار: "الآن، بعد أن افتضحتَ وانكسرتَ ولم يُقْنِعكَ، حتّى ضَرَّطْتَ القاضي وفضحْته عند الأمير وأوردْتَ هَذا السُّخْفَ وهذه الحجّة الباردة، أقبلتَ تسْفه عليّ وتسْتريح إلى مخاصمتي! دَعْني ومذهبي، وأجبْ الرّجل؛ فليس هذا ممّا يعنيك ويخلّصك من هذه الفضائح والدّعاوى الباطلة التي تُمَخْرِقُ بها على النّاس".

وبقيَا ساعة في نحو هذا التّشاتم، وانْقطع الكلام.

وإنّما ذكرتُ هذه الحكايات لتعرف -رحمك الله- ما كان عليه المُلحِد من الاعتقاد الضّعيف والرّأي السّخيف؛ ثمّ يصنّف بعقله المدخولِ ورأيه المأفون كلامًا في إبطال النُّبُوّة، ويورد ذلك الهَذَرَ الذي في كتابه الذي صنّفه في هذا الباب.

وأنا أذْكر نكتًا أحتجّ بها وأدُلُّ على فساد قوله، وأقول في إثبات النّبوّة، وتقوية أمْر الأنبياء والرّسل -عليهم[1] السّلام-، والدّلائل الواضحة على نبوّتهم، ما يمحق الله به دعاوى المُلحِدين الكفرة الضّالّين الفجرة؛ وإن كان الله -عزّ وجلّ- قد أوْهن كيدهم، وأعزّ دينه ونصر أولياءه، وأهان أعداءَه وأعداء دينه؛ وأذكر من معجزات محمّد -صلّى الله عليه وآله-، القائمة في العالم، ما لا يقدر ملْحدٌ على دفْعه، ولا كافرٌ على نقْضه، بحوْل الله وقوّته- عزّ جاره- وبحسْن نظر أوليائه.

وبالله نستعين، وعليه نتوكّل؛ وهو حسبنا ونِعْم الوكيل.

وممّا ذكر المُلْحِد في كتابه المسألة التي ذكرْنا في صدْر كتابنا هذا أنّا ناظرناه عليها، وذكرنا في جوابها ما فيه مقنع لمَن أنصف -إن شاء الله-.

[1] في الأصل: عليه.

الباب الثّاني

الفصل الأوّل

وممّا ذكر أيضًا في كتابه واحتجّ به

- **قال:** إنّ أهل الشّرائع أخذوا الدّين عن رؤسائهم بالتّقليد؛ ودفعوا النّظر والبحث عن الأصول، وشدّدوا فيه، ونهوا عنه؛ ورووا عن رؤسائهم أخبارًا توجب عليهم ترك النّظر ديانةً، وتوجب الكفر على مَن خالف الأخبار التي روَوها.

من ذلك: ما رووه عن أسْلافهم: أنّ الجدل في الدّين والمراء فيه كفرٌ؛ ومَن عرّض دينه للقياس لم يزل الدّهر في الْتباس؛ ولا تتفكّروا في الله وتفكّروا في خلْقه؛ والقدر سرّ الله، فلا تخوضوا فيه؛ وإيّاكم والتّعمّق، فإنّ مَن كان قبلكم هلك بالتّعمّق.

وذكر نحْو هذا، ثمّ قال: إن سُئل أهل هذه الدّعوة عن الدّليل على صحّة دعواهم، استطاروا وغضبوا، وهدروا دم مَن يطالبهم بذلك، ونهوْا عن النّظر، وحرّضوا على قتل مخالفيهم.

فمِن أجْل ذلك، انْدفن الحقّ أشدّ انْدفان، وانْكتَم[1] أشدّ انْكِتام.

- **وقال المُلحِد:** وإنّما أتوا في هذا الباب من قوْل الإلْف لمذهبهم، ومرّ الأيّام والعادة، واغترارهم بلح التيوس المتصدّرين في المجالس يمزّقون حلوقهم بالأكاذيب، والخرافات، وحدّثنا فلان عن فلان بالزّور والبهتان، وبرواياتهم الأخبار المتناقضة؛ من ذلك: آثار توجب خلق القرآن وأخرى تنفي ذلك، وأخْبار في تقديم عليّ[2] وأخرى في تقديم غيره، وآثار تنفي القدر وأخرى تنفي الإجبار، وآثار في التّشبيه؛ ذكرها المُلحِد وكرهنا تطويل الكتاب بها.

---

[1] في الأصل: انكنتم.

[2] واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هامش بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى. وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لمّا قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.

حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

- **وقال المُلحِد:** إنّما غرّهم طول لِحَى التّيوس، وبياض ثياب المجتمعين حولهم: الضّعفاء من الرّجال والنّساء والصّبيان، وطول المدّة، حتّى صار طبعًا وعادة.

هذا كلام المُلحد واحتجاجه في هذا الباب.

- **جوابه:** أمّا قوله: "إنّ أهل الشّرائع أخذوا الدّين عن رؤسائهم بالتّقليد، ودفعوا البحث عن الأصول والنّظر، وشدّدوا فيه ونَهَوا عنه"، فقد ذكرنا في صدر كتابنا ما فيه جوابُ قوله في باب التّقليد والنّظر؛ ولكنّا نعيد القول به، إذ كان هذا موضعه.

ونقول: إنّه وغيره ممَّن يدّعي الفلسفة، قد أوْجبوا التّقليد على أتباعهم فيما يدقُّ من علومهم، وأجازوا التّسليم لرؤسائهم فيما لا تبلغه عقولهم؛ على ما ادّعاه المُلحِد من أنّ مَن نظر في شيء مكمن الفلسفة، تخلّصت نفسه من كدورة هذا العالم، وإن لم يبلغ الغاية فيها.

أوَ ليست هذه رخصة في ترك النّظر فيما يدقُّ، والتّسليم والرّضى بمقدار ما يلحق؟ أوَليس قد أوْجب التّقليد فيما لا يبْلغه عقْله؟

فكيْف يجيز ذلك لأتباعه، وينكر على أهل الشّرائع أن ينهوا أتباعهم عن النّظر فيما تعجز عنه عقولهم، وأن يسلّموا لعلمائهم إذا عرفوا طريقَ الحقّ، وأن يقلّدوهم ما ليس في وسعهم أن يلحقوه؟!

ونقول: إنّ أهل الحقّ والعدل لا يجيزون التّقليد في الأصول، مثل: معرفة التّوحيد، وأمر النّبوّة، وإثبات الإمامة؛ هذا ما لا يجوز قبوله بالتّقليد. فإذا ثبت التّوحيد، وصحّ أمر النّبوّة، وثبت أمْر الإمامة، بعد ذلك يجوز التّقليد للإمام الحقّ العادل العالِم.

وليْس في جبلّة البشر أن يبلغوا الغاية من العِلم، إذ كان فوق كلّ ذي عِلْم عليمٌ. وإن سقَط التّقليد بعد معرفة هذه الأصول، كما ذكرنا، وكُلّف النّاس كلّهم أن يبلغوا الغاية، فقد كُلِّفوا ما لا يطيقون؛ والله -عزّ وجلّ- أعْدل وأرْحم بعباده من ذلك، ولا يُكلّفُ نفسًا إلاّ وسْعها.

الفصل الثّاني
عوْدٌ إلى البحث والنّظر

وأمّا ما ذكر في باب البحث والنّظر، فإنّ أهل الشّرائع كافّة لا يدفعون ذلك؛ ولا توجب الشّرائع ترْك البحْث والنّظر.

وإن كان قومٌ من ضعفاء أهل المِلَلِ يدفعون لضعْفهم، ويخفَى عليهم وجْه الصّواب فيه، فليس ذلك بحجّة للمُلحِد على كافّة أهل الشّرائع.

وتحقيق ذلك في القرآن العظيم: قال الله -أصدق القائلين-: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ الله وَأُولَئِكَ هُم أُولو الأَلْبَابِ﴾[1].

وأمَر النّبيّ أن يدعو[2] اليهود[3] إلى النّظر، فقال: ﴿تَعَالوا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إلاّ نَعْبُدُ إلاّ الله ولاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا أَرْبَابًا مِنْ دُون الله﴾[4].

ودعاهم إلى النّظر في التّوراة، وما يوجبه حكم التّوْراة فيما أنكروه عليه وخالفوه فيه، في أشياء أحلّت لهم وحُرّمت عليهم، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بالتّوراة فَاتلوها إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[5].

فهذه الآيات تدلّ على أنّ الله -جلّ وتعالى- أمَر بالنّظر، وأمَر بالاستماع من المخْتلفين، والنّظر فيه، واتّباع ما هو أحْسن وأوْلى وأحقّ وأوْجب؛ وعلى هذا أهل المعرفة وذووا الألباب من أصحاب الشّرائع.

---

[1] سورة الزّمر (39)، الآية 18.

[2] في الأصل: يدعوا.

[3] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص210 إلى ص219): "هاد الرّجل: أي رجع وتاب. وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى -عليه السّلام-: "إنّا هدنا إليك": أي رجعنا وتضرّعنا. وهم أمّة موسى -عليه السّلام- وكتابهم التّوراة، وهو أوّل كتاب نزل من السّماء... واليهود تدّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى -عليه السّلام- وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة إلاّ حدود عقليّة وأحكام مصلحيّة... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرّجعة واستحالتها... وأشهر فرق اليهود هي: العنانيّة، العيسويّة، المقاربة واليوذعانيّة، السّامرة".

[4] سورة آل عمران (3)، الآية 64.

[5] سورة آل عمران (3)، الآية 93.

وليستْ للمُلحِد حجّة عليهم بما يفعله ضعفاء الأمّة، ومَن لا معرفة له مستحكِمة، ومَنْ هو مِنْ عوامّ النّاس.

فأمّا الخبَر الذي احتجّ به وعاب على رو ّاته، وزعم أنّه يوجب ترك النّظر، قوله: "الجدلُ في الدّين والمِراء فيه كفر"، فإنّه صحيحٌ؛ ولكن ليس الجدَل معناه: النّظر، وإنّما معنى الجَدل: الخصومة والتّنازع.

وأُخِذَ الجَدلُ من الجَدَالَةِ في[1] الأرض: كأنّ المجادليْن، هما أحدهما يخاصم صاحبه وينازعه حتّى يلقيه إلى الأرض ويستعلي عليه.

فإذا كان الأمْر على هذا، فليْس ذلك بنظر، بل هو جَدَلٌ وخصومة، وهو كفرٌ في الدّين؛ لأنّه عن طريق المغالبة، والمُعاداة، وترْك الإنْصاف.

والمُجادِلُ، على هذه الجهة، هو تاركٌ لِمَا أُمِرَ به مِنَ النّظر على أحْسن الوجوه بالإنْصاف والعدْل؛ وهو الجَدَلُ الذي نُهينا عنه، ورُوِيَ فيه أنّه كفرٌ، لأنّه كما ذكرنا مُغالَبة ومُكابَرة واستعلاء.

وقد نهَى الله عن الجدَل وأمَر بالنّظر على أحْسن الوجوه، فقال -جلّ ذكره-: ﴿ولاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاّ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

ألاَ تراه قد نَهى عن الجَدل على وجْه المغالبة والاستعلاء والمُكابرة ودفْع الحقّ، وأطْلَق فيه على أحْسن الوجوه، واستثْنى، فقال: ﴿إلاّ بالّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3]؟. وقال في آية أخرى: ﴿أدْعُ إلى سبيل رَبِّكَ بِالحِكمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4].

فقد نُهينا عن الجدَل، والخصومة، والمِرَاء؛ وإذا كان على سبيل التّنازع، والمكابرة، وترك الإنْصاف، ودفْع الحقّ؛ فهذا هو الكفْر.

فأمّا إذا ترك المناظرُ الخصومةَ والتّنازُعَ ودفْع الحقّ، فالنّظر مُطلَقٌ له، بل هو أمرٌ من الله، على حسب ما ذكرنا.

والمِراء أيضًا معْناه: الخصومة والتّنازع.

---

[1] في الأصل: هي.

[2] سورة العنكبوت (29)، الآية 46.

[3] سورة العنكبوت (29)، الآية 46.

[4] سورة النّحل (16)، الآية 125.

وقال بعض أهل اللّغة: المراء هو الجُحود، واحتجّ بقول الشّاعر:

لئِنْ هَجَرْتَ أخا صِدْقٍ ومَكْرُمَةٍ لقد مَرَيْتَ أخًا ما كان يَمريكا

قال: يمريك، معْناه: يجْحدك.

فالجُحود في الدّين هو كفرٌ، لأنّه استعلاءٌ، وظلمٌ، وردٌّ للحقّ على معرفة ويقين؛ كما قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿وَجَحَدوا بها واستَيْقَنَتْهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وعلُوًّا﴾[1].

فهذا معْنى الحديث؛ ولكنّ المُلحِد خَفِيَ عليه معناه، لقلّة معرفته بلغة العرب؛ فقدّر أنّ المُرادَ بالمراء والجدل هو النّظر والإنْصاف، واحتجّ بما لا حجّة له فيه.

وأمّا احْتجاجه بالحديث: "لا تتفكّروا في الله وتفكّروا في خلْقه"، فهو أيضًا خبرٌ صحيحٌ؛ ولكن ليس هو ممّا يَنهَى عن النّظر؛ إنّما نُهينا عن أن ننظر في كيفيّة الخالق، وأن نقدّر أنّا نبلغ الغاية فيه.

وأُمرْنا أن نعلم أنّ أحدًا مِنَ الخلائق لا يبلغ نعته، وأنّ الحواسَّ لا تحيط به، وأنّ الأوْهام والصّفات تقْصر عنه.

فنُهينا عن أن ننظر في كيفيّته، وأُمرْنا أن ننظر في خلْقه، ونعتبر به، ونعرّف إلهيّته ورُبوبيّته وتوحيده بخلْقه، ونستدلّ عليه بصنْعه؛ فإنّ في ما خَلقَ مِنْ سماواته وأرضه وما بينهما من عجائب الصّنع، ما يدلّ على إنّيته ووحدانيّته؛ وفي ذلك عبرة للمعتبرين، ودليل للمتفكّرين[2].

وبهذا أمَر –جلّ ذكره– في القرآن العظيم، فقال: ﴿إنّ في خَلْقِ السّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولي الأَلْبَاب الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيامًا وقعُودًا وعلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُون في خَلْقِ السّمَواتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارْ﴾[3]؛ وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَ رَوَاسِيَ﴾[4] إلى قوله:

---

[1] سورة النّمل (27)، الآية 14.

[2] في الأصل: للمتكفرين.

[3] سورة آل عمران (3)، الآية 191.

[4] سورة فصلت (41)، الآية 10.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]؛ وقال في آية أخرى: ﴿وَالخَيْلَ والبِغَالَ والحمير لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً﴾[2] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

فهذه الآيات وما أشبهها كثيرة في القرآن، هي كلّها تدلّ على أنّا قد أُمرنا أن نتفكّر في خلْق الله، ونعتبر بما فيه من عجائب الصّنع والتّدبير، ونستدلّ بذلك عليه -جلّ وتعالى-؛ إِذْ كُنَّا لاَ نَلْحَقُ كَيْفِيَّتَهُ ولا نحيطُ به. ومَن تفكّر فيه دون خلْقهِ تحيّر وذهل عقْله، ولم يدرك كيفيّته ولم يحط به، لأنّه -عزّ وتعالى- جلّ عن أن يحيط به مخلوقٌ؛ لأنّه إذا أحاط المخلوق بالخالق، فالمخلوق أعْلى من الخالق -تعالى الله عن ذلك-؛ بل المخلوق يعجز عن الإحاطة بالخالق، والخالق يحيط بخلْقه كلّه؛ لا يعْزب عنه مثقالُ ذرّة في الأرض ولا في السّماء.

وإنّما نُهينا عن التّفكّر في الله، وأُمرنا بالتّفَكُّر في خَلْقِهِ لهذه العلّة؛ ومن خالف ذلك هلك.

وهذا هو الحقُّ الوَاضِحُ. وليس للمُلحِد في ردّه حجّة، ولا له إلى ذلك سبيل.

وليْس هذا الحديث ممّا يردّ النّظر وينهَى عنه؛ بل فيه: النّهي عن النّظر في كيفيّة الخالق، والتّفكّر في ذاته، والأمْر بالتَّفَكُّرْ في خَلْقِهِ والاعْتبار به والاسْتدْلال بذلك على إنّيته وكيفيّته. وأيّ حجّة للمُلحِد في هذا حين أنْكره على رُوّاته؟!

وأمّا الخبَر، قوله: "القَدَرُ سرُّ الله، فلا تخوضوا فِيهِ"، وما ادّعى مِنَ الأخبار التي ذكر أنّها تنفي القدَرَ، وأخرى تنفي الإجبار، فإنّها كلّها صحيحة.

ومَن الذي نظر في القَدَرِ، فبلغ الغاية فيه، حتّى قطع حجّة خصْمه؟ ومَن الذي أثبت القدر، أو مَنْ الذي أثبت الإجبار، مع كثرة نظر النّاس فيه ومجاذبتهم؟ وهل حصلوا إلاّ على الوسْواس، والهَذَيَانِ، ونقْض بعضهم على بعض؟

هذا ممّا يدلّ على أنّ الأخبار التي تنفي القَدَر هي صحيحة؛ وكذلك التي تنْفي الإجبار هي صحيحة.

---

[1] سورة الجاثية (45)، الآية 13.

[2] سورة النّحل (16)، الآية 8.

[3] سورة الجاثية (45)، الآية 13.

وأهل النّظر في ذلك -أعني: القَدَر- على ثلاث طبقات:

- قوم أوْجبوا الإجبار، وادّعوا أنّ أفعالَ العباد مخلوقة وأنّها بقدرٍ، وأنّ العباد مُجْبرون على أفعالهم. فهؤلاء أوْجَبوا أنّهم أطاعوا الله وعصوه مُكْرَهينَ؛ فألْزموا الباريَ الجورَ، وأوْجبوا أنّ الله أجبَرَ خلْقه على المعاصي، ثمّ يعاقبهم عليها -عزّ الله عن ذلك-.

- والطّائفة الأخرى قالوا: إنّ أفعال العباد ليست بمخلوقة، وإنّه ليس لله فيها مشيئة، ولا إرادة، ولا تقدير. فأوْجبوا أن العباد يقْدِرونَ على فِعْل ما لا يريده الله ولا يُقدّره، وأنّهم عصوه وأطاعوه غالبين؛ فأشْركوا أنفسهم مع الله في سلْطانه؛ إذ كانوا يقدرون على ما لا يقدر الله ولا يريده؛ وسقطوا عن حكم التّنزيل؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ-، يقول: ﴿إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1]، وأفْعال العباد هي شيء داخلٌ في الكلّ الذي ذكره الله أنّه خلَقه بقدر -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا-.

- وقوْم عرفوا الحقّ والعدْل، فنفوا القدر والإجبار، وصحّحوا الأخبار التي أنكرها المُلْحِد، وزعم أنّها متناقضة، وزعم أنّ منها ما ينفي القدر ومنها ما ينفي الإجبار، جهلاً منه بهذه المنزلة الثّالثة.

وأهْل الحقّ والعدل اقْتدوا في ذلك بالصّادقين من آل الرّسول -عليه وعليهم السّلام- الذين هم ورثة علم رسول الله، وصحّحوا هذه الأخبار كلّها التي تنْفي القدر والإجْبار، وقالوا: "لا إجبار ولا تفويض"؛ كما قال الصّادق جعفر بن محمّد[2] -عليه السّلام-، حين سُئل، فقيل له: "يا ابن رسول الله، النّاس مُجبَرون؟". قال: "الله أعْدل من أن يجْبر خلْقه على المعاصي، ثمّ يعاقبهم عليها". قيل: "فمُفوّضٌ إليهم؟". قال: "هو أعزّ من أن يكون

---

[1] سورة القمر (54)، الآية 49.

[2] جعفر بن محمّد الصّادق، أبو عبد الله، ولد يوم 17 ربيع الأول 80 هـ في المدينة المنورة وتوفّي فيها سنة 148 هـ، إمام وعالم جليل وعابد فاضل من ذرية الحسين بن علي بن أبي طالب وله مكانة جليلة عظيمة لدى جميع المسلمين. لقب بالصادق لأنّه لم يعرف عنه الكذب ويعتبر الإمام السّادس لدى الشيعة الإمامية (الإثنا عشريّة) والإسماعيليّة وباقي الإماميّة وإليه انتشار مدرستهم الفقهية. ولذلك تسمّى الشّيعة الإماميّة بالجعفريّة أيضًا، بينما يرى أهل السنة والجماعة أنّ علم الإمام جعفر ومدرسته أساس لكل طوائف المسلمين دون القول بإمامته من الله، وروى عنه كثير من كتاب الحديث السنّة والشّيعة على حد سواء، وقد ستطاع أن يؤسّس في عصره مدرسة فقهية وتتلمذ على يده العديد من العلماء. ويُقال إنّه من أوائل الروّاد في علم الكيمياء حيث تتلمذ على يديه أبو الكيمياء جابر بن حيان.

لأحد في مُلكه سلطان". قالوا: "فكيف هو؟". قال: "هُوَ أمْرٌ بَيْنَ أمْرَيْن، لا إجبارٌ ولا تفْويضٌ".

فهذا هو سرّ الله الذي مَن ترك القول بالعدْل والحقّ فيه، وسلك فيه برأيه وقياسه، هلك؛ وهو سرّ الله الذي أطْلَعَ عليه أنبياءه وأولياءه؛ ولا يُوصَل إلى معرفته إلاّ بتوقيف منهم. وكذلك كلّ أمر مُلتبِس في الدّين لا يلْحق إلاّ بتوقيف منهم.

ومَن لم يرجع في ذلك إلى الأصل يأخذه عنهم، وقال في ذلك برأيه وقياسه، لم يزل الدّهرَ في الْتباس؛ على نحو ما رُوِيَ في الحديث الذي عاب به المُلحِد، وذكر أنّ هذا الحديث ينهى عن النّظر.

وقد ذكرْنا في باب النّظر ما فيه كفاية لِمَن أنْصف.

وإنّما هذا الحديث ينهى عن الخوْض فيما ليس في وسْع المخلوقين أن يدركوه برأيهم وقياسهم، ولا يعرفونه إلاّ بتوقيف من العلماء البرَرة كما ذكرنا، الذين هم قادة الأنام.

ومَن قاس برأيه في مثل هذه الغوامض، على غير أصلٍ من أصولهم، وابتدع بقياسه ما يعقد به الرّياسة، لا يزال الدّهرَ في الْتباس؛ وهذا هو القياس المَنْهِيُّ عنه.

الفصل الثّالث

البحْث في التّعمّق

وأمّا قوله: "إيّاكم والتّعمّق! فإنّ مَن كان قبلكم هلك بالتّعمق"، فليس في هذا أيضًا نهْيٌ عن النّظر، إنّما هو نهيٌ عن التّعمّق في الدّين ترك القصد؛ وهو الغُلوّ في الدّين، وابْتداع أشياء لم يؤمَروا بها في باب العبادة، والتّشديد في ذلك، وترْك القصد في الاجتهاد، والأخْذ بالتّعسير فيه.

فالمُتعمّق يغلو[1] ويزعم أنّه مجتهدٌ في الدّين، يتكلّف ما لم يكلّفه الله؛ كما فعَل الخوارج[2] في هذه الأمّة، حتّى ابتدعوا تلك الآراء، وخالفوا الأئمّة، وغَلوا في الدّين، وتعمّقوا في العبادة، من غير جهة السّنّة التي سنّها الله -عزّ وجلّ-، وأمرهم بها.

وقد جاءت فيهم أخبار بصحّة ما قلنا؛ كما رُوي أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- نظر إلى رجل ساجد في المسجد، حتّى فرغ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- من صلاته، فقال -صلّى الله عليه وسلّم-: "مِنْ رَجُلٍ يَقْتُلُهُ؟"، فقام أبو بكر[3] ومشى إليه ليقتله،

---

[1] في الأصل: يغلوا.

[2] يعرّف الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (طبعة كيلاني، ج1/ص114) الخوارج تعريفًا عامًّا بقوله: "كلّ مَن خرج على الإمام الحقّ الذي اتّفقت الجماعة عليه يُسمّى خارجيًّا، سواء كان الخروج في أيّام الصّحابة على الأئمّة الرّاشدين أو كان بعدهم على التّابعين بإحسان والأئمّة في كلّ زمان". يعني هذا أنّ هذا الاصطلاح منشؤه سياسيّ، وقد ورد في الحديث الشّريف: "مَن خرج من الطّاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهليّة"، رواه مسلم وأحمد والنّسائي عن أبي هريرة. والذي يظهر أنّه اصطلاح أُطلق عليهم من قِبَل أهل السنّة، ويخصّون به الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- في معركة صفّين وبعد التّحكيم المعروف. إلاّ أنّه صار علما على فرقة معيّنة لها آراء سياسيّة في الخلافة، من أهمّها: إنكار شرط القرشيّة، وآراء أخرى في عليّ ومعاوية والصّحابة، وآراء سياسيّة وفقهيّة في مرتكب الكبيرة".

[3] هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة -و اسمه عثمان- بن عامر، من ولد تيم ابن مرّة -تيم قريش-. كان اسمه في الجاهليّة عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- عبد الله، ولقبه عتيق، لُقّب به لجمال وجهه -رضي الله عنه-، وسمّي صدّيقًا لتصديقه خبر المسرى. وأمّه سلمى وتكنى أمّ الخير بنت صخر، وهي بنت عمّ أبيه. بويع له يوم الاثنين الذي توفّي فيه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-،

ثمّ انْصرف وقال: "يا رسول الله، كيف أقتل رجلاً ساجدًا لله؟!"؛ فقال: "مِنْ رَجُلٍ يَقْتُلُهُ؟"، فقام عمر[1] ومشَى إليه ليقْتله، ثمّ انْصرف وقال: "يا رسول الله كيف أقْتل رجلاً ساجدًا لله؟!"؛ فقال: "مِنْ رَجُلٍ يَقْتُلُهُ؟"، فقام عليّ -رضي الله عنه- ومشى إليه ليقتله، فوجده قد ذهب.

وفي الحديث زيادة، ولرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- فيه قولٌ؛ وإنّمَا أَمَرَ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- بقتْله، لأنّه ترك القصْد وابْتدع ما لمْ يفترضْه الله -جلّ ذكره-، ولا أمر به رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- من التّعمّق في العبادة.

ثمّ قيل إنّه كان أحد الخوارج الذين قال فيهم النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: "يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ". وقال: "يمْرقون مِنَ الدّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمْيَةِ"؛ والمروق هو أن يصيب السّهم الرّميّةَ، ثمّ ينْفذ إلى الجانب الآخر؛ فهذا هو خروج عن المقدار. وكذلك التّعمّق، هو الغلوّ والخروج عن المقْدار. وكلّ خارج عن المقْدار والحدّ، فهو غالٍ ومُتعمّقٌ ومارقٌ.

ورُوِيَ عن أمير المؤمنين -رضي الله عنه- ، أنّه قال: "الغلوّ على أربع شُعَبٍ: على التّعمّق، والتّنازع، والدّفع، والشّقاق".

فمَن تعمّق، لم يُنِبْ إلى الحقّ، ولم تنْحسر عنه فتْنة إلاّ غشيته أخرى، وانْخرق دينه، فهو في أمْر مريج.

وتوفّي بالسلّ ليلة الثّلاثاء، وقيل يوم الجمعة، لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، وسنّه ثلاث وستّون سنة. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيّام، وصلّى عليه عمر -رضي الله عنه-. ودُفن في حجرة عائشة ورأسه بين كتفي رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-.

حول ترجمته راجع: ابن خلّكان، *وفيّات الأعيان*، ج3/ص64 إلى ص71؛ *الرّياض النّضرة*؛ الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*؛ *غاية النّهاية*.

[1] هو أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب -رضي الله عنه-، أبو حفص العدوي الفاروق، وزير رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-. وهو الذي سنّ المحدّثين التّثبّت في النّقل، وربّما كان يتوقّف في خبر الواحد إذا ارتاب. وقد كان عمر أمر الصّحابة أن يقلّوا الرّواية عن نبيّهم ولئلاّ يتشاغل النّاس بالأحاديث عن حفظ القرآن. استشهد أمير المؤمنين عمر في أواخر ذي الحجّة من سنة ثلاث وعشرين، وعاش نحوا من ستّين سنة، وقيل إنّه عاش خمسين سنة، والأرجح أنّه عاش ثلاثًا وستّين سنة.

حول ترجمته راجع: الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*، ج1/ص5 إلى ص8.

والغلوّ والتّعمّق في الدّين على وجوه كثيرة: أحدها[1] ما قد ذكرناه من فعل الخوارج الذين شدّدوا في أشياء لم يُلْزَموها، وخفّف الله عن الأمّة فيها؛ فتعمّقوا، وتركوا القصْد، وغلَوا، ومَرقوا؛ وإنّما تُعرَف هذه المعاني من لغة العرب.

وقد قال السيّد بن محمّد الحميري[2] في تحقيق ما قلنا يخاطب الشّيعة[3]:

أنتم قليلٌ من كثير، فاقْصدوا وذروا التّعمّق، واحْذروا أن تمْرقوا

إنّ الذين بنَهْرَوَان، إنّما مرقوا مِنَ الإسلام حين تعمّقوا

نزعوا غداتئذ بحكْم واقع عند الحكومة، جاحدين، فأغرقوا

---

1 في الأصل: أحدهما.

2 هو إسماعيل بن محمّد بن يزيد بن ربيعة، المعروف بالسيّد الحميري. كان شاعرًا محسنًا كثير القول، وكان رافضيًّا. له مدائح جمّة في آل البيت –عليهم السّلام–. وكان مقيمًا بالبصرة. وكان أبواه يبغضان عليًّا، وسمعهما يسبّانه بعد صلاة الفجر، فلعنهما. وكان يرى رجعة محمّد بن الحنفيّة في الدّنيا. وكان السيّد يعتقد أنّ ابن الحنفيّة لم يمت، وأنّه في جبل بين أسد ونمر يحفظانه، وعنده عينان نضّاختان تجريان بماء وعسل، ويعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جورًا. ويُقال إنّ السيّد اجتمع بجعفر الصّادق –عليه السّلام– فعرّفه خطأه وأنّه على ضلالة فتاب. وكان مُقدّمًا عند المنصور والمهدي. وكان أحد الشّعراء الثّلاثة الذين لم يضبط ما لهم من الشّعر، هو وبشّار وأبو العتاهية، وإنّما أمات ذكره وهجره النّاس لسبّه الصّحابة وبغض أمّهات المؤمنين وإفحاشه في قذفهم، فتحاماه الروّاة. وُلد السيّد سنة 105 هـ. ومات أوّل أيّام الرّشيد سنة 173 هـ.

حول ترجمته راجع: *فوات الوفيّات*، ج1/ص188 إلى ص193؛ *طبقات الشّعراء* لابن المعتزّ، ص32؛ *الأغاني* لأبي الفرج الأصبهاني، ج7/ص2242؛ *وفيّات الأعيان*، ج6/ص343؛ *الوافي*، ج9/رقم5003؛ *فتوح* ابن أعثم، ج2/ص234؛ *رجال* الكشي، ص242.

3 يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص146 إلى ص147): "الشّيعة هم الذين شايعوا عليًّا –رضي الله عنه– على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًّا ووصيّة، إمّا جليًّا وإمّا خفيًّا؛ واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت، فبظلم يكون من غيره أو بتقيّة من عنده. وقالوا ليست الإمامة قضيّة مصلحيّة تُناط باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضيّة أُصوليّة، وهي ركن الدّين، لا يجوز للرّسل –عليهم الصّلاة والسّلام– إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامّة وإرساله. يجمعهم القول بوجوب التّعيين والتّنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمّة وجوبًا عن الكبائر والصّغائر، والقول بالتّولّي والتّبرّي قولاً وفعلاً وعقدًا، إلاّ في حال التّقيّة. ويخالفهم بعض الزّيديّة في ذلك، ولهم في تعدية الإمام كلام وخلاف كثير... وهم خمس فرق: كيسانيّة، وزيديّة، وإماميّة، وغلاة، وإسماعيليّة. وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنّة، وبعضهم إلى التّشبيه".

انظر: *المرجع المذكور*، ج1/ص146–ص147.

فجمَع معنى التّعمّق والمروق والإغراق، وهي كلّها بمعنى الغلوّ وترْك القصْد. ألا تراه يقول: فاقْصدوا وذروا التعمّق؟

وقوله في هذا الحديث: "فإنّ مَنْ كان قَبْلَكُم هَلَكَ بالتَّعَمُّقْ"، فإنّه هذا المعنى بعيْنه؛ يعني بذلك النّصارى[1] الذين ذكرهم الله -تعالى- حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا في قُلُوب الّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ورَهْبَانيّة ابتدعوهَا ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلاَّ ابتغَاءَ رِضْوَانِ الله فَما رَعَوْهَا حَقّ رِعَايَتِهَا﴾[2]، يعني ما ابْتدعته النّصارى من الرّهبانيّة، والتّعمّق في الدّين، والتّعسير عن أنفسهم، والغلوّ فيما لم يأمرهم الله به ولا كتبه عليهم، أي: لم يفترضه عليهم؛ إنّما أُمروا بالعبادة بمقدار ما يبتغون به رضوان الله، وأُمروا أن يقتصدوا رأْفة ورحْمة؛ فابتدعوا وتكلّفوا ما لم يؤمروا[3] به، ولم يرعَوا فرائض الله حقّ رعايتها؛ فهلكوا بذلك.

فهذا هو التّعمّق في الدّين الذي نُهينا عنه، وأُمِرنا باجْتنابه، واستْعمال القصْد، وترْك الابتداع في التّعمُّق، لِئَلاَّ نهْلك كما هلك مَن كان قبلنا. ولم نعْن بالتّعمّق: النّظر؛ ولا نُهينا عن النّظر.

وأخْطأ المُلحِد في تأويل هذا الحديث، لقلّة معرفته بلغة العرب؛ فجهل معنى الخبر، وعاب بما لو مَدَح به، لكان أوْلى؛ لأنّ مَنْ أمَر بالقصد ونهى عن التّعمّق، فقد احتاط، وخفّف، ويسّر؛ وهو بالمدْح أحقّ منه بالذّمّ.

---

[1] المعهود في عصرنا استعمال لفظ: مسيحيّ. ولكنّ النّصوص القرآنيّة والحديثة لا تذكر غير لفظ: نصرانيّ، نصارى. وقد اختُلف كثيرا في معرفة إذا كانت مشتقّة أو منقولة عن صفة أو معربّة. فأرجعها البعض إلى "ناصريّ" نسبة إلى ناصرة، أو إلى "أنصاري"، باعتبار أنّ الحواريّين أنصار الله كما جاء في القرآن الكريم، وأرجعها آخرون -كالزّمخشري- إلى نصران ونصرانة، بمعنى أنّهم نصروا المسيح. وفي *موسوعة الدّين والأخلاق* (ج3/ص574) لفظة "نصرانيّة" و"نصارى" تطلق في العربيّة على أتباع المسيح. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سريانيّ هو: نصرويو Nosroyo ونصرايا Nasraya. ويرى البعض الآخر أنّها من Nazarenes التّسمية العبرانيّة التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح.

انظر: *تفسير الرّازي*، ج3/ص105؛ *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586؛ *القاموس الإسلامي* لهيوقس، ص431؛ *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.

[2] سورة الحديد (57)، الآية 27.

[3] في الأصل: يأمروا.

ولعلّ مُعارِضًا يقول: إنّا احتججْنا على المُلحِد بالقرآن، وبالحديث، وبالشّعر، ولم نقلْ ذلك احتجاجًا عليه في أصلْه. ولكنّا أرَدْنَا أن نُبَيِّنَ معنى ما جَهِلَهُ من تأويل الأخبار؛ وكذلك السّبيل فيما نُورِدُ بعد هذا من الاحتجاج بالقرآن، والأخبار، والشّعر -إن شاء الله تعالى-.

الفصْل الرّابع

البحْث في التّناقض

وأمّا الأخبار التي ادّعى فيها التّناقض، وما ذَكر في باب التّشبيه، وغير ذلك؛ فإنّ هذه الأخبار، منها ما هي مصنوعة، ومنها ما هي صحيحة.

فأمّا المصنوعة:

فمنها: ما ابْتدَعها الكذّابون من أهل الشّريعة، أرادوا أن يعقدوا بها الرّياسات، ويُوردوا أخبارًا غريبة يستّميلون بها قلوب العامّة؛ فإنّ المبتدعين في كلّ شريعة هكذا كان سبيلهم.

ومنها: ما وَضَعَها المُلحِدون ودسّوها، يريدون أن يشنّعوا بها.

فقد رُوِيَ عن قوْم منهم أنّهم فعلوا ذلك، مثل: ابن المقفّع[1]، وابن أبي العَوجاء[2]، وأشباههما.

---

[1] ابن المقفع (م 724 – 759 م) هو أبو محمّد عبد الله مؤلف وكاتب من البصرة، تقول بعض المصادر إنّ والده كان من أصل فارسي مجوسيّ. لُقّب أبوه بالمقفّع لأنّه اتّهم بالسّياسة، وكان الوالي يكرهه فأمر بقتله. رافق الأزمات السّياسيّة في زمن الدّولتيْن الأمويّة والعبّاسيّة. درس الفارسيّة وتعلّم العربيّة في كتب الأدباء واشترك في سوق المربد. نقل من البهلويّة إلى العربيّة *كليلة ودمنة*. وله في الكتب المنقولة التي وصلت إلينا الأدب الكبير، والصغير. والأدب الكبير فيه كلامٌ عن السّلطان وعلاقته بالرّعيّة، وعلاقة الرّعيّة به. والأدب الصّغير حول تهذيب النّفس وترويضها على الأعمال الصّالحة. ومن أعماله أيضًا مقدّمة *كليلة ودمنة*.

[2] عبد الكريم بن أبي العوجاء خال معن بن زائدة الشيباني، كان في البصرة من المشهورين بالزّندقة والتّهاون بأمْر الدّين. قال قبل قتله: "أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرّم فيها الحلال وأحلّ فيها الحرام والله لقد فطّرتكم يوم صومكم وصوّمتكم يوم فطركم". وكان قتله في خلافة المهدي بعد الستين ومائة. قال الشيخ الجويني أنّ ابن العوجاء وضع 12 ألف حديث. يروى أنّه كان من تلامذة الحسن البصري، فانحرف عن التوحيد وقدم مكة تمرداً وإنكارًا على من يحجّ، وكانت العلماء تكره مجالسته لخبث لسانه وفساد ضميره، فأتى أبا عبد الله –جعفر الصّادق– فجلس إليه في جماعة من نظرائه، فاستأذنه في الكلام على أن تكون المجالس بالأمانات، فلما أذن له قال: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر، إن هذا أسسه غير حكيم، ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وأبوك أسسه. كان ابن

أبي العوجاء يتتلمذ على حماد ويدس في رواياته وحماد إمام جليل وهو مفتي أهل البصرة وهو ثقة الناس كما ذكر ابن عدي واحمد. ذكر ابن حجر أيضاً في ترجمة حماد: "إنَّ حماداً كان لا يحفظ، وكانوا يقولون: إنَّها (أي روايات التشبيه) دُسَّت في كتبه ، وقد قيل إنَّ ابن أبي العوجاء كان ربيبه فكان يدس في كتبه". وقال الذّهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: "الإمام القدوة شيخ الإسلام وكان مع إمامته في الحديث إماماً كبيراً في العربية فقيها فصيحاً رأسًا في السنة صاحب تصانيف". من هنا نرى مدى خطورة اندساس الزنادقة بين العلماء وتلامذتهم وأولئك الزنادقة كانوا من الأذكياء وممَّن انعم الله عليهم بالقدرة على الكلام والجدل ولكنهم استخدموا نعمة الله في الشرّ والخراب والإلحاد. الإمام الصادق – عليه السّلام– والاتجاهات الفكرية المنحرفة تبوّأ الإمام الصادق عليه السلام مركز الإمامة الشرعية بعد آبائه الطاهرين وبرز إلى قمة العلم والمعرفة في ذلك العصر الذي عاش فيه, مرموقًا مهابًا، فطأطأت له رؤوس العلماء إجلالاً وإكبارًا حتّى عصرنا هذا. فقد كان عامة المسلمين وعلماؤهم يرون جعفر بن محمّد –عليه السّلام– سليل النبوة وعميد أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا, فهو الرّمز الشّرعي للمعارضة التي قادها أهل بيت الوحي عليهم السلام ضد الظلم والطغيان الأموي والعباسي معًا. وفي عصره انتشرت الفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشاعرة والخوارج والكيسانيّة والزّيديّة، واشتدّ الصراع بينها، كما بدأت الزندقة تستفحل وتخترق أجواء المجتمع الإسلامي, فتصدّى الإمام الصادق –عليه السّلام– للردّ على الملاحدة من جهة، وتصدّى لمحاكمة الفرق المنحرفة من جهة أخرى. ومع كلّ هذا وذاك، لقد اهتم الإمام –عليه السّلام– ببناء الجماعة الصّالحة التي تتحمّل مسؤولية تجذير خطّ أهل البيت في الأمّة الإسلاميّة، إلى جانب اهتمامه ببناء جامعة أهل البيت الإسلامية وتخريج العلماء في مختلف فنون المعرفة، لا سيّما علماء الشّريعة الذين يضمنون للأمة سلامة مسيرتها على مدى المستقبل القريب والبعيد, ويزرعون بذور الثّورة ضدّ الطغيان. ولم يغفل الإمام –عليه السّلام– عن تقوية خط الثورة والجهاد في أوساط الأمّة, وذلك من خلال تقوية وتأييد كل تحرك يهدف إلى إزاحة الظلم والطغيان, وهذا ما حصل لثورة عمّه الشهيد زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام فقد أيّده ومن تلاه من ثوار البيت العلوي. الزندقة: ومن الأفكار التي ظهرت في عصر الإمام الصّادق –عليه السّلام– فكرة الإلحاد والزّندقة، ولا يستغرب أحد من نشوء هذه الفكرة المنحرفة في العالم الإسلامي، وهو عالم التّوحيد الخالص وفي وقت تتطلّع سائر الأمم للرسالة الإسلامية الخاتمة. إن الظلم والفساد الذي أشاعه الأمويّون في كل ميادين الحياة كان هو السّبب في ظهور هذه الأفكار المناهضة للفكر الإسلامي. لقد كان السّؤال والمناقشة للفكر الذي يتبناه الحكّام ذنباً لا يغتفر، وعلى الإنسان أن يسمع ولا يفكّر، أو نفذ ثم ناقش، كما هو مبدأ الطغاة على مر التأريخ. أمّا الخلافة الإسلامية، فتبلورت في زمن طواغيت بني أُميّة وفراعنة بني العباس. إنّ هذا الفساد الذي عمّ ميادين الفكر والسلوك شجّع ظهور الفكر الإلحادي كرفض للواقع الفاسد. قال الإمام محمد عبده: "قد وضع الزّنادقة اللاّبسون لباس الإسلام غشًّا ونفاقًا وقصدهم بذلك إفساد الدّين، وإيقاع الخلاف والافتراق في المسلمين. ومن هنا نشاهد ابن أبي العوجاء يعقد حلقاته الفكريّة لغرض التّشكيك في التّوحيد وفي مسجد

فأمّا ابن المقفّع، فإنّه كان مُشتهرًا بالزّندقة، يستتر بالإسلام، ويميل إلى المجوسيّة والمنانيّة، ويعتقد القول بالاثنيْن.

ورُوِيَ أنّه مرّ على بيت النّار، فتمثّل بقول القائل:

يا بَيْتَ عَاتِكَةَ التي أتَعزّلُ حَذَرَ العِدَى وبه الفؤادُ مُوكّلُ
إنّي لأمْنَحُكَ الصُّدُودَ وإنَّنِي قَسَمًا إليْكَ مَعَ الصُّدُودِ لأمْيَلُ

وأمّا ابن أبي العَوْجاء، فإنّه كان معروفًا بالإلْحاد.

فهذان قد عُرِفَا واشتهر أمْرهما؛ وأنّهما كانا يصنْعان هذه الأخبار ويدُسّانها، نحو قوله: "إنّ الله أجرَى خيلاً، فعرقت، فخلق نفسه من ذلك العرْق"، ونحو حديث: "زَغِبَ الصّدر، ونورِ الذّراعيْن، وعيادة الملائكةِ، وقفص الذّهب على جمل أورق"؛ وأشْباه هذه الأخبار التي هي من هذا الجنْس.

وأمّا الأخبار التي وضَعَها الكذّابون مِنَ المُحدّثين الذين ابتَدعوها واستَمالوا بها قلوبَ العامّة، فإنّ الثّقاة[1] مِنْ روّاة[2] الحديث قد نبّهوا على كثير منها، وذكروا روّاتها الذين صنعوها وجرّحوهم، ونهوا عن الرّواية عنهم، ووقّفوا على كذبهم.

كما رُوِيَ عن شعبة[3] أنّه قال: "لأنْ أزْنِيَ كذا وكذا زَنْيَة، أحبُّ إليّ من أنْ أروي عن أبان بن عيّاش[1]".

رسول الله -صلّى الله عليه وآله-. إذ كان ينكر أصل الوجود ويقول: إن الوجود بدأ بإهمال. وكان الجعد بن درهم ممعنًا في الكفر ومبتدعاً ومتفانياً في الزّندقة وكان يعلن الإلحاد. ومن بدعه أنّه جعل في قارورة ترابًا وماءًا فاستحال دودًا وهوامًا، فقال لأصحابه: إنّي خلقت ذلك لأنّي كنت سبب كونه. وبلغ ذلك الإمام الصّادق -عليه السّلام- فردّه بأبلغ البرهان قائلاً: إن كان خلقه فليقل كم هو؟ وكم الذكران منه والإناث؟ وكم وزن كل واحدة منهنّ؟ وليأمر الذي يسْعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره.

1 في الأصل: الثقات.

2 في الأصل: روات.

3 شعبة (ع) ابن الحجاج بن الورد، الإمام الحافظ، أمير المؤمنين في الحديث أبو بسطام الأزدي العتكي، مولاهم الواسطي، عالم أهل البصرة وشيخها، سكن البصرة من الصغر، ورأى الحسن، وأخذ عنه مسائل. وحدث عن: أنس بن سيرين، وإسماعيل بن رجاء، وسلمة بن كهيل، وجامع بن شداد، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، وجبلة بن سحيم، والحكم بن عتيبة، وعمرو بن مرة، وزبيد بن الحارث اليامي، وقتادة بن دعامة، ومعاوية بن قرة، وأبي جمرة الضبعي، وعمرو بن دينار، ويحيى بن أبي كثير، وعبيد بن الحسن، وعدي بن ثابت، وطلحة بن مصرف، والمنهال بن عمرو، وسعيد بن أبي بردة، وسماك بن الوليد، وأيوب السختياني، ومنصور بن المعتمر، وخلق كثير سواهم. ورأى ناجية بن كعب

شيخ أبي إسحاق السبيعي. وكان من أوعية العلم، لا يتقدّمه أحد في الحديث في زمانه، وهو من نظراء الأوزاعي ومعمر والثوري في الكثرة. قال علي بن المديني: له نحو من ألفي حديث. قلت: ما أظنه إلا يروي أكثر من ذلك بكثير. قيل: وُلد سنة ثمانين في دولة عبد الملك بن مروان. وقال أبو زيد الهروي: ولد سنة اثنتين وثمانين. روى عنه عالم عظيم، وانتشر حديثه في الآفاق. وكان سفيان الثوري يخضع له ويجله، ويقول: شعبة أمير المؤمنين في الحديث. وقال الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق. قال أبو عبد الله الحاكم: شعبة إمام الأئمّة بالبصرة في معرفة الحديث، رأى أنس بن مالك، وعمرو بن سلمة الجرمي، وسمع من أربع مائة شيخ من التّابعين، قال: وحدث عنه من شيوخه: منصور، والأعمش، وأيوب، وداود بن أبي هند، وسعد بن إبراهيم -يعني قاضي المدينة-.

[1] أبان بن أبي عياش (ت 138هـ) هو أحد الكذّابين الذين أصّلوا للديانة الباطنيّة بصفة عامّة، وللمذهب الشّيعيّ الإثني عشريّ بصفة خاصّة، وينسب إليه كثير من المحقّقين وضع أوّل كتاب سبئيّ هو كتاب "سليم بن قيس الهلالي". وسليم بن قيس الهلالي هذا نكرة لا يعرف، لا أثر لذكره في كتب التّراجم والتواريخ عند أهل السنّة؛ فلا ذكر له في تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير وشذرات الذهب لابن العماد، ولا في البداية والنهاية لابن كثير، ولا في طبقات ابن سعد، ولا في مجموعة من كتب الرجال مثل: لسان الميزان، أو التّاريخ الكبير والصغير للبخاري، أو *تهذيب الكمال* للمزي، باستثناء ما نقله الزّركلي في (الأعلام) نقلاً عن مصادر الشّيعة. ومع كلّ هذه الجهالة التي أحاطت بهذا الرّجل، فإنّ الشّيعة يزعمون أنّه مؤلف أوّل كتاب في الإسلام، ويقولون أنّ الحجّاج لاحقه لقتله، فهرب إلى بلاد فارس وأوى إلى بيت أبان بن أبي عياش. ولعلّ في هذا دليلاً على أنّه شخصية خيالية، ادّعى أبان بن أبي عياش أنّه من أصحاب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- لينسب إليه عن طريقه تلك العقائد السّبئيّة التي حواها كتابه. هذا وقد شهد بعض رجال الشّيعة أنّ الكتاب المنسوب إلى سليم بن قيس هذا موضوع: يقول ابن المطهّر الحلي: "وقال ابن الغضائري: سليم بن قيس الهلالي العامري، روى عن أبي عبد الله والحسن والحسين وعليّ بن الحسين -عليهم السّلام-، وينسب إليه هذا الكتاب المشهور، وكان أصحابنا يقولون إنّ سليما لا يُعرف ولا ذُكر في خبر، وقد وجدتُ ذكره في مواضع من غير جهة كتابه ولا رواية أبان بن أبي عياش. وقد ذكر له ابن عقدة في رجال أمير المؤمنين -عليه السّلام- أحاديث عنه، والكتاب (كتاب سليم بن قيس) موضوع لا مرية فيه، وعلى ذلك علامات تدل على ما ذكرنا". (رجال الحلي: ص83). فأبان بن أبي عياش كما يبدو هو الذي وضع كتاب سليم بن قيس الهلاليّ الذي أسّس للغلوّ في أئمّة أهل البيت، والطّعن في صحابة النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم-؛ حيث ادّعى أنّه روى هذا الكتاب عن تابعيّ يدعى سليم بن قيس من أصحاب علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وهذا ليس غريبا على رجل اشتهر بالكذب: قال الإمام أحمد بن حنبل عن أبان بن أبي عياش هذا: "متروك الحديث، ترك الناس حديثه منذ دهر"، وقال: "لا يكتب حديثه، كان منكر الحديث"، وقال ابن معين: "ليس حديثه بشيء"، وقال ابن المديني: "كان ضعيفًا"، وقال شعبة: "ابن أبي عياش كان يكذب في الحديث". (تهذيب التهذيب: 1/97-101، الضعفاء للعقيلي 1/38-4؛

ورُوِي عن ابن المبارك أنّه قال: "حديث أُبيّ بن كَعْب[1] أنّه قال: "مَنْ قرأ سورة كذا، فله كذا"، هو مِنْ وضْع الزّنادقة، فلا ترْوُوه".

الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: 2/295-296). وقد أقرّ بعض رجاليي الشّيعة بهذه الحقيقة: قال ابن المطهّر الحليّ: "أبان بن أبي عياش: بالعين غير المعجمة والشين المعجمة، واسم أبي عياش فيروز بالفاء المفتوحة والياء المنقطة تحتها نقطتين الساكنة وبعدها راء وبعد الواوزاي: تابعي ضعيف جدًّا، روى عن أنس بن مالك، وروى عن عليّ بن الحسين -عليهما السّلام-، لا يلْتفت إليه، وينسب أصحابنا وضع كتاب سليم بن قيس إليه. هكذا قاله ابن الغضائري. وقال السيّد علي بن أحمد العقيقي في كتاب الرّجال: أبان بن أبي عياش كان سبب تعريفه هذا الأمر سليم بن قيس حيث طلبه الحجاج ليقتله حيث هو من أصحاب علي -عليه السّلام-، فهرب إلى ناحية من أرض فارس ولجأ إلى أبان بن أبي عياش. فلمّا حضرته الوفاة قال لابن أبي عياش إن لك حقا وقد حضرني الموت، يا ابن أخي إنّه كان من الأمر بعد رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- كيت وكيت وأعطاه كتابا، فلم يرو عن سليم بن قيس أحد من الناس سوى أبان. وذكر أبان في حديثه قال: كان شيخا متعبدا له نور ويعلوه. والأقوى عندي التوقف فيما يرويه لشهادة ابن الغضائري عليه بالضعف. وكذا قال شيخنا الطوسي (رهـ) في كتاب الرّجال قال إنّه ضعيف". (رجال الحلي: ص206).

[1] هو أُبي بن كعب بن قيس بي عبيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو من الخزرج . له كنيتان: أبو المنذر؛ كناه بها نبي الإسلام محمد، وأبو الطفيل؛ كناه بها عمر بن الخطاب بابنه الطفيل وكان عمر يسميه سيد المسلمين. وأمه صهيلة بنت النجار، وهي عمة أبي طلحة الأنصاري. وقيل في وصفه انه كان أبيض الرأس واللحية لا يخضب. كان أُبي بن كعب من فقهاء الصحابة، وكان من كُتّاب الوحي، ومن اعتبر من أفضل قرّاء القرآن، وهو أحد الإثنا عشر الذين بايعوا الرسول، في بيعة العقبة .وقد روي أن أُبي بن كعب قال: "سألني رسول الله ما هي برأيك أعظم آية جاءت في القرآن الكريم؟، فقلتُ: آية الكرسي، فضرب رسول الله على صدري، وقال لي: ليهننك العلم يا أبا المنذر. «وقد جاء في الحديث: "أقرؤكم أُبي" وقد أسند إليه النّبيّ مهمّة تعليم الوفود القرآن وتفقيهها في الدين وكان النّبيّ إذا غاب عن المدينة يستخلفه لإمامة المسلمين في الصّلاة. وقد قال عنه عمر بن الخطّاب: "سيد المسلمين أُبي بن كعب". وجاء في صحيح البخاري أنّ الرّسول قال لأُبي بن كعب حين نزلت ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ "إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قال أُبي: آلله سماني لك؟ قال: نعم الله سماك لي فجعل أُبي يبكي". شهد أُبي بن كعب مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وقد خطـــب عمر بالجابية فقال: "أيّها الناس من كان يريـــد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أُبـــيَّ بن كعـــب". عن عبد الله بن أبي نُصير قال: عُدْنا أُبي بن كعب في مرضه، فسمع المنادي بالأذان فقال: "الإقامة هذه أو الأذان؟"، قلنا: "الإقامـــة"، قال: "فلا تفعلوا قوموا، إن رسول الله صلّى بنا صلاة الفجر، فلمّا سلّم أقبل على القوم بوجهه فقال: "أشاهدٌ فلان؟ أشاهدٌ فلان؟". حتّى دعا بثلاثة كلّهم في منازلهم لم يحضروا الصلاة فقال: "إن أثقل الصّلاة على المنافقين صلاة الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما

ويُروَى عن المغيرة –صاحب إبراهيم– أنّه قال: "حديث سالم بن أبي الجعد[1] وحديث فلاّس لا تُرووه"؛ وكان لا يعْبأ بما يُروَى عنهما.

ورُوي عن غير واحد أنّ حديث ابنِ عبّاس[2]: أنّه كان يلصق الدّوتة ويكتُبُ منها، وضَعَه عاصم الكوزيُّ.

ولو حَبْوًا، واعلَم أنّ صلاتك مع رجلٍ أفضل من صلاتك وحدك، وإن صلاتك مع رجلين أفضل من صلاتك مع رجل، وما أكثرتم فهو أحبّ إلى الله، وإنّ الصفّ المقدّم على مثل صف الملائكة، ولو يعلمون فضيلته لابتدروه، ألا وإنّ صلاة الجماعة تفضل على صلاة الرّجل وحدَه أربعًا وعشرين أو خمساً وعشرين". وكان الرّسول قد قال: "ما مِنْ شيءٍ يصيب المؤمن في جسده إلاّ كفّر الله عنه به من الذّنوب" كعب حتّى يلقاك، لا يمنعه من صيام ولا صلاة ولا حجّ ولا عُمرة ولا جهاد في سبيلك". فارتكبته الحمى فلما تفارقه حتّى مات، وكان في ذلك يشهد الصّلوات ويصوم ويحج ويعتمر ويغزو. توفّي سنة 30 هـ، يقول عُتيّ السعديّ: قدمت المدينة في يوم ريحٍ وغُبْـرةٍ، وإذا الناس يموج بعضهم في بعـض، فقلت: "ما لي أرى الناس يموج بعضهم في بعض؟"، فقالوا: "أما أنت من أهل هذا البلد؟". قلت: "لا". قالوا: "مات اليوم سيد المسلمين، أبيّ بن كعب".

1 سالم بن أبي الجعد الأشجعي الكوفي، أخو زياد وعبد الله وعبيد الله وعمران ومسلم، وهو تابعي جليل، روى عن ثوبان وجابر وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والنعمان بن بشير وغيرهم. وعنه قتادة والأعمش وآخرون، وكان ثقة نبيلاً جليلاً. توفي سنة 100 هجرية.

2 هو عبد الله بن عبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم، ابن عم النّبيّ محمّد، حبر الأمّة وفقيهها وإمام التّفسير، ولد ببني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين، وكان النّبيّ محمّد دائم الدعاء لابن عبّاس فدعا أن يملأ الله جوفه علما وأن يجعله صالحًا. وكان النّبيّ محمّد يدنيه منه وهو طفل ويربّت على كتفه وهو يقول: "اللّهمّ فقّهه في الدّين وعلّمه التأويل". توفّي رسول الله محمّد وعمر ابن عبّاس لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة، وقد روي له 1660 حديثًا. كان عبد الله بن عباس مقدما عند عثمان بن عفّان، وأبو بكر الصديق –رضي الله عنه–، ثمّ جعله علي بن أبي طالب –كرّم الله وجهه– واليًا على البصرة وكان عمره يوم وفاة النّبيّ محمّد 14 عامًا. لغزارة علم ابن عباس –رضي الله عنه–، لقّب بالبحر إذ أنّه لم يتعود أن يسكت عن أمر سُئل عنه، فإن كان الأمر في القرآن أخبر به، وإن لم يكن في القرآن، وكان عن رسول الله أخبر به، فإن كان من سيرة أحد الصّحابة أخبر به، فإن لم يكن في شيء من هؤلاء قدم رأيه فيه، ومن شدة إتقانه فقد قرأ سورة البقرة وفسرها آية آية وحرفًا حرفًا. لشدّة إيمانه أنّه لمّا وقع في عينه الماء أراد أن يتعالج منه فقيل له: "إنّك تمكث كذا وكذا يوما لا تصلّي إلاّ مضطجعًا"، فكره ذلك. وقد قال –رضي الله عنه–: سلوني عن التفسير، فإنّ ربّي وهب لي لسانا سؤولاً وقلبًا عقولاً. توفّي عبد الله بن عبّاس سنة 68 هـ بالطّائف، وقد نزل في قبره، وتولّى دفنه عليّ بن عبد الله ومحمّد بن الحنفيّة، والعبّاس بن محمّد بن عبد الله بن العبّاس، وصفوان، وكريب.

وقالوا: حديث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: أنّه لم يحدّ المريض، وضَعَه سهل السّرّاج.

وحديثه (ع) الذي رُوِيَ عن عمرو بن حريث[1]، أنّه قال: "رأيتُ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يوم العيد يُسار بين يديْه بالحِرابِ"، وضعه المُنْذرُ بنُ زِياد.

وحديثه (ع) أنّه نهى[2] عن عَشرِ كنًى، وضَعَه أبو عاصم -قاضي مَرْو-.

وحديثه (ع): "لا يَزالُ راكبًا مَا دَامَ مُنْتَعِلاً"، وضَعَه أيّوبُ بن خوط[3].

فهكذا كان سبيل هؤلاء الكذّابين، والزّنادقة، والمُلحِدين الذين وضَعوا هذه الأخبار.

---

[1] هو عمرو بن حريث (ع) ابن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي ، أخو سعيد بن حريث . كان عمرو من بقايا أصحاب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- الذين كانوا نزلوا الكوفة. مولده قبيل الهجرة. له صحبة ورواية. وروى أيضًا عن أبي بكر الصديق، وابن مسعود. حدّث عنه: ابنه جعفر، والحسن العرني، والمغيرة بن سبيع، والوليد بن سريع، وعبد الملك بن عمير، وإسماعيل بن أبي خالد، وآخرون. وآخر من رآه رؤية خلف بن خليفة. توفّي سنة خمس وثمانين. أخبرنا الحسن بن علي، أخبرنا جعفر الهمداني، أخبرنا السلفي، أخبرنا أحمد بن علي الطريثيثي، أخبرنا المسيب بن منصور الدينوري بآمل، أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد، حدثنا يوسف بن يعقوب بن خالد النيسابوري، أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدّثنا وكيع؛ حدثنا شريك، عن أبي إسحاق: سمعت عمرو بن حريث يقول: كنت في بطن المرأة يوم بدرا. وروى فطر بن خليفة، عن أبيه؛ سمع مولاه عمرو بن حريث يقول: انطلق بي إلى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وأنا غلام؛ فدعا لي بالبركة، ومسح رأسي، وخط لي دارا بالمدينة بقوس، ثمّ قال: ألا أزيدك. وروى معبد بن خالد، عن عمرو بن حريث، قال: أمرني عمر -رضي الله عنه- أن أؤمّ النّساء في رمضان. قال الواقدي: ثم ولي الكوفة لزياد بن أبيه، ولابنه عبيد الله بن زياد: عمرو بن حريث وحصل مالا عظيما وأولادًا، منهم: عبد الله، وجعفر، ويحيى، وخالد، وأم الوليد، وأم عبد الله، وأم سلمة، وسعيد، ومغيرة، وعثمان، وحريث. قال الواقدي: قبض النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ولعمرو بن حريث اثنتا عشرة سنة. وشهد أخوه سعيد بن حريث فتح مكة وهو حدث.

[2] في الأصل: نهي.

[3] أيّوب بن خوط من من أهل البصرة كنيته أبو أميّة، وهو الذي يُقال له أيوب الحبطي، يروى عن قتادة، مُنكَر الحديث جدًّا، يروى المناكير عن المشاهير، كأنّه ممّا عملت يداه، تركه ابن المبارك. وهو الذي روى عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: "مَن كان ذا لسانين في الدّنيا جعل الله له لسانين من نار يوم القيامة"؛ أخبرناه الحسن بن سفيان ثنا حميد بن قتيبة ثنا [أحمد بن إسرائيل ثنا آدم بن أبي إياس ثنا] أيّوب من خوط عن قتادة.

انظر ترجمته في: الميزان 286 / 1؛ التاريخ الكبير 414 / 1.

وليس ما يبتدعه الكذّابون ويُدلّسه المُلْحِدون بحجّة للمُلحِدين على الأنبياء الطّاهرين، وعلى أهل الصّدق من الأمّة؛ إذ كانت الشّريعة قد اشتملت على أصناف النّاس.

وأمّا الأخبارُ الصّحيحة: فمنها ما يُشكل معناها، ومنها ما يقع فيها النّسخ.

وأمّا ما يُشكل معناها فكثيرة؛ ومَن لا يعرف معانيها يقدّر فيها التّناقض.

ومنها: ما يقع فيها الزّيادة والنّقصان، ويوهم فيها المُحدِّث ويُغلِّط؛ مثل الحديث الذي احتجّ به المُلحِد، وعابه، وطَعَن على النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، قوله: "رَأَيْتَ رَبِّي في أَحْسَنِ صُورَةٍ"، ووضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَنْدُوَتَيَّ". فإنّه -صلّى الله عليه وسلّم- إنّما أراد أنّه رآه في المنام، لم يردْ أنّه رآه في اليَقَظة.

وكيف يجوز أن يقول إنّه رأى ربّه، والله -عزّ وجلّ يقول-: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾[1]؟!

فأراد -صلّى الله عليه وسلّم- أنّهُ رآه في المَنَام.

ومثل هذا الحديث رواه عبيد الله بن وَهَبْ عن عمرو بن الحرث عن سعد بن أبي مالك[2] عن مروان بن عُثْمَان عن عمارة بن عامر عن أمّ الطُفَيل[1] -امْرَأةِ أُبَيّ بن كعب-،

---

[1] سورة الأنعام (6)، الآية 103.

[2] هو: سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. فهو من بني زهرة وهم فخذ آمنة بنت وهب أمّ الرّسول، وقد كان الرّسول (ص) يعتز بهذه الخؤولة. فقد ورد أنّه كان جالسًا مع نفر من أصحابه (ص)، فرأى سعد بن أبي وقاص مقبلاً، فقال لمَن معه: "هذا خالي فليرني أمرؤ خاله". وُلد في مكّة سنة 23 قبل الهجرة. نشأ سعد في قريش، واشتغل في بري السهام وصناعة القسي، وهذا عمل يؤهل صاحبه للائتلاف مع الرّمي، وحياة الصّيد والغزو. وكان يمْضي وقْته وهو يخالط شباب قريش وساداتهم ويتعرّف على الدّنيا من خلال معرفة الحجّاج الوافدين إلى مكّة المكرّمة في أيّام الحجّ ومواسمها، المتباينة الأهداف والمتنوعة الغايات. سعد بن أبي وقاص دخل الإسلام وهو ابن سبع عشرة سنة. وكان إسلامه مبكّرا، ويتحدث عن نفسه فيقول: "ولقد أتى عليّ يوم، وإنّي لثلث الإسلام"، يعني أنّه كان ثالث ثلاثة سارعوا إلى الإسلام، وقد أعلن إسلامه مع الذين أعلنوه بإقناع أبي بكر الصدّيق إياهم، وهم عثمان بن عفان، والزّبير بن العوّام، وعبد الرّحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله. أسلم عبر حلم حين كان في يوم رأى رؤية وجد فيها أنّه يمشي في مكان مظلم، وكلّما مشى أكثر اشتد علية الظلام، ثمّ وجد قمرًا منيرًا بشدّة، فذهب هناك وجد أنّ "أبو بكر الصدّيق" و"عليّ بن أبى طالب" و"عبد الرّحمن بن عوف" يقفون أسفله، فعلم أنّ القمر هو الرّسول محمّد، فعندها استيقظ وأعلن إسلامه. عمّر سعد بن أبي وقاص كثيرًا وأفاء الله عليه من المال الخير

قال: "سمعتُ النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– يذكر أنّه رأى ربّه في المنام في صورة شابّ مُوفَّرٍ على فراش من ذهَبٍ في رجلَيْه نعْلان من ذهبٍ".

وليس هذا بمُنْكَرٍ أن يقول –صلّى الله عليه وسلّم–: "رَأَيْتُ رَبِّي في المنام"، فإنّ كثيرًا من النّاس يَرَوْنَ مثل هذه المنامات؛ يرَوْنَ رَبَّهُمْ، ويَرَوْنَ الملائكة، ويروْن الأنبياء، ويروْن القيامة، ويروْن الأمور العظيمة؛ وهذا واسعٌ كثيرٌ غير مدفوع، وليس يقع فيه نكيرٌ من أحد العالمين.

وقرأتُ في كتاب إشعياء النّبيّ: أنّ إشعياء رأى رؤيا من بعد ارتفاع النُّبُوّة عنه بثلاث سنين، في السّنة التي توفّي فيها عُزْيا الملك، وقال: "رأيتُ الربّ جالسًا على منبر عظيم، ورأيتُ نورًا خرج من أسْفل منْبَره ملأ هيْكله، ورأيتُ السّرافين قائمًا أمامه، له ستّة أجْنحة، يستر وجهه بجناحيْن، وبجناحيْن يستر رجليْه، ويطير بجناحيْن، ويضيف بعضها إلى بعض ويقول: "قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، ربّ الملائكة والرّوح، قدّوس الرّب القويّ الذي الأرض كلّها ممتلئة من تسبيحه؛ وتزلزلت مَعَقِمُ الأبواب من الصّوت الذي هَتَفَ، وامتلأ البيت دخانًا؛ ورأيتُ عيناي المَلِكَ الرّبَّ القويّ". ثمّ ذكر أشياء كثيرة رآها، ثمّ فسّرها.

الكثير، لكنّه حين أدركته الوفاة دعا بجبّة من صوف بالية وقال: "كفّنوني بها، فإنّي لقيت بها المشركين يوم بدر وإنّي أريد أن ألقى بها الله –عزّ وجلّ– أيضًا". وكان رأسه بحجر ابنه الباكي، فقال له: "ما يبكيك يا بني؟ إنّ الله لا يعذّبني أبدًا، وإنّي من أهل الجنّة"، فقد كان إيمانه بصدق بشارة رسول الله كبيرًا. وكانت وفاته سنة خمس وخمسين من الهجرة النّبويّة. وكان آخر المهاجرين وفاة, ودفن في البقيع –رضي الله عنه وأرضاه–.

[1] أمّ الطفيل امرَأة أُبي بن كعب. روى عنها مُحَمَّد بن أُبيّ بن كعب، وعَمّارَة بن عامر، وبُسر بن سعيد. أخبرنا أبو ياسر بن أبي حبّة بإسناده عن عَبْد الله: حدثني أبي، حدّثنا إسحاق بن عيسى، أخبرني ابن لهيعة، عن بكير، عن بسر بن سعيد، عن أبي بن كعب قال: نازعني عُمر بن الخطّاب في المتوفّى عنها وهي حامل، فقلت: تُزَوَّج إذا وضعت. فقالت أم الطفيل أم ولدي لعُمر: "قد أمر رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– سُبَيعة الأسلمية أن تنكح إذا وضعت". وروى سعيد بن هلال، عن مروان بن عُثْمان، عن عَمَارَة بن عامر بن حزم الأنصاريّ، عن أم الطفيل امْرَأة أبي بن كعب قالت: "سمعتُ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– يقول: "رأيتُ ربّي عَزّ وجلّ في المنام..." الحديث. أخرجها ابن منده، وأبو نعيم.

انظر ترجمته في: أسد الغابة في معرفة الصّحابة – ابن الأثير.

وقرأتُ في كتاب دانيال[1]: رأى دانيال رؤيا، وحَلِمَ حُلمًا، ورأسه على مضْجعه؛ فكتب حينئذ رؤياه، وقصّ مبتدأ كلامه، وبَدَأَ بالقول، فقال: "رأيتُ فيما يرى النّائم باللّيل كذا، ورأيتُ كذا"، وذكر أشياء كثيرة، ثمّ عبّرها وفسّرها؛ وتطول الخُطَبُ بذكْرها.

---

[1] النّبيّ دانيال كان ممن تم أسرهم ونقلهم إلى بابل إبان السبي البابلي لبيت المقدس وتدميرها على زمن نبوخذ نصر. ودانيال نبيّ من أنبياء بني إسرائيل ممّن لا يُعلم وقته على اليقين، إلاّ أنّه كان في الزّمن الذي بعد داود، وقبل زكّريا و يحيى -عليهم السّلام-، وكان في الوقت الذي قدم فيه بختنصر إلى بيت المقدس وخربه، وقتل فيه من قتل من بني إسرائيل وسبى من سبى وأحرق التّوراة. وقيل: إنّه أسر دانيال الأصغر، وقيل: بل وجدوه ميّتاً عندما دخل بختنصر بيت المقدس، والظّاهر أنّه كان في بني إسرائيل دانيال الأكبر ودانيال الأصغر. والله أعلم. وقد أورد ابن أبي الدّنيا بإسناده إلى عبد الله بن أبي الهذيل أن بختنصر سلط أسدين على دانيال بعد أن ألْقاه في جُب -أي بئر- فلم يفعلا به شيئًا. فمكث ما شاء الله ثمّ اشتهى ما يشتهي الآدميّون من الطّعام والشّراب، فأوحى الله إلى أرمياء وهو من أنبياء بني إسرائيل وهو بالشّام أن أعدّ طعاماً وشراباً لـــ دانيال. فقال: يا رب أنا بالأرض المقدّسة، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله إليه أن أعد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب، فقال دانيال من هذا؟ قال أنا أرمياء فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلني إليك ربك، قال: وقد ذكرني ربي؟ قال: نعم. فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي يجيب من دعاه، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً. والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا وكربنا، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا... واشتهر أن الصحابة عثروا على قبره عندما فتحوا (تستر) ثم أمرهم عمر بن الخطاب أن يغيبوا قبره خشية أن يتّخذه النّاس معبدًا أو يشرك بالله عنده. وقيل إن الذي وجدوه رجلاً صالحًا. والأوّل أشهر. وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناد حسن -كما قال الحافظ ابن كثير- عن أبي الزناد قال: رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتما نقش فصه (أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرّجل). قال أبو بردة: وهذا خاتم ذلك الرّجل الميّت الذي زعم أهل هذه البلدة أنّه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه أي يوم دفن دانيال. قال أبو بردة فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم، فقالوا: إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه، جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنّه يولد كذا وكذا غلام يُذهب ملكك ويفسده، فقال الملك: والله لا يبقى تلك الليلة مولود إلا قتلته. إلاّ أنّهم أخذوا دانيال، فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضرّاه. فجاءت أمّه فوجدتهما يلحسانه فنجّاه الله بذلك حتّى بلغ ما بلغ. قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فصّ خاتمه لئلاّ ينسى نعمة الله عليه في ذلك.

وقال في آخرها: "ومن بعد هذه الأمور، رأيتُ كراسيَ قد وُضِعَتْ، وَعَتِيقَ الأيّامِ قد جَلَس لِسانه أَبْيَضُ كبياضِ الثّلْج، وشعْر رأسه كالقُطْن الأبيض النّقيّ، وكُرْسيُّهُ كَلَهَبِ النّارِ، ودعائم كرسيّه وبكراتُه من نار تَتَّقِدُ؛ ورأيتُ نهرًا من نار يجري بين يديْه، وبين يديْه ألف ألف خدّام يخدمونه، وكتّابٌ لا تُحْصى؛ ورأيتُ الدّيان قد جلس، ونُشِرَتْ الأسْفَارُ؛ ورأيْتُ على سحاب السّماء كهيْئة إنسان، فانْتهى إلى عَتِيق الأيّام، وقدّموه بين يديْه".

فخَوّلَهُ المُلْك، والسّلطانَ، والكرامَةَ؛ وأن تتعبّد له جميع الشّعوب، والأمم، واللّغات؛ وسلطانه دائمٌ إلى الأبد، ومُلكه إلى الأبد لا يتغيّر. وضاقت نفسي أنّ دانيال على مضْجعي، وغمّتني الرّؤيا التي رأيتُ، فدنوْتُ من خادم من الخدّام، وسألته عن تحقيق هذه كلّها، وقال لي يقينًا، وأخبرني بتعبير رؤياي.

ثمّ فسّر دانيال تعبيرَهَا، وقال في آخرها: "أرْبعة أملاك تقوم في الأرض ويرثون المُلكَ؛ والمملكة الرّابعة هي التي تتفاضل على الممْلكاتِ، ويمْلك الأرض كلّها، ويدوسها، ويدقّها، وينال الملكَ دائم إلى الأبدِ، له يتعبّد كلُّ سلطان ويطيع". إلى ها هنا انْقضى الكلام.

فأمّا أنّ دانيال، فغمّتني فِكرتي جدًّا وتغيّر لوْن بهائي، ولكنّي حفظتُ الكلام في قلبي.

فهكذا، هو من حديث الذي ذكره المُلحِد، وقال: إنّ في التّوراة أنّ قَدِيم الأيّامِ في صورة شيخ أبيض الرّأس واللّحية.

فعابَ المُلحِد هذا وأشباهه ممّا رآه الأنبياء في مناماتهم.

وهذه الرّؤيا أراد الله -عزّ وجلّ- أن يوحي بها إلى دانيال، ليُخْبِر بما يكون في العَالم؛ فَأَبَرَ بذلك، وصحَّ ما ذكرَه.

وذَكَرَ في هذه الرّؤيا أخبار ملوك كانوا بعْدَهُ، وما يحدث من أمْرهم وممالكهم، يطول شرحها.

ثُمَّ أخْبر بعد أخبارهم وقِصَصهم، بهذه القصّة التي أمرُها أوْضح من فَلَق الصّبْح؛ لأنّه قال: "أربعة أملاكٍ تقوم في الأرض ويرثون الملك".

فالأملاك الأربعَةُ هي أملاك أهل الأديان الأربعة: اليهوديّة، والنّصرانيّة، والمجوسيّة، والإسلام.

والممْلكة الرّابعة التي ذكر أنّها تتفاضل على المملكات، هي مملكة الإسلام، وهي التي ورثتْ المُلك في هذا العالم.

فأمّا الممالك كلّها في العالم، فهي تحت هذه الممالك الأربع، ومنها انشَعَبَتْ كلُّها.

ومملكة الإسلام، التي هي الرّابعة، قد علَتْ عليها؛ كما قال: "إنّ الرّابعة تتفاضَلُ على المملكاتِ، وتملكُ الأرض كلّها، وتدوسُها، وتدُقُّها؛ وينالُ المُلْكَ، والسّلطان العظيمَ، والعظمة التي تحت السّماء، والشّعب الظّاهرَ؛ مُلْكه دائمٌ إلى الأبد؛ وله يتعبّدُ كلّ سلطانٍ ويُطيعُ".

فهذه المملكة الرّابعة هي مملكة الإسلام؛ وقد دَاست الأرض، ودقّتها، وقهرت كلّ شريعةٍ، وكسّرت الأصنام، وتعبّد لها كلُّ سلطانٍ؛ وهي دائمة إلى القيامة.

والذي رآه على سَحابِ السّماء كهَيْئَةِ إنسانٍ وقُدِّمَ إلى عتيق الأيّام، وخوَّلَهُ المُلْكَ والسّلطانَ الكرامةَ، وأن يتعبّد لهُ جميعُ الشُّعوب والأمم واللّغات، وسلطانه دائمٌ إلى الأبد، ومُلْكُهُ لا يتغيّرُ، هو محمّد –صلّى الله عليه وعلى آله–؛ لأنّ شريعته قد قهرتْ جميع الشّرائع، وسلْطانه دائم إلى الأبد.

فهذا هو كتاب دانيال، وهو في أيدي أهل الكتاب، يقرأونه ويدرسونه، ولا يُنكرونه؛ ولكن قد عَمِيَتْ قلوبهم عن هذا الأمر الواضح؛ وهذا أقوى الدّلالات على نُبوّةِ مُحَمّدٍ –صلّى الله عليه وسلّم–، وعلى سائر النّبواتِ، وهذا ما عاب به المُلحِد.

وإنّما كانت رؤيا أراها الله دانيالَ في نوْمه، وصحّت كما ترى؛ ولكنّ المُلحِد قصَد إلى موضع التّشنيع، وذكر ألفاظًا شنّع بها، ولم يعْرف القصّة بعيْنها؛ وإن كان قد سمعها بكاملها، فقد حبل تأويلها، وكتم ذلك عنادًا منه وكُفرًا.

وهذا حجّة عليه في إثبات النّبوّة أكيدة، لا يدفعها إلاّ مُباهِتٌ، ولا ينكرها إلاّ معانِدٌ.

وحديث النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–، الذي طعَن عليه المُلحِد، هو رؤيا، كما قد ذكرنا؛ وهو مُشاكِلٌ لرؤيا دانيال ولرؤيا إشعياء، في رؤية الله –عزّ وجلّ–؛ وليس ذلك بمُنكَر، ولا فيه مطْعن، ولا حجّة للمُلحِد.

الفصل الخامس

إنّ أهل الشّرائع إذا طُلبوا بالدّليل شَتَموا!

وأمّا قوله: إنّ أهل الشّرائع إذا طُلبوا بالدّليل على دعاويهم، شتموا، وغضبوا، وهدروا دَمَ من يطالِبهم؛ فمن أجل ذلك، انْدفن الحقّ أشدّ انْدفان، وانْكتم أشدّ انْكتام.

فإنّا نقول: لا تخلو[1] كلّ أمّة من أخلاط النّاس، ولا يكملون قاطبة في العقْل، والفهْم، والمعْرفة، والحلْم. وليس يجوز أن تطالب الأمّة كلّها أنّ يكونوا تامّين في هذا الخصال، مع كثرة عددهم الذي لا يحصيه إلاّ الله -عزّ وجلّ-؛ لأنّ العالم قد امتلأ من أهل الشّرائع، وهم مُجبَلون على طبائع مُختلِفة وأخلاق شتّى.

ففيهم الكامل والنّاقص، والعالم والجاهل، والسّفيه والحليم، والعاقل والأحْمق؛ بل أهل العقل، والعِلم، والحِلم، والمعرفة هم الأقلّون عددًا في كلّ شريعة؛ واشتملتْ الشّرائع على هذه الطّبقات من النّاس، كلّ تفاوت آرائها ومذاهبها؛ وليس في رسْم الشّرائع أن لا يقبل إلاّ الكامل العاقلُ، الدّيّن، اللّبيبُ، وأن يطرد عنها مَن نقص عن هذه المَرَاتِب؛ ولا تُوجِب الدّيانةُ ذلك، بل يُقبَلُون على مراتبهم، ويُعلّمون ما يحتاجون إليه من أمْر دينهم[2]، ويؤمرون، ويُنهون، ويتراضون؛ ثُمّ حسابهم على الله -عزّ وجلّ-، يجازي كلاًّ بعمله، وعلى مقدار قبول الأمْر والنّهي، وسعْيه لأمرِ معاده؛ إذ كان الله -عزّ وجلّ- يستعبد الأنام على مقدار عُقولهم، ووُسعهم، وطاقتهم؛ ثمّ هو أعْلَم بما يستوْجِبون من الثّواب والعقاب، وإنّه عليم بذات الصّدور؛ كما أمَرَ به رسوله محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم-، وسنّه له في القرآن، فقال -تبارك اسْمه-: ﴿إنَّمَا عَلَيْكَ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾[3]، وقال: ﴿ولاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بُالغُدَاةِ والعَشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ من شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالمين﴾[4].

---

[1] في الأصل: تخلوا.

[2] في الأصل: دينه.

[3] سورة الأنعام (6)، الآية 103.

[4] سورة الأنعام (6)، الآية 52.

هكذا جرتْ السنّة فيمَن تقدّم من الأنبياء، كما قال الله -عزّ وجلّ- في قصّة نُوحٍ (ع) لمّا عيّره قوْمه باتّباعه، وقالوا له: ﴿أنُؤْمِنُ لك واتّبَعَكَ الأرْذَلُونَ﴾[1]، قال لهم: ﴿وما عِلْمِي بِما كانوا يَعْمَلُونَ إنْ حِسَابُهُم إلاّ على ربّي لو تشعرون ومَا أنَا بطارِدِ المُؤْمِنِين﴾[2]؛ فقد دلّ أنّهم لم يطردوا أتباعهم، وإن قلّت معرفتُهم، وضعفت عقولُهم؛ بل علّموهم وبلّغُوا رسالات الله، ووكّلُوا أمْرَهُم إلى الله. فاشْتملتْ الشّرائع على طبقات النّاس.

وليس فِعْلُ السُّفَهَاءِ، الذين يُسيئون آدابَهم، بحجّة للمُلحِد على العلماء وذوِي الألباب. فإنّ أهل العلم والمعرفة لا يدفعون النّظر، ولا يَكِيعُونَ عَنِ الحُجَجِ والبراهينِ؛ ولكنَّ المُلْحِدَ أراد أن يستظهر بهذه الدّعاوى، ويحتجّ بما لا حجّة له في إبطال النّبوّة.

ولو وُجِد المُلحِد على اعتقاده وأصلْ مقالته أتباعًا يكون لهم أدْنى عددٍ، لكانوا لا يخلون من هذه الأخلاق التي قَدْ جُبِلَ عليها عوامُّ النّاس: لأنّ الجميع، إذا كَثُرَ، لم يخلُ من هذه الطّبقات؛ ولكنَّ أصابعه. ومع ذلك، فقد ماتت مقالتُه قبل موته؛ إذ كان الباطل لا قِوام له، ولا ثبات؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَة اجتُثّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ما لها مِنْ قرارٍ﴾[3].

---

[1] سورة الشّعراء (26)، الآية 111.

[2] سورة هود (11)، الآية 29.

[3] سورة إبراهيم (14)، الآية 26.

الفصل السّادس

قوله: اغترُّوا بطول لِحَى التّيوس...

وأمّا قوله: اغتَرُّوا بطول لِحَى التّيوس، الذين يمزّقون حلوقهم بالزّور والبهتان، وروايات الأخبار المتناقضة[1] التي ذكرها؛ وأنّهم اغترّوا بكثرة الحُمقاء المُجتمِعين حولَهم من ضعفاء الرّجال والنّساء والصّبيان، وطول المدّة حتّى صار طبعًا وعادة؛ وأنّهم يفْعلون ذلك ليبلغوا مبْلغ رؤسائهم التّيوس؛ فليس في هذا الكلام فائدة ولا حُجَّة؛ بل هو جنسٌ من الحُمق والسّفاهة.

ولوْ شئْنا لقابَلْنَاه بمثله، وطوّلنا القول بصفتِه وصِفَة أمثاله من المُلحِدين، الذين هم على مِثْل أخلاق القردةِ والخنازير؛ ولكنّا نكْره أن نجريَ مَجْراه في باب السّفاهة والحمْق، فنكون قد نُهينا عن شيء وآتيناه؛ كما قال الله –تعالى–: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتنْسون أنفسكم﴾[2].

ولكنّا نقول: لَولاَ هذه القُوّةُ التي هي في الشّرائع وفي رُسومِ الأنبياء وكلامِهم، التي صدّرتْ أَصحابَ اللّحي في هذه المجالس، لَكان عيْشُ الكِلاب أهْنأ مِنْ عيش المُلحِدين. ولكنّ تلك القوّة هي التي أقرّت رُؤوسهم على كواهلها، وحقنت دِماءَهم في أهُبِهَا.

فإن قال قائلٌ: إنّ قَولَنَا له: "المُلحِد" هو من باب السّفاهة.

قلنا: ليس كذلك: لأنّ الإنسانَ يكون مُلحِدًا، ولا يكون تيْسًا.

فإذا سمّى أحدُهم الآخر: تيسًا، قد سبَّهُ. وإذا سمّاه: مُلحِدًا، وكان مُلحِدًا، فلم يسُبّهُ؛ ولكن نسَبَهُ إلى مقالته؛ كما يُقالُ: مُسْلِمٌ، ويَهوديٌّ، ونَصرْانيٌّ، ومجوسيٌّ، وديصانيٌّ، ومنّانيٌّ، وغيرُ ذلك.

فكلّ إنسانٍ يُدْعَى بما يعتقده؛ وعلى هذه الجهةِ، قلنا: "مُلحِد".

وإن قال: إنّا ذكرنا القِرْدَةَ والخَنَازير.

---

[1] في الأصل: المتناقظة.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 44.

قلْنا: أليس هذا المِقْدَارُ يستوْجبُ من الجواب هذا المِقْدَار...؟ حين أسبُّ أعلام الشّريعة ومشايخها ابتداءً؟

ولا عيْب عليْنا إذا كان الجّواب هذا المقدار، إلاّ أن نُعاتَب على التّقصير والمحاباةِ، قصدًا منّا للاقتِصارِ، وتَركًا لِلتّطويل، واجتنابًا للسّفَاهة؛ ونستغفر الله من ذلك.

الفصل السّابع

قوله: انْدَفن الحقّ أشدّ انْدِفان...!

وأمّا قوله: اندفن الحقُّ أشدَّ انْدِفَانٍ وانكتم أشدَّ انْكتام، فإن كان هذا الحقّ الذي انْدفَنَ وانْكتم، هو النّظر في أصول هؤلاء الضّلاّل الذين تشبّهوا بالفلاسفةِ المُحِقِّين، حتّى قبّحُوا أمرَهُم عند العامّة بوساوسِهِم وأباطيلِهم التي تدْعو إلى الإلْحاد، فإنّ تلك ظاهرةٌ مكشوفة مبذولة[1] لكلّ حاذق وقاذف؛ وهي غير مُنْدَفِنَة ولا مكْتومة؛ واختلافاتهم وقوانينُهم المتناقضة غير معدومةٍ؛ ولكن ليس فيها برهانٌ واضحٌ تَقبَلُهُ العُقُولُ، ولا قوّةٌ كَامِنَةٌ فَتَجْتَذِبُ القلوب. والرّاغبون فيها، على مِقْدار قوّة ذلك الكلام.

وليْس هو كقوّة كلامِ الأنبياء (ع) والكتُبِ المُنزّلَةِ التي قد جذبت قلوب الخلائق من الخاصّ والعامّ، والعالم والجَاهِلِ؛ وكثيرٌ ممَّن قَبِلَ كلام الأنبياء والكتُب المُنزّلة، لا يعرفون ما فيها؛ ولكنّ تلك القوّة جمعت الأنفس على محبّتها؛ حتّى جعلوها شِعَارَهُم ودثارهم، وحلّت في قلوبهم، وجذبتها إلى قبول ذلك، كما تجْذِبُ القوّة التي في حجر المغناطيس الحديد.

فكذلك في الكتب المُنزّلة، قوّة كامنة مُستتِرة[2] فيها، تجذب القلوب؛ حتّى قد صارت كتب الأنبياء (ع) مِثل الطّلّسمات في العالم.

وسوْف نشرحُ هذا الباب في موضعه، ونذكر في جواب قول المُلحِد في باب الإلف والعادةِ ما يجبُ إن شاء الله –تعالى–.

---

[1] في الأصل: مبذوله.

[2] في الأصل: مستسرة.

الفصل الثّامن

قوله في الضّعفاء من الرّجال والنّساء...!

وأمّا قوله في الضُّعَفَاء مِنَ الرّجالِ والنّساءِ والصّبيانِ، واجتماعهم على رؤساء أهلِ المِلّةِ، فإنّ هذه الطّبقاتِ من النّاسِ، إن كانت أنفُسَهُم لا تتخلّصُ من كدورة هذا العالم، حتّى ينظروا في الفلسفة، على ما ادّعاهُ المُلحِد، فإنّ الحكيم الرّحيم قد ظلمهم –عزّ تعالى عن ذلك– حين لم يرزقهم عقولاً تامّة قويّة تضبطُ الفلسفةَ، وتقْدر على النّظر فيها، حتّى تتخلّص من كدورة هذا العالم. ولا يجُوز في حكْمته وعِلْمِه أن يعين هذه الأنفس على أن تتجبّل في هذا العالم.

وتتّحد بهذه الأجساد الكَدِرَةِ، وتقَع في هذَا البلاء العظيم، فيلْزمون النّظر في أُمورٍ يعجزون عنها، ويكلّفون طَلَبَ ما لا يُطيقونَهُ. فإذا لم يفْعلوا، تركَهم يكرّون في هذا العالم، ويشقّون فيه، على أصلِ مقالة المُلحِد.

وهذا ظُلْمٌ، وتعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا؛ لأنّا نَجِدُ دهماء النّاس في هذه الأقاليم التي نناشدها، وكافّةَ الأمَمِ في سائر الأقاليم والجزائر من أهل الألسنة المختلفةِ، لا يدْرون ما الفلسفة، ولا يعْرفون كيفيّتها وحقيقتها، فضلاً عن النّظر فيها؛ إلاّ قليلاً مِنَ النّاس من أهلِ اللُّغَةِ العربيّة أو اليونانيّة، ولو عدّوا لسَهل تعْدادُهم؛ وسائر الخلائق، سبيلهم ما قد ذكرنا، ونعتدّ في ذلك بما نشاهدُه.

فأيْن الفلسفة بلسان الفُرْسِ، وبلُغاتها المختلفة في بُلْدانها؟ وهكذا سبيل سائر الأُمَم.

فأمّا النّساء والصّغارُ مِنَ النّاس الذين لم يبلُغُوا الاستعبادَ، والضُّعَفَاء من البالغين في جميع الأمصار والمُدنِ فيما قَرُبَ وَبَعُدَ، فَأَنْتَ يائسٌ مُنْقَطِعُ الرّجاء أن يرتاضوا بالفلْسفة، أو تبلغَها عقولُهم؛ لأنّا لا نجدُ فيلَسوفَاتٍ، ولا وِلدانًا، ولا ضعفاءَ مِنَ النّاس متفلسفين؛ والموتُ يجرى عليهم.

وحُكْمُ الأُمم التي في أطْراف الأرْض مِنْ أصنافِ العَجَم مثل الدَّيْلَمْ، والتُّرْكِ، والزّنج، والحَبَشَةِ، وسائر الأقاليم، حُكْمُ ما نُشاهدُه.

فإن كان الحكيم الرّحيم حرَمهم ذلك، ومنَعهم تلك القوّة، وبَخِلَ عليهم بتلك الآلة، حتّى عجزُوا عن النّظر في الفلسفة؛ ثمّ إذا ماتوا، يُعيدُهم على التّجبّل في هذا العالم والعوْد إليه على مذهب المُلحِد، أنّهم يكرّون فيه أبدًا، حتّى ينظروا في الفلسفة ، فتصفو أنفسهم.

فإنّ هذا لَظُلْمٌ غيرُ جائز في حكمة الحكيم ورحمة الرّحيم، حين لم يلهمْهم كافّة ما يحتاجون إليه في أمْر دِينهم ودُنياهم طبْعًا وفطْنة، وقد اختْار لهم أعْسَرَ الأُمور وحرَمهم أيْسرها.

وهو خِلافُ ما ادّعاه المُلحِد، أنّ الحكيم اختار لهم أيسَرَ الأمور، ولم يكلّفهم الأعسر، وألْهَمهم هذه الأسبابَ طبعًا. وزعَم أنّه لا يجوز في حكمة الحكيم النّاظر لخلْقه، إذا وجد السّبيل إلى أيْسر الأمور، أن يكلّفه عباده، فيدع ذلك ويكلّفهم الأعْسر، وألْهَمَهُم هذه الأسبابَ طَبْعًا. وزعَم أنّه لا يجوز في حكمة الحكيم النّاظِرِ لخلْقِهِ، إذا وُجِد السّبيل إلى أيْسر الأمور، أن يكلّفه عباده، فيدع ذلك ويكلّفهم الأعْسر؛ يُريدُ بذلك أنّه لم يكلّفهم طاعة الأنبياء والرّسل، فإنّها أعْسر الأمور؛ ولكن ألْهمهم ما يحتاجون إليه، ليُدركوه بطباعهم.

فأيْن ما ألْهم هؤلاء الضّعفاء من الرّجال، والنّساء، والولدان، وهذه الأُمم التي ذكرْناها؟

أوَ ليس ما يدين به أهل الشّريعة أوْلى بحكمة الحكيم ورحْمة الرّحيم، وأيْسر الأمور التي اختارها لبرّيته؟ لأنّ أهل الشّريعةِ قالوا: إنّ الخلائق كلّهم مُستَعْبَدونَ، مأمورنَ، مَنهيّون، مُجازون بأعْمالهم على قدْر نيّاتهم واجتهادهم؛ وإنّهم لا يُكلَّفون ما لا يُطيقون؛ وإنّ الضّعفاء من الرّجال، والنّساء، والولدان، الذين ليس في وسْعهم الطّلب والبحثُ، لمْ يُكلَّفوا ذلك؛ بل كلّفه العقلاءُ الأقوياءُ؛ فإذا قصّروا، عوقِبوا؛ وإذا اجْتهدوا، أُثيبُوا؛ وإذا عجزوا، فقد وَعَدَ الله أن يعفُوَ عنهم.

وبهذا نطَق القرآنُ، قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿إنّ الذينَ توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قَالوا فِيمَ كُنتمْ قالوا كنّا مُستَضْعِفِينَ في الأرضِ قالوا ألَم تَكُنْ أرْضُ الله واسعة فتُهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيرا إلاّ المستضعفينَ من الرِّجَالِ والنّساء والوِلدان لا يستطيعون حيلَةً ولاَ يَهتَدُونَ سبيلا فَأُولئكَ عَسَى الله أنْ يَعْفُوَ عَنْهُم وكَانَ اللهُ عَفُوّا غفُورًا﴾[1].

[1] سورة النّساء (4)، الآية 99.

فهذا شرْطه -عزّ وجلّ- على بريّته ولبريّته على لسان رسوله محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- الذي جعله سببًا بينه وبين خلْقه.

وهذا أشْبه بحكْمته ورحْمته، وأوْلى به؛ وهو أيْسَرُ الأمور عليهم مِنَ الذي ادّعاه المُلحِد.

وإذا كان الأمْر هكذا، فإنّ الضُّعفَاءَ من الرّجال، والنّساء، والولدان هُمْ معذورون في اجتماعهم على رؤساء أهل الملّة، والأخْذ عنْهم مقدار ما يُطيقون ممّا يرجون به خلاصهم من وبَالِ هذا العالم؛ وجائزٌ لهم التّقليد إذا لم يستطيعوا حيلَةً، ولم يهتدوا سبيلاً.

وتقْليدهم لهؤلاء الرّؤساء أوْلى من تقليدهم للمتفلسفين؛ لأنّ الرّؤساء من أهل الشّرائع يرغَبون في الثّواب العظيم على العمل الصّالح، ويرْهبون من العذاب الأليم على الظّلْم والفساد؛ والرّؤساء المُتفلسِفون من أهْل الإلْحاد، فلا رغْبة عندهم ولا رهبة.

فأيّ الأمْريْن أولَى بالاحتياط: الإقتداء برؤساء أهل الشّريعة، والأخْذ بالحزم، وتقليدهم إيّاهم؛ أم الإقتداء بالمُلحِدين، وتقليدهم في إهْمال الأمر؟! وأيّ الأمريْن أشبه بحكمة الحكيم ورحمة الرّحيم: ما ادّعاه المُلحِد، أم ما ادّعاه أهل الشّريعة؟!

كلاّ، لا وزْر للمُلحِد من هذا، ولا مَحيصَ؛ وليس في احتجاجه باجتماع الضّعفاء من الرّجال، والنّساء، والوِلْدان على رؤساء أهل الملّة برْهان على إبطال النّبوّة.

الباب الثّالث

الفصل الأوّل

قوله: الآن ننْظر في كلام القوْم وتناقضه

وأمّا قوله:

الآن ننْظر في كلام القوْم وتناقضه -يعني بذلك: كلام الأنبياء (ع)- وقال: زعَم عيسى أنّه ابنُ الله، وزعَم موسى أنّه لا ابن له، وزعَم محمّد أنّه مخلوقٌ كسائر النّاس؛ وماني وزرهِشْتُ[1] خالَفا موسى وعيسى ومحمّدًا في القديم، وكَوْنِ العَالَمِ، وسبب الخيْر والشرّ؛ وماني خالف زَرْهِشْتُ في الكونيْن وعِلَلِهما؛ ومحمّد زعَم أنّ المسيح لم يُقْتَلْ، واليهودُ[2] والنّصارى[1] تُنْكِر ذلك، وتزْعم أنه قُتِلَ وصُلِبَ.

---

[1] أو زردشت. وعاش زردشت في منتصف القرن السّابع قبل المسيح، وتوفّي على الأرجح سنة 582 ق. م. وُلد في أذربيجان، وولادته تشبه إلى حدّ بعيد ولادة المسيح. انتقل إلى فلسطين، واستمع إلى بعض أنبياء بني إسرائيل من تلاميذ النّبيّ أرميا، ثمّ عاد إلى أذربيجان، ولم تطمئنّ نفسه إلى اليهوديّة، فبدأ يدرس الأديان الفارسيّة القديمة. وحين بلغ ثلاثين سنة زعموا أنّه بعثه الله نبيّا ورسولا إلى الخلق. ونُسبت إليه معجزات كإحياء الموتى وردّ البصر. وأهمّ كتاب نُسب إليه هو *الأبستا* (أو *الأفستا*) وشرحه *الزّند أفستا*. ويظهر أنّ مذهبه الثّنوي في إرجاع أصل العلم إلى النّور والظّلمة يعود إلى مبدإ خلقي الخير والشرّ. فمذهبه الوجودي متّصل بالمشكلة الخلقيّة الأنطولوجيّة. فمن امتزاج النّور بالظّلمة وُجدت الأشياء وحدثت الصّور من التّراكيب المختلفة. وصراع النّور والظّلمة ينتهي بتغلّب النّور، وتخلّص الخير إلى عالمه وانحطاط الشرّ إلى عالمه. وقد أورد الشّهرستاني محاورات بين زرادشت وأومرزد، وفيه نزعة تشبيهيّة وعضويّة صريحة.

حول ترجمته راجع: *الملل* للشّهرستاني (طبعة كيلاني) ج1/ص236 و(طبعة بدران)، ج1/ص216؛ *التّبصير*، ص105؛ *المنية*، ص64؛ *نشأة الفكر الفلسفي*، ج1/ص191-ص192؛ *قاموس الفلسفة*، ص343؛ *مروج الذّهب*، ج1/ص229-ص230.

[2] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص210 إلى ص219): "هاد الرّجل: أي رجع وتاب. وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى -عليه السّلام-: "إنّا هدنا إليك": أي رجعنا وتضرّعنا. وهم أمّة موسى -عليه السّلام- وكتابهم التّوراة، وهو أوّل كتاب نزل من السّماء... واليهود تدّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى -عليه السّلام- وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة إلاّ حدود عقليّة

وذكَر هذه الأبوابَ وخلطَها بِحَشْوٍ كبيرٍ من دعاوَى المجوس[2] والثَّنْوِيَّةِ[3] وبدَعِهم؛ ثمّ قال: إنّ اليهود قالت إنّ موسى قال: إنّ الله قديرٌ غيرُ مُؤَلَّفٍ ولا مصنُوعٍ؛ وإنّه لا تنفعه المنافع، ولا تضرُّهُ المضارُّ؛ وإنّ في التّوراة: أن يضَعَ الشَّحْمُ على النّار ليشُمَّ الرّيحَ مِنْهُ الربُّ؛ وإنّ في التّوراة: أنّ قديم الأيّام في صورة شيْخ أبْيض الرّأسِ واللّحْيَةِ؛ وفيها: "مَا لَكُمْ تُقَرِّبُونَ إلَيَّ كلَّ عَرْجَاءَ وَعَوْرَاء؟! أتُرَاكُمْ لو أهْدَيْتُمْ ذلك إلى أصْدقائكم قَبلوه منْكم

وأحكام مصلحيّة... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرّجعة واستحالتها... وأشهر فرق اليهود هي: العنانيّة، العيسويّة، المقاربة واليوذعانيّة، السّامرة".

[1] المعهود في عصرنا استعمال لفظ: مسيحيّ. ولكنّ النّصوص القرآنيّة والحديثة لا تذكر غير لفظ: نصرانيّ، نصارى. وقد اختُلف كثيرا في معرفة إذا كانت مشتقّة أو منقولة عن صفة أو معربّة. فأرجعها البعض إلى "ناصريّ" نسبة إلى ناصرة، أو إلى "أنصاري"، باعتبار أنّ الحواريّين أنصار الله كما جاء في القرآن الكريم، وأرجعها آخرون -كالزّمخشري- إلى نصران ونصرانة، بمعنى أنّهم نصروا المسيح. وفي *موسوعة الدّين والأخلاق* (ج3/ص574) لفظة "نصرانيّة" و"نصارى" تطلق في العربيّة على أتباع المسيح. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سريانيّ هو: نصرويو Nosroyo ونصرايا Nasraya. ويرى البعض الآخر أنّها من Nazarenes التّسمية العبرانيّة التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح.

انظر: *تفسير الرّازي*، ج3/ص105؛ *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586؛ *القاموس الإسلامي* لهيوقس، ص431؛ *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هــ. جب، ص440 إلى ص444.

[2] في *موسوعة الإسلام المختصرة* (ج /ص298): "اللّفظة مرّت قبل وصولها إلى اللّغة العربيّة بنقل من اللّغة الفارسيّة إلى الآراميّة". واللّفظة وردت في القرآن الكريم في الآية 17 من سورة الحجّ. وفي *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245): "المجوسيّة دين قديم، وإنّما زرادشت جدّده وأظهره وزاد فيه، قاله شيخنا، قال: هو معرّب أصله منج كوش معرّب مجوس". ومسائل المجوس، كما يذكر الشّهرستاني في *الملل* (ج1/ص232) تدور على قاعدتين اثنتين : أوّلهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة؛ وثانيهما: بيان خلاص النّور من الظّلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا. وقد قسّمها إلى ثلاث جماعات: الكيومرثيّة: الذين أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن، والأوّل أزليّ والثّاني محدث. والزّروانيّة: قالوا: إنّ الله أبدع أشخاصا من نور كلّها روحانيّة نورانيّة ربّانيّة، ولكنّ الشّخص الأعظم الذي اسمه زروان شكّ في شيء من الأشياء، فحدث أهرمن الشّيطان، يعني إبليس. والزّرادشتيّة.

[3] الفرق بين الثّنويّة والمجوس أنّهم -أي الثّنويّة- يقولون بقدم الأصلين، وأنّ النّور والظّلمة عندهم أزليّان.

إلاّ صحيحًا؟!"؛ وفيها: "اتّخِذُوا إليَّ بِساطًا من أُبْرَيْسمْ دقيق الصّنعة، وخِوانًا من خَشَبِ الشّمشارِ".

ثمّ قال المُلحِد: هذا، بكلام أهل الفاقة أشبهُ مِنْهُ بِكَلامِ الغنيّ الحميد. وذكَر أشياء كثيرة ممّا هي في التّوراة، وعابها.

وقال: زَعَمَت النّصارى أنّ عيسى قديمٌ غير مَرْبُوبٍ، وأنّهُ قال: "جئتُ لأتمّم التّوراة"؛ ثمّ نسخ شرائعها، وبدّل قوانينها وأحكامها؛ وأنّ النّصارى زعمتْ أنّه أبٌ، وابنٌ، ورُوحُ القُدُس.

وذكَرَ ما تدّعيه المجوسُ عن زَرَادِشْتَ في باب أهرِمن وارمزد؛ وما ادّعاه ماني: أنّ الكلمةَ انفَصَلَت من الأب، ومزّقت الشّياطين، وقتلَت؛ وأنّ السّماء من جلُود الشّياطين؛ وأنّ الرّعد جرجرة العفاريت؛ وأنّ الزّلزلة تحرّك الشّياطين تحت الأرْض؛ وأنّ ماني رفَع سابور الذي عمل له "الشّابرقان" في الجوّ، وأخْفاه حينًا هناك؛ وأنّ مانيكان يُختطف من بين أيْديهم بروحه يحاذي به عيْن الشّمس، فربّما مكَث ساعة، وربّما مكَث أيّامًا.

فأوْرد مثل هذه المُحالات التي ابْتَدعها المُبتدِعون في المجوسيّة والمنّانيّة[1]، وخلَطها بما في الكتب المُنزّلة وآثار الأنبياء، وأضافها إلى رُسل الله الطّاهرين الذين هم بَراءٌ من كلّ ذلك.

[1] هو دين استحدثه ماني من النّصرانيّة والمجوسيّة. وهو ماني بن فاتك -أو فتّق-، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من " العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولا للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.
انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفراييني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *الملية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250- ص251.

وزعَم أنّ هذا من رسُومهم، وأنّ هذا اختلافٌ وتناقضٌ في كلامهم؛ واحتجّ بذلك في دفْع النّبوّة، وأراد أن يستظْهر بهذه المخاريق والخرافات، ويقوّي كلامه بهذه الأباطيل والسّخافات.

ولَعمري قد افْتقر مَن أراد أن يطفئ نور الله بالمُحالات التي تدّعيها المنّانيّة، والزّنادقة، وغيرهم من الضُّلّال في كلّ أمّة: ﴿والله متمُّ نورهِ ولوْ كَرِهَ الكافرونَ﴾[1].

فنقول في جوابه:

أمّا الذي ذكَره عن المجوس والمنّانيّة، فإنّ المُلحِد قصَد في ذلك التّشْنيع على أهْل المِلل؛ وليست له حجّة في إيراد تلك المحالات التي ابْتدعها المنّانيّة والمجوس على إبطال النّبوّة؛ فإنّ تلك بدع الضّلال، مثلها يُنْسَب إلى الفلسفة؛ وسنذْكره في موْضعه -إن شاء الله تعالى-.

فأمّا الذي ذكَره أنّه في التّوراة، وفي الإنجيل، وفي غيرهما من الكتب المُنزّلة، وما ادّعاه من التّناقض في القرآن؛ فإنّ أكثر ذلك أمثال مضروبة، منها ما معانيها واضحة، ومنها مُسْتغلَقة؛ وليس هناك اختلافٌ ولا تناقضٌ؛ وهو كلّه حقٌّ وصدقٌ؛ وإنّ الأنبياء لم يخْتلفوا.

وكلامُهم الذي يقدّره الجهّال أنّه متناقضٌ، فإنّه إن اختلفت ألْفاضه، فإنّ المعاني فيه متّفِقة؛ لأنّ الأنبياء والحُكماء كان أكثر كلامهم مرموزًا، وكانوا يخاطبون الأمم بالحكمة، ويضربون الأمثال؛ فيسْمعها الخاصّ والعامّ؛ فيعقل ذلك عنهم العُلماء والخواصُّ الذين كانوا يقفون على أسرار الأنْبياء (ع)، ثمّ يعلّمون المُستحقّين من النّاس؛ ليكون في النّاس عالِمٌ ومُتعلّمٌ، وخاصٌّ وعامٌّ؛ وليكون الامْتحان قائمًا فيهم بذلك.

ومَن نظر في ظاهر ألْفاظهم، ولم يعْرف معانيها، حكَم فيه بالتّناقض والاخْتلاف.

هكذا كانت رُسُوم الأنبياء (ع)، وهو الأصْل الصّحيح الذي كان يعْتقده العُلماء في كلّ ملّة، مَن مضَى منهم في الشّرائع القديمة، ومَن غبر في هذه الأمّة.

وبهذا نطَقت الكتب المُنزّلة، ودلّت عليه جميع كتب الحكماء، وبه أخْبر العلماء.

وهذه شريطة موجودة أيضًا في كتب الفلاسفة الحكماء المحقّين؛ ففيها كلامٌ مُغلَقٌ، يحتّاج المتعلّم فيه إلى مَن يحلّه له، حتّى يصل إلى معْرفته.

---

[1] سورة الصفّ (61)، الآية 8.

وَمَنْ جهله، وقلّ فيه برأيه، أخْطأ فيه؛ حتّى اختلفوا، وتقوّلوا على القدماء، وطعنوا عليهم في مذاهبهم؛ كما اختلفوا في أمر أرسطاطاليس[1]؛ فمنهم مَن قضي عليه في كلامه أنّه مُوحِّد، وقضَى آخرون بغيْر ذلك؛ هذا حين جهلوا رموز كلامه.

فسبيل الكتب المُنزّلة، وكلام الأنبياء (ع)، والأخبار التي رُويت عنهم على ما ذكرنا.

ويجب أن ينْظر في شأن هذه الكتب المُنزّلة وأخبار الأنبياء (ع) التي ادّعى المُلحِد أنّها مستحيلة، وأنّ فيها تناقُضًا؛ فإنّ مَن كان تُنْسَب إليه هذه الأخبار صادقًا عاقلاً مُميّزًا عند أهل زمانه، فالأمْر فيه على ما ذكرنا.

وإن كان مَن تُنْسَبُ إليه هذه الكتب وتُسْنَدُ إليه هذه الأخبار كذوبًا مجنونًا معتوهًا عند أهل زمانه لا يَعْقِلُ ما يقول، جاز أن يُحْكَم فيها بالتّناقض والكذب، على حسب[2] ما ادّعى المُلحِد؛ لأنّه لا يجوز أن يورِد العاقِل المميّز الكامل كلامًا متناقضًا وقولاً مستحيلاً يخالف بعْضه بعضًا، ولا يجوز أن يكون عاقلٌ مميّزٌ يشْهد لغيره بالصّدق والنّبوّة، ويزْعم أنّه على مناهجه، وأنّه يريد أن يشيّد بنْيانه، ثمّ ينْقض كلامه ويهْدم بنْيانه؛ مثل ما ادّعاه المُلحِد من تناقض كلام الأنبياء، والخلاف من بعضهم على بعض، وهدْم بعْضهم بنْيان بعض.

---

[1] يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطرن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر، فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، و يسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف له. فمن ذلك قول سمّاه *تالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه خرميس في العفّة، قولان سمّاهما *القيبادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245-ص246. بيروت. د. ت.

[2] في الأصل: حب.

فإن كان الأئمّة الذين أُخِذت عنهم هذه الكتب، ورُوِيَتْ عنهم هذه الأخبار، مثل: موسى، وعيسى، ومحمّد (ع) معروفين بالجهْل، والغباوة، والحمْق، والجنون، فالقول فيه ما قال المُلحِد –ونعوذ بالله أن يكون كذلك–؛ بل الأئمّة الذين يقتدي بهم أصحاب الشّرائع، مثل موسى، وعيسى، ومحمّد، وغيرهم من الأنبياء (ع)، كانوا مشهورين بالكمال، والعقل، والتّمييز، والسّياسة، والجمع لكلّ خُلق محمود؛ وكيف لا يكون كذلك، مع سياستهم للأنام، وجمعهم إيّاهم على شرائعهم؟!

وكما اتّفقت الأمم التي شاهدت محمّدًا –صلّى الله عليه وسلّم– أنّهم وجدوه تامًّا في عقْله، وحلْمه، وأناته، وتدْبيره، وسياسته للخاصّ والعامّ، وكماله في جميع الخصال التي يحتاج إليها السّائس للبريّة.

فأقرّت قريش أنّهم وجدوه أكْمل أهْل دهْره، وأجْمعهم للخِصال الحميدة؛ وكانت قريش تسمّيه "الصّادق الأمين" قبْل أن قام بالنّبوّة؛ حتّى إنّهم لمّا اجْتمعوا لبناء البيت، لأنّه كان قد انتقض بناؤه؛ فحضر من كلّ بطْن من بطون قريش رؤساؤهم، وتعاونوا على بنائه، لكي لا تكون تلك المنقبة لبعضهم دون بعض.

فلمّا أرادوا أن يضعوا[1] الحجر الأسود موْضعه، اختلفوا وتنافسوا في ذلك؛ ثمّ اتّفقوا على محمّد –صلّى الله عليه وسلّم–، وقالوا: "رضينا بحُكْم الأمين". فحضَر (ع)، وأمَر أن يبسط ثوبٌ، ويوضع عليه الحجر؛ وأن يأخذ رئيس كلّ قبيلة طرفًا من الثّوب، ثمّ يرفعوها معًا، ففعلوا؛ ثمّ تناوله هو –صلّى الله عليه وسلّم–، فوضَعه في موْضعه؛ فرضوا[2] بذلك ثقة منهم به، واعتمادًا على رأيه، وأمانته، وعقله، وصدْقه؛ وبذلك كانوا يعْرفونه، حتّى ظهر بالنّبوّة.

فلمّا ظهر بالنُّبوّة، وعاب دينهم، وما كانوا يعْبدونه من دون الله، عادوه، ونابذوه، وقالوا: "يا محمّد، إنّا عرفْناك صدوقًا أمينًا، فما هذا الذي قد أتيْتنا به؟!".

فأنْزل الله –تعالى– في ذلك، فقال: ﴿فإنّهم لا يُكَذِّبُونَكَ ولَكِنَّ الظّالِمِينَ بآياتِ الله يَجْحَدُونَ﴾[3]، أي: لا يجدونك كذّابًا، ويعْرفونك بالصّدْق؛ ولكن يظْلمون أنفسهم، ويجْحدون الحقّ، ويستنْكفون منه.

---

[1] في الأصل: يضيعوا.

[2] في الأصل: فرفضوا.

[3] سورة غافر (40)، الآية 63.

فإن قال قائل: فلِمَ قالوا له إنّك مجنون حتّى أنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوا عنهُ وقالوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾[1]، وأنْزل قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رسولَهُمْ فهُم لَهُ منكرون أم يَقُولُون به جنّة بل جاءهم بالحقّ وأكثرهم للحقّ كارهون﴾[2]؟

قلنا: إنّهم لم يعنوا بهذا أنّه مجنون معتوه، ولكنّهم ادّعوا أنّ له تابعًا من الجنّ يعلّمه، وعلى هذا المعنى قالوا به: جنٌّ؛ لأنّهم لمّا وجدوا للأشياء التي يُخْبر بها حقيقة من الأمور الغائبة التي كان يذْكرها، ثمّ يجدونها كما يقول، قالوا: "هذا له رئيٌ مِنَ الجنّ، وتابعٌ يلقي[3] إليه هذه الأمور".

وهكذا قالوا لِمَن تقدّم من الأنبياء، كما ذكر الله في قصّة نوح: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّة فتَرَبَّصُوا بِهِ حتّى حِيْنٍ﴾[4].

وفي قصّة موسى (ع) حكاية عن فرعون[5] حين قال: ﴿إِنّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[1]، ثمّ قال على إثر هذه الآية التي أظْهرها من العصا واليد: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أن يُخْرِجَكُمْ من أرضكم بسحرِه﴾[2].

---

[1] سورة الدخان (44)، الآية 14.

[2] سورة المؤمنون (23)، الآيتان 69-70.

[3] في الأصل: يلقى.

[4] سورة المؤمنون (23)، الآية 25.

[5] خلص جمهور المؤرّخين إلى أنّ فرعون المشار إليه في الكتاب العزيز هو رمسيس الثاني. كان ابن الملك سيتي الأول والملكة تويا، وزوجته الملكيّة هي الملكة نفرتاري المحبوبة له، كما كان له عدد من الزوجات الثانويّات ومن ضمنهم زوجته إيزيس نوفرت وماعت حور نفرو رع، والأميرة حاتّي. وبلغ عدد أبنائه نحو 90 ابنة وابن منهن: بنتاناث ومريت أمن، ستناخت. ومن أبنائه الأمير مرنپتاح الذي خلف والده كملك على عرش مصر. وأخيرًا الأمير خعامواست الذي رمم آثار أجداده. مثل معظم ملوك المصريّين، فقد كان لرمسيس عدة أسماء. أهم اثنين منهم: اسمه الملكي واسمه الأصلي يظهران بالهيروغليفية أعلى إلى اليسار. وتلك الأسماء تُكتب بالعربية كالتالي: وسر معت رع - ستب ان رع، والاسم الثاني : رع مسو - مري أمون، ومعناهما: "قوي رع وماعت، المختار من رع ،ويعني الاسم الثاني بالعربية: روح رع، محبوب أمون". في النّسخة الحيثية من معاهدة السلام المذكورة آنفًا مع حاتّوسيليس الثالث، بإن اسم الملك يظهر كالتّالي: وَشْمُوَارع شَتِيْنَرع رعمَشيشَ مَيْأمَنَ. لان طبعا هذا هو رمسيس. قاد رمسيس الثّاني عدة حملات شمالاً إلى بلاد الشام، وفي معركة قادش الثانية في العام الرابع من حكمه (1274 ق.م.)، قامت القوّات المصرية تحت قيادته بالاشتراك مع قوات مُواتالّيس ملك الحيثيين استمرت لمدة خمسة عشر عاما ولكن لم يتمكن أي من الطرفين هزيمة الطرف الآخر.

فكيْف يجوز أن يعني بقوْله: "مجْنونٌ" أنّه معْتوه، ثمّ يقول إنّه ﴿لَساحرٌ عليمٌ يريدُ أن يخْرجكم من أرْضكم بسحْرِه﴾[3]؟ فكيف يكون المَجنُون ساحِرًا عليمًا؟!

وكيْف يخاف فرعون من مجْنون أن يخْرجه من أرْضه؟

ولكنّه أراد بقوله: "مجْنونٌ"، أي له رأيٌ من الجنّ؛ لأنّه كان يُخبرهم بأشياء تصحّ، فقالوا هذا من جهة الجنّ. ولمّا رأوا الآيات، قالوا: هذا سحرٌ. فلم يكن قولهم لمحمّد: مُعلِّمٌ مَجْنونٌ، وبه جِنّة، طعنًا عليه في عقْله، وكماله، وتمام فهْمه، وتمْييزه.

فكيف يجوز أن يظنّوا به الجنون مع الأمور العظيمة الجليلة التي كانت تُرى منه؟!

ألاَ ترَاه يقول -عزّ وجلّ-: ﴿أم لم يَعْرفوا رَسُولَهُم فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُون﴾[4]، يعني: أم لم يعرفوه بالصّدق والأمانة، فهُم ينْكرون عقله ويتّهمونه بالكَذب؛ وقد عرفوه بالصّدق والأمانة؟!

وقال -عزّ وجلّ- أيضًا: ﴿مَا أَنْتَ بنِعْمَةِ ربِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[5]، قوله: ﴿بنعْمة ربّك﴾[6]، كما يقول: ما أنت بحمْد الله بمجْنون.

وبالتالي ففي العام الحادي والعشرين من حكمه (1258 ق.م.)، أبرم رمسيس الثاني معاهدة مع حاتّوسيليس الثالث، وهي أقدم معاهدة سلام في التّاريخ. قاد رمسيس الثاني أيضًا عدة حملات جنوب الشلال الأول إلى بلاد النوبة، وقد أنشأ رمسيس مدينة (بر رعميس) في شرق الدلتا ومنها أدار معاركه مع الحيثيين وقد أدّى البعض أنّه قد اتّخذها عاصمة جديدة للبلاد وهذا بالطبع غير صحيح فلقد كانت عاصمة البلاد في مكانها في طيبة وأعظم ما ترك من معابد وآثار تركها هناك. دفن الملك رمسيس الثاني في وادي الملوك، في المقبرة kv7، إلا أن مومياؤه نُقلت إلى خزانة المومياوات في الدير البحري، حيث اكتُشفت عام 1881م بواسطة جاستون ماسبيرو ونقلت إلى المتحف المصري بالقاهرة بعد خمس سنوات، كان رمسيس يبلغ ارتفاع قامته 170 سم، والفحوص الطبية على مومياءه تظهر آثار شعر أحمر أو مخضب، ويعتقد أنه عانى من روماتيزم حاد في المفاصل في سنين عمره الأخيرة، وكذلك عانى من أمراض في اللثة.

[1] سورة الشّعراء (26)، الآية 27.

[2] سورة الشّعراء (26)، الآية 35.

[3] سورة الشّعراء (26)، الآيتان 34-35.

[4] سورة المؤمنون (23)، الآية 69.

[5] سورة القلم (68)، الآية 2.

[6] سورة القلم (68)، الآية 2.

ثمّ قال على إثْر ذلك: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، قالوا في تفسيره: الخُلُق العظيم هو القرآن؛ يعني: أنّ الذي تورّده ليس هو من الجنّ، بل هو القرآن العظيم الذي هو وحْيٌ من الله –عزّ وجلّ–.

فإذا كان الإمام في مثل حال محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– من كماله، وجَمعه للخصال الحميدة كلّها التي تكون في النّاس من الصّدق، والأمانة، والعقل، والحلم، والرّزانة، والوقار، وحسن الخُلُق، والتّواضع، والسّخاء، والوفاء، والشّجاعة، ورقّة القلْب، والتّعطُّف على مَن آمن به وتبعه، والعفْو عمَّن كفَر به وخالَفه عند ظفره به، وغير ذلك من كلّ خصْلة محمودة تكون في النّاس؛ فلا يجوز أن يُتَّهم مَن يكون في مثْل هذه الحال بأنّه يتكلّم بما يعرف غيره فيه التّناقُضُ والاختلاف، ويجْهل هو ما يتكلّم به؛ فإنّ محمّدًا –صلّى الله عليه وسلّم– قد كان يجْمع هذه الخصال كلّها.

ونحن نذْكر منها[2] ما هي مشْهورة عنه، ليُعرَف صدْق ما ذكرْناه –إن شاء الله تعالى–.

---

[1] سورة ( )، الآية.

[2] في الأصل: منه.

الفصل الثّاني
في حلية الرّسول - صلّى الله عليه وسلّم- وشمائله

وأمّا الصّدق والأمانة، فقد ذكرنا طرفًا منه: وأنّ قريشًا كانت تسمّيه بـ"الصّادق الأمين"، لثقتهم به، ومعرفتهم إيّاه بالصّدق قبل ظهوره بالنّبوّة.

وقد ذكرنا تراضيهم به في باب بناء البيت، وأنّهم اختاروه من بينهم أجْمعين، ورضوا بحكمه؛ وهم المعْرفون بأصالة الرّأي والعُقول الرّصينة من بين جميع العرب.

وأمّا السّخاء، فإنّه كان لا يدّخر[1] شيئًا، وكان يأخذ من أغنياء أصحابه صدَقات أموالهم ويفرّقها على فقرائهم، ولا يدّخرها[2]، ولا يقْتني عقارًا؛ والذي كان يصير إليه في سهْمه من الغنائم، وغير ذلك ما يفضل من قوته، كان يشتري به عقارًا يجعله صدقة؛ فقد كان اشترى بساتين، وتصدّق بها؛ وهي معْروفة إلى يومنا هذا.

وكان لا يمْسك يده عن بذْل ما يملكه، حتّى رُوِيَ أنّ سائلاً سأله، ولم يكن يملك ما يعطيه، فأعطاه ثوْبه الذي كان عليه. فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنقك ولاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدْ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[3].

وأمّا الحِلْم والعفوُ، فكان أحْلم النّاس.

ولمّا فتح مكّة، وفيها أعداؤه الذين عادوه، وأخرجوه من داره، وأجْلُوه عن أهله ووَطنه، ولم يدعوا المكْر به، والاحتيال في قتْله، وطلب الغوائل عليه؛ فنادَى في أصحابه، وأمرَهم أن لا يقتلوا أحدًا بعد فتح مكّة إلاّ أربعة نفر، أمَر أن يُقتلوا، ولو وُجدوا تحت

---

[1] في الأصل: يذخر.

[2] في الأصل: يذخرها.

[3] سورة الإسراء (17)، الآية 29.

أستار الكعبة؛ لأنّهم استوْجبوا ذلك بعظائم كانت منهم، وبقتلهم قومًا من المسلمين[1] غيلة، وارتدادهم عن الإسلام.

ثمّ أتاه بعضهم بعدُ تائبًا، فعفَا عنه، وقبل توْبته.

وأخْبارهم مشهورة، تركْنا إطالة القوْل بها.

ونادَى في النّاس، قبل أن تضع الحرب أوْزارها، أنّ: "مَن دخَل دار أبي سفيان[2]، فهو آمنٌ؛ ومَن أغلق بابه على نفسه، فهو آمنٌ".

---

[1] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج1/ص40-ص41): "فرق في التّفسير بين الإسلام والإيمان. والإسلام قد يرد بمعنى الاستسلام ظاهرا، ويشترك فيه المؤمن والمنافق. قال الله تعالى: (قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) (سورة الحجرات (49)، الآية 13)، ففرّق التّنزيل بينهما. فإذا كان الإسلام بمعنى التّسليم والانقياد ظاهرا موضع الاشتراك، فهو المبدأ؛ ثمّ إذا كان الإخلاص معه بأن يصدّق بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، ويقرّ عقدا بأنّ القدر خيره وشرّه من الله تعالى، بمعنى أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ كان مؤمنا حقًّا. ثمّ إذا جمع بين الإسلام والتّصديق، وقرن المجاهدة بالمشاهدة، وصار غيبه شهادة؛ فهو الكمال. فكان الإسلام مبدأ والإيمان وسطًا والإحسان كمالاً، وعلى هذا شمل لفظ المسلمين: النّاجي والهالك".

[2] هو: أبو سفيان واسمه صخر بن حرب بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وكنيته: أبو سفيان، وكذلك أبو حنظلة. أمّه: صفية بنت حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهي عمّة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث. وكان أبو سفيان في شبابه سيد بني عبد شمس بن عبد مناف، ثم نال سيادة جميع بطون قريش بعد معركة بدر بعد مقتل عتبة بن ربيعة العبشمي وأبو الحكم عمرو بن هشام المخزومي، ثمّ نال سيادة جميع فروع قبيلة كنانة في معركة أحد وبقي على هذا حتى فتح مكّة. وكان أبوه حرب بن أمية قائد جيوش بني كنانة في حرب الفجار ضد قبائل قيس عيلان. وهو أوّل مَن كتب باللغة العربية، وأخته هي أم جميل أروى بنت حرب التي ذكرت في القرآن الكريم بوصف حمالة الحطب، وابنته هي أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان وزوجة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وابنه معاوية بن أبي سفيان هو أوّل ملوك الدولة الأموية. صفية بنت أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان أنجبت له حنظلة وهو بكره وكذلك أمّ المؤمنين أمّ حبيبة وأميمة: هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة

وعفًا عن أبي سفيان، وكان أكْبر أعدائه، ومن المحرّضين على قتْله قبل هجرته، وعلى قتاله بعد هجرته، وصاحب العير يوم بدْر، وصاحب الجمع يوم أُحُد، وفي غيرهما من الغزوات قبل فتح مكّة؛ ومن المنافقين الخاذلين المخذلين عنه يوم حُنين، ومن المنافقين

بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له معاوية وعتبة وجويرية وأم الحكم. زينب بنت نوفل بن خلف بن قوالة بن جذيمة بن علقمة بن فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له يزيد. عاتكة بنت أبي أزيهر بن أنيس بن الخيسق بن مالك بن سعد بن كعب بن الحارث بن عبد الله بن عامر بن يشكر بن مبشر بن صعب بن دهمان بن نصر بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد وأنجبت له محمد وعنبسة. صفية بنت أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له عمرو وعمر وصخرة وهند. أمامة بنت سفيان بن وهب بن الأشيم من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له رملة الصغرى. لبابة بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له ميمونة. كان قائدًا للقافلة التي حاول المسلمون قطع الطريق عليها والتي أدت لموقعة بدر ولما استطاع أبو سفيان بخبرته سلوك طريق آخر وصل منه سالما لمكة بالقافلة فرأى أنه لا داعي للحرب طالما أن القافلة عادت سليمة إلاّ أن أبا جهل عمرو بن هشام أصر على محاربة المسلمين فوقعت موقعة بدر وكان عدد المسلمين بها 314. كان أبو سفيان سيد قريش وكنانة بعد أحد فكان رسول الله حريصًا على هدايته. فلمّا جاء الفتح، أخذ العبّاس– عمّ رسول الله– أبا سفيان إلى النّبيّ، فقال الرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "من دخل بيت أبا سفيان فهو آمن"، فأسلم يوم فتح مكة. شهد أبو سفيان معركة حنين، وكان يقاتل بجوار نبي الله، وعمره 70 سنة، فلم يفر مع من فر من المسلمين. ثمّ في حصار الطائف، رماه سعيد بن عبيد الثقفي وكان مشركا بسهم فأصاب عينه، فجاء إلى النبي قائلا: "هذه عيني أُصيبت في سبيل الله، فقال له رسول الله: "إن شئت دعوت فردت عليك، وإن شئت فالجنة"، فقال: "الجنّة". ثم شارك في معركة اليرموك ضد الروم وكان من أكبر المسلمين عمرًا وقتها، إذ كان عمره وهو يقاتل في اليرموك 76 سنة. توفّي في المدينة المنورة، واختلف سنة موته والمتفق عليه أنه مات بين سنة 30 هـ وسنة 34 هـ، وصلى عليه خليفة المسلمين وقتها عثمان (ع)، ودفن في البقيع، وعمره بين 92 و 96 سنة.

انظر ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب؛ الإصابة في تمييز الصحابة؛ الطبقات الكبير؛ أسد الغابة في معرفة الصّحابة.

الباذلين أموالهم لمَن حاربه، فعَفَا -صلّى الله عليه وسلّم- عنه وقَبل إسلامه ابْتغاءَ مرضاة الله وإيثارًا لطاعته فيما أمر به في شأن المنافقين.

وعَفَا عن امرأته هند بنت عتبة[1]، وقد بقرت بطْن حمزة[2] حين استُشهِد يوم أُحد، وأكلت كبده، وقالت فيه:

شَفَيْتُ مِنْ حَمْزَةَ نَفْسي بِأُحُد حينَ بَقَرتُ بَطْنَهُ عَنِ الكَبد

فأتتْه مُظهِرة للإسلام بعد فتح مكّة، وبعد [أن] كانت تحرّض[3] النّاس على القتال يوم فتح مكّة، وتشتم أبا سفيان وتوبّخه -حين استأمن-، وتُقبّحُ فعْله؛ فعفَا عنها بعد أن أظفْره الله بها، وقبِل إسلامها، وحلم عنها؛ وحمزة عمّهُ، وأعزُّ النّاس عليه، وأسد الله وأسد رسوله.

وقبل إسلام وحشيّ غلام جبير بن مطعم[4]؛ وهو الذي زرق حمزة بالحربة، وقتَله؛ فحلم عنه، وآثر رضاءَ نفسه.

---

[1] هند بنت عتبة العبمشية القرشية الكنانية، أبوها عتبة بن ربيعة سيد من سادات قريش وبني كنانة، عرف بحكمته وسداد رأيه. وهي إحدى نساء العرب اللاتي كان لهم شهرة عالية قبل الإسلام وبعده. زوجة أبي سفيان بن حرب، وأمّ الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. وكانت امرأةً لها نَفسٌ وأنفة، ورأي وعقل. شهدت أحدًا كافرة مع المشركين، ومثّلت بحمزة بن عبد المطّلب -عمّ رسول الله محمّد-. وكانت من النّسوة الأربع اللّواتي أهْدر الرّسول دماءهنّ يوم فتح مكّة، ولكنه عفا وصفح عنها حينما جاءته مسلمة تائبة حيث أسلمت يوم فتح مكة بعد إسلام زوجها أبي سفيان بليلة.

[2] حمزة بن عبد المطلب (55 ق هـ- 3 هـ، 567 م - 624 م) هو عم النبي محمّد -صلّى الله علية وسلّم-، وأخوه من الرّضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، وهو شقيق صفية بنت عبد المطلب أمّ الزّبير. كان موصوف بالشّجاعة والقوّة والبأس حتّي عرف أنّه أعزّ فتى في قريش وأشدهم شكيمة، وكان يُلقّب بـ أسد الله وأسد رسوله. وكان يوم قتل ابن تسع وخمسين سنة، ودُفن هو وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد. تزوّج من أروى بنت عميس وأنجبت له فاطمة. وأروى بنت عميس هي أخت أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب.

[3] في الأصل: تتحرض.

[4] جُبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي النوفلي، يكنى أبا محمد، وقيل: أبا عدي، أمه أم حبيب، وقيل: أم جميل بنت سعيد، من بني عامر بن لؤي، وقيل: أم جميل بنت شعبة بن عبد الله بن قيس من بني عامر بن لؤي، وأمّها: أم حبيب بنت العاص بن أمية بن عبد شمس؛ قاله الزّبير. وكان من حلماء قريش وسادتهم، وكان يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب قاطبة، وكان يقول: أخذت النّسب عن أبي بكر الصديق ، وجاء إلى النّبيّ فكلمه في أسارى بدر، فقال: "لو كان الشيخ أبوك

ولمّا فُتحت مكّة، هرب صفوان بن أمّية، وهو سيّد قومه، وكان شديد العداوة لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-؛ فمضَى يريد جدّ، فقال عُمير بن وهب[1]: "يا نبيّ الله،

حيًّا فأتانا فيهم لشفعناه". وكان لأبيه المطعم بن عدي عند رسول الله يد، وهو أنه كان أجار رسول الله لمّا قدم من الطائف، حين دعا ثقيفاً إلى الإسلام، وكان أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب، وإياه عنى أبو طالب بقوله: "الطويل"

أمطعم إن القوم ساموك خطة ** وإني متى أوكل فلست بوائل

وكانت وفاة المطعم قبل بدر بنحو سبعة أشهر، وكان إسلام ابنه جبير بعد الحديبية وقبل الفتح، وقيل: أسلم في الفتح. وروي عن ابن عباس أن النبي قال ليلة قربه من مكة في غزوة الفتح: "إن بمكة أربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم في الإسلام: عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو". روى عنه سليمان بن صرد، وعبد الرحمن بن أزهر، وابناه: نافع ومحمّد ابنا جبير. أخبرنا أبو محمد أرسلان بن بغان الصوفي، أخبرنا أبو الفضل أحمد بن طاهر بن سعيد بن أبي سعيد الميهني الصّوفي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الشيرازي، أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب، حدثنا عمر بن حفص السدوسي، أخبرنا عاصم بن عليّ، أخبرنا إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن محمّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: "أتت النبي امرأة فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله، أرأيت إن رجعت فلم أجدك؟ كأنها تعني الموت، قال: "إن لم تجديني فأتي أبا بكر". وتوفّي جبير سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة ثمان، وقيل: سنة تسع وخمسين. أخرجه الثلاثة.

[1] هو عمير بن وهب بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. كانت قصة إسلامه: أنه جلس مع صفوان بن أمية في الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان أبنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فقال صفوان: والله ما إن في العيش بعدهم خير قال له عمير : دقت، أما والله لولا دين علي ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم عليه، ابني أسير في أيديهم، فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: علي دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم علي شأني وشأنك. قال: سأفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطّاب في نفر من المسلمين يتحدّثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم في عدوهم، إذا نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ راحلته على باب المسجد متوشّحا السّيف فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلاّ لشر، وهو الذي حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر، ثمّ دخل عمر على رسول الله فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه، قال: فأدخله علي، قال: فأقبل عمر حتّى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها،

إنّ صفوان بن أميّة قد خرج هاربًا ليُغْرق نفسه في البحر، فأمّنه". قال -صلّى الله عليه وسلّم-: "هو آمن"، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكّة. فخرج عُمير ولحقه، فرجع وقال: "يا محمّد ألَيْس قد أمّنتني؟". قال: "نعم". قال: "فخيّرني في نفسي شهريْن". قال: "قد خيّرتك أرْبعة أشهر".

وعفَا عن كثير من أعدائه الذين ارْتكبوا العظائم؛ حتّى قال أبو سفيان: "ما رأيْنا أحْلم منك يا رسول الله!".

وجاءه بعد ذلك قومٌ من الشّعراء، قد كانت ضاقتْ عليهم الأرض بما رحبت، بعد أن كانوا قد هجوه أقبح هجاء، وحرّضوا عليه بشِعرهم، مثل: عبد الله بن الزّبعري، مع كثرة أشعاره في هجائه، وشدّة عداوته، وتحريضه عليه. فأتاه مُعتذِرًا وهو يقول:

يَا رَسُولَ المَلِيكِ إنّ لساني ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بورُ

وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنّه غير مأمون. ثمّ دخل به على رسول الله، فلما رآه رسول الله وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا ثم قال: أنعم صباحا، وكانت تحيه أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة قال: أما والله يا محمّد إن كنت بها لحديث عهد، قال: فما جاء بك يا عمير، قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف في عنقك، قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت شيئا، قال: اصدقني ما الذي جئت له، قال: ما جئت إلاّ لذلك، قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمّدا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدين وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك. فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنّا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضره إلاّ أنا وصفوان، فوالله إنّي لأعلم ما أتاك به إلاّ الله. فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق. ثمّ شهد شهادة الحقّ، فقال رسول الله: فقّهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن وأطلقوا أسيره، ففعلوا. ثمّ قال: يا رسول الله إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمَن كان على دين الله، وأنا أحبّ أن تأذن لي، فأقدم مكّة فأدعوهم إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام لعلّ الله يهديهم، وإلاّ آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله فلحق بمكة، وكان صفوان بن أميّة حين خرج عمير بن وهب يقول: ابشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتّى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف ألاّ يكلّمه أبدًا ولا ينفعه بنفع أبدا، قال ابن إسحاق: فلمّا قدم عمير مكّة أقام بها يدعو إلى الإسلام يؤذي من خالفه أذى شديدًا، فأسلم على يديْه ناس كثير.

إذا أجاري الشّيطان في سنن الغيّ ومَن مال ميله مثبورُ
آمنَ اللّحمُ والعظامُ بما قلـ ـتَ فنفسي الفِدى وأنت النّذيرُ

فقال: -صلّى الله عليه وسلّم- له: "قد أمّنك الله"، وقبل إسْلامه، وعفَا عنه.

ومثل كعب بن زهير[1] الذي كان يهجوه ويؤذيه بهجائه، فأتاه تائبًا مسلمًا، وقال في شعْرٍ له يمْدحه، ويسأله العفْو:

---

[1] هو كعب بن زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رياح بن العوام بن قُرط بن الحارث بن مازن بن خلاوة بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن لاطم بن عثمان بن مزينة، ؟ - 13 ق. هـ / ؟ - 609 م. أم كعب امرأة من بني عبد الله بن غطفان يقال لها كبشة بنت عمار بن عدي بن سحيم، وهي أم كل ولد زهير. تاريخ مولد شاعر الإسلام كعب بن زهير مجهول تقريبًا. إلاّ أن كثيرًا من مراجع التاريخ والأدب أكّدت أنّ كعب بن زهير بن أبي سلمى توفّي نحو سنة 662 م / 24 هـ. كعب بن زهير بن أبي سلمى أحد الفحول المخضرمين ومادح النّبيّ الأمين، كان كعب قد بلغ من الشّعر والشهرة حظًّا مرموقًا حين دعا نبيِّ الله إلى الإسلام، وإذا اسلم أخوه بجير وبّخه واستحثه على الرجوع عن دينٍ لم يكن عليه أحد من أبائه، فهجاه كعب ثم هجا رسول الله عليه الصلاة والسلام، فسمع النبي شعره فتوعده وأهدر دمه، فهام كعب يترامى على القبائل أن تجيره فلم يجيره أحد، فنصحه أخوه بالمجيء إلى النبي مسلمًا تائبًا، فرجع بعد أن ضاقت الأرض في وجهه، وأتى المدينة وبدأ بأبي بكر ودخل المسجد وتوسل به إلى الرسول فأقبل به عليه وآمن وأنشد قصيدته المشهورة بانت سعاد، فعفا عنه النّبيّ، وخلع عليه بردته فسميت قصيدته بالبردة . ثمّ حسن إسلامه وأخذ يصدر شعره عن مواعظ وحكم باهتداء من القرآن الكريم وظهرت المعاني الإسلامية في شعره من أن الله هو رازق لعباده وغير ذلك. وإلى جانب هذه القصيدة الشهيرة التي حققت له شهرة كبيرة فإن لكعب بن زهير إنتاجا شعريا متنوعا جمع بعضه أو معظمه في ديوان يحمل اسمه. أمّا موضوعات شعره، فهي كغيرها من موضوعات الشعر الجاهلي، تتراوح بين الفخر والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وبعض الحكم، لكن النقاد يفرقون في شعره بين اتجاهين متباينين لأن إسلام كعب قد غير في نهج شعره وأمده بكثير من الصور، ورقق ألفاظه ومعانيه حيث كان كعب في الجاهلية يميل إلى الشدة والتقعر وخاصة في وصف الصحراء وحيوانها، بينما بعد الإسلام نراه كما يقول النقاد يميل إلى إرسال الحكمة والى الابتعاد عن الموضوعات الجاهلية. لكعب ديوان غير مطبوع، ليس فيه، إذا استثنينا قصيدة (بانت سعاد) إلاّ المقطوعات القصيرة التي نُظمت في الأغراض المعروفة من مديح وغزل وهجاء ورثاء وما إلى ذلك. أمّا أجود شعر له بالاتفاق فهو قصيدته (بانت سعاد) التي تدعى أيضًا (البردة) والتي تعدّ من المشوبات، وهي لاميّة من البحر البسيط لا تتجاوز 58 بيتًا، وقد صار لتلك القصيدة شهرة واسعة، وتناولها العلماء بالشرح والتفسير، كما تناولها الشعراء فشطّروها وخمّسوها وعارضوها. أمّا أقسام القصيدة، فهي تقسم إلى ثلاثة أقسام: توطئه غزلية على عادة الشعراء الأقدمين (من البيت 1 إلى 12). وصف النّاقة التي تبلغ بالشّاعر

نُبِّئتُ أنّ رسولَ الله أوْعدني والعفوُ عِند رسولِ الله مأمولُ

فقال –صلّى الله عليه وسلّم–: "قد عفوتُ عنك"، وقَبل إسْلامه.

وكذلك عَفَا عن شعراء كثيرين كانوا يهْجونه[1] ويؤذونه بهجائهم، لمّا[2] كان الملوك وذوو القدرة يقتلون بأصْغر من ذلك.

وأمّا الشّجاعة، فإنّه –صلّى الله عليه وسلّم– غزَا بنفْسه ثلاث عشرة غزوة، ما ولّى الدّبرَ في شيء منها.

ولمّا اشتدّ القتال يوم أحُد، واشتغل كلّ امرئ بنفْسه واستحرّ القتْل في النّاس، صمَد له فرسان قريش، وتعاقدوا، وتحالفوا على قتْله، واحتوشوه، وحاربوه بكلّ سلاح، حتّى رموه بالحجارة. فصبر لهم، حتّى شُجّ في وجهه، وسالت الدّماء على لحْيته، وغاب من حلْق المغفر في جبهته، وأصيبت رباعيّته، وجرح في شفّته؛ وأقبل أُبيٌّ بن خلف[3]،

إلى المحبوبة (من البيت 13 إلى 33). اعتذار ومدح للنّبيّ محمّد والمهاجرين (من البيت 34 إلى 58). أمّا الذين شرحوها فكثيرون منهم ابن دريد، والتبريزي، وابن هشام، والباجوري، والسيوطي، وقد طبعت مراراً في الشرق وفي أوربة، تارة على حدة وتارة في مجامع أدبيّة. فطبعت في لندن سنة 1748 م، ثمّ في ليبسيك سنة 1871 م، ثمّ في برلين سنة 1890 م، ثمّ في باريس وقسطنطيلة سنة 1904 م؛ وطبعت في بيروت سنة 1931 م، وتُرجِمت إلى لغات كثيرة منها اللاّتينية، والفرنسيّة، والألمانيّة، والانجليزيّة، والإيطاليّة, والفارسيّة.

[1] في الأصل: **يهجرونه**.

[2] في الأصل: **بما**.

[3] هو أبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب القرشي، الجحمي، المعروف بالغطريف. من شخصيّات ورؤساء قريش في الجاهلية، وأحد كفّار ومشركي العرب في بدء الدّعوة المحمدية. كان من ألدِّ خصوم النّبيّ وأكثرهم إيذاء له، وأشدّهم استهزاءً به وإحجاجًا عليه. لم يقف إيذاء كفار مكّة للنّبيّ والصّحابة عند حدّ، فكان تارة بالتعذيب والتنكيل وتارة بالطرد واغتصاب الحقوق.. وتارة ثالثة بالحرب النفسية. ومن ذلك ما أقسم به عدو الله أبيّ بن خلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله .. فلمّا بلغ قسمه الرسول قال: "أنا أقتله إن شاء الله". وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله، فيقول: يا محمد إن عندي فرسا أعلفه كلّ يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه. فيقول الرّسول: "بل أنا قاتلك إن شاء الله". وتحقّقت النبوءة في يوم أحد، عندما أسند النّبيّ في الشّعب بعد أن شاع مقتله في المشركين والمسلمين، ولكنّه شقّ الصّفوف وكذّب الشائعة، فأدرك أبيّ بن خلف وهو يقول: أين محمّد؟ لا نجوت إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منّا؟ فقال رسول الله : دعوه فلما دنا منه تناول النّبيّ الحربة من حارث بن الصمة، ثمّ استقبله وأبصر ترقوته، فطعنه فيها طعنة تدحرج منها عن فرسه

وهو يقول: "لا نجوْتُ إن نجا محمّدا!"؛ وكان يقول بمكّة: "إنّ لي عُودًا أعلّقه وأضعه، لأقتل عليه محمّدًا". فبلغ ذلك النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–، فقال:" أنا أقْتله –إن شاء الله–".

فلمّا أقبل ذلك اليوم، عارضه عليّ[1] (ع) مع قوم من المسلمين، يريدون منعه من رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–؛ فقال–صلّى الله عليه وسلّم– لهم: "خلُّوا سبيله"؛ فبرز إليه وتناول حربة، فطعنه بها في فرجة بين البيضة والمغفر في عنقه، فصرعه.

ثمّ نهض أُبيٌّ، وانهزم عنه، وأتى أصحابه، وهو يخور كما يخور الثّور؛ فقالوا له: "لا بأس عليك، إنّما هو خدشٌ"! فقال: "أليس قد قال إنّه يقتلني؟ والله لو كانت هذه الخدشة بأهل ذي المجاز، لماتوا كلّهم منها".

ويوم حنين، لمّا انهزم أصحابه –صلّى الله عليه وسلّم–، وذهبوا في كلّ وجه، وقف في حومة الحرب ومعه عليّ (ع) مع نفر يسير من أصحابه، والنّبال والسّهام عليه –صلّى الله عليه وسلّم– مثل قطر المطر؛ وهو ينادي:" هلمّوا إليّ! أنا محمّد ابن عبد الله، أنا محمّد رسول الله!"؛ وما ولّى حتّى أتاه النّصر من الله –عزّ وجلّ–.

ومقاماته في غزواته، وما ظهر من شجاعته، يطول الشّرح به.

وأمّا الوقار والرّزانة، فإنّه كان أوْقر[2] النّاس مجلسًا، وأعْظمهم هيْبة في صدور النّاس.

مرارا، فلمّا رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشا غير كبير فاحتقن الدم قال: قتلني والله محمّد، قالوا له: والله ذهب فؤادك، والله إن بك من بأس، قال أبيّ: إنّه قد كان قال لي بمكّة: "أنا أقتلك"، فوالله لو بصق عليّ لقتلني". فمات عدوّ الله وهم راجعون به إلى مكّة، وكان يخور خوار الثور ويقول: "والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعًا". وكان أبيّ بن خلف الكافر الوحيد الذي قتله رسول الله، وما سُمع أنّه قتل بعدها أحدًا.

[1] واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هامش بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى. وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لمّا قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.

حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

[2] في الأصل: أقر.

وكان إذا قعد بين أصحابه، قعدوا حوله كأنّما على رؤوسهم الطّير هيْبة له؛ يهابونه هيْبة الملوك مع بشاشته بهم وبجميع النّاس، وحسْن خُلُقه؛ فإنّه كان أحْسن النّاس خُلُقًا وخَلقًا.

وكان يأمر أصحابه بمحاسن الأخلاق، ويحثّهم على ذلك، ويقول:" أَقْرَبُكُمْ إِلَى الله أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا"، وقال: "إنّ العَبْد لَيبلغ بحسْن الخُلُق درجة الصّائم القائمِ"، وقال: "ليسَ عَمَلُ في الميزان أثقل من حسْن الخلُق".

وما رُوِي عنه نحْو هذا كثير ممّا كان يأمر[1] به، ويحثّ عليه.

وكان لا يطرب ولا يمزح، ولا يطيش ولا يبطش في فرح ولا غضب. وترد عليه الأمور العظيمة البشارة، فلا يستخفّ لها.

وكان جلّ غضبه أن تحمرّ وجنتاه، فيملّك نفسه، ويدرّ العرق من عرق بين عينيْه، فلا يتزعزع، ولا يبطش بيد ولا لسان؛ وما رُئي قطّ قهقه، واستغْرب لضحك، وكان جلّ ضحكه التّبسّم.

وكانت ترد عليه الأمور العظيمة التي يُمتَحن بها، فلا يتزعزْع لها؛ بل كان يظهر الوقار الشّديد، والرّكانة، ويحتسب، ويحمل الصّبر؛ حتّى أمَر الله -عزّ وجلّ- أمّته أن يتأسّوا به في الذي ينوبه من محَن الدّنيا، وأن يتأبّدوا بأدبه، فقال -جلّ ذكره-: ﴿لَقدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يرجُو الله واليوم الآخر﴾[2].

وأمّا الوفاء، فإنّه كان أوْفى النّاس بعهْد وذمّة، وأوْكدهم حرمة.

قد كان بعث خالدًا بن وليد[3] إلى بني جثيمة، ولم يبْعثه مقاتلاً، بل بعثه داعيًا؛ فأجابوه إلى الإسلام. وكانت بين خالد وبين القوم ترة في الجاهليّة، فقال لهم: "ضعوا سلاحكم". فلمّا وضعوا السّلاح، كتّفهم وعرضهم على السّيف.

---

[1] في الأصل: يأمروا.

[2] سورة الأحزاب (33)، الآية 21.

[3] خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي. توفي سنة 21 هــ/642 م صحابي وقائد عسكري مسلم، لقّبه الرسول بسيف الله المسلول. اشتهر بحسن تخطيطه العسكري وبراعته في قيادة جيوش المسلمين في حروب الردّة وفتح العراق والشام، في عهد خليفتي الرّسول أبي بكر وعمر في غضون عدّة سنوات من عام 632 حتى عام 636. يعدّ أحد قادة الجيوش القلائل في التّاريخ الذين لم يهزموا في معركة طوال حياتهم، فهو لم يهزم في أكثر من مائة معركة أمام قوات متفوّقة عدديًّا من الإمبراطورية الرّوميّة البيزنطية والإمبراطورية السّاسانية الفارسيّة وحلفائهم، بالإضافة إلى العديد من القبائل العربيّة الأخرى.

فلمّا انتهى خبرهم إلى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- رفع يديْه إلى السّماء، وقال: "اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع". وزعم خالد أنّه لم يقتلهم، حتّى امتنعوا من الإسلام.

فبَعث رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- عليًّا (ع)، وبعث معه مالاً، وقال: "اجْعل أمْر الجاّهلية تحت قدميْك"؛ فخرج إليهم، وودَ الدّماء والأموال، حتّى وداهم ميلغة الكلب، وبقيت معه بقيّة من المال، فقال: "هل بقي لكم دم أو مال؟". قالوا: "لا". قال: "فهذه البقيّة لكم احتياطًا لرسول الله-صلّى الله عليه وسلّم- ممّا لا أعلم وممّا لا تعلمون".

فلمّا رجع، قال له النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: "أحسنتَ وأصبتَ".

وكانت بيْنه وبيْن العرب هدْنة بعد فتح مكّة أن لا يُمنعوا عن البيت، وأن لا يُخافوا. فنزلت سورة "براءة"، وأمَره الله أن يردَّ إليهم عهْدهم؛ فدفع الآيات من أوّل سورة "براءة" إلى أبي بكر[1]، وبعثه إلى الموسم، وأمَره أن يقرأها على النّاس.

فنزل جبرائيل (ع) وقال له: "إنّه لا يبلّغها إلاّ أنت أو رجل منك". فبعث عليًّا (ع)، فأخذ الصحيفة من أبي بكر بعد أن لحقه في طريقه، ومضى.

فلمّا وافى "مِنى" يوم النّحر، أذّن في النّاس حتّى اجتمعوا، فقرأها، وردّ إليهم عهدهم: أن لا يحجّ بعد هذا العام مُشرِكٌ، ولا يطوف بالبيت عريانٌ؛ ومَن كان له عند

اشتهر خالد بانتصاراته الحاسمة في معارك اليمامة وألّيس والفراض، وتكتيكاته التي استخدمها في معركتي الولجة واليرموك. قبل إسلامه، لعب خالد بن الوليد دورًا حيويًا في انتصار قريش على قوات المسلمين في غزوة أحد، كما شارك ضمن صفوف الأحزاب في غزوة الخندق. ومع ذلك، اعتنق خالد الدين الإسلامي بعد صلح الحديبيّة، شارك في حملات مختلفة في عهد الرسول، أهمها غزوة مؤتة وفتح مكّة. وفي عام 638، وهو في أوج انتصاراته العسكرية، عزله الخليفة عمر بن الخطّاب من قيادة الجيوش، ثمّ انتقل إلى حمص حيث عاش لأقلّ من أربع سنوات حتّى وفاته ودفنه بها.

[1] هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة -واسمه عثمان- بن عامر، من ولد تيم ابن مرّة -تيم قريش-. كان اسمه فى الجاهليّة عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- عبد الله، ولقبه عتيق، لُقّب به لجمال وجهه -رضي الله عنه-، وسمّي صدّيقًا لتصديقه خبر المسرى. وأمّه سلمى وتكنى أمّ الخير بنت صخر، وهي بنت عمّ أبيه. بويع له يوم الاثنين الذي توفّي فيه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وتوفّي بالسلّ ليلة الثّلاثاء، وقيل يوم الجمعة، لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، وسنّه ثلاث وستّون سنة. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيّام، وصلّى عليه عمر -رضي الله عنه-. ودُفن في حجرة عائشة ورأسه بين كتفي رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-.

حول ترجمته راجع: ابن خلّكان، *وفيّات الأعيان*، ج3/ص64 إلى ص71؛ *الرّياض النّضرة*؛ الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*؛ *غاية النّهاية*.

رسول الله عهْد أو ذمّة، فهو إلى مدّة أربعة أشهر، ليرجع كلّ قوم إلى مأمنهم من بلادهم؛ ثمّ لا عهْد بعد ذلك لمُشرِك، إلاّ مَن كان له عهد عند رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- إلى أجَل معلوم، فعلى رسول الله الوفاء بذلك.

فلو شاء أن يكابرهم قبل أن يرجعوا إلى ديارهم، ويُوقِع بهم، لَفعل؛ ولكنّه أراد أن يفي بذمّتهم، ولم يغزهم في ديارهم ولم يرعبهم؛ حتّى أخذوا حذرهم وفاءً بعهدهم، واجتنابًا للخديعة، والمكْر بهم.

وأمّا التّواضع، فإنّه -صلّى الله عليه وسلّم- مع رفيع منزلته، وهيبته في صدور النّاس، كان يبادر مَن لقي بالسّلام؛ وكان لا يتقدّم أصحابه إذا مشى؛ ويقف للصّغير والكبير، والغنيّ والفقير، والنّساء والرّجال؛ ولا ينْصرف عمَّن يقف له، حتّى ينْصرف عنه صاحبه؛ ولا يقوم في مجْلسه عن جليسه، حتّى يقوم عنه؛ ويقعد حيث ينْتهي به صاحبه؛ وكان الفقير والضّعيف أقرب إليه من الغنيّ والقويّ، حتّى إنّه رُئِي واقفًا على عجوز حتّى أعيَا. فقيل له: "يا رسول الله، أطلتَ الوقوف على هذه المرأة!"، فقال: "إنّها عجوز كانت تأتينا أيّام خديجة[1]، وإنّ حسن العهْد من الإيمان".

---

[1] أبوها: خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .وخويلد هذا جد الزبير بن العوامّ. وأمّها: فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وفاطمة هذه هي عمّة ابن أمّ مكتوم. ولدت سنة 68 قبل الهجرة 556 م في مكّة، لكن هذا يتعارض مع سنها حين وفاتها وهذا ما أثبته البيهقي أن خديجة عنها توفيت وعمرها خمسين سنة، وهو أصحّ. وقال الحاكم: "أنّها لم تبلغ الستّين سنة". وقد مات والدها يوم حرب الفِجّار. يُروى أنّها تزوّجت مرّتين قبل زواجها بمحمّد بن عبد الله ﷺ من سيدين من سادات قريش هما: عتيق بن عائذ المخزومي وقد انجبت منه ابنة (هند)، وأبو هالة بن زرارة التميمي وأنجبت منه جاريه وغلاما (هالة، هند). وقد كانت خديجة تاجرة ذات مال، وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة، فبلغها أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ يدعى بالصادق الأمين وأنه كريم الأخلاق، فبعثت إليه وطلبت منه أن يخرج في تجارة لها إلى الشّام مع غلام يدعى "ميسرة"، وقد وافق. لم تمض إلا فترة قصيرة حتى سارع لطلب الزواج من خديجة وفي صحبته عمّاه "أبو طالب وحمزة، ابنا عبد المطّلب". وتزوّج محمّد ﷺ من خديجة. كان عمر الرّسول محمّد ﷺ عندها 25 عامًا وعمر أم المؤمنين السيدة خديجة 40 عامًا. كان قد مضى على زواجها من محمّد 15 عامًا، وقد بلغ محمّد الأربعين من العمر، وكان قد اعتاد على الخلوة في غار "حراء" ليتأمّل ويتدبّر في الكون. وفي ليلة

وفي حديث آخر: أنّه بسط لها رداءه، وقال: "إنّ هذه من صدائق خديجة، وإنّ حسْن العهد من الإيمان".

وفي حديث آخر: أنّ خالته من الرّضاعة أتته، فبسط لها رداءه.

وكان يأكل على الأرض ويقول: "إنّما أنا عبد آكل كما يأكل العبْد".

وكان لا يذمّ ذواقًا، ولا يمْدحه.

فهذه أخلاقه، ذكرنا منها على الاختصار، ولو شرحنا محاسنها لَطال الوصْف بها.

وأمّا خَلْقه في اعتداله، وحُسْن صورته، وجماله التي يحْكم بها أصحاب الفراسة، ويستدلّون بها على تمام عقل الإنسان؛ فإنّه كان مُشتهرًا بالجمال، واعتدال الصّورة.

وكان مُعتدِل القامة، أطْول من المربوع، وأقْصر من المشذّب، عظيم الهامة، رجل الشّعر، واسع الجبين، أزجّ الحواجب سوابغ في غير قرن، أقْنى العينيْن، له نور يعْلوه، يحسبه مَن لم يتأمله أشمّ، كثّ اللّحية، سهل الخدّين، ضليع الفم، أشنب، مفلّج الأسنان، كان يفترُّ عن مثل حبّ الغمام، واسع الصّدر، بعيد ما بين المنكبيْن، طويل الزّنديْن، رحب الرّاحة، سبط القصب، سائل الأطراف، خمصان الأخمصيْن، مسيح

القدر، عندما نزل الوحى على محمد وانطلق إلى منزله خائفًا يرتجف، حتى بلغ حجرة زوجتة خديجة فقال: "زملوني"، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: "مالي يا خديجة؟، وحدثها بصوت مرتجف، وحكى لها ما حدث... وقال "لقد خشيت على نفسي". فطمئنته قائلة: "والله لا يخزيك الله أبدا... إنّك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق"" فكانت أوّل من آمن برسالته وصدّقه.... فكانت بهذا أوّل مَن أسْلم من المسلمين جميعا، وأوّل مَن أسْلم من النّساء. وتوفّيت "خديجة" قبل هجرة محمد إلى يثرب بثلاث أعوام، وكان عمرها 65 عاما. وذكر البيهقي أنّ خديجة توفّيت وعمرها خمسين سنة، وهو أصحّ. وقال الحاكم: "أنّها لم تبلغ الستين سنة". أنزلها محمّد بنفسه في حفرتها وأدخلها القبر بيده، ودفنها بالحجون (مقابر المعلاة بمكّة المكرّمة).

انظر ترجمته في: دلائل النبوّة للبيهقي ج 2 ص 71؛ المستدرك على الصّحيحين للحاكم ج 11 ص 158؛ أنساب الأشراف ج 2 ص 35؛ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي للعصامي ص 185؛ دلائل النبوة ج 1 ص 178؛ مقتل الخوارزمي ج 1 ص 36، والمستدرك على الصحيحين للحاكم ج 11 ص 157؛ كشف الغمّة للإربلي ج 2 ص 135؛ البداية والنّهاية لابن كثير ج 2 ص 360، السيرة النبوية لابن كثير ج 1 ص 265؛ دلائل النّبوّة للبيهقي ج 2 ص 71؛ المستدرك على الصّحيحين للحاكم ج 11 ص 158.

القدميْن، خافض الطّرف؛ نظره إلى الأرْض أكثر من نظره إلى السّماء، لا يسارق النّظر ولا يلاحظ، بل كان يلتفتُ جمعًا، ولا ينظر شزرًا نظر المسارق ونظر التّعادي؛ لأنّ الذي ينظر شزرًا، يكون متجسّسًا أو مُضمْرًا حقدًا؛ فتنزّه عن هذه الخليقة المذمومة، وصان نفسه عنها؛ فكان إذا الْتفتَ، يلتفت جمعًا.

وإن ذكرْنا صفة خلْقته المُستحسَنة الجامعة لكلّ جمال، طال شرْحها.

وذكرْنا هذا المقدار، مُختصَرًا من الذي رُوي عن ربيبه هند بن أبي هالة التّميمي[1]، وكان أوْصف النّاس له ممّا قاله، لأنّهم شاهدوه -صلّى الله عليه وسلّم-، ووجَدوه -صلّى الله عليه وسلّم- بهذه الصّفة.

هذا، دون ما وصفتْه به أمُّ معبد لزوجها، لمّا نزل عندها وحلب شاة حائلاً حتّى درّت باللّبن؛ ودون ما وصفَه به غيرها من الخِلَق الجميلة.

وذكرْنا ذلك، لأنّ الفلاسفة يحْكمون بالفراسة، ويستدلّون بمثل هذه الصّفة على عقْل الإنسان وكماله.

فمَن الذي وُجد في العالم وذُكر أجْمع منه لهذه الخصال؟ لأنّ مَن ذُكر بالأمانة والصّدق، كان مُنفرِدًا بتلك دون غيرها من الخصال؛ وكذلك مَن ذُكر بالسّخاء أو بالحِلْم أو بالشّجاعة أو بالوفاء أو بغير ذلك، كان ينْفرد بتلك الخصلة دون غيرها.

فكان -صلّى الله عليه وسلّم- قد برَع النّاس وفاقَهم أجمعين، في جميع هذه الخصال؛ حتّى لا يقاوِمه أحدٌ، ولا يُذكَر له في العالم نظيرٌ قد جمع هذه الأخلاق والخِلْق.

ثمّ كان أنْضر النّاس عُودًا، وأعلاهم شرفًا، وأفْخرهم منْصبًا.

شعْبه أفضل الشّعوب، وقبيلته أفضل القبائل، وعشيرته أفضل العشائر.

قد ولده الأنبياء والرّسل: آدم، وشيث، ونوح، وسام، وإبراهيم، وإسماعيل (ع).

ثمّ ولده كِرام النّاس وكِرام العرب، ثمّ كِرام مضر، ثمّ كِرام كنانة، ثمّ كِرام قريش، ثمّ كِرام بني هاشم. ومناقب أجداده ظاهرة، وكرائم أخلاقهم مذكورة في الزّمن الأوّل:

كان مضر أفضل عدنان، وكان يفكّ العاني، ويطْعم الطّعام.

وكان كنانة أفضل مضر، وكان يأنف أن يأكل وحْده. فإذا لم يجد مَن يأكل معه، أكَل لقمة ورمى بلقمة إلى صخْرة قد نصبها بين يديْه، أنفَة من أن يأكل وحْده.

---

[1] وهند هذا هو ربيب رسول الله أمه خديجة بنت خويلد، وأبوه أبو هالة.

وكان قريش قد فاق العرب بأصالة رأيه وتدْبيره.

وكان قُصَيّ أفضل قريش، واسْمه "زيد" وسُمّي "مجمعًا"، لأنّه جَمع قبائل قريش، وأنزلها مكّة؛ وفيه يقول القائل:

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ كَانَ يُدْعَى مَجْمَعًا   به جَمْعَ اللهُ القَبَائِلَ مِنْ فَهْرِ

وكان هاشم أفْضل قريش واسمه "عمرو" فسُمّي هاشمًا، لأنّه كان يهشم الثّريد ويطْعم الحاجّ والنّاسك. وكان يقْعد على كرسيّ من ساسم، ويختصر بقضيب من خيزران، وجزور تُنحر، وأخرى تُطبخ، وأخرى تُساق لتُنْحَرْ، ومناديه ينادي: "يا وفْد الله! هلمّوا إلى الغداء!"، وآخر ينادي: "ألا مَن تغدّى، فليرح العشاء!".

وأمّا عبد المطّلب، فكان حكمهم، ومفزعهم في النّوائب، وموئلهم في الأمور.

وكان يرْفع من مائدته في رؤوس الجبال للطّير، ويطْعم الحجيج ويسقيهم، وسوْطه للسّفيه قائم.

وكان يُقال له: "شَيْبَةُ الحمد"؛ وأجْدبت قريش، فاستسقت به؛ فوضَع عبد المطّلب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- على عاتقه، وهو يومئذ طفل، وارْتقى أبا قبيس؛ وأقْبلت قريش تدفٌ حوله، وطافوا به وهو يدعو؛ فما راحوا حتّى انفجرت السّماء بمائها وسالت الأوْدية، وقريش تقول: "هنيئا لك يا أبا البطحاء، بك عاش النّاس!".

وقال فيهم شاعرهم:

بِشَيْبَةِ الحَمْدِ أَسقَى اللهُ بَلْـدَتَنَـا   وَقَدْ فَقَدْنَا الحَيَا واجْلَوّذَ المَطَرُ

مُبَارَكُ الوجهِ يُستَسقَى الغَمَامُ بِهِ   مَا فِي الأَنَامِ لَهُ عِدْلٌ وَلاَ خَطَرُ

وأمّا عبد الله، فكانت غُرّة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- ظاهرة بين عيْنيْه؛ ورأتْه امرأة، فعرفت أنّ لتلك الغرّة شأنًا، فراودته عن نفسه؛ فعصمه الله، ودخل على آمنة بنت وهب[1] امرأته، فواقعها؛ فحملت برسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وتحوّلت تلك الغرّة إلى وجْهها.

---

[1] هي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأمّها: برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وتندرج "آمنة بنت وهب" من بني زهرة بن كلاب وهم أحد بطون قريش ذات المكانة العظيمة، فقد كان

ثمّ لقيته المرأة بعد ذلك، فقال كالمجرّب لها: "هل لك فيما قلتِ لي؟"، فقالت: "قد كان ذلك مرّة، فاليوم لا". فصار ذلك مثلاً.

وكانت له من الله عصمة، وكان رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يقول: "نقلتُ مِنْ طُهْرٍ إِلَى طُهْرٍ مَا مَسَّنِي سِفاح الجاهليّة".

فهذه صفته -صلّى الله عليه وسلّم- وأخلاقه المشهورة، وخلقته الطّاهرة، وفخره الباذخ؛ ولا يدفع ذلك إلاّ مباهات؛ لأنّ قريشًا، والعرب، وسائر الأمم الذين شاهدوه، عرفوه بذلك، واعْترفوا به.

فهو -صلّى الله عليه وسلّم- جمَع هذه الخصال كلّها، وفاق النّاس أجْمعين فيها؛ وحقّ له أن يكون كذلك.

وقد اخْتاره الله -عزّ وجلّ- من جميع ولد آدم من أوّل الدّهر إلى آخره، وفضّله عليهم أجمعين؛ وأعطاه من القوّة الشّديدة، والنّصرة الظّاهرة، والغلَبة القاهرة، والمُلك العالي على جميع الممالك في الدّنيا، ما لم يعْطه أحدًا من عباده؛ ومضى -صلّى الله عليه وسلّم- من الدّنيا، وقوّته باقية في العالم، تزداد على مرّ الأيّام؛ وما أعدّ الله في آخرته، فأكْبر درجات وأكبر تفضيلاً.

أبوها وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة شرفا وحسبا، ولم يكن نسب "آمنة" من جهة أمها، دون ذلك عراقة وأصالة فهي ابنة "برة بنت عبد العزى" من بني عبد الدار بن قصي أحد بطون قريش .ويؤكد هذه العراقة والأصالة بالنسب اعتزاز الرسول بنسبه حيث قال: "لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا، لا تتشعب شعبتان إلاّ كنت في خيرهما."ويقول أيضا" :أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا". حان الوقت التي كانت "آمنة" تترقبه حيث بلغ محمدّ السّادسة من عمره بعد العناية الفائقة له من والدته. وظهرت عليه بوادر النضج. فاصطحبته إلى أخوال أبيه المقيمين في يثرب لمشاهدة قبر فقيدهما الغالي، ومكثت بجوار قبر زوجها ما يقارب شهرا كاملا، وهي تبكي وتتذكر الأيام الخوالي التي جمعتها مع زوجها بينما محمّد يلهو ويلعب مع أخواله. وإثر عاصفة حارة وقوية هبت عليهم تعبت "آمنة" في طريقها بين البلدتين. فشعرت "آمنة" بأن أجلها قد حان، وكانت تهمس بأنّها ستموت، ثمّ أخذها الموت من بين ذراعي ولدها الصغير وفارقت هذه الدنيا. فأخذته "أم أيمن" فضمت المسكين إلى صدرها وأخذت تحاول أن تفهمه معنى الموت حتّى يفهمه.

انظر ترجمته في: سيرة ابن هشام المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج بن الجوزي.

فإن قال قائلٌ: إنّه قد كان في الدّنيا مَن كان أشدّ قوّة في مُلكه وسلْطانه، وأظهَرَ غَلَبَةٍ، مثل الإسكندر وغيره من ملوك الأرض.

قلنا: هؤلاء ملكوا في عصْرهم وغلبوا في دهْرهم، فلمّا ماتوا، زال ذلك عنهم؛ ورسْم محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- باقٍ إلى الأبد، وعزّه وشرفه متّصلان بالقيامة.

وكذلك كان سبيل موسى وعيسى (ع)، وإن لم يبلغَا منزلة محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، فإنّهما جمعَا الخصال الجميلة؛ وكان كلّ واحد منهما أكْمل أهْل زمانه، وأجْمعهم لكلّ أمر يحتاج إليه الإمام في سياسة النّاس دينًا ودنيًا، كما ظهر في موسى من الأفعال العظيمة والآيات العجيبة.

وإن كان المُلحِدون ينْكرونها، فإنّهم لا يقدرون على أن يطعنوا في عقْله، واستحْكام فمه، وحسْن تمييزه، وكمال تدبيره، لأنّ أفعاله العظيمة، التي كانت منه، لا تتمّ إلاّ لكمال عقل مؤيّد حازم.

فإنّه خرج من مصر وأنقذ بني إسرائيل من عبوديّة فرعون، وهم ستّمائة ألْف رجل بالغ سوى النّساء والذّراري، بما أعطاه الله من القوّة ولطْف له من التّدبير؛ وعبر بهم البحر، فأتبعهم فرعون بجنوده، حتّى كان من أمْره ما كان. ثمّ ساسهم أربعين عامًا في المهامة والقفار تلك السّياسة العجيبةَ، مع تلوّنهم والْتيائهم عليه، ومع ما امْتُحِن به من أمور عظيمة كانت منهم.

فقدّموه، مع ذلك كلّه، على أنْفسهم؛ وملك ذلك الجمْع العظيم، وأقام فيهم الأمْر والنّهي؛ وأقرّوا له بالنّبوّة لِمَا رأوا منه من الآيات.

وكان هارون أخوه أكبر سنًّا منه، وكان وجيهًا فيهم مُبجَّلاً عندهم عظيمًا في صدورهم، فقدّموا موسى (ع) عليه، بتقديم الله -عزّ وجلّ- إيّاه بالنّبوّة.

فإن أنْكر المُلحِدون نبوّته، فهل تنكرون عقله؟

وهل يجوز أنّ ذلك الجمْع العظيم من بني إسرائيل قدّموه، وانْقادوا له إلاّ بفضل كان فيه، وقوّة عظيمة، وكمال رأي، ووفور عقل؟

وأنّ مَن يجوز حمْله على ذلك الخلْق الكثير، حتّى يملك رقابهم، ويجعلهم تحت طاعته، ويقرّوا له بالنّبوّة، لا يجوز أن يكون مطعونًا عليه في عقله، وكماله، وفضله.

ولا يجوز أن يقدّموا على أنفسهم معتوهًا ناقصًا مجنونًا، من غير جدْوى ينالونها منه من أعْراض الدّنيا.

ولا يوجب المعقول أنّهم قدّموه إلاّ لِمَا ذكرنا من الآيات التي ظهرت منه، والأمور العظيمة التي شاهدوها منه وعاينوها.

وإن جحَد المُلحِدون تلك الآيات التي دلّت على نبوّته، فلِكماله، وحسْن تدبيره، ولطْفه في السّياسة.

وهكذا كان أمْر المسيح (ع) حين ظهر بالنّبوّة، وأظْهر تلك الجرائح، وجال في كور فلسطين والأردن والشّام، وظهرت منه تلك الأسباب العظيمة من إحياء الموْتى، وإبراء ذوي العاهات والمؤوفين، والدّلائل الكثيرة.

فإن أنْكر المُلحِدون وقالوا: "إنّ ذلك لم يكن"، فلا يقدرون أن يدفعوا ما شرّعه لحواريّيه الذين عُرفوا أيضًا بالكمال، والفضْل، والقوّة التي جمعوا بها النّاس على قبول شرائعه وآثاره؛ فهل قدروا، مع تفرّقهم في بلدان شتّى وكور متباينة، على إقامة دعوته، وبسط شرائعه، وترسيم آثاره، إلاّ بآيات كاملة؟

وهل تبعوا المسيح، مع كمالهم، إلاّ لمعرفتهم بفضْله؟

فإن كانوا ينْكرون أنّهم اتّبعوه لِمَا رأوا منه الآيات، فلا يقدرون أن ينْكروا عقولهم، وأفهامهم، وحُسن تمييزهم؛ فإنّه لا يقدر على إقامة مثل تلك الدّعوة إلاّ المجانين، ومَن لا عقول لهم، ولا أفهام.

فمَن أنْكر ما ذكرنا في شأن محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وموسى، وعيسى من الكمال في عقولهم وأفْهامهم، وجمْعهم الخصال الحميدة التي تكون في الأئمّة والرّؤساء؛ وما كانوا عليه من حُسن التّدبير والسّياسة، وإن كان مُنكِرًا لنبوّتهم، فهو معانِدٌ، مكابِرٌ، دافِعٌ للعيان؛ فإنّ هذه الأسباب لا تعزب عن أفْهام النّاس من المُخالِفين والمؤالِفين؛ وهم يشاهدونها بعقولهم، وإن كانت أمورًا قد انْقضت.

وإذا كان الإمام بالصّفة التي وصف بها هؤلاء الرّسل (ع) من البراعة والعقول التّامّة، فلا يجوز أن لا يعقل أحدهم ما يتكلّم به، وأن يخفى عليه من تناقض كلامه واستحالته، ما يعرفه غيره مثل المُلحِد وأشباهه.

فهلاّ تدبّر المُلحِد هذا الشّأن؟!

وهلاّ علم أنّ أمثال هؤلاء (ع) لم يخْف عليهم ما ادّعاه المُلحِد من التّناقض في كلامهم، والاختلاف في رسومهم، ومخالفة بعضهم لبعض في شرائعهم وفي كتبهم والأخبار التي رُويت عنهم؟!

أفتراهم كانوا لا يميّزون ما يقولون، ولا يعرفون منه مقدار ما عرفه المُلحِد حين قال: "الآن ننظر في كلام القوْم وتناقضه"؟!

فهلاّ تدبّر هذه الحال، وتأمّل ما كانوا عليه من الكمال، وجمْعهم لكلّ محمود من الخصال؟!

وهلاّ حكم في كلامهم حسْب ما ادّعوه من ضرْب الأمثال؟!

وإنّما ذكرْنا هذه الصّفات التي كانت فيهم، ليعرف العاقل المُميِّز المُنصف أنّ أمثالهم في العقول التّامّة والأفهام الكاملة.

ومع هذه الأسباب العظيمة التي كانت منهم الخصال الجميلة التي كانت فيهم، لا يجوز لأحد أن يحكم عليهم أنّهم تكلّموا بكلام متناقض، ورسموا رسومًا متناقضة، وهم لا يعقلون ما يقولون ويفعلون؛ بل يجب أن يتدبّر أمْرهم، ويقلّب العلّة الموجبة لعذْرهم، فيعرف الهدى من الضّلال؛ فليس من الدّين عوضٌ، ولا عن الله مَهربٌ؛ ولا بعد الموت مُستعقَب[1]، ولا مأوى، بعد هذه إلاّ الجنّة أو النّار.

[1] في الأصل: مستعب.

الفصل الثّالث

في كلام الأنبياء ورسومهم

الآن، نذكر صدرًا من كلام الأنبياء (ع) ورسومهم، وما نطقت به كتبهم وادّعوه فيها، أنّهم يضربون الأمثال التي تختلف ألفاظها، وتتّفق معانيها[1]؛ وما دلّوا عليه، وأمروا به من البحث عن معاني كلامهم المرموز، ليتّضح عدلُهُمْ، ويظهر صدقُهم؛ فيزول ما يدّعيه المُلحِدون عليهم من اختلافهم وتناقض كلامهم –إن شاء الله تعالى–.

رُوي عن النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– أنّه قال: "ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتيْ الصّراط سور، وفي السّور أبواب مُفتّحة، وعلى تلك الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصّراط داعٍ يقول: "ادخلوا الصّراط، ولا تعرجوا!".

قال: "فالصّراط هو الإسلام، والأبواب المُفتّحة: محارم الله، والسّتور: حدود الله، والدّاعي: القرآن".

فهكذا سبيل المثل والمعنى.

وما جاء في القرآن العظيم أبْلغ وأوْجز:

قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿أنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهِ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابِيًا وممّا يُوقِدونَ عَلَيْهِ في النّارِ ابتغاءَ حِلْيَةٍ أو مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كذلك يضربُ اللهُ الحَقَّ والبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءَ وأمَّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ كَذَلِكَ يضربُ الله الأمثال﴾[2].

قال أهْل التّفسير: شبّه علوم الأنبياء، وما أنْزل الله من الوحْي، بماء ينْزل من السّماء؛ شبّهه بالإيمان وأهْله؛ والزّبد الذي يذهب جفاء، شبّهه بالكفْر وأهْله؛ يعني: أنّ أعمال المؤمنين تبْقى وتحْصل يوم القيامة، وأعمال الكّفار تبْطل ولا تنْفع.

وذكرْنا من معنى هذا المثل مقْدار ما ذكروه في تفسيره.

---

[1] في الأصل: معانيه.

[2] سورة الرّعد (13)، الآية 17.

وقال الله -عزّ وجلّ-: ﴿ولَقَدْ صَرَّفْنَا في هذا القرآنِ للنّاسِ مِنْ كُلِّ مثلٍ وكَانَ الإنْسَان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[1].

وقال الله -عزّ وجلّ-: ﴿إنَّ الله لا يستَحيي أن يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فما فوقها فَأَمَّا الذين آمَنُوا فيعلمون أنّهُ الحقُّ مِنْ ربّهم وأمَّا الذّين كَفَروا فَيَقُولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضِلُّ بِهِ كثيرًا ويَهْدِي به كثيرًا وما يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفَاسِقِين﴾[2].

وإنّما أنْزل الله -عزّ وجلّ- هذه الآية لمّا قال المُشرِكون: "ما هذه الأمثال التي يذْكرها محمّد، ويضْربها بالذّباب، والعنكبوت، وغير ذلك؟!"؛ فعندها أنزل الله -عزّ وجلّ- هذه الآية؛ وأعلمنا أنّ الذين آمنوا يعلمون ما في الأمثال من الحقّ، والذين كفروا يجْهلون ذلك؛ فيهْتدي بها كثيرٌ من النّاس الذين يعرفون حقائقها، ويضلّ بها الفاسقون.

وقال -عزّ وجلّ- في صفة النّار: ﴿علَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ وما جَعَلْنَا أصحابَ النّار إلاّ ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلاّ فتنة لِلّذين كفَروا ليستقين الذين أُوتُوا الكِتَابَ ويزداد الذين آمنوا إيمانًا ولا يرتاب الذين أوتوا الكِتاب والمؤمِنُونَ ولِيَقُلَ الذينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والكَافِرُونَ ماذا أرَاد الله بهذا مثلا كَذَلِكَ يضلُّ الله مَنْ يَشَاءُ ويهْدي مَن يشاء﴾[3].

وقال -عزّ وجلّ-: ﴿وتلك الأمثال نَضْربها للنَّاسِ ومَا يَعقلُها إلاّ العَالِمون﴾[4].

وروِيْنا عن بعض أئمّتنا الصّادقين (ع) أنّه[5] قال لبعض أصحابه: "انْظر أن لا تمرّ بك آية من كتاب الله إلاّ وأنت تعرف معناها أو تحبّ أن تعْلمه، لتكون عالمًا أو متعلّمًا؛ فإنّ الله يقول: ﴿وتِلْكَ الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلاّ العالِمون﴾[6].

وقال -عزّ وجلّ-: ﴿قُلْ هُوَ للّذين آمنوا هُدىً وشفاءٌ والّذين لا يُؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وهو عَلَيْهِمْ عَمَىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَان بعيد، لأنّهم لا يعرفون معانيه﴾[7].

وأخْبرَنا -عزّ وجلّ-: أنّ الأنبياء الذين مضوا ضربوا لِقَوْمهم المثال؛ فهلك مَن هلك، لأنّهم جهلوا معانيها، فكذّبوا الرُّسُلَ؛ وكان سبيلهم في جهْلهم بتلك المعاني سبيل

---

[1] سورة الكهف (18)، الآية 54.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 26.

[3] سورة المدثّر (74)، الآيتان 30-31.

[4] سورة العنكبوت (29)، الآية 43.

[5] في الأصل: أن.

[6] سورة العنكبوت (29)، الآية 43.

[7] سورة فصّلت (41)، الآية 44.

المُلحِد حين جهِل هذا الباب، وظنّ بالأنبياء الكذبَ والاختلاف، فقدّر في كلامهم الاخْتلاف والتّناقض.

قال الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بينَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتبيرًا﴾[1].

فدلّ ذلك على أنّهم هلكوا حين ضُربت لهم الأمثال، فجهلوا معانيها وضلّوا.

فهذا ما في القرآن، وفيه أمثال كثيرة يطول الشّرح بها.

ومثل ذلك في سائر كتب الأنبياء (ع):

في الإنجيل، في بُشْرى متّى: هذا كلام تكلّم به يسوع بالأمثال، ولم يكن يكلّمهم بغير الأمثال، ليتمّ ما قيل على لسان النّبيّ الذي قال: "أفْتح فمي بالأمثال، وأعْلم السّرائر التي كانت من قبْل أن وُضع أساسُ الدُّنْيَا".

وفيه أيضًا مثَلٌ ضربَهُ عيسى (ع)، وقال بعد ذلك: "فدَنَا منه تلاميذه، وقالوا له: "ما بلك تكلّمهم بالأمثال؟"، فقال لهم: "أنتم أعْطيتم سرَّ ملكوت السّماء، فأمّا أولئك فلم يعطوا. مَن كان له، فإنّه يُعطَى ويُزَاد؛ ومَن لم يكن له، فإنّه مهما كان له، يؤخذ منه أيضًا. لذلك أكلّمهم بالأمثال، لأنّهم يُبْصِرُون الحقّ، فيعمون أبصارهم، ويسْمعون، ثمّ لا يعقلون ولا يفْقهون. فأمّا أنتم، فطوبى لأعينكم التي ترى وآذانكم التي تسْمع!".

ومثل هذا في القرآن، قال الله -عزّ وجلّ-: ﴿لاَ يَفْقَهُونَ بها ولَهُمْ أعينُ لا يُبْصِرُون بها ولَهُمْ آذانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضلُّ أُولئِكَ هُمْ الغَافِلُونَ﴾[2]؛ يعني بهذا: أنّ مَن سمع القرآن، ولم يعقل الأمثال التي ضُربت فيه، فهو بهذه المنْزلة.

وفي بُشْرى مارقوس: أنّ المسيح ضرب للحواريّين مثلاً، ثمّ قال لهم: "أنتم أُعطيتم أن تعلموا سرّ ملكوت السّماء. فأمّا الغرباء، فإنّهم يُكلَّمون بالأمثال، لكيما إذا رأوا لم يروا؛ وإذا سمعوا، لم يسمعوا ولم يفْهموا، لعلّهم يرجعون، فتُغفَر لهم خطاياهم[3] لمّا[4] يحسنون هذا المثل، فكيف إذا تعلّموا جميع الأمثال؟!

[1] سورة الفرقان (25)، الآيتان 38-39.

[2] سورة الأعراف (7)، الآية 179.

[3] في الأصل: **خطياهم**.

[4] في الأصل: **أمّا**.

ويقول فيه أيضًا بعد مثل ضربَه لهم، ثمّ قال: "بمثْل هذه الأمثال جعل يكلّمهم يسوع، ولم يكن يكلّمهم بغير أمثال، وكان يفسّر لتلاميذه جميع الأشياء بينه وبينهم".

ومن الأمثال التي ضربَها وفسَّرها لهم، قال: إنّ الزرّاع خرج ليزرع. فلمّا زرَع، منه ما سقط في جادّة الطّريق، فجاءه الطّير، فلقطه؛ ومنه ما سقط على الصّخر، حيث لم يكن طين كثير، فنبت من ساعته؛ لأنّه لم يكن له أصل في الأرض؛ فلمّا طلعت عليه الشّمس ذوى، لأنّه لم يكن له أصل في الأرض، فيبس؛ ومنه ما سقط بين الشّوك، فارْتفع الشّوك فخنقَه؛ ومنه ما سقط في الأرض الصّالحة وربَا، فمنه ما خرج مائة ضعْف، ومنه ستّون، ومنه ثلاثون. مَن كان له أذنان سامعتان، فلْيسمع!".

ثمّ فسّر لهم هذا المثل، فقال: "الزّرع، مثل مَن سمع كلام الملكوت، فلم يفْهمه، يأتيه الشّيطان، فيختطف الكلمة التي زُرعت في قلْبه، وهو الزّرع على جادّة الطّريق.

والزّرْع على الصّفا هو الذي يسْمع الكلمة، فيقبلها من ساعته فرحًا، وليس له فيها أصل؛ بل إنّما هي إلى حين قليل. فإذا كان ضرَرٌ أو مشقّةٌ من أجل تلك الكلمة، كفر وشيكًا.

والذي زرع بين الشّوك، فهو الذي يسْمع الكلمة، فتأتي هُموم الدّنيا وفتْنة الغنى، فتخْنق الكلمة، فتصير لا ثمْرة لها.

وأمّا الزّرع الذي في الأرض الصّالحة، فهو الذي يسْمع الكلمة فيعيها، ويثمّرها، منه مائة ضعْف، ومنه ستون، ومنه ثلاثون.

وتمثّل مثلاً آخر، فقال: "يشْبه ملكوت السّماء رجلاً زرع في قريته زرعًا صالحًا. فلمّا رقد النّاس، جاء عدوٌّ له، فزرع زوانًا بين الحنطة وذهب. فلمّا نشأ الزّرع وأثمر، طلع الزّوان بين الزّرع.

ثمّ إنّ عبيد صاحب القرية قالوا: "يا سيّدنا، أليس إنّما زرعتَ زرعًا صالحًا، فمن أين صار فيه هذا الزّوان؟". هو الحقّ قال لهم: "دخل عدوٌّ، وفعل هذا". قالوا له: "أيسرّك أن ننْطلق نلْقطه؟". هو بحقّ قال لهم: "لعلّكم مع لقطكم الزّوان، تقلّعون معه الحنطة، ولكن دعوهما حتّى ينبتّا جميعًا، حتّى يبلغ الحصاد. فإذا كان الحصاد، قلتُ للحصّادة: "الْقطوا الزّوان، واحزموه حومًا ليرقّ بالنّار. وأمّا الحنطة، فاجْمعوها إلى أهرائي".

قالوا له: "فسّر لنا المثل"، فأجابهم: "إنّ الذي زرع الزّرع الصّالح هو ابن البشر، والقرية هي العالم، والزّرع الصّالح بنو الملكوت، والزّوان هم بنو طاعة الشّيطان، والعدوّ الذي زرع الزّوان هو الشّيطان، والحصاد هو فناء العالم، والحصّادة[1] هم الملائكة.

وكما أنّ الزّوان يُلقط ويُحرق بالنّار، كذلك يكون في مُنتهى العالم، يرسل الله ملائكته، فيلْقطون من ملكوته جميع الفتّانين والأثَمَة، فيلقونهم في أتون النّار؛ ثمّ يكون البكاء وصرير الأسنان".

فعلى هذا الأمثال التي هي في الإنجيل؛ وهي كثيرة.

ونحْو هذا في سائر كتب الأنبياء:

في كتاب هوشع، ما هو مُفسَّرٌ من الأمثال: "اسْمعوا قول الربّ يا بني إسرائيل، إنّ للرّبّ حكومة مع سكّان الأرض لعدم البرّ والقسْط، وعدم المعرفة بالله في الأرض؛ ولِمَا كثر من اللّعن، والكذب، والقتل، والسّرق، والسّفاح في الأرض؛ ولأنّهم خلطوا الدّم بالدّم؛ لذلك تئنُّ الأرض وترثي، وينوح جميع سكّانها، وحيوان القفار، وطير السّماء، ويهلك سمك البحر".

وقال في تفسير هذا المثل: يعني بالحيوان: الملوكَ، والطّير: الكَهَنة، وبالسّمك: سائرَ الشّعب.

وظاهر هذا المثل لا يوجب أن يُهلِك الله -عزّ وجلّ-، بذنوب بني آدم التي ذكرها: الحيوانَ، والطّير، والسّمك.

ولو أنّ ناظرًا في هذا الكلام عمد إلى ظاهر ألْفاظه لَعَابَهُ[2]، وقال: "كيف يهلك الله -عزّ وجلّ- الحيوانَ، والطّيرَ، والسّمكَ بذنوب البشر؟ أو كيف ذكر السّمك والطّير مع ذكره الحيوان، وهما من الحيوان؟"؛ ولَكان له في ذلك مقالٌ، لو كان ظاهرًا لا معنى تحته.

فلمّا فسّره وردّه إلى المعنى، زال عنه عيْب الجهّال.

وفي كتاب يوئيل النّبيّ (ع) يقول: "ما أبْقى الجندب، أكلَهُ الجراد الطّائر؛ وما أبْقى الجراد الطّائر، أكلَه الدُّبى؛ [وما أبْقى الدُّبى]، أكلَه الصّرصر".

---

[1] في الأصل: الحصدة.

[2] في الأصل: لعابه.

وقال في تفسيره: يعني بالجندب: تغلث فلاسر -ملك الموْصل-؛ وبالجراد: شلمنأصرّ -ملك الموْصل-؛ وبالدّبى: سنحارب -ابن الملك الموْصل-، والصرّصر: نبوخد نصرّ.

وفي كتاب أشعياء: أنّ الرّبّ يتعزّز على صنوبر لبنان المستعلية الشّامخة، وعلى جميع شجر البلّوط الذي بأرض باشان، وعلى جميع الجبال الرّواسي، وعلى كلّ هضبة منيعة، وعلى كلّ سور منيع، وعلى جميع سفن تارشيش، وعلى كلّ منظرة رائعة.

وقال في تفسيره: يعني بالصّنوبر وشجر البلّوط: الأكابر والأصاغر من الملوك؛ وكذلك بالجبال الرّواسي والهضبات المنيعة، يعني بها: ملوكًا ثبت ملكهم وامتنعوا.

أطْلِق الرّسل السّراع إلى شعب مخوف ومستأصل الذي أخربت الأنهار ويقطع الزلُّ بالمنجل ويجور القضيب فيها وينقضي؛ لأنّ الشّعب لم يقبل حتّى عوقب، وأهْلك الربّ من بني إسرائيل الرّأس والذّنب في يوم واحد.

وقال في تفسيره: عني بالشّعب: المنتجبة، وبالبحر: فرعون، وبالأنهار: قوّاده، وبالزّلّ: أغنياء الحبشة، وبالقضيب: ملك بابل، وبالرّأس: الشّيخ البهيّ الوجْه، وبالذّنب[1]: النّبيّ الذي يعلم الزّور.

وفي كتاب حبقّوق[2]: "إنّما أضرب الأمثال وأقول الأوابد، والذي يعقل يعرف هذه المقالات، ويعلم أنّ طرق الربّ مُعتدِلة، يسير الأبرار فيها سيرًا صالحًا، والأثمة يعثرون فيها".

---

[1] في الأصل: ذنب.

[2] ظهر حبقوق في أثناء السنوات الأخيرة قبل سقوط أورشليم في سنة 586 ق.م.، وقد رأى بعين النبوءة، في أواخر القرن السابع، الدينونة الماحقة التي ستحل بيهوذا، وتساءل بانزعاج: لماذا سمح الله بشُيُوع الشر في أوساط يهوذا وكيف يرضى الله أن يستخدم أمة وثنية كالبابليين لمعاقبة يهوذا على شرها. وقد أجاب الله عن حيرة حبقوق وكشف له عن أكثر مما طلب، إذ أعطاه رؤيا عن ذاته المقدّسة. هذه البصيرة الجديدة لإدراك ذات الله، وتبيّن النّبيّ عجْزه ونقصه أمام كمال الله، منحاه الشّجاعة على تحمل نكبات تلك الأيام السود بقوة وتصميم. إن سيادة الله وافتقار الإنسان إلى الاتّكال عليه هما محور رسالة هذا الكتاب الرّائع. إنّ الله يتحكّم بجميع الأمم، ويجري ما يراه حقًّا، لهذا فإنّ الموقف السّليم الذي يجب على الإنسان أن يتّخذه هو الثّقة به، وليس التشكّك في عدله (2: 4). عندما يتّخذ الإنسان هذا الموقف يمكنه آنئذ أن ينظر إلى ما هو أبعد من المظاهر الأليمة للأشياء ويتأمّل في المعنى الحقيقي الأعمق

يعني: أنّ مَن عَلِمَ معاني الأمثال من كلام الأنبياء هو من الأبرار، فعرف مرادهم، وجرى على سننهم بالعدل والصدّق، وكان صالحًا.

ومَن جهل ذلك عثر، فلم يصدّق الأنبياء ونسبَهم إلى الكذب، فكان بمنْزلة مَن يعثر في طريقه، كفعل المُلحِدين الضّالِّين.

وفي كتاب ناحوم النّبيّ: "يكون أثر عقاب الله كالغبار، وييبس البحر، وتخْرب الأنهار كلّها.

وقال في تفسيره: يعني بالبحر: ملك الموْصل، وبالأنهار: قوّاده.

وفي كتاب بولس، المُقدَّم عند النّصارى الذي يسمّونه الرّسول الصّالح، في رسالته إلى تيموثاوس[1]، أنّ البيت العظيم ليس تكون فيه أوَاني الخشب والفخّار أيضًا، منها للكرامة ومنها الهَوان.

لذات الله فيجد القوّة على تحمّل الظّروف مهما كانت قاسية. نحن لا نعرف ما يضمره لنا الغد، ولكنّ الله مطّلع على المستقبل، فعلينا أن نتّكل عليه كلّ الاتّكال.

[1] تيموثاوس ومعنى اسمه باليونانية تكريم الله أو تقي الله Τιμόθεος/Τιμοθέος بالإنكليزية (Timothy)، هو أحد الأساقفة المسيحيين من القرن الأول الميلادي الذي توفي عام 80 م، اعتنق المسيحية أثناء تبشير بولس في لسترة الكائنة في مقاطعة لكاونية حوالي عام 46 م بينما تروي بعض القصص عن أنّه كان أحد رسل المسيح السّبعين، معظم ما نعرفه عنه قادم ممّا دوّن في العهد الجديد في سفر أعمال الرّسل وفي بعض الرّسائل المنسوبة لبولس. وكان تيموثاوس قد تربى على يد أمه أفنيكي وجدته لوئيس وهما يهوديتان صالحتان لقناه الكتب المقدسة. أمّا والده فلا يوجد لدينا معلومات عنه أكثر من أنّه كان يونانيًا. لم يكن تيموثاوس مختونا عندما دخل المسيحية ولكنه اختتن فيما بعد بطلب من بولس لكي يستطيع اصطحابه معه إلى أماكن تجمع اليهود لأنهم كانوا يعلمون أن أباه يوناني الجنس، وكان بولس يرغب بأن يرافقه تيموثاوس في أسفاره التبشيرية لِما رأه فيه من إيمان وغيرة روحية. وكان معروفا في الجماعة المسيحية بتقواه، فسافرا معا إلى غلاطية وتراوس وفيلبي ثم إلى تسالونيكي ومكث بعدها تيموثاوس في بيريّة بينما رحل بولس عنها صوب أثينا بطلب من المسيحيين هناك. ولكن بولس أرسل إليه فلحق به إلى مكدونية وكورنثوس، وقبل أن يبدأ بولس رحلته التبشيرية الثالثة قام بإرساله إلى مكدونية. ورد اسم تيموثاوس في عدد من الرسائل المنسوبة لبولس الرسول، فكانت الرسالة توجه لكنيسة معينة باسم بولس وباسمه، كما مر ذكره وهو يبعث بسلامه إلى كنيسة روما في ختام الرّسالة الموجهة إليها. وبحسب الرّسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، فإنّ بولس قام بإرسال تيموثاوس إليهم قبل أن يكتب الرسالة لكي يذكرهم "بطرقه في المسيح"، ثمّ أرسله أيضًا بعد أن كتبها، وفي الرّسالة الموجهة إلى أهل فيلبي عبر كاتبها عن رغبته بإرسال تيموثاوس إلى تلك الكنيسة لكي يطمئن على أحوالها، وكان قد أرسل أيضًا إلى تسالونيكي وأخبر بولس عن ثبات التسالونيكيين

وقال في تفسيره: يعني: الدّنيا، وما فيها من سعيد وشقيّ.

على الإيمان والمحبّة. وفي الرّسالة إلى العبرانيين يشير كاتبها إلى أن تيموثاوس كان معتقّلاً، ولكنّه قد تم إطلاق سراحه. ومن سياق رسائل بولس نجد بأنّه كان يجمعه مع تيموثاوس علاقة أبويّة وطيدة حيث كان يدعوه " ابني" والابن الصّريح في الإيمان "والابن الحبيب" و"الأمين". وهناك رسالتين من الرسائل البولسية (سفرين في العهد الجديد) موجهة لتيموثاوس. وبحسب التّقليد الكنسي فأن بولس الرسول عين تيموثاوس أسقفا وراعيا على كنيسة أفسس وذلك بين عامي 63 و65 م، حيث خدم هناك 15 سنة وبسبب تبشيره بالمسيحية ومقاومته لعبادة الأوثان هجم عليه الوثنيون وضربوه وسحلوه في الشّوارع، ثمّ رجموه حتى الموت عام 80 م، وكان يناهز الثمانين من العمر. وفي القرن الرّابع نُقل جثمانه إلى كنيسة الرسل القديسين في القسطنطينية، وتعترف به كقديس كلّ من الكنائس الكاثوليكية وتعيد له في 26 يناير/ كانون الثاني، والأرثوذكسية وتعيد له في 22 يناير/كانون الثاني وعدد من الكنائس البروتستانتية.

الفصْل الرّابع
في باب المثل والمعْنى

قد ذكرْنا صدرًا من هذه الأمثال التي هي في القرآن -العظيم- وفي سائر كتب الأنبياء (ع) الذين سلفوا، وهي كثيرة جدًّا؛ ولو تتبّعناها، لَطال بها الكتاب.

قد ذكرْنا منها رسمًا ليُستدلّ به على مذاهب الأنبياء وسُننهم في شرائعهم، ويُعلَم أنّ الأمْر فيه كما قلنا: إنّ أكثر كلامهم ورسومهم هي أمثال تختلف ظواهرها، والمُراد بها: المعاني.

ومَن جهل مُرادهم، ولم يعرف معاني كلامهم، حَكَم عليهم بالاختلاف والتّناقض، كما فعله المُلحِد حين قضى في ذلك بالكذب، وأنزل الأنبياء الطّاهرين منزلةَ الكذّابين الفُجّار، جهلاً منه بمعاني كلامهم، وجُرأة على الله -عزّ وجلّ-، وكفرًا وطغيانًا.

ولو نظر في دعاوي الأنبياء (ع)، وحكم في ذلك حسْب ما نطقت به كتبهم، ثمّ أنْصف نفسه، لَمَا ضلّ عن طريق الهُدى، لأنّهم ادّعوا أنّهم يضْربون الأمثال؛ وأنّ لِكلامهم معاني لطيفة، وحثّوا على طلبها وتعليمها، وأنْذروا ترْك ذلك، واحتجّوا على النّاس.

كما رُوي عن رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه قال: "مَا نَزَلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ إلاّ ولَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وَلِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ، وَلِكُلِّ حَدٌّ مَطْلَعٌ".

كما رُوي عن أمير المؤمنين عليّ[1] -كرّم الله وجهه-، حين وصَف القرآن، فقال: "ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَبَاطِنُهُ عميقٌ؛ لاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلاَ تَفْنَى غَرَائِبُهُ".

وأذْكر لك في باب المثل والمعنى مثالاً تَستدلُّ به على رسوم الأنبياء (ع) في ذلك، وتَعْرف مذاهبهم فيه، وتَتصوّر ذلك؛ وتَعْلم كيف كان خطابُهم لأُمَمهم بالأمثال، وكيف اختلفت ألْفاظهم واتّفقت معانيها؛ وتَعتبر به، وتَستدلّ بالقليل على الكثير؛ وتَعلم أنّ

---

[1] واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هامش بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى. وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لمّا قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.

حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

المُلحِد لمّا لم يعرف هذا الباب، طعَن على الأنبياء الصّادقين (ع)، وقضى عليهم بالكذب، وحكَم في كلامهم بالتّناقض؛ ولم يتأمّل دعاويهم، أنّهم يضربون الأمثال، فضلّ وهلك.

اعلمْ أنّ مثل مَن يسمع الأمثال من كلام الأنبياء (ع)، ولا يعْرف المعاني، مثل مَن يشاهد قومًا يُعرَفون بالصّدق، والورَع، والعقل، والتّمييز اطّلعوا في بيت، فسُئلوا، فقيل لهم: "ما رأيتم في هذا البيت؟"، فقال أحدهم: "ما رأيتُ فيه إلاّ بيضة". فقيل لهم: "لِمَ اختلفتم، وأنتم تُعرفون بالصّدق، ولا تُنكَر عقولكم؟"، فقالوا: "ضربْنا أمثالاً". ثمّ شهد كلٌّ واحدٍ منهم لصاحبه أنّه قد صدق.

فإذا حكم مَن يسمع كلامهم بظاهر اللّفظ، ولم يلْتفت إلى دعْواهم حين قالوا: "ضربْنا أمثالاً"، ولم يسْأل عن معنى الأمثال التي ادّعوها، وبحث عن ذلك، وَجَدهم صادقين، وكان مُصيبًا، مُنصِفًا، عادلاً، هاديًا؛ لأنّهم رأوا في البيت امْرأة، فكَنوا عن ذكْرها.

وضرب أحدهم المثل بالنّعجة، والآخر بالقارورة: لأنّ المرأة يُكنّى عن ذكْرها بالنّعجة، كما قال الله -عزّ وجلّ- في قصّة داود[1] (ع) والملكيْن حين ضرب المثل، فقال أحدهما: ﴿هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[2]، وأشار إلى المعنى. فعرف داود (ع) معنى المثل، وأنّهما نبّهاه لخطئه في أمْر أوريا.

---

[1] داوُد أو داود أو داؤود (بالعبري :דָּוִד *داويد*، وتلفظ بالعبرية الحديثة *دافيد* (معناه "محبوب"، هو ثاني ملك على مملكة إسرائيل الموحدة (1011 ق.م. – 971 ق.م.) وأحد أنبياء بني إسرائيل بحسب المعتقد الإسلامي جاء بعد إش-بوشيت (أو إشباعل)، الابن الرابع للملك شاول. يتمّ وصفه على أنه أحق وأنزه ملك من بين ملوك إسرائيل التاريخيين -ولكن ليس بلا خطأ-. وأيضًا هو محارب ممتاز، موسيقي وشاعر (وتعتبره التراث اليهودي والمسيحي مؤلف العديد من المزامير). إجابة على رغبة داوُد لبناء معبدًا أو بيتًا لله، وعد الله داوُد أنّ عائلته الملكيّة سوف تعيش للأبد. ولذلك، يؤمن اليهود أنّ المسيح اليهودي سوف يكون من نسل داوُد المباشر، ويؤمن المسيحيون أنّ نسل يسوع المسيح يعود إلى داوُد لأنّ كلاًّ من مريم ويوسف يعود نسلهما إلى داوُد. طبيعة مُلكه كانت تحت خلاف ونقاش، رفض ودافع عنها العديد من باحثي التوراة الحديثين، ولكن حياة داوُد المكتوبة في التّوراة العبري لا تزال مقبولة بصورة كبيرة بين اليهود والمسيحيّين، وقصتّه أصبح له تمييز مركزي من قبل المجتمع الغربي. تمّ تدوين حياته وقصة ملكه في التوراة العبري في صموئيل 1 (إصحاح 16 فما بعد) وصموئيل 2، ملوك 1، ملوك 2. أخبار الأيّام 1 تعطي قصص أخرى لداوُد متعلّقة بقوائم وراثيّة وعائلية أخرى.

[2] سورة ص (38)، الآية 23.

ويُقال للمرأة: قارورة إذا كني عنها، كما رُوي عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، "اتّق القوارير"، يعني به النّساء؛ وكنى عن ذكرهنّ؛ وأراد أن ينْهاه أن يتكلّم في حُداه بكلام رقيق تسْمعه النّساء، فتصبو قلوبهنّ، لأنّهنّ ضعاف العقول؛ وإذا لم يُصنّ، صبون، وفسدت قلوبهنّ، مثل القوارير إذا لَم تُصنّ، انْكسرت.

ويُقال للمرأة أيضًا: بيْضة، على التّشبيه، كما قال الشّاعر:

وَبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعَتْ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ

فكُنِي عن المرأة بالبيْضة.

فعلى هذا المِثال سبيل كلام الأنبياء والرّسل في ضرب الأمثال، واخْتلاف ألْفاظهم بها، واتّفاق معانيها، وتقدير الجاهِلين فيها إذا حكموا بظاهر الألفاظ؛ فنسبوهم إلى الاختلاف والكذب؛ وهم البَرَرَة الصّادقون.

ومثل هذا موجودٌ في رسوم الفلاسفة الحكماء القدماء. فإنّهم ضربوا الأمثال في كثير من كلامهم، وذهبوا في ذلك مذهب الأنبياء (ع) وسلكوا سبيلهم.

كما هو مكتوبٌ في كتاب برقلس أنّه كان يتكلّم بالطّباع، وكان لطيف المذاهب، غامض المعاني، وكان يكلّم النّاس بالعويص من الكلام.

وكما ذكرت الفلاسفة أنّ أفلاطون[1] كان أكثر كلامه رمزًا.

---

[1] في الأصل: أفلاطن.

يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطرن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر، فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، و يسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف له. فمن ذلك قول سمّاه *تالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه خرميس في العفّة، قولان سمّاهما *القيبادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245–ص246. بيروت. د. ت.

وفي كتاب "بلينس" أنّه كان يضرْب الأمثال، وقال: "أنا بليناس صاحب الطّلمسات والعجائب؛ أنا الذي أُوتيتُ الحكْمة من مُدبِّر العالِم".

ثمّ ضرب لهم الأمثال، وقال: "الآن أُخبركم أنّي كنتُ يتيمًا من أهل طوانة، لا مال لي".

ثمّ ذكر المثل الذي في صدْر كتابه من حديث السّرب المُظلِم، والتّمثال من الحجر الذي أُقيم على عمود من خشب، ودخوله السّرب بالسّراج تحت الإناء الصّافي، ونظره إلى هرمس على السّرير في السّرب، وأخْذه الكتاب من بين يديْه الذي فيه سرّ الخليقة.

والأمثال الكثيرة التي ضربَها، والرّؤيا التي ذكرَها، يطول بشرْحها الكتاب.

فهلاّ تدبَّر المُلحِد الجاهل كلام الأنبياء (ع) حين ادّعوا أنّهم يضْربون الأمثال، فكان يحْكم فيهم حسب دعاويهم؟!

وهلاّ طلب معانيها، ثمّ حكم فيها بالصّدق، والكذب، والائتلاف، والاختلاف، فيكون مُصيبًا مُنصِفًا؟! أم هلاّ حكَم برسوم الفلاسفة حين جحَد النّبوّة؟!

ولكن حمّله على ترْك الإنصاف: جهلُه بمراد الأنبياء، وإعْجابه بوساوسه التي غرَق فيها، وادّعى أنّها حكمة وفلسفة، وغرّته الأماني؛ فضلّ وأضلّ، وأُهلك وأَهلك، حبًّا منه للرّياسة الخسيسة التي كان يدّعيها ويتشبّه بالفلاسفة القُدماء، كما تشبّه به أمثاله من الموسْوَسين الكذّابين، وكذّبوا الأنبياء الطّاهرين؛ وسيعلمون غدًا مَن الكذّاب الأشرّ.

فشرائع الأنبياء، كلّها، أُسّست على العلم والحكمة، وكتبهم ورسومهم هي، على ما ذكرْنا، متّفقة المعاني، وإن اخْتلفت ظواهرها؛ لأنّها أمثال مضروبة، رمزوا لأُممهم بما رسَموه من ذلك، وأمَروهم[1] بإقامة ظاهرها، ليقوم العباد في العالم، وتتّصل السّياسة، ويثْبت الأمْر والنّهي، وينْتظم أمْر العالم، ويكون فيه قوام أمْرهم في دنياهم، وتكون هذه الرّسوم دالّة على ما تحتها من المعاني التي بها نجاتهم في أُخراهم.

فكلّ مَن نسخ ظاهر ألْفاظ مَن تقدّمه وظاهر رسومه، أتى برسوم تدلُّ على المعاني التي تدلّ عليها صاحبه، وإن خالفه في ظاهر ألْفاظه.

كان أصْحاب الشّرائع من الأنبياء نفرًا معدودين. وأمّا سائر الأنبياء (ع)، فإنّهم كانوا يدعون إلى شرائعهم وأحكامهم؛ وكان قَصد أصحاب الشّرائع أجمعين: إقامة الدّين الحقيقيّ الذي [لا] تفرُّق فيه ولا اختلاف؛ كما قال الله –تعالى–: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا

---

[1] في الأصل: أمورهم.

وَصَّى به نوحًا والّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبراهيمَ ومُوسى وعيسى أن أُقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1].

فهذه الآية تدلُّ على أنّ شرائعهم كلِّها[2] كانت تدعو إلى دينٍ [واحد، لا] أنّ لكلّ واحدٍ منهم شريعة غير شريعة صاحبه، ومنهاجًا غير منهاجه.

فهذا في ظاهر الأمْر مختلفٌ، كما نرى.

فمَن قدّر أنّ هذا تناقضٌ، وأنّ محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم-، مع [ما] وصفْناه من الكمال والجمْع للأخلاق الجميلة التي ذكرناها، كان لا يعقّل ما يقول، حين تلاَ على النّاس هذه الآية، وعرّفهم أنّ الله -عزّ وجلّ- شرّع لهم من الدّين ما وصّى به نوحًا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وشهد لهم بالنّبوّة؛ ثمّ أمَرهم بإقامة سُنن غير سننهم وشرائع غير شرائعهم؛ وأنّه كانت به من الغفْلة ما لم يعْرف معْنى الآيتيْن، أنّهما مختلفتان في ظاهر اللّفظ؛ وأنّ مَن حضره من أصحابه، وأخذوا عنه الدّين، جهلوا ذلك.

فمَن ظَنّ هذا أو قدَّره، فقد جهَل وعاند؛ ونعوذ بالله أن نظنّ به ذلك؛ بل كان أعْلم بما يقول، ويشرّع من المُلحِدين الظّانّين به ظَنّ السّوء -﴿عَلَيْهُم دَائِرةُ السّوء﴾[3]-.

وإنّما عنى أنّ لكلّ واحد منهم شريعة ومنهاجًا في الظّاهر غير شريعة صاحبه ومنهاجه؛ ولكنّهم كلّهم أشاروا إلى معانٍ متّفقة لا تناقض فيها ولا اختلاف.

ألاَ تراه -عزّ وجلّ- يقول: ﴿أن أَقِيمُوا الدّينَ وَلاَ تَتَفَرّقُوا فيه﴾[4]، ثمّ قال: ﴿الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه مَن ينيب﴾[5]، أي أنّ الله -عزّ وجلّ- يهدي إلى معانيها، التي تدلّ على الدّين الحقيقيّ الذي يدعو إلى وحدانيّته، وإلى معرفته ومعرفة أوليائه الذين لا تفرّق[6] فيهم، ولا اختلاف بينهم، مَن ينيب إليه، ويرْجع إلى أوليائه في طلَب معاني كلام الله، وهدايته، وخروجه من الاختلاف والضّلال.

فالاختلاف الذي بيْنهم كان في ظاهر شرائعهم.

---

[1] سورة الشّورى (42)، الآية 13.

[2] في الأصل: كله.

[3] سورة الفتح (48)، الآية 6.

[4] سورة الشورى (42)، الآية 13.

[5] سورة الشورى (42)، الآية 13.

[6] في الأصل: تتفرق.

هكذا كان سبيلهم[1]، لأنّهم لم يقصدوا ظاهر الشّرائع دون المعاني التي تحتها، بل كان قصدهم لها جميعًا؛ ثمّ حثّوا الأنام على طلب معانيها المؤتلفة التي بها نجاتهم.

فلذلك جاز لهم نسخ ظاهر الشّرائع، ومُخالَفة بعضهم لبعض فيها؛ لأنّها كانت أمثالاً مضروبة في كتُبهم وسنَنهم.

فألْزموا النّاس إقامتها، وجعلوها أصل العبادة، وافْترضوا عليهم القيام بها، وأكْرَهوهم على قبول ظاهر ما أتوا به، وأجبروهم على إقامة ما شرّعوه؛ لتثْبت آثارهم ورسومهم في العالم، وتظْهر الطّاعة والمعصية، وتقوم الطّاعة بالعبادة؛ ويُساس بهذه الشّرائع الخاصُّ والعامُّ، ويستقيم أمْر العالم؛ لأنّ صلاح أمْر العالم في هذه الدّنيا لا يتمّ إلاّ بالإجبار، والقهْر، والغلَبة؛ لاختلاف طبائع النّاس وهمَمهم في أدْيانهم وأمور دنياهم.

فلذلك أجْبروا النّاس على قبول الظّاهر والباطن؛ ليكون في قبولهم ظاهر شرائعهم، وقبولهم الحدود التي سنّوا فيها قوام أمورهم في دنياهم، وحقْن دمائهم، وتحْصين أموالهم وذراريهم، ومنعهم الفتنة من التّعدّي والفساد في الأرض، والبغْي والهرج، ويكون فيه صلاح أحوالهم.

وإذ كان فيهم العالِم والجاهِل، والصّالح والطّالح، والورِع والمنتهِكُ، والعاقل والغبيُّ، على اختلاف طبائعهم وتفاوت طبقاتهم؛ فلذلك، أمَرهم الله -عزّ وجلّ- أن يُلزموا النّاس قبول ظاهر رسومهم وحدودهم بالقهْر والإجْبار؛ كما قال الله -عزّ وجلّ- لنبيّه محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُنَ الدّينُ كُلُّهُ للهِ﴾[2]. فأمَره بقتالهم، حتّى قبلوا ما جاء به.

فلمّا أقام فيهم السّنن والأحكام الظّاهرة، أمَره أن يفوّض إليهم أمْر دينهم، فقال: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعِرْوَةِ الوُثْقَى﴾[3].

وقال -تعالى-: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَولِيَاؤُهُمْ الطّاغوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[4].

---

[1] في الأصل: سبيله.

[2] سورة الأنفال (8)، الآية 39.

[3] سورة البقرة (2)، الآية 256.

[4] سورة البقرة (2)، الآية 257.

فأمَره في آية أن يقاتلهم ويُكرههم على قبول ما أتى به، وأمَره في آية أن لا يُكرههم، وأن يخيّرهم في أمْر دينهم، ولا يُجْبِرهم عليه ليختاروا لأنفسهم، وأمَرهم بطلب ما فيه نجاتهم من المعاني التي تحت شرائعهم الظّاهرة، وحثّهم على ذلك على أحْسن الوجوه بالأعْذار، والإنْذار، والموْعظة الحسنة، كقوله: "اطْلِبُوا العِلْمَ وَلو بالصّين"، وقوله: "طَلَبُ العلمِ فَرِيضةٌ عَلى كلّ مُسلم".

فهذا ما دلّ عليه القرآن، وكذلك هو في سنّة النّبيّ.

قال -صلّى الله عليه وسلّم-: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَه إلاَّ الله، فَإِذا قالوها عَصِموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُمْ إلاّ بحقِّهَا، وحِسابُهُم عَلَى الله".

ألاَ تراه يقول: "أُمِرَتْ أن أُقَاتِلَ النَّاس حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاّ الله"؛ فقاتلهم حتّى قالوها وقبلوا شرائعه، ثمّ خيّرهم بعد ذلك.

كما رُوِي أنّه سُئل، فقيل له: "يا رسول الله، مَن قال: "لا إله إلاّ الله" دخَل الجنّة؟"، فقال: "نعم، مَن عرف حدودها وأدّى حقوقها".

فدَلّ أن بعد هذه الشّهادة وقبول شرائعها، الأمْر هو مُفوَّض إليهم في معرفة حدودها هي معرفة ما تحتها من المعاني، وتحت الشّرائع المنُوطَة بها، وأداءُ حقوقها هو القيام بظاهر شرائعها.

فهكذا سبيل شرائع الأنبياء (ع)، وبهذا نطَق القرآن وسائر الكتب، على حسب ما ذكرْنا.

ويجب أن يُحكم في ذلك بما ادَّعوه (ع) لأنْفسهم ونطَقت به كُتُبهم، ولا يحْكم في ظاهر ألْفاظهم دون معانيها.

فإنّ مَن خالف ذلك جرى مجرى المُلحِدين الذين قضوا على الأنبياء البَرَرَة بالكذب، والاختلاف، والتّناقض.

فكلام الأنبياء مبنيٌّ على الحكمة؛ والحكمة هي العمل بالعلم. فإذا اجْتمع العلْم والعمل، سُمّي ذلك: حكمة. ومَن عمل عملاً بمعرفة وعلم سُمّيَ: حكيمًا. والذي يعْمل عملاً بلا علم، فهو جاهلٌ؛ والجهل يدعو[1] إلى العدْوان والبغْي.

والأنبياء (ع) خُصُّوا بعلْم ما في شرائعهم المستحقّين الخاضعين، ولم يبخلوا به عليهم؛ وصانوه عن الباغين المُعتَدين الذين ليسوا له بأهْل؛ كما رُوِي أنّهم قالوا: "لا تضعْ

[1] في الأصل: يدعوا.

الحكمةَ في غير أهْلها فتُضيّعها، فتكون كمَن ينثر الدرّ بين أيْدي الخنازير؛ ولا تمْنعها عن أهْلها، فتكون قد ظلمتها".

فتدبّرْ -رحمك الله- ما قد شرحْته لك بعيْن النّصفة، واجتنبْ العناد والبغْي؛ وانْظر في سُنن الأنبياء، ورسومهم، وشرائعهم لِتعرف مرادهم، ولِتعلم لماذا قصدوا، وإلى ماذا دعوا؛ وليزول الشّكُّ والشُّبهة عن قلْبك؛ وتعْلم أنّ الملْحدين، حين عابوهم بالاختلاف في ظاهر شرائعهم، قد ضلُّوا عن سبيل الهُدى، لمّا جهلوا هذا الباب، ولم يعلموا أنّ تحت شرائعهم الظّاهرة المُختلِفة ألْفاظها معاني تؤلّف بينها.

فعند ذلك ادّعوا عليهم التّناقض، كما ادّعى المُلحِد في كتابه أنّ محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم- خالف موسى وعيسى (ع)؛ وأنّ بعضهم خالفوا بعضًا، وقال: "إنّ كتاب محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- مملوءٌ من التّناقض، وذكَر ما في التّوراة من ظاهر ما رسَمه موسى (ع) في ذكْر البساط والخوان، ووضع الشّحم والتّرب على النّار لسُرور الربّ".

وأنّ عتيق الأيّام في صورة شيْخ أبْيض الرّأس واللّحية، وما ذكر عن روّاة الحديث وأعلام الأمّة، ونسبهم إلى الجهْل، وذكرهم بالقبيح لروايتهم الأخبار التي ادّعى عليها التّناقض، والتي تدلُّ على التّشبيه؛ مثل ما رُوِي عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه قال: "رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَنْدُوَتِي"؛ وما في القرآن من الآيات التي ظاهر ألْفاظها يدلُّ على التّشبيه، مثل قوله -عزّ وجلّ-: ﴿الرّحمن عَلَى العَرْشِ استوى﴾[1]، وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَومئذٍ ثمانية﴾[2]، وقوله: ﴿الذين يَحْمِلُونَ العَرشَ وَمَنْ حَوْلَه﴾[3]؛ وقول رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: "جَانِبُ العَرْش على مَنْكِبِ إسْرافيل، وإنّه ليئطُّ أطيط الرّحلِ الجَدِيدِ".

هذا إلى غير ذلك، ممّا أورده المُلحِد في كتابه، وشنّع به، وذكر أنّه تناقضٌ وخرافات.

ولَعمري، لو كان ما رسَمَه الأنبياء (ع) في شرائعهم، وما نطقَت به كتبهم، من عند غير الله، وكان ظاهرًا لا معاني له ولا تأويل؛ لَكان الأمر على ما ادّعاه المُلحِد.

---

[1] سورة طه (20)، الآية 5.

[2] سورة الحاقة (69)، الآية 17.

[3] سورة غافر (40)، الآية 7.

فقد قال الله -عزّ وجلّ-: ﴿أفلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيه اختلافًا كَثيراً﴾[1]، يعني: أنّ مَن تدبّره، وَجَد فيه الأمثال المُختلِفة الألْفاظ.

ولو كان من عند غير الله، ولم يكن مبنِيًّا على الحكمة، كما قلنا: إنّ من تحتها معاني غامضة تؤلّف بينها، لَوجدوا في ظاهره اختلافًا كثيرًا.

فلمّا كان من عند الله، وكان سبيله ما قلنا، زال عنه طعْن المُلحِدين ودعاويهم أنّه متناقضٌ، وبطلت ظنون الظّالّين، وظهر صدْق النّبيّين الطّاهرين -صلوات الله عليهم أجمعين-.

ومَن سلك سبيل المُلحِدين، وقضى في رسوم الأنبياء (ع) بالظّاهر دون المعاني والتّأويل، وقَع في الشّكّ والشّبهة، وأدّاه ذلك إلى العمى والحيْرة، وخرج إلى التّعطيل والإلْحاد، كما ظنّ المُلحِدون. إلاّ الضّعفاء المُقلِّدون الذين لا يُحْسنون النّظر، ولا يستطيعون أن يميّزوا، وليس ذلك في وسْعهم؛ فأولئك قد وعَدهم الله العفْو والرّحمة.

وقد أمَر الله -عزّ وجلّ- بردّ ما اخْتلف لفْظه والْتبس معْناه من آيات القرآن والأخبار التي رُويت، ممّا ظاهرها يدلّ على التّشبيه؛ وأنّ فيها تناقضًا واختلافًا إلى العلماء.

فقال -جلّ ذكره-: ﴿ولَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وإلى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذّينَ يَسْتَنْبِطُنَهُ مِنْهُمْ ولَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لاتَّبَعْتُمْ الشّيطَانَ إلاَّ قَلِيلاً﴾[2]، أي: لولاَ تفضُّله علينا ورحْمته بنا، حين أقام فينا مَن نَرُدّ إليه ما نختلف فيه، ليستنْبطه بما أوتي من العلْم، لكي لا نضلّ ولا نشكّ؛ لَشكّ أكثر النّاس، وصاروا أتباعًا للشّياطين الذين يطْعنون على الأنبياء البرَرَة، وينسبونهم إلى ما هم منه براء.

وقال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُم في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾[3].

قالوا في تفسير ذلك: "رُدّوا إلى الله"، أي إلى الكتاب؛ و"إلى الرّسول"، أي إلى السّنّة.

وفي كلّ زمان وأوان مَن يقوم بالكتاب والسّنّة، ويستنبط تأويل ما يخْتلف لفْظه.

---

[1] سورة النّساء (4)، الآية 82.
[2] سورة النّساء (4)، الآية 83.
[3] سورة النّساء (4)، الآية 59.

فسبيل ما في الكتب المُنزّلة وفي أخبار الأنبياء (ع)، كما ذكرْنا: أنّ منها ما يقع فيه النّسخ، فيختلف الحكْم فيه؛ ومنها[1] ما يستغْلق معْناه؛ ومنها ما معْناه واضحٌ.

[1] في الأصل: منه.

الفصل الخامس
فيما ذكره المُلحِد ممّا في التّوراة

والذي ذكره المُلحِد ممّا في التّوراة، قوله: "ما لكم تقرّبون إليّ كلّ عرْجاء وعوْراء؟". فإنّ الله امتحن عباده بالأعمال التي سنّها الأنبياء (ع) في كتبهم وسُننهم، مثل الصّلوات، والصّيام، والزّكاة، والقرابين، وغير ذلك.

ولمّا امتُحِنوا بالقرابين، كان [منهم] صادق النّيّة، ومَن كان فاسِد النّيّة، والأُمم كلّها لا تخلو من ذلك.

فمَن صدَقتْ نيّته، قرّب خيْر ما يملكه؛ ومَن ضعفتْ[1] نيّته، قرّب أردأ ما يملكه؛ فكان أصحاب النّيّة الفاسدة يقرّبون إلى الله كلّ عرْجاء وعوْراء، لو أهدوها إلى أمثالهم من النّاس، لاستحقروها ولم يقْبلوها. فوبّخهم الله على ذلك، ليرتعدوا ويُخلصوا نيّاتهم.

ومثل هذا في القرآن؛ فإنّه لمّا افترض الله الزّكاة في هذه الأمّة في أموالهم، فمَن ضعفت نيّتهم كانوا يخرجون من زكوة تمورهم: التّعضوض والمعافر، وهما جنسان من رديء التّمر، فأنزل الله –عزّ وجلّ–: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَات مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِن الأَرْض وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخذِيهِ إِلاَّ أن تُغْمِضُوا فيه﴾[2]، أي: لا تقْصدوا إلى أخْبث التّمور وأردئها، فتخرجوه في زكاة أموالكم. وإن احتجْتم أن يأخذه بعضكم من بعض لا تأخذوه حتّى تغمضوا فيه، أي ترخّصوا فيه.

﴿واعْلَمُوا أنَّ الله غنيٌّ حَمِيدٌ﴾[3]، أي: غنيٌّ عن أموالكم يحْمدكم على حسْن أعمالكم.

ثمّ قال: ﴿الشَّيْطان يَعِدُكُمْ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ﴾[4]، أي: يعدكم أنّكم إذا أخرجتم زكاة أموالكم افتقرْتم.

---

[1] في الأصل: عرف.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 267.

[3] سورة البقرة (2)، الآية 267.

[4] سورة البقرة (2)، الآية 268.

﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ﴾[1]، قالوا: الفحشاء هي البخل.

﴿واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾[2]، أي: يخلف عليكم أفْضل ممّا تنفقون وأكثر منه؛ وعرّفهم أنّه يمتّحنهم، ويمتّحن نيّاتهم.

فهذا مثل ما في التّوراة سواء؛ حين قال: "ما لكم تقرّبون إليّ كلّ عرجاء وعوراء"، أي: إنّ الله امتّحنكم بالقرابين، ليظْهر مَن هو صادقُ النّيّة ممّن هو فاسدُ النّية؛ ووبّخَ مَن فسدت نيّته وأساء اختياره لنفسه في إيثار الدّنيا على الدّين لشحّه، وقرّب أرْدأ ما يملكه مثل العوراء والعرجاء، وبكّتهم على ما ظهر من سوء نيّاتهم، ليرجعوا عن ذلك ويصلّحوا سرائرهم.

فسبيل ما في التّوراة من ذكر العوراء والعرجاء، وما في القرآن من قوله -عزّ وجلّ-: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾[3] واحدًا.

وهكذا السّنّة في الإسلام، في الهِدَى والبُدْن التي تُنحر بمنى للقربان، وفي سائر الأمصار من الضّحايا؛ ولا يجوز فيها العوراء والعرجاء، ولا ذات عيْب، ولا يصلّح إلاّ صحيحة غير معيوبة.

والله -عزّ وجلّ- لا يصل إليه نفْع ما يهديه النّاس ويقرّبونه إليه -تعالى الله عن ذلك-، بل تصل إليه أعمال العباد، وما يظهر من نيّاتهم؛ كما قال -جلّ ذكره-: ﴿لَن ينالَ اللهَ لُحُومُها ولا دماؤُها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا الله عَلَى مَا هداكُمْ وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ﴾[4].

فقد بيّن -عزّ وجلّ- أنّه يمتحنهم بذلك، ليُظهر تقْواهم وشكْرهم لله على ما هداهم، ويُظهر صدْقَ نيّاتهم.

وكذلك سبيل الشّحم والثّرب الذي أُمِروا أن يضعوه على النّار لسرور الرّبّ. أتراه -عزّ وجلّ- أراد أن يصل إليه قتار ذلك الشّحم والثّرب؟! عزّ الله عن ذلك وتعالى عمّا يظنُّ به المُلحِدون علوًّا كبيرًا.

---

[1] سورة البقرة (2)، الآية 268.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 268.

[3] سورة البقرة (2)، الآية 267.

[4] سورة الحجّ (22)، الآية 37.

وأمّا ما ذُكر من أمْر البساط الرّقيق من أبريسم، والخوان من الشّمشار، وغير ذلك ممّا استفظعه المُلحِد وعابه؛ فإنّ ذلك كلّه صحيحٌ، وسبيله ما قلنا: إنّها أمثال، وتحتها معان غامضة.

وما لم يذْكره المُلحِد، ممّا هو في التّوراة من هذا الباب، هو كثير جدًّا؛ ممّا أمَرَ به موسى (ع) بني إسرائيل في اتّخاذ قبّة الزّمان وآلاتها.

يقول في التّوراة: "كلّم الرّبُّ موسى وقال الله: "قُل لبني إسرائيل ليجمعوا الذّهب، والفضّة، والنّحاس، والرّقم، والأرجوان، والقرمز، ومسوك الكباش، ومسوك الأدم، وخشب السّنط، وحجارة البلّور، والأحجار الجيّدة لقواعد البيت، ليصنْعوا لي مقدسًا، لأحلّ بينهم".

ثمّ وصَف لهم كيف يتّخذون قبّة الزّمان، وكم ذراعًا يكون طولها، وعرْضها، وسمْكها، وأساطينها؛ وكمْ أسْطوانة تكون من فضّة، وكم اسطوانة تكون من نُحاس.

وأمَرهم باتّخاذ المذْبح، واتّخاذ تابوت الشّهادة من خشب الشّمشار، طوله ذراعان ونُصف، وعرْضه ذراع ونصف، وارْتفاعه ذراع ونصف؛ ويجْعل له أربع حلقات ذهب في أربع زواياه فوق أربع قوامه، وعمدًا من خشب الشّمشار، ليحمل بها التّابوت، وتغشّى بالذّهب. واتّخاذ حشًا من ذهب خالص طوله ذراعان ونصْف، وعرْضه ذراع ونصْف، وارْتفاعه ذراع ونصْف؛ ويجعل له كروبيْن من ذهب يجعلهما من كلاَ جانبيْ الحشا: كروب من جانبه من هاهنا، وكروب من جانبه من هاهنا.

ويجْعل على أعْلى الحشا، ووجْههما متقابلان على الحشا. واتّخاذ مائدة من خشب الشّمشار، وتغشّى بالذّهب الخالص ويجعل لها إكليل من ذهب، وصحاف، ومشارب، وبراطيل، ومحاسٍ يغرف بها من ذهب خالص، وسلاسل، وخمسون كلبة من نحاس، ورفوف البيت من ذهب، وستوره رقم، وشقاق من قياطين، وبساط من أبريسم رقيق، وبخور، ودخنة، ولبان، وطيب، ودهْن البنفسج المُقدّس، وقميص كتّان لهارون، وهميان مضفور يشدّ به ظهْره؛ وأن يذْبح الثّور بين يديْ الرّبّ ويرشّ الدّم على المذبح، ويجعل الثّرب، وزيادة الكبد، والكليتيْن وشحْمهما على المذبح قدّام الرّبّ؛ ويُذْبَحُ كبش، ويُنضَح دمه على طرف أذن هارون وولده، وعلى أباهيم أرْجلهم، ويُغسَل الكبش وبطْنه وأكارعه وأعضاؤه؛ ويُقطّع على أعضائه ورأسه، ويُصعَد به على المذبح لقربان الرّبّ.

فقد ذُكِرَ في التّوراة نحْو هذه الصّفات في باب اتّخاذ قبّة الزّمان، وآلاتها، والتّابوت، والمنارة، وآلاتها، وغير ذلك.

وذكرْنا هذه على الاختصار، فإنّ لكلّ شيء ممّا ذكرنا صفات طويلة؛ ولعلّ هذه الصّفات في التّوراة تكون في طول سورة البقرة.

فذكرْنا هذا المقْدار، لأنّ المُلحِد ذكر البساط من أبريسم، والشّحم، والثّرب، واستفْظعه.

وعاب فعْل موسى جهلاً منه، ولم يعْلم أنّ موسى حين اتّخذ هذه الأسباب، ضرَب به الأمثال كما قلنا.

فزعم أنّها خرافات، واتّخذها هزؤًا[1] ولعبًا؛ واستظْهر بدعوى المنّانيّة[2]: أنّ موسى كان من رُسُل الشّياطين، وقال: "مَن عُني بذلك، فلْيقرأ "سفر الأسفار" الذي للمنّانيّة؛ فإنّه يطّلع على عجائب من قوْلهم في اليهوديّة[3]، من لدن إبراهيم إلى زمن عيسى".

---

[1] في الأصل: هزوا.

[2] هو دين استحدثه ماني من النّصرانيّة والمجوسيّة. وهو ماني بن فاتك – أو فتّق –، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من " العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولا للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.

انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفرابيني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *المنية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250– ص251.

[3] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص210 إلى ص219): "هاد الرّجل: أي رجع وتاب. وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى –عليه السّلام–: "إنّا هدنا إليك": أي رجعنا وتضرّعنا. وهم أمّة موسى –عليه السّلام– وكتابهم التّوراة، وهو أوّل كتاب نزل من السّماء... واليهود تدّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى –عليه السّلام– وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة إلاّ حدود عقليّة وأحكام مصلحيّة... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر

وهل قالت المنّانيّة بجهلهم في ذلك إلاّ مثل ما قال المُلحِد بقلّة معرفته، حين عاب هذه الأسباب التي في التّوراة، وزعم أنّها خرافات، جهلاً منه بمُراد موسى في ذلك، وبما ضُرب فيها من الأمثال؛ فعدّ المُلحِد ذلك سخفًا وخرافات؛ وإنّما هي أمثال تحتها معانٍ غامضة، يعلمها حكماء الدّيانة الذين يعْرفون معاني كلام الأنبياء (ع).

ولم يكنْ موسى وسائر الأنبياء، مع براعتهم وكمالهم، على حسب ما تقدّم وصفهم، يجهلون من هذا ما عرفه المُلحِد.

وموسى (ع)، مع كمَاله، وما ظهَر منه[1] للأنام من استحكام رأيه، ووُفور عقله، وأفعاله العظيمة التى كانت منه، ولا يكون مثلها إلاّ من أكْمل النّاس، وممَّن يكون مؤيّدًا؛ كان يعلم أنّ الله -عزّ وجلّ- لا يحتاج إلى بساط من أبريسم يقْعد عليه، أو خوان من خشب الشّمشار يأكل عليه، أو قبّة يجلس فيها، مثل القبّة التي أمر موسى باتّخاذها على تلك الصّفات المكْتوبة في التّوراة، والتي سمّاها: قبّة الزّمان، وإلى هذه الأسباب والآلات التي ذكرناها؛ وأنّ الله -عزّ وجلّ- هو مُقدَّس عن هذه الأمور.

وهذه، إن لم تكن أمثالاً كما قلْنا، فهي من فعْل المجانين، ومَن لا يعْقل قوله.

ونعوذ بالله من قول مَن يظنّ بموسى (ع) هذا الظنّ؛ بل كان أطْهر، وأزْكى، وأكْمل من ذلك. ولكنّه، لمّا اصطفاه الله -عزّ وجلّ-، وبعثه بالرّسالة، ضرب للنّاس هذه الأمثال العجيبة، وأشار إلى معانيها الجليلة، ليعتبر بها النّاس.

ومثال تلك القبّة في التّيه الذي كانوا فيه، مثال الكعبة التي وضعَها الله للنّاس، وحجّها النّبيّون (ع) في الأمم السّالفة؛ ثمّ جدّد رُسومها إبراهيم (ع) وحجّها؛ وجعلها محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- قبلة لأمّته، وأمر بحجّها.

وسمّوها: بيتَ الله، وقد علموا أنّ الله -عزّ وجلّ- لا يحْتاج إلى بيت يسكن فيه، وأنّ البيوت كلّها لله. ومثْل تعظيمهم لبيت المقْدس، واتّخاذهم إيّاه قبْلة.

وهكذا كان سبيل قبّة الزّمان التي اتّخذها موسى (ع)، وكذلك سبيل البساط، والخوان، والشّحم، والثّرب الذي أمر أن يجعل على النّار لسرور الرّبّ؛ وسبيل سائر

والجبر، وتجويز الرّجعة واستحالتها... وأشهر فرق اليهود هي: العنانيّة، العيسويّة، المقاربة واليوذعانيّة، السّامرة".

[1] في الأصل: من.

الفرائض والسّنن استعْبد الله بها عباده على ألْسِنَةِ الأنبياء (ع) الذين شرّعوا الشّرائع، وأمروا النّاس بإقامتها.

ولو أنّ الأمْر هكذا، لَكانت هذه الأفعال التي عاب بها المُلحِد الأنبياءَ (ع) عبثًا وجنونًا، ولَكانت من أمْحل المُحال؛ كما يقدّره الجُهّال والمُلحِدون والضُّلّال الذين اتّخذوها هزوًا[1]، ودعاهم الجهْل إلى الخروج عن الشّرائع، وإيثار التّعطيل والإلْحاد.

أفَتَرى الأنبياء الطّاهرين حين شرّعوا هذه الشّرائع التي قد خلدت على الدّهر، ورسموا هذه الرّسوم الباقية إلى الأبد، لم يعرفوا معنًى ما يعرفه المُلحِدون، وهم أكْمل البشر، وكلّ واحد منهم كان قطبًا للأنام في دهْره؟!

أوَتَرى المسيح (ع) حين قال في الإنجيل: "لا تظنّوا أنّي جئتُ لأُبطل التّوراة والأنبياء؛ لم آتِ لأُبطلها، بل جئتُ لأُكملها. والحقّ أقول لكم: إنّ زوال السّموات والأرض أيْسر من زوال حرف واحد من التّوراة. فمَن نقّص وصيّة واحدة من هذه الوصايا الصّغار، وعلّمها النّاس منقوصة، يُدعَى في ملكوت السّماء عظيمًا".

وقد قيل في التّوراة: "إن مَن طلّق امرأته، فليعطيها كتاب الطّلاق"، فأمّا أنا أقول لكم: "كُلّ مَن طلّق امْرأته من غير زنى وتزوّج أخرى، فقد زنى وألْجأها إلى الزّنى؛ ومَن تزوّج مطلّقة في الزّنى، فقد زنى".

فتَلى عليهم هذا الحكْم الذي هو في التّوراة، ثمّ عطّله؛ وعطّل أكثر أحْكام التّوراة، وغيّر ظواهر رسومها؛ وعطّل السّبت، وأقام بدَله الأحد؛ وقد عُلِم أنّ موسى أمر أمّته بإقامته، وكتب ذلك لهم في التّوراة ثمّ عطّله؛ وعطّل أكثر أحْكام التّوراة، وشدّد الأمْر فيه، وأخبرهم أنّ ذلك عن أمْر الله –عزّ وجلّ–، فقال في التّوراة : قال الله لموسى: "قُل لبني إسرائيل: أحفظوا السّبوت، لأنّها آية بيني وبينكم، ولتعلموا أنّي أنا الرّبُ إلهكم، فاحْفظوا السّبت، فإنّه قدس لكم. ومَن عمل فيه عملاً، فلينبذوا ذلك الإنسان من شعبه. اعملوا الأعمال ستّة أيّام، وفي اليوم السّابع سبت الرّاحة قدسًا هو للرّب. كلّ مَن عمل يوم السّبت، فلا يُقبَل. وليحفظ بنو إسرائيل في اتّخاذ السّبت لأعقابهم عهدًا إلى الدّهر ما بيني وبين إسرائيل أبدًا إلى الدّهر، لأنّه في ستّة أيّام خلق الله السّماء والأرض وما فيهما، وفرغ في يوم السّابع".

---

[1] في الأصل: هزوا.

وفي موْضع آخر في التّوراة: "اعملوا الأعمال في ستّة أيّام، واصْنعوا ما أردْتم أن تصنعوا فيها. فأمّا يوم السّبت، فسبوت لله ربّكم، لا تعملوا فيه عملاً أنتم، وبنوكم، وعبيدكم، وإمائكم، ونسوانكم، وحرمكم، وكلّ بهائمكم، والسكّان الذين في قراكم، ليستريح عبيدكم وإماؤكم معكم".

وهو أشدُّ ما أُلزموا من الفرائض في دينهم، فنسخه عيسى (ع) بالأحد، مع شهادته بصحّة التّوراة، ثمّ ينْسخها وينسخ أحكامها؟

ولو لمْ يكن هذا بحكْمة، ولم يكن الأمْر كما ذكرنا: أنّ قوْلهم وفعْلهم، وما أُمِروا به كلّه، كان أمثالاً يختلف ظاهرها وتتّفق معانيها؛ لَكان الأمر أفضع ممّا ادّعاه المُلحِد؛ ولَكان يجب أن يُحكَم على مَن يفعل هذه الأفعال بالجهْل وعدم العقْل -ونعوذ بالله من ذلك-؛ بل كان أطْهر، وأزْكى، وأكْمل من ذلك.

وهكذا كانت سبيل محمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم- في شهادته لموسى وعيسى (ع) بالصّدق والنّبوّة، وفي نسْخه[1] السّبت والأحد، وإقامته الجمعة بَدَل ذلك، وفي نسخه شرائعهم على ما تقدّم القول به.

ولكنّ المُلحِد لم يعْرف رسوم الأنبياء، وسُنَنهم، ومُرادهم فيما فعلوا، وأسكرتْه وساوسه؛ فحكم عليهم بالتّناقض والاختلاف؛ وترك أيضًا رسْم الفلاسفة الحكماء المُحِقّين؛ فإنّهم رسموا أيضًا في كلامهم كان عويصًا غامضًا، إلاّ ما هو من كلام المُبتدِعين الذين نظروا في رسوم الفلاسفة الحكماء وابْتدعوا الوسَاوس[2] المُتناقِضة، مثل المُلحِد وأشْباهه.

فلو تدبَّر المُلحِد هذه الحال واستيْقظ من سكْره، وعرف مذاهب الأنبياء، لَعَلم أنّ كلامهم وشرائعهم ليس فيها تناقضٌ ولا اختلافٌ؛ أو لو تدبَّر تناقض كلام أئمّته المُبتدِعين، إذ لم يعْرف رسوم الأنبياء، وغفَل أيضًا عن رسوم الفلاسفة المُحِقّين، ثمّ كان يشتغل بما جاء عن أئمّته من الاخْتلاف الكثير، والتّناقض القبيح، وتكْذيب بعْضهم لبعْض؛ لَكان ذلك أوْلى به، وأوْجب عليه، وأقْرب من الإنْصاف؛ فإنّ ذلك واضحٌ في كتبهم.

وكلام هؤلاء الذين تشبَّهوا بالفلاسفة الحكماء كان مُجرَّدًا بلا قُشُور، وليس هو على رسم كلام الأنبياء الذين ضربوا الأمثال، ولا على رسْم كلام الفلاسفة الحُكماء الذين

[1] في الأصل: نسخة.

[2] في الأصل: الوسواس.

تكلّموا بالعَويص، على نحو ما حكيْنا أنّه في كتاب برقلس الفيلسوف، وفي كتاب ديمقراط، وغيرهما.

فأمّا المُبتدِعون الذين تشبّهوا بالفلاسفة، فإنّهم أوْردوا في وساوسهم، وفيما ابتدعوه بآرائهم المدخولة من القول في الباري، وفي كوْن العالم، وفي أوائل الأشياء، من الاختلاف والتّناقض ما فيه للمُلحِدين خزْيٌ عظيمٌ، وشناعة قبيحة، وشغل شاغل لهم عن الطّعن على الأنبياء الطّاهِرين.

فإنّهم لم يدعوا شيئًا تكلّموا فيه من هذه الأسباب إلاّ اختلفوا فيه، ونقَض بعضهم على بعض، ونسَبوا كثيرًا من دعاويهم إلى الفلاسفة القُدماء الحُكماء، وقبّحوا أمْرهم عند النّاس، حتّى أجروهم[1] مجْرى الضّلال؛ ونفرت قلوب النّاس من النّظر في أصولهم.

فكيْف لم يَعْجب المُلحِد من اخْتلاف أئمّته، وكلامهم المُتناقِض، وبدعِهم التي ابْتدعوها؛ كما ابْتدع هو مقالته السّخيفة التي تدلّ على ضعْف عقله، من القوْل بِقدَمِ الخمسة؛ وخالَف مَن تقدّمه، وادّعى أنّه نظير سقراط[2] وأرسطاطاليس[3]، وتشبّه بالفلاسفة الحُكماء، كما تشبّه بهم مَن كان على مثل مذْهبه من الضّلال، وابْتدَعوا الوسْواس؟!

---

[1] في الأصل: أجورهم.

[2] هو سقراط بن سقراطيس، من أهل مدينة أثينا. وقد تكلّم سقراط على الفلسفة بكلام لم يذروا منه كثير شيء. والذي خرج من كتبه: *مقالة في السّياسة*، وقيل إنّ رسالته في السّيرة الجميلة له صحيح. وسقراطيس معناه ماسك الصحّة. وكان زاهدًا خطيبًا حكيمًا، وقتله اليونانيّون لأنّه خالفهم. وكان الملك الذي تولّى قتله: أرطاخشت. ومن أصحاب سقراط: أفلاطون. وقال إسحاق بن حنين: عاش سقراط قريبًا ممّا عاش أفلاطون، وقد عاش أفلاطون ثمانين سنة.

حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص245.

[3] يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطرن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر، فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، و يسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف

وكيْف لم يكْشف مستور أكاذيب هؤلاء ودفينها، ولم يهتك سُتور عيوبهم؟! فكان يسّقط رياسته وتكبُّره!!

ولكن طعَن على أهْل الشّرائع، وزعَم أنّهم ينهون عن النّظر، مخافة أن ينْكشف دفين أكاذيبهم، ويهتك النّظر ستورَهم؛ فتسّقط رياستهم وتكبّرهم.

فإنّه لو تأمّل حال نفسه من مخالفته لهم، وأحوالهم في اختلافهم، لَوجد في أصولهم من تكْذيب بعْضهم بعضًا، ونقْض بعْضهم على بعض، ما كان يشْغله عن عيْب الأنبياء والطّعن عليهم؛ ولكن نظر بعيْن العمى، وحكَم بالهوى، وضلَّ عن طريق الهُدى في الأُولى، حتّى لحق بأمّه الهاوية في الأخرى، يعضُّ على يديْه، ويقول: "يا ليتني اتّخذتُ مع الرّسول سبيلاً!".

له. فمن ذلك قول سمّاه *تالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه *خرميس* في العفّة، قولان سمّاهما *القيبادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245-ص246. بيروت. د. ت.

البابُ الرّابع

الفصل الأوّل

ذكر شيء من اختلاف المتفلسفة

وتناقض كلامهم

ونحن نذْكر شيئًا من اختلافهم، وتناقض كلامهم، وأقاويلهم الشّنيعة القبيحة؛ وأكشف عن المحالات والخرافات التي ابْتدعوها في أُصولهم دون الفروع، وأختصر القول فيه؛ فإن استقصيْنا في ذلك، طال القول به جدًّا.

مع ذلك، فإنّ هؤلاء المُبتدِعين قد خلطوا بِدَعَهم بكلام الفلاسفة المُحِقّين، ونسبوا كثيرًا من ذلك إلى الحُكماء القدماء: كما نسبت المجوس[1] قولهم بالاثنيْن، وكما نَسبَت النّصارى[2] قولهم إلى المسيح أنّه ابن الله، إلى الأنبياء.

---

[1] في *موسوعة الإسلام المختصرة* (ج /ص298): "اللّفظة مرّت قبل وصولها إلى اللّغة العربيّة بنقل من اللّغة الفارسيّة إلى الآراميّة". واللّفظة وردت في القرآن الكريم في الآية 17 من سورة الحجّ. وفي *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245): "المجوسيّة دين قديم، وإنّما زرادشت جدّده وأظهره وزاد فيه، قاله شيخنا، قال: هو معرّب أصله منج كوش معرّب مجوس". ومسائل المجوس، كما يذكر الشّهرستاني في *الملل* (ج1/ص232) تدور على قاعدتين اثنتين: أوّلهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة؛ وثانيهما: بيان خلاص النّور من الظّلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا. وقد قسّمها إلى ثلاث جماعات: الكيومرثيّة: الذين أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن، والأوّل أزليّ والثّاني محدث. والزّروانيّة: قالوا: إنّ الله أبدع أشخاصا من نور كلّها روحانيّة نورانيّة ربّانيّة، ولكنّ الشّخص الأعظم الذي اسمه زروان شكّ في شيء من الأشياء، فحدث أهرمن الشّيطان، يعني إبليس. والزّرادشتيّة.

[2] المعهود في عصرنا استعمال لفظ: مسيحيّ. ولكنّ النّصوص القرآنيّة والحديثة لا تذكر غير لفظ: نصرانيّ، نصارى. وقد اختُلف كثيرا في معرفة إذا كانت مشتقّة أو منقولة عن صفة أو معربّة. فأرجعها البعض إلى "ناصريّ" نسبة إلى ناصرة، أو إلى "أنصاري"، باعتبار أنّ الحواريّين أنصار الله كما جاء في القرآن الكريم، وأرجعها آخرون –كالزّمخشري– إلى نصران ونصرانة، بمعنى أنّهم نصروا المسيح. وفي *موسوعة الدّين والأخلاق* (ج3/ص574) لفظة "نصرانيّة" و"نصارى" تطلق في العربيّة على أتباع المسيح. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سريانيّ هو: نصرويو Nosroyo ونصرايا Nasraya. ويرى البعض الآخر أنّها من Nazarenes التّسمية العبرانيّة التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح.

ويصعب علينا أن نميّز المُحقّ منهم من المُبطِل، وأن نميّز كلام المُبتدِعين منهم من كلام الحُكماء القُدماء المُحِقّين.

ولكنّا نذكر مقالة كلّ امرئ منهم، وننسبها إلى مَن نسبوها إليه، ونذكر رسمًا من اختلافاتهم وتناقض كلامهم، لِتستدلّ به على ما وراءه من ضلالهم وعمى قلوبهم، ولِتعلَم أنّ المُلحِد لم يبْصر السّرية في عيْنه ورأى في عيْن غيره قذاة، وما بها من قذيّ، حين غفل عن اختلاف أئمّته الذين هم قُدْوَته وقُدْوَة أشباهه من المُلحِدين الذين زعموا أنّهم استدْركوا بفطنهم وعقولهم معرفة كيفيّة الخالق الباري -جلّ وتعالى-، وأنّهم عرفوا المبادئ، وأحاطوا بالفلك وما وراءه، وأدْركوا معْرفة طبائع الأشياء كلّها، ونشوء جميع الخلائق من الابْتداء إلى الانْتهاء، من غير توقيف من رسول مبْعوث من الله -عزّ وجلّ- خالق الخلْق الذي لا يعْزب عنه مثْقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء، ولا أصْغر من ذلك ولا أكْبر.

فزعموا أنّهم بلغوا بآرائهم المدخولة، وعقولهم التّائهة، وقلوبهم الموسْوسة، اللّطائف من لدن تحت الأرض السّابعة إلى أعْلى علّيين، افتراءً على الله وكفرًا به؛ فضلُّوا ضلالاً بعيدًا، وخسروا خسرانًا مبينًا، وقالوا على الله غير الحقّ، وما كانوا مُهتدين؛ ﴿وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[1].

انظر: *تفسير الرّازي*، ج3/ص105؛ *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586؛ *القاموس الإسلامي* لهيوقس، ص431؛ *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.

[1] سورة الشّعراء (26)، الآية 227.

الفصل الثّاني

في اختلاف الفلاسفة في المبادئ

قال سقراط وأفلاطون[1]: إنّ المبادئ ثلاثة، وهي الله، والعنْصر، والصّورة.

والله هو العقل -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-، وهو واحدٌ بسيطٌ، وهو غير مختلط بالعُنصر، ولا مُشاركًا شيئًا ممّا يقبل التّأثير.

والعُنْصر هو الموْضع الأوّل للكوْن والفساد.

والصّورة: جوْهر لا جسْم في التّخييلات والأفكار المنسوبة إلى الله.

وقالاَ: الله عقْل هذا العالم -عزّ الله عن ذلك-.

وقال أفلاطون[2]: إنّ الله خلَق هذا العالم على مثال صورته؛ ولو لم يكن كذلك، لَمَا تهيّأ أن يكون كوْن على هذه الصّورة التي هو عليها.

وقال ثالس[3]، وهو أحد السّبعة الذين يُدعَون أساطين الحكمة: إنّ الله هو العقل للعالم -عزّ وتعالى-. قال: إنّ المُبدِع إنّما هو فقط؛ ومؤيّس الأشياء لا يحْتاج إلى أن

---

1 في الأصل: أفلاطن.

2 في الأصل: أفلاطن.

3 أوّل فيلسوف بحث في أصل الكون وطبيعته هو طاليس الملطي المتوفّي حوالي سنة 547 ق. م. الذي قال إنّ الماء هو أصل كلّ شيء. وليس المهمّ في ذلك ردّه الأشياء إلى الماء، إنّما المهمّ أنّه:

1- كان أوّل مَن عبّر عن أفكاره بعبارات منطقيّة معقولة، فهو لم يفسّر الكون بالخرافات والأساطير، ولا بالقوى الخفيّة وقوى الآلهة، بل على أساس عقليّ علميّ معلّل يرتبط فيه المعلول بالعلّة ارتباطًا وثيقًا.

2- كان أوّل مَن أرجع الكون كلّه إلى عنصر واحد. فلقد رأى من تعدّد صور الأشياء وتباينها وحدة شاملة تكمن وراءها، إليها ترتدّ جميع الأشياء، وعنها صدرت. فتعدّد الأشياء الظّاهر للحسّ أمر سطحيّ لا قيمة له، إنّما المهمّ ما يكمن وراءه. إنّ طاليس لا يهمّه تنوّع الكائنات والأشياء، إنّما يعنيه الغوص على الحقيقة البسيطة الواحدة التي تضرب في الأعماق، دون نظر إلى ما يبدو للحسّ الظّاهر. وسواء فشلت محاولته هذه أم لم تفشل، فهي المحاولة الفلسفيّة الأولى التي تنظر إلى الكون نظرة كلّيّة شاملة وتضع له تفسيرًا واحدًا يستوعب جميع جزئيّاته.

تكون عنده صورة الشّيء بأيسيّته؛ وإلاّ، فقد لزمه، إن كانت الصّورة عنده، أن لا يكون مقدار الصّورة التي عنده. وإذا كان كذلك، فليس هو مبدعًا.

وخالفه كسنوفانس وفلوطرخس في قِدَم الصّورة، وقالا[1] في مبادئ الأشياء ما نذْكره في موضعه -إن شاء الله تعالى-.

وقال إبيقورس[2]: إنّ الإله في صورة النّاس، وإنّه متصوّر بالعقل للطّاقة طبيعة جوهره.

وقال بأربع طبائع أُخَر غير قابلة للفساد في جنْسها، وهي: الأجزاء التي لا تتجزّأ، والخلاءُ، وما لا نهاية له -ويسمّيها المتشبّهات-، والأسطقسّات.

وقال أنكساغورس[3]: إنّ العقْل هو الإله -عزّ وجلّ عن ذلك-، وإنّ الأجسام كانت أوّلاً في المبدأ واقفة، وإنّ العقل الذي هو الإله رتّبها وجعل لها تولُّدًا على مناسبات.

وقال بيروس: ليست أوائلُ بتّة، إنّما الأشياء تخرج من ذاتها؛ ولا فعلٌ.

فلا تزال تخْرج إلى الفعْل؛ فإذا خرج ما كان بالقوّة إلى الفعل، فحينئذ تكون الأشياء من ذاتها، لا من شيء آخر. فلا تزال تخْرج، حتّى تتمّ؛ فإذا تمّت، صارت كالتي

حول ترجمته راجع: *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص86 – ص87.

[1] في الأصل: قال.

[2] أو إبيقور (270-341 ق.م)هو فيلسوف يوناني قديم، وصاحب مدرسة فلسفية سميت باسمه (الإبيقوريّة). قام بكتابة حوالي ثلاثمائة منجز لم يصلنا منهم إلا بعض الأجزاء والرسائل ومعظم ما وصلنا من الفلسفة الإبيقورية مستمد من التابعين لها وبعض المؤرخين ومنها النصوص التي حفظها ديوجينس اللايرسي Diogéne، فهي رسالة موجهة إلى هيرودوت في الطبيعيات، ورسالة موجهة إلى فيتوكليس في الآثار العلوية، ورسالة موجهة إلى ميناقايوس في الأخلاق؛ ومئة وإحدى وعشرون فكرة هي ملخص المذهب. غاية الفلسفة بالنسبة لإبيقور كانت الوصول للحياة السعيدة والمطمئنة ولها خاصتين "Ataraxia"، وتعني الطّمأنينة، والسّلام، والتخلّص من الخوف و"Aponia"، وتعني غياب الألم، والاكتفاء الذاتي محاطًا بالأصدقاء. قال إبيقور إنّ السّعادة والألم هما مقياس الخير والشرّ، وأنّ الموت هو نهاية الجسد والرّوح، ولهذا لا ينبغي أن نرهبه، وأنّ الآلهة لا تكافئ أو تعاقب البشر، وأنّ الكوْن لا نهائي وأبدي، وأنّ أحداث الكوْن تعتمد بالأساس على حركات وتفاعلات الذرّات في الفراغ.

[3] (أو أنكساغوراس) وهو يرى أنّ أصل الكوْن هو عدد لا نهاية له من العناصر أو البذور يحرّكها عقل رشيد حكيم بصير. توفّي سنة 428 ق. م.

حول ترجمته راجع: *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص87.

تراها، وتحسّ بها، وتدركها بالحواسّ الخمس؛ وليس معقول بتّة إلاّ ما كان من الحواسّ، وما أدركته الحواسُّ.

وقال: إنّ العالم دائمٌ لا يزول، ولا يفْتر، ولا يضمحلّ؛ ولا يجوز أن يكون أوّل مُبدِع يفعل فعلاً يدثر، إلاّ وهو يدثر مع فعله. وهذا العالم، وهو الكلُّ المُمسِك لهذه الأجزاء التي فيها.

وهذا هو القول بالدّهر الدّاهر.

وقال برقلس أيضًا بدهْر هذا العالم، وأنّه باقٍ لا يدثر؛ ووضَع في ذلك كتابًا، وقال: إنّما اتّصلت العوالم وصارت عالمًا واحدًا؛ فهو باقٍ لا يدثر، وهو مُتّصِلٌ بالعالم الأعْلى، والعالم الأعْلى صافٍ، وهذا مُصفًّى؛ فآخر هذا العالم هو بدءُ ذلك العالم؛ وليس هذا العالم بداثر، لأنّه مُتّصِلٌ بما ليس بداثر، بل تدثر قشوره، لأنّ ما كان من الباري بلا متوسّط لا يضمحلّ ولا يدثر؛ والدّثور يدْخل على الشّيء من نحْو المتوسّطات.

وقال إبيقورس مقالة خالف فيها جميع الفلاسفة وتفرّد بها، وكان يقول: إنّ الأوائل اثنان: الخلاءُ والصُّورة؛ يعني بالخلاء، نفْي المكان؛ وأمّا الصّورة، فكالهيولي التي منها أُبدِع الخلْق، وكُوّن كلّ ما في العالم.

وزعَم أنّها ليست مُكوَّنة، بل كان منها كوْنٌ؛ لأنّ المكان والخلاءَ المحْض منها كُوّنا. وهي فوق المكان، وفوق الخلاء؛ فكلّ ما خُلِق منها، أو كُوِّنَ، أو أُبدِع بأنْواع الإبْداع والتّكوين والخَلْق كلُّه ينحلُّ ويفْسد ويدثر ويفْنى، حتّى يرْجع إلى الخلْق الأوّل الذي منه بُدِئ.

وليْس بعد الدّثور والفناء قصاصٌ، ولا حسابٌ، ولا ثوابٌ، ولا عقابٌ؛ بل كلٌّ يضْمحلّ ويفْنى.

فهذا جملة قوله.

قال إبيقورس: إنّ المبادئ الموجودات هي أجسام مُدركَة عقلاً، لا خلاء فيها، ولا كوْن لها؛ وهي سرْمديّة غير فاسِدة، لا تحْتمل أن تُكسَّر أو تُهشَّم، ولا يعْرض لها في الشّيء من أجزائها اختلافٌ ولا استحالة؛ وهي مُدركَة عقلاً، فهي تتَحرّك في الخلاء بالخلاء، والخلاءُ لا نهاية له، وهذه الأجْسام لا نهاية لها.

وقال بثاغورس[1]، ويُقال هو أوّل مَن سمّى[2] الفلسفة بهذا الاسْم: إنّ أوّل المبادئ هو العلّة الفاعلة، وهي الله والعقْل؛ والآخر هو العنْصر القابل للانْفعال، وعنه كان العالم المُدرَكُ بحسّ البَصر.

ثمّ قال: أوّل الأعداد: الواحدُ، وهو ذَكَرٌ؛ والعدد الثّاني أُنْثى، وهو اثنان، وهو ثاني الأوّل؛ والثّلاثة ذَكَر؛ والأربعة أُنْثى، وهو غاية العدد.

والواحد الأوّل هو النّار، وهو ذَكَرٌ؛ والثّاني: الهواء، وهو أُنْثى؛ والثّالث: الماء، وهو ذَكَرٌ؛ والرّابع: الأرْض، وهو أُنْثى.

وقال في هذا قولاً كثيرًا على هذا التّخليط.

وقال إيراقليطس[3] وأناسس: إنّ مبدأ الأشياء كلّها هو النّار. وذلك أنّ كوْن الأشياء كلّها من النّار، وانتهاءَها إلى النّار؛ وأوّل الغلظ منها إذا اجتَمعت وتكاثَفت بعْضها إلى

---

[1] (أو فيثاغورس) قال أبو الخير بن الخمّار بحضرة أبي القاسم عيسى بن عليّ، وقد سُئل عن أوّل مَن تكلّم في الفلسفة، فقال: "زعم فرفوريوس الصّوري في *كتاب التّاريخ*، وهو سريانيّ، أنّ أوّل الفلاسفة السّبعة: ثالس بن مالس الإمليسي. وقد نقل من هذا الكتاب مقالتين إلى العربي، فقال أبو القاسم: كذا هو وما أنْكره. وقال آخرون إنّ أوّل مَن تكلّم في الفلسفة بيثاغورس. وهو بيثاغورس بن ميسارخس من أهل ساميا. وقال فلوطرخس إنّ بيثاغورس أوّل مَن سمّى الفلسفة بهذا الاسم، وله رسائل تُعرف *بالذّهبيّات*. وإنّما سمّيت بهذا الاسم، لأنّ جالينوس كان يكتبها بالذّهب إعظامًا لها وإجلالاً. والذي رأينا لبيثاغورس من الكتب: *رسالته في السّياسة العقليّة*، *رسالته إلى متمرّد سقّلية*، *رسالته إلى سيفانس في استخراج المعاني*. وقد تُصاب هذه الرّسائل بتفسير امليخس.

حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص245.

[2] في الأصل: سمي.

[3] أو هرقليطس (بالأغريقية) Ἡράκλειτος ὁ Ἐφέσιος :بالإنجليزية: (Heraclitus) فيلسوف يوناني، قبل سقراط، قال بـــ التغيّر الدائم. ويصْعب تحديد تاريخ حياته بدقّة، غير أنّه من الرّاجح أنّه ازْدهر (أي كان في الأربعين من عمره) حوالي سنة 500 ق. م، ولا يُعرف عن حياته غير أنّه كان من الأسرة المالكة في مدينة أفسس بآسيا الصغرى. كذلك اشتهر هرقليطس فالغموض، فقيل عنه "الفيلسوف الغامض". وشاع هذا القول في كل العصر اليوناني والروماني، والسبب في ذلك أنه كان يطيب له المفارقات والأقوال الشاذة، وكان يعبر عنها بلغة مجازيّة رمزيّة. ومن هنا لقبه تيمون الفليوسي 300 ق. م بلقب "صاحب الألغاز". ويقول عنه أفلوطين: كان يتكلّم بالتشبيهات، ولا يعنى بإيضاح مقصوده. كان هرقليطس أوّل مَن قال بـــاللّوغوس. وإلى جانب القول باللّوغوس، الانْسجام هو دائمًا نتاج المتقابلات. ولهذا فإنّ الحقيقة الأساسيّة في العالم الطّبيعي هي الكفاح. كلّ شيء في حركة مستمرّة وتغيّر. العالم نار حيّة دائمة البقاء. والمبدأ الأوّل له ثلاثة أوجه: كلّ شيء مؤلّف

بعْض، صارتْ أرضًا؛ وإذا تحلّلت الأرْض وتفرّقت أجزاؤها، صار منْها الماء طبعًا؛ ولأنّ كلّ الأجسام في العالم تتخلّلها النّار وتُثيرها، فالنّار هي المبدأ، لأنّ منْها يكون الكلّ، وإليها ينْحلّ ويفْسد.

وقال إنقسمانس الملطي: أوّل المبادئ هو الهواء، ومنه كان الكلّ وإليه ينحلّ، مثل النّفس التي فينا؛ فإنّ الهواء يُمْسكها ويحْفظها فينا. والهواءُ يمْسك العالم، وهو روحه وماسِكه.

ونقَض عليه هذا القول كثيرٌ منهم بحجج.

وقال كسنوفانس: إنّ أوّل الأشياء هو الأرض، وإنّه لا نهاية لها، وإنّها هي الأصْل، وهي تجْمع الأشياء كلّها.

وقال ثالس الملطي، وهو أحد السّبعة الذين يُدعون أساطين الحكمة: أوّل المبادئ هو الماء، وهو العنْصر الأوّل القابل لكلّ[1] صورة، ومنه أُبدع سائر الجواهر من السّماء وما دونها، وهو غاية كلّ مُبدع.

وقال: مِنْ جَمْد الماء كُوِّنَت الأرض، ومن انْحلاله كُوّن الهواء، ومن جمع الهواء تكوّنت النّار.

وقال: هذا العنْصر هو أوّل وآخرُ، إنّما هو عنْصر له صفْو وكدورة؛ فما كان من صفْوه يكون جسمًا؛ وما كان من ثقله يكون جرمًا؛ فالجرْم يدثر والجسْم لا يدثر.

من المتقابلات. ولهذا، فإنّه خاضع للتوتّر الدّاخلي. المتقابلات في حالة هويّة بعضها مع بعض، أي أنّ المتقابلات واحدة. الحرب، هي القوّة المهيمنة والخلاّقة، وهي الحالة السّليمة للأمور. أمّا المبدأ الثّاني، فيعبّر عنه بقوله: "كل شيء في سيلان دائم παυτα ρξι : والقول المشهور الذي يعبّر به هرقليطس عن هذا المبدأ "لا تستطيع أن تنزل في نفس النهر مرّتين" ويضيف إليه فلوطرخس، التّفسير التالي: "لأن مياهًا جديدة تتدفّق فيه". أمّا المبدأ الثّالث، فيشْرحه بالقول: "إنّ نظام العالم واحدٌ للجميع، لم يصنْعه أحد الآلهة ولا النّاس، لكنّه هو دائمًا وسيكون كذلك أبدًا: نارًا حيّة دائمة البقاء، أُشعلت بمقاييس وأُطفئت بمقاييس". ويشْرح اللائرسي هذا القول بأنّه يعني أنّ "الكوْن وُلِد من نار وسينحل من جديد إلى نار، في عصور متوالية على التّبادل، وهكذا أبدًا".

انظر ترجمته في: موسوعة الفلسفة، الدكتور عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1 1984، الجزء الثّاني.

[1] في الأصل: كلّ.

وكلّ جرْم من هذه الأجرام الظّاهر، فإنّه جسْم غير ملموس، ويظهر في النّشأة الثّانية، ويكون كالجرْم الظّاهر يُدرَك بحسّ البصر وبالحواسّ الخمس الباطنة.

وقال أيضًا: إنّ فوْق السّماء عوالم مُبدعة لا يقدر المنطق والنّفس والطّبيعة تحته، وهو المدهر المحقّ؛ وإليه تشتاق العقول والأنفس؛ وهو الذي يُقال له: الدّيمومة والبقاء في النّشأة الثّانية.

وقال الذين يُقال لهم الفلاسفة من أهل أقاديما: لا تخلو هذه الأشياء وهذا الخلْق أن يكون لها أوّل، والأوّل هو النّار؛ لأنّه ضياءٌ، ولأنّ النّار في كلّ عالَم من ذلك العالم؛ وفي كلّ عالم أوّل مُشاكِل لهذه، ولهذه كلّها أواخر هي أوّل لهذه تجْمعها كلّها؛ وليس تجْمع الأواخر الأوائلُ.

وقال أرسطاطاليس: إنّ المبادئ هي: الصّورة، والعنْصر، والقِدَم، والأسطقسّات الأربعة، وجسْم خامس وهو الأثير، وهو العنصر الأعظم؛ وإنّ الإله الأعْلى مُفارِق للصّورة، وهو كرة[1] للكلّ -تعالى الله وجلّ-؛ وإنّ الصّور مُتّصِلة مُتّحِدة، وهي مقسومة بالأُكر؛ وكلّ واحد منها مُركّب من نفس، وجسم. فالجسْم منها هو الأثير؛ والنّفس نطْقٌ عقليٌّ غير مُتحرّك. والجسْم مُتحرّكٌ حركة دوريّة، وهو علّة الحركة بالفعْل، وهو الأثير، وهو غير مستحيل.

وقال: إنّ مبدأ الموجودات هو الذي لا نهاية له، وإنّ منه الكلّ وإليه ينْتهي الكلُّ، ولا نهاية له.

وقال: إنّ العوالم بلا نهاية. ولم يفسّر المبدأ الذي لا نهاية له.

وقال أنبذقليس[2]: إنّ الباري لم يزل هُويّته فقط، وهو العلْم المحْض والإرادة المحْض؛ وهو الجود، والعزُّ، والقدْرة، والعدْل، والخيْر، والحقُّ؛ وهناك قوى[3] مسمّاة لهذه الأسامي، وهي الهويّة؛ وهذه كلّها مُبدِع فقط.

وقال: إنّ الصّورة إنّما أبْدعها المُبدِع، لا بنوْع علم وإرادة، بل بنوْع علّة فقط.

---

[1] في الأصل: كره.

[2] (أو أمبيذوقليس) وهو يعتبر أنّ أصل الكون هو العناصر الأربعة جميعا، أي الماء والهواء والتّراب والنّار. توفّي حوالي سنة 435 ق. م.

حول ترجمته راجع: *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص87.

[3] في الأصل: قوي.

وقال: إنّ العالم واحدٌ، إلاّ أنّ الكلّ ليس هو العالم وحْده فقط، لكنّ العالم جزءٌ يسيرٌ من الكلّ، وباقي الكلّ عنْصر مُعطّل.

وقال: أوّل مُبدِع هو العنصر أوّل بسيط عقليّ، بل أوّل بسيط، على ما ذكرْنا نحو ذات العقل.

فأمّا نحْو ذات العُنصر، فهو مُركَّبٌ من المحبّة والغلبة أبدعت الجواهر البسيطة الرّوحانيّة، والبسيطة الجسمانيّة، والمُركّبة الجرمانيّة.

وقال: إنّ الأنفس الكليّة إلى العقل، والعقل إلى الباري، فيمسح الباري نوره على العقل، والعقل على النّفس، والنّفس على هذا العالم مرّة أخرى، حتّى تعاين الأنفس الجزئيّة النّفس الكلّيّة وتلْحق بعالمها، وذلك بعد دهور كثيرة.

فأوْرد نحْو هذا من قوْل.

ومن قوْله وقول بثاغورس وديمقراط تشعبّت الأقاويل الكثيرة والآراء المختلفة في المُبدِع والمُبدَع.

وقال طولوس الفيّومي وتمستيوس: لا شيء مُبدَعًا إلاّ ما يُرى بالأعْين، ويُسْمع بالآذان من صوْت يصْدم أو جرم يحطّم؛ ودفعًا أنّ شيئًا وراء ذلك.

وقال أفلاطن الأقبطي بهذا القول.

وقال أفلاطون[1] أيضًا: لا أفعل، ولا حركة، ولا تغيير، ولا فناء، ولا زوال؛ ولكنّا نرى فاعلاً ومتحرّكًا، ولا نرى تغييرًا ولا متغيّرًا، ولا فناءً ولا فانيًا، ولا زوالاً ولا زائلاً.

وقال هرقّل -فليسوف أهْل إفسوس-: إنّ الأوائل نورٌ عقليٌّ، وهو الله حقًّا -عزّ الله وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا-، وهو اسْم الله باليونانيّة؛ ويدلُّ على أنّه مُبدع الكلّ، وهو اسمٌ شريفٌ جدًّا.

فأوّل شيء أُبدِع، وأوّل هذه العوالم: المحبّة، والغلبة، والمُنازعة.

ومن المَحبَّة كانت العوالم العلويّة إلى أن ينتهي إلى السّماء، ومن السّماء إلى هذه الأرض.

ووَافَق أنبذقليس في أمْر المحبّة، والغلبة، وخالفه في غير ذلك. وقال: إنّ السّماء تصير في النّشأة الثّانية بغير كواكب؛ لأنّ الكواكب تهْبط سفلاً، حتّى تهْبط إلى الأرض، وتلْتهب، فتصير متّصلة بعضها ببعض، حتّى تكون كالدّائرة حول الأرض؛ وكلّ الأنفس

---

[1] في الأصل: أفلاطن.

الدّنِسة تبقى في الأرض، وتلك النّار محيطة بها؛ والأنفس الزّكيّة ترتفع إلى عالمها، وتكون سماؤهم سماءً نورانيّة أشْرف من هذه؛ ففيها آثار الباري بلا متوسّطات، وهناك الحُسْن المحْض، لأنّه مُبدِعه بلا توسّط ولا تعب؛ وإنّ الباري يمْسح الأنفس في كلّ دهْر مسحةً ويتجلّى، حتّى تنْظر إلى نوره المحْض الخارج من جوْهره الحقّ، فيشتدّ عشْقها وشوْقها؛ ولا يزال كذلك أبد الآباد دائمًا.

وقال: إنّ أوّل الأوائل من المُبدّعات هو الهيولي؛ ومنها كان جميع ما في هذا العالم؛ ومنها كان الهواء، والنّار، والماء، والأرض؛ وإنّ كلّ ما كُوّن من الهواء المحْض، وإنّه لطيف روحانيّ لا يدثر، ولا يدْخل عليه الفساد، ولا يقْبل الدّنس.

وكلّ ما بقي في هذا العالم الدّنس الكثير الأوْساخ، يتشبّث به هذا العالم؛ لأنّ هذا العالم دنس، ويمْنعه أن يرتفع علوًّا.

وكلّ ما لم يقْبل هذا الدّنس وهذه الأوساخ، وألْقاها عن نفسه واتّصل بكلّيته الطّاهرة النّقيّة، تخلّص ولحق بكليّته.

وهذا العالم يدثر ويدخله الفساد، من أجل أنّه ثقل تلك العوامل الرّوحانيّة الشّريفة، وهو قشرٌ؛ ولولا ما فيه من نوريّة تلك الأوائل، لَمَا ثبت طرفة عيْن. وإنّما ثباته بقدْر ما يصفّي العقْل جزأه والنّفس جزأها. فإذا صفتْ هذه الأجزاء النّيّرة الشّريفة، دثر، وفسد، وبقي مظلمًا؛ وهو الدّثور الذي ذكوره أجمعين. والأنفس الدّنسة تبقى في هذه الظّلمة، لا تعاين النّورانيّة.

وقال ديمقراط وبرقونس وبرقلس: إنّ العقل أوّل مُبدَع، وقالوا برأي أنبذقليس في النّشأة الثّانية، وخالفوه في المحبّة والغلبة، وقالوا: إنّ المُبدَع الأوّل ليس هو العنْصر فقط، بل الأخلاط الأربعة، وهي الأسطقسّات، منها أُبدِعت الأشياء البسيطة كلّها دُفعة واحدة؛ فأمّا المُركّبة، فإنّها دائمة داثرة، إلاّ أنّ ديْمومتها بنوْعٍ، ودثورها بنوْع؛ لأنّ منها ما أُبدع باقيًا دائمًا، لا يجوز عليه الدّثور؛ ومنها داثرٌ غير باقٍ، لا يجوز عليه البقاء.

وقال فلوطرخس: إنّ الباري لم يزل بالأزليّة، وهو مُبدِع فقط، وكلّ مُبدِع ظهرت صورته في حدّ الإبداع؛ وكانت صورته في علْمه الأوّل. والصّورة عنده بلا نهاية، ولو لم تكن الصّورة مع أزليّته، لم يكن ليَبقى.

وأوْرد كلامًا خلط فيه تخليطًا كثيرًا، وخالف ثالس في قِدَم الصّورة؛ وقد ذكرنا قول ثالس في نفْي الصّورة مع ذكر مقالته.

وقال كسنوفانس: إنّ المُبدع الأوّل هو أنيّة الأزليّة[1] التي هي بنوْع الدّيمومة والقِدمة، لا يُدرَك بنوْع صفة منطقيّة ولا عقليّة.

ونفى[2] أزليّة الصّورة والهيولي، وقارب قوْل أهل التّوحيد؛ ولكنّه أوْرد بعد ذلك كلامًا خلط فيه.

وقال زينون[3] الذي يُقال له الأكبر: إنّ المبادئ هي الله والعنْصر. والله هو العلّة الفاعلة -تعالى الله عن ذلك-، وإنّه المُبدِع الأوّل، كان في علْمه صورة إبداع كلّ جوهر؛ وإنّ علْمه غير متناه، والصّورة التي فيه من حدّ الابتداع غير مُتناهية، وكذلك صورة الدّثور غير مُتناهية.

---

[1] في الأصل: الأزليّته.

[2] في الأصل: نفي.

[3] ولد زينون في 334 قبل الميلاد، في قبرص. كل ما يعرف عن حياته يأتي من حكايات منقولة عن ديوجنيس لارتيوس في عمله حياة وأفكار فلاسفة بارزون .زينون هو ابن تاجر فينيقي وكان هو نفسه تاجرا، عندما أتى إلى أثينا ليتعلم الفلسفة في سن 22. القصة تعود إلى أحد رحلاته إلى أثينا حيث جذبته كتابات سقراط. فسأل صاحب المكتبة عن شخص مماثل، فأخبره صاحب المكتبة عن أحد فلاسفة الفضيلة في اليونان. وصف زينون بأنّه شخص جامح وصبور، ويعيش حياة زاهدة ووافرة. هذه الأمور أثّرت في تعاليمه وفي فلسفته الرّواقية. رفض زينون المواطنة الأثينيّة عندما عرضت عليه، حيث تخوّف من أن يظهير كشخص غير مخلص لأرضه الأمّ فينيقيا. وكذلك فضل زينون صداقة البعض على الكثير، أنّه كان مولعًا في دفن نفسه في الاكتشافات، أنّه لم يحب يسهب أو يفصل في خطاباته. توفي زينون في 262 قبل الميلاد، ذكر لارتيوس عن وفاته: عندما كان مغادرات للمدرسة تعثر ووقع، فكسر اصبع قدمه. ضاربا للأرض بقبضته، اقتبس سطرًا من نيوبيه: "أتيت، أتيت، لماذا تناديني؟" ومات فورًا بعد أن توقفت أنفاسه. قسّم زينون الفلسفة إلى ثلاثة أجزاء: المنطق: وهو موضوع واسع يضمّ البلاغة، القواعد، والنّظريّات المتعلّقة بالإدراك والفكر. وقد قسّم زينون المفاهيم الصّحيحة إلى ما يمكن فهْمه وما لا يمكن. مؤكدا على الإرادة الحرة لقوّة الإثبات في التفرقة بين الانطباعات الحسية. وقال إنّ هناك أربعة مراحل في عمليّة الوصول للمعرفة هي الملاحظة، الإثبات، الإدراك، ثمّ المعرفة. الفيزياء: وهي لا تضمّ فقط العلوم بل الطّبيعة المقدّسة للكوْن. يرى زينون أنّ الكون هو الإله، كيان عاقل مقدّس، وتنتمي كلّ الأجزاء إلى الكلّ. في رؤيته هذه الموحّدة للوجود يرى أنّ الطّبيعة رؤية فنية تقدم قواعد ثابتة للخلق. الأخلاق: حيث أن الهدف النهائي كما يرى زينون هو الوصول للسّعادة، فإنّه لا يكون إلاّ عبر الطّريقة الصّحيحة في العيش وفقًا للطّبيعة. أعماله: الجمهوريّة، الأخلاق، الحياة وفقًا للطّبيعة، عن الحافز أو عن طبيعة البشر، عن العواطف، عن الواجب، عن القانون، عن التّعليم اليوناني، فنّ الحبّ، عن الكوْن، عن الكائن، عن العلامات، عن البصيرة، عن الشّعارات.

وقال: إنّ هذا العالم يبقى بقاءً دائمًا، ولا يفنى فناءً داثرًا.

وقال: إنّ صورة هذه العوالم، وما فيها من العلم الأزليّ، باقية داثرة. وهي باقية بنوْع تجديد، وداثرة بنوْع دثور الصّورة الأولى عند تجْديد الأخرى. والدّثور يلزم الصّورة والهيولي معًا.

وقال أيضًا مثل قول خرسبوس: إنّ الباري محْض هو أنّيّة[1] فقط، أبدع العقل والنّفس دفْعة واحدة، ثمّ أبْدع جميع ما تحتهما بتوسّطهما.

وقال: إنّ للنّفس جرميْن، جرمًا من النّار والهواء، وجرمًا من الماء والأرض؛ والنّفس مُتّحِدة بالجرم الذي من الماء والأرض.

والنّفس مستطيعة ما خلاّها الباري. فإذا ربَطها، فليست بمستطيعة؛ كالحيوان الذي إذا خلاّه مدبّره، الذي هو الإنسان المالك له، كان مستطيعًا؛ وإذا ربطه، كان غير مستطيع.

وقال أنكساغورس وكسناغورس بقول فلوطرخس في المُبدِع، وخالفاه في المبدع الأوّل، وفي أشياء غير ذلك.

وقال فليوخرس: إنّ المُبدع الأوّل كان مبدع الصّورة فقط. فأمّا الهيولي، فلم تزل معه.

وقال أنكسمانس[2]، الذي يُعدُّ أيضًا من السّبعة الذين كانوا يُدعَون أساطين الحكمة: إن الباري أزليٌّ، لا أوّل له، ولا آخر؛ وهو بدءُ الأشياء كلّها؛ وهو "أنّه" فقط، ولا هويّة تشبهه، وكلُّ هويّة مُبدعة؛ وهو واحدٌ لا يتكثّر، أبْدَع صورة العنْصر وصورة العقْل.

وصورة العنْصر واحدة أيضًا إلاّ أنّها تتكثّر، ومنها انْبعثت صورة العقل؛ فترتّبت ألوان الصّور على قدْر ما فيها من طبقات الأنوار، فصارت تلك الطّبقات، العوالم؛ حتّى قَلّ نور الصّورة في الهيولى، وقلّت الهيولى، حتّى لم يبْق إلاّ ثقلها، فصار منها هذه الصّورة الرّديئة؛ وترتّبت هذه القوى بقدر سكون النّفس في هذه الأجرام.

---

[1] في الأصل: أن.

[2] (أو أنكسمينس) وهو يرى أنّ أصل الكون هو الهواء. توفّي حوالي سنة 580 ق. م. حول ترجمته راجع: *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص87.

فمُدبِّر هذا كلّه ساكنٌ، لا تجوز عليه الحركة، لأنّ الحركة مُحدَثة؛ إلاّ أن نقول إنّ تلك الحركة فوق هذه الحركة، كما أنّ ذلك السّكون فوق هذا السّكون.

فأورَد كلامًا يقْرب من قوْل أهْل التّوحيد، ثمّ خلط بعد ذلك.

وقال أنبذقليس أيضًا: هو يتحرّك بنوْع السّكون.

وبهذا القوْل قال أنكساغورس وكثير منهم. واخْتلفوا، وخلطوا، ونقَض بعْضهم على بعْض.

وقال أرسطاطاليس في هذا الباب: الإله لا يتحرّك، لأنّ الحركة لا تخلو من أن تكون، إمّا مكانيّة، وإمّا زمانيّة، وإمّا فكريّة؛ ثمّ قال: إنّ الإله حركته بنوْع سكون، وسكونه بنوْع حركة، إلاّ أنّ تلك الحركة وذلك السّكون ليسَا هما وَهْميّيْن ولا عقليّيْن.

وقال أنكسمانس في الحقّ والحكمة: إنّ الحقّ حقّانِ: حقٌّ نوريٌّ، وحقٌّ مظلمٌ، والحكمة واحدة.

وقال في ذلك سقراطيس: الحقّ متعلّقٌ بالحكمة من نحْو العقل.

وقال فلسنيوس: إنّ الحقّ مُتعلِّقٌ بالحكْمة، لا من نحو العقل.

واختلفوا في هذا الباب أيضًا اختلافًا كثيرًا؛ فمنْهم مَن قال: إنّ الحكْمة قبل الحقّ، وإنّ الحقّ لا يقوم إلاّ بالحكْمة؛ ومنْهم مَن قال: إنّ الحقّ قبل الحكمة، وإنّما صارت الحكْمةُ حكْمةً بالحقّ الذي أقامها.

وقال بثاغورس الأنطاكي: الباري –جلّ ذكره– واحدٌ لا يُدرَك من جهة العقل والنّفس؛ وإنّ هذا العالم أُلِّف وصُنِع من اللّحون البسيطة الرّوحانيّة وأعداد الرّوحانيّة، وهي غير منقطعة، وهي مُتّحِدة تتجزّأ من نحْو العقل، ولا تتجزّأ من نحْو الحواسّ؛ وإنّ هذا العالم هو سرور فقط في أصْل الإبداع مثل العوالم الأوّل، إلاّ أنّ تلك أبْسط من هذا؛ ومنطق العوالم هو باللّحون الرّوحانيّة البسيطة، فمن أجل ذلك صار سرورًا دائمًا غير مُنقطِع.

وقال: إنّ أوّل ما أُبدعت السّماء، أظهرت النّفس النّجوم السّبعة التي هي دلالات اللّهْو، والسّرور، والحُسن، والعدْل، والعزّ، والعشْق، وما أشبه ذلك.

ولوْ عرَف أصحابُ القضاء كيْف حركاتُها وانتقالُها ومزاجُها ومقابلاتها، لَقدروا على معرفة تأليف العالم؛ ولكن لمّا لم يقْدروا عليها، لم ينالوا علمَ تأليف هذا العالم.

وقال موزنش، وكان تلميذًا لبثاغورس: إنّ ثبات العالم وقوامه من اثنيْن مُبدِعيْن، من ذكَر وأنْثى، من ضوْءٍ وظلمةٍ؛ والضَوْء ذَكَر، والظّلْمة أنْثى، ومنْهما تكوّنت الأشياء كلّها.

وأخذت عنه المجوس هذا القول، لأنّه كان دخل مملكة الفُرْس، فأخذ ذلك عنه وارطوس، الذي قام في المجوس بعد زرهشت[1]، وخلَطه بالرّسم الذي كان عليه المجوس من رسوم الأنبياء (ع)، وأفْسد عليهم دينهم، وأزالهم عن التّوحيد، ودعاهم إلى القول بالاثنيْن، وخلط الباطل بالحقّ، فضلّ وأضلّ.

وبنى مقالته على أنّ الضّوء والظّلمة مُبدَعان، وأنّ الضّوء سماويٌّ، والظّلمة أرْضيّة،؛ فلا يتمّ للسماويّ أمرٌ إلاّ بالأرضيّ، إلاّ أنّ الأرْض في سلطان الظّلمة. ولمّا اتّفق النّور والظّلمة، ولَد النّور النّار، وولَدت الظلمةُ الأرض، وهي أرضيّة؛ ثمّ تولّدت من النّار الحرارة واليبوسة، ومن الماء البرودة والرّطوبة؛ ثمّ ازدوجتْ، فتولّد منها هذا العالم كلّه.

فأصْل مقالة المجوس في اعتقادهم القول بالاثنيْن من هذه الجهة.

وقال ملّيسس وأصحابه: إنّ المُبدِع واحدٌ، ولا يجوز أن يخْلق اثنيْن، لأنّ الاثنيْن يدلاّن على التّنازع والتّضاد.

---

[1] أو زردشت. وعاش زردشت في منتصف القرن السّابع قبل المسيح، وتوفّي على الأرجح سنة 582 ق. م. وُلد في أذربيجان، وولادته تشبه إلى حدّ بعيد ولادة المسيح. انْتقل إلى فلسطين، واستمع إلى بعض أنبياء بني إسرائيل من تلاميذ النّبيّ أرميا، ثمّ عاد إلى أذربيجان، ولم تطمئنّ نفسه إلى اليهوديّة، فبدأ يدرس الأديان الفارسيّة القديمة. وحين بلغ ثلاثين سنة زعموا أنّه بعثه الله نبيّا ورسولا إلى الخلق. ونُسبت إليه معجزات كإحياء الموتى وردّ البصر. وأهمّ كتاب نُسب إليه هو *الأبستا* (أو *الأفستا*) وشرحه *الزّند أفستا*. ويظهر أنّ مذهبه الثّنوي في إرجاع أصل العلم إلى النّور والظّلمة يعود إلى مبدإ خلقي الخير والشرّ. فمذهبه الوجودي متّصل بالمشكلة الخلقيّة الأنطولوجيّة. فمن امتزاج النّور بالظّلمة وُجدت الأشياء وحدثت الصّور من التّراكيب المختلفة. وصراع النّور والظّلمة ينتهي بتغلّب النّور، وتخلّص الخير إلى عالمه وانحطاط الشرّ إلى عالمه. وقد أورد الشّهرستاني محاورات بين زرادشت وأومرزد، وفيه نزعة تشبيهيّة وعضويّة صريحة.

حول ترجمته راجع: *الملل* للشّهرستاني (طبعة كيلاني) ج1/ص236 و(طبعة بدران)، ج1/ص216؛ *التّبصير*، ص105؛ *المنية*، ص64؛ *نشأة الفكر الفلسفي*، ج1/ص191–ص192؛ *قاموس الفلسفة*، ص343؛ *مروج الذّهب*، ج1/ص229–ص230.

فلمّا رأينا هذا العالم لا ضدّ له ولا موافق، استدللْنا أنّه واحدٌ لا يدْخله الفساد والفناء من غيره أو من خاصتّته في الجزء والكلّ؛ وإنّما الحقّ واحدٌ، لا تغيير فيه، ولا تبديل، ولا زوال؛ وإنّما هو منتقلٌ كالمكان والزّمان؛ وكالرّجل يكون في الظّل حسَن اللّون، وفي الشّمس قبيح اللّون، والرّجل واحدٌ لم يتغيّر، ولم يتبدّل، ولم يفْنَ، ولم يزل؛ وكذلك سائر ما يُرى وما لا يرى من الألوان، والطّعوم، والأصوات، والحسّ، والشّم، لا تغيير، ولا تبديل، ولا انفْعال، ولا حركة.

فهذا أصلُ قولهم.

وقال فلانوس، وكان أيضًا من تلاميذ بثاغورس، وصار إلى الهند، وادّعى أنّ بثاغورس ارْتقى إلى الهواء، وعايَن عالم الطّبيعة، وعالم النّفس، وعالم العقل؛ وقال: إنّ كلّ ما في العالم من الحسّ هو معلُول الطّبيعة، وما عند النّفس أكرمُ ممّا عند الطّبيعة وأخسُّ ممّا عند العقْل، إلى أن ينْتهي إلى العلّة التي لا علّة فوقها.

وأخذ عنه هذا الرّأي برخمس الهندي؛ فدَعا إليه النّاس، وخلط بدَعه برسوم الأنبياء التي كانت في أيديهم كما فعل وارطوس بأصحاب زرهشت، وأبدع بِدعًا كثرةً، منها تفرّقت أدْيان الهند.

وعنه أخذ برهما، فسنّ لهم الإحراق؛ وأمَر بالتّعرّي والسّياحة في البراري والجبال حيارى؛ ورغّب النّاس في تلْطيف الأبدان، وتهذيب الأنفْس، والإسراع في الخروج عن هذا العالم والاتّصال بذلك العالم، لتكون الأنفس مسرورة متلذّة، لا تملُّ ولا تكلُّ بزعمه.

فأخذ عنه أهْل الهند، وتفرّقوا بعده فِرَقًا كثيرةً؛ إلاّ أنّ أصْل البدَع في مقالاتهم من فلانوس -الذي كان من تلاميذ بثاغورس-.

وقال قومٌ منهم: إنّ التّناسل في هذا العالم خطأٌ، وأفْضل الأعمال عندهم: أن يلْقوا أنفسهم في النّار، يزْعمون أنّهم يطهّرون أبدانهم؛ ولهم أديان كثيرة مُختلِفة عجيبة جدًّا ابْتدعوها، ويطول التّفسير بذكْرها.

الفصل الثّالث

جملة الخلاف فيما قال الفلاسفة

فتأمّل -رحمك الله- ما قد ذكرْته من أصول هؤلاء الضُلاّل، وشدّة اختْلافهم وضَلالهم، وكيْف خالَف بعْضهم بعضًا في القول في الباري -جلّ وتعالى- وفي مبادئ الأشياء وفي انْتهائها، وكيف ضلّوا حتّى قال بعضهم: إنّ الله هو العقْل، وهو عقلُ هذا العالم؛ والعنْصر والصّورة قديمان معه -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

وقال بعْضهم: الله هو عقل العالم -عزّ الله عن ذلك-، وهو أبْدَع الصّورة والعنْصر.

وقال غيْره: العقْل هو الإله -سبحانه عن ذلك-؛ وأنّ الأجسام كانت واقفة، فزيّنها، وجعَل لها مناسبات وتولُّدًا.

وقال آخر: الله علّة هذا العالِم -عزّ الله وجلّ-.

وقال آخر: الباري هو العلْم، والإرادة، والجُود، والعزُّ، والعدْل، والخيْر، وقوى غيْرها.

وقال غيْره: الله هو نورٌ عقليٌّ، وعقولنا أُبدِعت من ذلك النّور -عزّ الله وتعالى-.

وقال آخر: الباري هو مُتحرّكٌ.

وقال غيره: هو ساكِنٌ.

وقال غيره: هو مُتحرّكٌ بنوْع الحركة، ساكنٌ بنوْع السّكون.

وقال آخر: الله خلَق هذا العالَم على مِثال صورته.

وقال آخر: الله هو في صورة إنسان -تعالى الله عن ذلك-.

وقال آخر: هو الله والعنْصر قديمٌ معه، والله هو العلّة الفاعِلة -عزّ الله وجلّ-.

وقال آخر: إنّ الصّورة كانت قديمة عند الله.

ونفى غيره ذلك.

وقال آخر : إنّ الله أبْدع الصّورة، والهيولي لم تزل معه.

وقال آخر: إنّ الله أبْدع العقْل والنّفس، وبتوسّطهما أبْدع العالم.

وقال آخر: إنّ الله أبْدع العالم من المحبّة والغلبة.

وقال آخر: أبْدعه من اللّحون البسيطة.

وقال آخر: العالم دائمٌ لا يزول، ولا يفتر، ولا يضْحملُّ.

وقال كثيرٌ منْهم بدهْر العالم.

وقال آخر: الأشياء تخْرج من ذاتها بلا حدث.

وقال آخر: المبادئ هي أجسام لا خلاء فيها ولا كوْن، وهي سرمديّة غير فاسدة.

وقال آخر: مبدأ الأشياء كلّها: النّار.

وقال آخر: هو الهواء.

وقال آخر: هو الماء.

وقال آخر: هو الأرض.

وقال آخر: لا شيء مُبدَعًا إلاّ ما يُرى ويُسمَع، وأنْكر ما غاب.

وقال آخر: لا فعْل، ولا حركة، ولا تغيير، ولا فناءَ.

وقال آخر: الأوائل اثنان: الخلاءُ، والصّورة.

وقال آخر: إنّ جميع ما يُرَى ويُحَسّ لا حقيقة له، إنّما هو على طريق الخيلولة والحسبان. وإنّما نرى هذه الأشياء ونشاهدها، كما نراها في المنام، ولا حقيقة لها، ولا حقيقة لأنفسنا، ولا لشيء ممّا يُرى ويُحَسّ، ولا لشيء من هذا العالم كمذهب السّوفسطائيّة[1].

وقال غيْره: إنّ العالم يدثر ويفْنى، ولا ثواب ولا عقاب.

وقال آخر: العالم غير داثر، ولا مستحيل.

وقال آخر: إنّ الأنفس تلْحق بالعالم العلوي، وتبقى هناك وتلتذُّ.

وقال آخر: بل تدثر، وترجع إلى هيولاها الأولى.

وقال آخر: الباري –جلّ وعزّ– يمسحها حتّى تَرى نوره.

---

[1] السّوفسطائيّة جملة من النّظريّات أو المواقف العقليّة المشتركة بين كبار السّفسطائيّين كبروتاغوراس وغورجياس وبروديكوس وهيبياس وغيرهم. وأصل لفظ السّفسطة في اليونانيّة سوفيسما، وهو مشتقّ من لفظ سوفوس، ومعناه الحكيم والحاذق. والسّفسطة عند الفلاسفة هي الحكمة المموّهة، وعند المنطقيّين هي القياس المركّب من الوهميّات. والغرض منه: تخليط الخصْم وإسكاته. وتطلق لفظة السّفسطائيّة أيضًا على كلّ فلسفة ضعيفة الأساس، متهافتة المبادئ، كفلسفة الرّيبيّين الذين ينكرون الحسّيات والبديهيّات وغيرها، وتنْقسم إلى ثلاث فرق: اللاّأدريّة، والعناديّة، والعنديّة.
انظر: *المعجم الفلسفي* لجميل صليبا، ج1/ص658 إلى ص660؛ *كشّاف اصطلاحات الفنون* للتّهانوي.

وقال آخر: بل يمسح العقل، والعقل يمسح النّفس، والنّفس تمْسح العالم؛ فتستضيء، وتُعاين الأنفسُ الجزئيّة النّفسَ الكليّة.

وقال آخر: بل الباري يمسحها في كلّ دهر، ويتجلّى حتّى ينْظر إلى نوره.

وقال آخر: إنّ بثاغورس[1] ارتقى إلى الهواء، وعاين عالم الطّبيعة، وعالم النّفس، وعالم العقل.

[1] (أو فيثاغورس) قال أبو الخير بن الخمّار بحضرة أبي القاسم عيسى بن عليّ، وقد سئل عن أوّل مَن تكلّم في الفلسفة، فقال: "زعم فرفوريوس الصّوري في *كتاب التّاريخ*، وهو سريانيّ، أنّ أوّل الفلاسفة السّبعة: ثالس بن مالس الإمليسي. وقد نقل من هذا الكتاب مقالتين إلى العربي، فقال أبو القاسم: كذا هو وما أنكره. وقال آخرون إنّ أوّل مَن تكلّم في الفلسفة بيثاغورس. وهو بيثاغورس بن ميسارخس من أهل سامنيا. وقال فلوطرخس إنّ بيثاغورس أوّل مَن سمّى الفلسفة بهذا الاسم، وله رسائل تُعرف *بالذّهبيّات*. وإنّما سمّيت بهذا الاسم، لأنّ جالينوس كان يكتبها بالذّهب إعظامًا لها وإجلالاً. والذي رأينا لبيثاغورس من الكتب: *رسالته في السّياسة العقليّة*، *رسالته إلى متمرّد سقّلية*، *رسالته إلى سيفانس في استخراج المعالي*. وقد تُصاب هذه الرّسائل بتفسير امليخس.
حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص245.

الفصل الرّابع

أيُّ الفريقيْن أكذَب؟!

أعدتُ القول بذكْر جمل هذه النّكت، ليكون أقرب إلى الفهْم، بعد ذكر أصولهم، وأقاويلهم التي حكيْتها على الاختصار دون الشّرح، ودون ذكر اختلافاتهم في الفروع، وتناقض كلامهم فيها، وتكْذيب بعضهم لبعض.

فإنّهم لم يتْرُكوا شيئًا نظروا فيه إلاّ اخْتلفوا فيه، وردّ بعْضهم على بعْض.

ومَن تتبّع ذلك وقع في شغل شاغل وعناء طويل، لا يحصل منه إلاّ على العمى، والضّلال، والخروج إلى الحيرة، والغرَق، والوَساوس المُهلِكة التي زعموا أنّهم أدركوا بها، وبعقولهم، وفطونهم، وآرائهم معرفة كيفيّة الباري -جلّ وتعالى-، وكيفيّة بدئ كوْن العالم وانتهائه، وما كان قبل حدث العالم وبعد فنائه.

وسمّوا بعضهم: الشّعراء، يزعمون أنّهم شعروا بهذه الأمور الغائبة بنظرهم، وسمّوا كلامهم: شعرًا؛ واسْترقوا هذا الاسْم من العرب حين سمّوا به شعراءهم؛ يعنون أنّهم شعراء بالأشياء التي ذكروها في شعرهم من التّشبيهات في التّشبيب، وذكْر الدّيار، وفي المدْح، والهجاء، والافْتخار، وغير ذلك من صفات؛ فصار لهم هذا رسمًا، وحسن به ذكْرهم، وخلّدهم على الدّهر؛ فتشبّه هؤلاء الجّهال بهم، وسمُّوا أئمّتهم بهذا الاسم، وزعموا أنّهم شعراء بهذه الأمور العظيمة العسر تناولها، البعيد مأخذها؛ وأنّ عقولهم أحاطت بالعالم كلّه؛ وأنّهم ارْتقوا إلى الإحاطة بمُحدِث العالم؛ فأوْردوا هذا الكفْر العظيم، واختلفوا فيه هذا الاختلاف الشّديد.

وحقّ لهم أن يتيهوا ويكفروا.

فإنّ مَن لا يحيط علْمه بما فوق سطح بيْته، وبما غاب عن عيْنه في بيْته، حتّى يعاينه، ثمّ يزعم أنّه يرْقى إلى السّماء، ويدْرك ما وراءَ الفَلَك؛ ومَن لا يقدر أن يعْرف كيفيّة نفسه اللّطيفة التي تدبّر أمرَ جسده، حتّى يقع في هذه الاختلافات والوساوس؛ ثمّ يزعم أنّه يحيط علْمه بخالق الخلائق أجمعين ومدبّرهم، ويزْعم أنّه يدرك علْم ما كان قبْل أن كان، وما يريد أن يكون قبْل أن يكون، من غير توقيف من نبيّ مؤيّد بوحْي من الله؛ حُقّ له أن يتيه ويوسْوس، وأن يُدْعى مجنونًا معتوهًا، وأن يكْفر بالله -عزّ وجلّ-،

ويطْعن على أنبيائه (ع)، وينْسبهم إلى الخلاف؛ ولا يرى خلاف هؤلاء التّائهين، ولا يذكر تناقض كلامهم؛ وأن يدّعي أنّ الله أغناهم عن الإمام، مُرشَدٍ مُؤيَّدٍ من الله الذي خلَقهم بحكْمته وتعطّف عليهم برحمته؛ ويزْعم أنّه وَكَلهم إلى آرائهم، حتّى يستغْنوا عن اختلافات الأنبياء المؤسَّسة على الحكمة باختلاف هؤلاء المُوَسوَسين المُحيّرة المُهلِكة، ثمّ يقول: "قد -والله- تعجّبنا من قولكم: إنّ القرآن هو مُعجز، وهو مملوء من التّناقض، وهو أساطير الأوّلين، وهو خرافات!".

فكمْ بين هذه الاختلافات التي بين هؤلاء الذين ابْتدعوها بآرائهم، والتي إنْ نظَر فيها ناظرٌ غير مُستبصير بهذه الأمور، مُستحكِمٌ في أمر الدّيانة، قادتْه إلى العمى، وأوْقعته في الحيرة؛ وبين الاختلافات التي ذكرها المُلحِد وعاب بها الأنبياء (ع) الذين وضعوها على الحكمة، وهي أمثال مضروبة إذا كُشف عن معانيها اعتدل منها النّظام، وقامت بها الحدود والأحكام، وظهر صدْق الأنبياء -عليهم السّلام-؟

وأيُّ الفريقيْن أكْذب: الذين يمزّقون حلوقهم بما زعم المُلحِد أنّه الزّور والبهْتان، يحدّثنا فلان عن فلان عن محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- عن جبرائيل (ع) عن الله -عزّ وجلّ-، أنّه قال: ﴿إنّني أنا الله لاَ إِلَه إلاَّ أنَا فاعْبدني وأقم الصّلاة لِذِكْري إنّ السّاعة آتيَة أكادُ أخفيها لتُجزى كلّ نفس بما تسْعى﴾[1]؛ فأخبر بأنّ الله -عزّ وجلّ- واحدٌ لا إله غيره وأمَر بعبادته، وحثّ على طاعته، وحذّر مجيء القيامة، وما يكون من المجازاة بالأعمال، ووَعَد وأوْعد بالثّواب والعِقاب؟

أمْ الذي يقول: حدّثني طبْعي عن نفْسي عن عقْلي أنّه عايَن ما كان قبْل حَدَث العالم، فرأى النّفس، والهيولى، والمكان، والزّمان قديمة مع الباري -جلّ الله وعزّ-؛ وأنّ النّفس اشْتهت أن تتجبّل في هذا العالم، فأعانَها الباري، حتّى خلقت العالَم؛ وأنّه لولا ذلك، لَمَا كان هذا العالم؛ وأنّه لا بعثٌ، ولا ثوابٌ، ولا عقابٌ؛ وأنّ النّاس مُهمَلون كبهائم الأنعام؛ وأنّ لا فضل للبشر على سائر الحيوان، ولا أمْر ولا نهْي؛ وأنّ عقلي حدّثني: أنّه يبلغ علْم ما كان قبل حدث العالم وما يكون بعد فنائه، ويبلغ علم سرائر الخليقة كلّه من أوّل الدّهر إلى آخره؛ وأنّه لا حاجة به إلى معلّم يعلّمه، فإنّه قد استوَى مع الله في العلْم بجميع الخلائق، وكيف خُلقت، وكيف طُبعت؛ وما فيها من الصّلاح، والفساد، والضّر، والنّفْع؛ وأنّ عقْله يُدرِك علم ذلك إذا شاء، ونظَر فيه، وبحَث عنه؟

---

[1] سورة طه (20)، الآيتان 13-14.

فأيُّ الفريقيْن أوْلى بأن يُسمَّى كذّابًا، وأنّه يدّعي الزّور والبهْتان؟

مَن أنْصف ولم يغرّ نفسه، ونظر في اختلافات هؤلاء الذين نظروا في هذه الأمور العظيمة، وأوْردوا هذه الآراء المتناقضة من ذات أنفسهم وبعقولهم، وفي اختلافات الأنبياء (ع)، وما رسموه في شرائعهم بالحكْمة، وضربَوا أمْثال بوحْي من الله -عزّ وجلّ-، وميَّز بينهما؛ عرف الصّواب من الخطأ، والحقّ من الباطل، والصّدْق من الكذب.

فإنّ الأنبياء (ع)، وإن اختلفت ألْفاظهم بضرْب الأمثال، فإنّ معانيها متّفقة.

ولمْ يختلفوا في أصْل الدّين وفي توحيد الله -عزّ وجلّ-، واتّفقوا أنّ الله -جلّ ذكره- إلهٌ واحدٌ لا إله غيره، وأنّه قديمٌ لا قديم معه، وأنّه لم يزل ولا يزال، وهو خالِق جميع الخلائق لا من شيء، ولا خالِق غيره؛ ووَصَفوه -جلّ ذكره- بأحْسن الصّفات كما هو أهْله؛ واتّفقوا أنّه بعث النّبيين مُبشّرين ومُنذِرين، واختارهم من خلْقه واصْطفاهم لتبْليغ رسالته؛ وأنّه خلَق داريْن: دارًا للسّعي والعلم، ودارًا للثّواب والعِقاب؛ وأنّ العباد مأمورون مَنهيّون مبعوثون بعد الموت، مُحاسَبون، مُدانون بأعمالهم؛ وأنّ الله ﴿يجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾[1]؛ وأنّ الجنّة والنّار هما العقْبى.

وسلَكوا في هذا سبيلاً واحدة، لم يختلفوا في شيء منه، ودعوا كلّهم إلى عبادة الله بالأعمال التي اتّفقوا على أصولهم، مثل الصّلاة، والزّكاة، والصّيام، والمناسك، والقرابين، وسائر الفرائض والسّنن التي في أصول الدّين، لم يختلفوا في شيء منها؛ ودعوا كلّهم إلى ذلك، وشهد بعضهم لبعض بالصّدق والنّبوّة، ودعوا إلى منْهاج واحد في باب الاستعْباد.

وإنّما اختْلفوا في وضْع الشّرائع، مثل أوقات الصّلاة، وعدد ركعاتها، وحدود الزّكوات، ومواقيت الصّيام، وغير ذلك من الفروع، امتحانًا من الله -عزّ وجلّ- لخلْقه، واختبارًا لهم؛ كما أمَر موسى (ع) بالصّلاة التي هي أصْل الدّين في جميع الشّرائع، ولكنّه أمَره أن يتّخذ بيْت المقدس قبْلة.

وكذلك أمَر عيسى (ع) بالصّلاة، وأمَره أن يتّخذ المشْرق قبلة[2]؛ وشهد عيسى لموسى بالصّدق والنّبوّة.

وإنّما فعلوا ذلك، ليظهر المطيع من العاصي، والضّال من المُهْتدي، والخاضع المُنقاد من المُتكبّر الباغي؛ وليكون الثّواب والعِقاب على حسب الطّاعة والمعْصية،

---

[1] سورة النّجم (53)، الآية 31.

[2] في الأصل: قبله.

كما قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلاّ لنعلم من يتّبع الرّسول ممَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْه﴾[1].

فقد دلَّ ذلك على أنّه امتحنَهم، ليعرف مَن يتّبع الرّسول ممَّن ينْقلب على عقبيْه.

ثمّ قال: "وَإِنْ كَانتْ لَكبيرةً إلاّ على الذين هدى الله"، أي أنّ مخالفته –صلّى الله عليه وسلّم– لِمَن تقدّمه في تغيير القبْلة هي كبيرة مُنكرة عند مَن لا يعرف مُراده، ﴿إلاَّ على الَّذين هَدَى الله﴾[2]؛ فعرفوا مغزاه في ذلك، وعلموا أنّه بحكْمه.

وقال –جلّ ذكره–: ﴿وَلَوْ شَاء الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدة وَلَكنْ لِيَبْلُوكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاستَبِقُوا الخَيْرَاتِ إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون﴾[3].

ألاَ ترَاه يقول: ﴿لِيبْلُوكُمْ فيما آتاكُم﴾[4]، أي يمْتحنكم؛ وحثُّهُم على عمل الخيْرات، فقال: ﴿فاستَبِقُوا الخيْرات﴾[5]؛ فإنّ مَرجعَكم إلى الذي يجازيكم باخْتلافكم وائْتلافكم؟

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ﴾[6]، يعني: خلَقهم وامْتحنهم بالاخْتلاف والائْتلاف لِيظهر المطيع من العاصي كما ذكرنا؛ وليكون مرجعهم إلى الأنبياء، ولِيرضوا بحكمهم، ويقيموا طاعتهم؛ كما قال –عزّ وجلّ–: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدةً فَبَعِثَ الله النَّبِيين مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ وأَنْزَلَ مَعَهُم الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فيه﴾[7].

ثمّ عرّفنا أنّ الباغين في كلّ أمّة امتحنهم الله بطاعة الأنبياء، فخالَفوهم بعد أن رأوا البيّنات، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الّذين أُوتُوه مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمْ البَيِّنَات بَغْيً بَيْنَهُمْ﴾[8].

فهكذا كان سبيل الأنبياء، وسبب اختلافهم في وضْع الشّرائع.

---

[1] سورة البقرة (2)، الآية 143.
[2] سورة البقرة (2)، الآية 143.
[3] سورة المائدة (2)، الآية 48.
[4] سورة المائدة (2)، الآية 48.
[5] سورة المائدة (2)، الآية 48.
[6] سورة هود (11)، الآية 118.
[7] سورة البقرة (2)، الآية 213.
[8] سورة البقرة (2)، الآية 213.

فأمّا في الأصول، فلم يختلفوا؛ ولو اتّفقوا كلّهم في وجوه الاستعباد، لَمَا[1] ظهرت منزلة الأنبياء، ولا كانت درجةٌ لِمَن جاء بعد مَن تقدّمه؛ فكان لا يقْدر على تغيير البدَعِ التي أبدعها الضّالّون في كلّ شريعة، ولَسقط الامتحان من الله -عزّ وجلّ- لخَلْقه، ولَبطل الأمر والنّهْي؛ فلم تكن طاعةٌ، ولا معصيةٌ، ولا ثوابٌ، ولا عقابٌ.

فهذه علّة اختلافهم في وضْع الرّسوم، وأسّسوا شرائعهم على العلْم والحكْمة بوحْي من الله -عزّ وجلّ-، ولم يختلفوا في أصول الدّين والتّوحيد؛ كما اختلف هؤلاء الضُّلَّل الذين وضعوا هذه الوساوس[2] بآرائهم، واخْتلفوا في الباري -عزّ وجلّ-، وفي جميع الأصول والفروع؛ وأبطلوا كلّهم العبادة، والثّواب، والعِقَاب؛ وجعلوا النّاس مُهَمَّلِين كالبهائم؛ وأوْجبوا أن لا يكون لهم سائسٌ ومؤدّبٌ في الدّنيا، ومُرشِد في الدّين.

---

[1] في الأصل: لم.

[2] في الأصل: الوسواس.

الفصل الخامس

لا اختلاف بين الأنبياء في الأصول

وأمّا [ما] ذكره المُلحد عن المجوس[1] وغيرهم من القول بالاثنيْن، وعن النّصارى[2]، وقولهم في المسيح (ع)، فإنّ ذلك ليس من الأنبياء؛ بل هو من المُبتدِعين في كلّ أمّة، على حسب ما ذكرنا.

---

[1] في *موسوعة الإسلام المختصرة* (ج /ص298): "اللّفظة مرّت قبل وصولها إلى اللّغة العربيّة بنقل من اللّغة الفارسيّة إلى الآراميّة". واللّفظة وردت في القرآن الكريم في الآية 17 من سورة الحجّ. وفي *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245): "المجوسيّة دين قديم، وإنّما زرادشت جدّده وأظهره وزاد فيه، قاله شيخنا، قال: هو معرّب أصله منج كوش معرّب مجوس". ومسائل المجوس، كما يذكر الشّهرستاني في *الملل* (ج1/ص232) تدور على قاعدتين اثنتين : أوّلهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة؛ وثانيهما: بيان خلاص النّور من الظّلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا. وقد قسّمها إلى ثلاث جماعات: الكيومرثيّة: الذين أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن، والأوّل أزليّ والثّاني مُحدَث. والزّروانيّة: قالوا: إنّ الله أبدع أشخاصا من نور كلّها روحانيّة نورانيّة ربّانيّة، ولكنّ الشّخص الأعظم الذي اسمه زروان شكّ في شيء من الأشياء، فحدث أهرمن الشّيطان، يعني إبليس. والزّرادشتيّة.

[2] المعهود في عصرنا استعمال لفظ: مسيحيّ. ولكنّ النّصوص القرآنيّة والحديثة لا تذكر غير لفظ: نصرانيّ، نصارى. وقد اختُلف كثيرا في معرفة إذا كانت مشتقّة أو منقولة عن صفة أو معربّة. فأرجعها البعض إلى "ناصريّ" نسبة إلى ناصرة، أو إلى "أنصاري"، باعتبار أنّ الحواريّين أنصار الله كما جاء في القرآن الكريم، وأرجعها آخرون -كالزّمخشري- إلى نصران ونصرانة، بمعنى أنّهم نصروا المسيح. وفي *موسوعة الدّين والأخلاق* (ج3/ص574) لفظة "نصرانيّة" و"نصارى" تطلق في العربيّة على أتباع المسيح. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سريانيّ هو: نصرويو Nosroyo ونصرايا Nasraya. ويرى البعض الآخر أنّها من Nazarenes التّسمية العبرانيّة التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح.

انظر: *تفسير الرّازي*، ج3/ص105؛ *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586؛ *القاموس الإسلامي* لهيوقس، ص431؛ *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.

فأمّا المَجوس، فقلنا إنّ سبب قولهم بالاثنيْن، وترْكهم رسوم الأنبياء، أصل بدَعهم هو من موزنش –تلميذ بثاغورس– الذي دخل مملكة الفُرْس، وأخذ عنه وارطوس هذا القول ودَعَا إلى المجوس، فأجابوه[1].

ثمّ تكثّرت فيهم البِدَع بعد ذلك.

وأمّا النّصارى، وقولهم في المسيح أنّه ابن الله، لم يعْن به أنّه ابنه من جهة الولادة –عزّ الله أن يتّخذ صاحبة وولدًا–، ولكنّه أراد أنّ الله –عزّ وجلّ– رفَعه، وأعلى منْزلته، وقرّبه، واختاره، واصطفاه، وأحبّه؛ وضرب في هذا مثلاً، كما يحبّ الإنسان وَلَده، ويصطفيه، ويقرّبه، ويودّه، ويشفق عليه، كمحبّة الوالد لولده، وإشفاقه عليه، وودّه له؛ وأنّه وليُّ الله، كما قال في مواضع كثيرة من الإنجيل ما يدلُّ على ما قلنا.

وقال لحوارّييه[2]: "أنتم أبناء الله"، على هذا المعنى، أيّ أنّ الله اختصّهم واختارهم، وأنّه يودُّهم ويشفق عليهم.

وقال لليهود[3] إنّهم أبناء الشّيطان، كما هو مكتوبٌ في الإنجيل أنّ اليهود قالت له: "أنتَ تشهد لنفسك، وما شهادتك عندنا بصادِقة[4]".

فأجابَهم وقال: "كالّذي علّمني أبي، كذلك أنْطق وأقول، وإنّما أسْعى بمرضاته في كلّ حين؛ فأمّا أنتم، فإنّما تعملون أعمال أبيكم". قالوا له: "لسنا لغير الله، وإنّما أبونا الله الواحد القهّار".

---

[1] في الأصل: فأجبوه.

[2] في الأصل: لحوارييه.

[3] في الأصل: لليهود.

يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص210 إلى ص219): "هاد الرّجل: أي رجع وتاب. وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى –عليه السّلام–: "إنّا هدنا إليك": أي رجعنا وتضرّعنا. وهم أمّة موسى –عليه السّلام– وكتابهم التّوراة، وهو أوّل كتاب نزل من السّماء... واليهود تدّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى –عليه السّلام– وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة إلاّ حدود عقليّة وأحكام مصلحيّة... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرّجعة واستحالتها... وأشهر فرق اليهود هي: العنانيّة، العيسويّة، المقاربة واليوذعانيّة، السّامرة".

[4] في الأصل: صادق.

قال لهم: "لو كان الله أباكم، لأجبتموني وأطعتموني، لأنّي جئتُ من عند الله؛ وإنّما أنتم من أبٍ باغٍ أشرّ، وإنّما تريدون العمل بشهْوة أبيكم الذي لم يزل من بدءِ أمْرِه للنّاس قاتلاً، ولا يقوى على الحقّ؛ لأنّه ليس فيه شيء من الحقّ، لأنّه كذوبٌ، وأبو الكذب، ومُنْشِئُه، ومُبْتدِعه؛ ومَن كان من [أولياء] الله، فإنّه يسْمع كلام الله ويطيع أمره؛ وأنتم لا تسْمعون ولا تُصدّقون، لأنّكم لستُم من أوْلياء الله".

فانْظر في هذا الكلام، واستدلّ به على ما قلنا: إنّه إنّما أراد أنّه ابن الله على ما وَصفْنا.

ألاَ تراه يقول لليهود: "كالذي علّمني أبي كذلك أنْطق، وأنتم فإنّما تعْملون أعمال أبيكم"؛ وهم يقولون له: "لسنا لغير الله، وإنّما أبونا الله الواحد القهّار"؛ ولم يعنوا أنّه أبوهم من جهة الولادة، ولكن أرادوا أنّهم أوْلياؤه كما وصفْنا؟

ألاَ تراه يقول: "أنتم من أبٍ باغٍ أشرّ، وإنّما تريدون العمل بشهوة أبيكم"؛ يعني به: أنّهم أبناء الشّيطان، لا أنّهم وُلدوا منه، ولكنّهم أولياؤه؟

ألاَ تراه يقول: "لستُم من أولياء الله"؟

فهذا كلّه يدلّ على أنّه لمّا قال لهم: "أبناء الله"، عنى[1] به: أولياء الله. وكذلك حين قال إنّه ابن الله، أي أنّه وليُّ الله.

قال لحوارِيّيه في الإنجيل: "آمنوا بالنُّور لتكونوا لله أبناء".

وأيضًا في الإنجيل أنّه ظهر لمريم المجدلانيّة بعد أن خرج من القبر، وقال لها: "لا تقربيني، فإنّي لم أصْعد إلى عند أبي، ولكن انْطلقي وقُولي لإخواني: "إنّي صاعدٌ إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم".

ويقول أيضًا: "استُعلِن ابن الله لأن يبطل أعمال الشّيطان، كلّ مَن وُلد من الله لا يكون خاطئًا، لأنّ زرْعه فيه ثابتٌ، وبهذا يستبين أبناء [الله] من أبناء الشّيطان".

وفي موْضِع آخر: "اعْلموا أنّ كلّ مَن يعمل البرّ، فإنّه مولودٌ من الله. وانظروا، فما أكثر الودّ الذي أعطاناه الأب أن نُدْعى: أبناء الله بأعمالنا! أيّها الأحبّاء، نحن الآن أبناء الله!".

---

[1] في الأصل: عني.

وفي موْضِع آخر: "إذا تصدّقتَ، فلا تعرّفنّ شمالُك ما صنعت يمينُك، لتكون صَدَقَتُك سرًّا؛ وأبوك الذي يعلم سرّك يُجزيك علانيّة. وإذا صلّيتَ، فادْخُل مخدعك، وأغْلق بابك، وصلّ لأبيك الخفيّ؛ وأبوك المُطّلِع على سريرتك يُجزيك علانيّة".

وفي موْضِع آخر: "أيّها البَنُون لا يكون وِدُّنا بالكلام ولا باللّسان، بل بأعمال البرّ.

والحقّ أقول: إنّما نحن أبناء الله إذا نحن ودَدْنا الله، وعملنا بوصاياه. وهذا هو الحقُّ من ودّ الله. كنتم قبل لستم بشعب الله؛ فأمّا الآن، فشعب الله".

وفي موْضِع آخر: "طوبى لعاملي السّلم بأنّهم يُدعون أبناء الله!".

وفي موْضِع آخر: "قدّموا الخيْر إلى مَن يبْغضكم، وصلُّوا على الذين يطردونكم غضبًا لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السّماء".

وفيه أيضًا: "إن أنتم غفرتم للنّاس خطاياهم، فإنّ أباكم الذي في السّماء يغْفر لكم؛ وإن أنتم لم تغفروا للنّاس، فإنّ أباكم لا يغْفر جهلكم".

وفيه أيضًا: "يشْرق الصدّيقون كالشّمس في ملكوت أبيهم؛ مَن كانت له أذُنان سامعتان، فليسْمع".

وفيه أيضًا: "لا تدعوا آباءكم في الأرض، لأنّ أباكم واحدٌ في السّماء".

وفيه أيضًا: "إن كنتم، أيّها الأشرار، تعملون[1] أن تُعطوا أبناءكم مواهب صالحة، فبِكَم أحْرى أبوكم الذي في السّماء يُعطي القدس الذي تسألونه؟!".

هذا كلّه مكتوبٌ في الإنجيل. ومَن تدبّره، وميّز قوله، عرف مُراده حين يقول مرّة: "جئتُ من عند أبي، وأنْطلِق إلى عند أبي". ومرّة يقول لحواريّيه: "وصلّوا على الذين يطردونكم غضبًا لتكونوا أبناء أبيكم في السّماء". ومرّة يقول: "لا تدعوا أبًا لكم في الأرض، لأنّ أباكم واحدٌ في السّماء". ويقول: "تكونوا للعليّ أبناءً". ويقول: "فبكَمْ أحْرى أبوكم الذي في السّماء يعطي القدس الذي تسألونه؟!"؛ فسمّاه أيضًا أبًا للأشرار إذا صلحوا، وسألوه القدس.

ويقول للحواريّين: "أنتم شعْب الله". ويقول: "يستبين أبناء الله [من] أبناء الشّيطان".

وعلى هذا المعنى، قال: "جئتُ من عند أبي وأبيكم، وأنْطلق إلى عند أبي وأبيكم الذي في السّماء".

---

[1] في الأصل: تعلمون.

ويدْعوهم أيضًا لنفْسه حيث يقول: "يا بني، أنا معكم زُمَيْنٌ يسير، وستطلبونني من بعده". إنّما يعني بقوله: "يا بني": يا أوليائي وخلصائي؛ ويعني أنّه يودُّهم ويشْفق عليهم، كما يشْفق الوالد على ولده ويودّه.

فمَن تدبّر هذا الكلام، عَلم أنّ هذه المعاني كما ذكرنا.

وهذا في الإنجيل كثيرٌ، أنّه سمّى نفسه: "ابن الله"، وسمّى الحواريّين: "أبناء الله"؛ وكان مُراده من ذلك ما ذكرناه، وجعَل هذا اللّفظ مثلاً.

ألاَ تراه يقول: "ستأتي ساعة لا أكلّمكم بالأمثال، وأشْرح لكم مجد الأب جهارًا"؟

وقد قال في موَاضع كثيرة في الإنجيل إنّه ابن بشر، وابن الإنسان.

قال في موْضع: "بحقّ أقول لكم ما جاء ابن البشر إلاّ ليُحيي ما كان هالكًا".

وفي موْضع آخر: "إنّا نصْعد إلى وادي شلم، وابن البشر يسلّم إلى عُظماء الكهنة، فيسحبونه للموت".

وفي موْضع آخر: "إنّكم لا تكلّمون بني إسرائيل حتّى يأتيكم ابن الإنسان".

وفي موْضع آخر: "الآن ظهَر مجْد ابن الإنسان، ومدَحه، وحمد الله به، وعلى يديْه".

فهذه الألْفاظ كلّها تدلُّ على ما قلْنا حين سمّى نفسه: ابن الله، والحواريّين: أبناء الله؛ وأراد بهذا كلّه أنّهم أولياء الله وخلصاؤه؛ كما الأمْر كما قلنا، لَوَجب على النّصارى أن يدعوا الحواريّين كلّهم: أبناء الله، كما قالت في المسيح إنّه ابن الله.

وقد بيَّن المسيح (ع) في الإنجيل أنّ الأمر كما ذكرنا؛ لأنّه قال في مواضع كثيرة إنّه ابن البشر وابن الإنسان، وعرّفهم أنّه لا يريد بقوله: ابن الله أنّه من جهة الولادة ابن الله -تعالى الله عن ذلك-؛ ولكنّ النّصارى غلطت في التّأويل، وغلطت في القول، فضلّت وقالت هو آبٌ وابن.

وقد قالت غلاة هذه الأمّة في النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، وعن عليّ[1] -كرّم الله وجهه-، والأئمّة من بعدهما أعْظم من هذا. فإنّهم قالوا إنّهم آلهة -لا إله إلاّ الله سبحانه-، بل كثير منهم ادّعوا لسلمان وغيره مثل ذلك.

---

[1] واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى.

وهذا بابٌ يطول القوْل به، ومقالات الغُلاة مشهورة في هذه الأمّة، وفي جميع الأمَمِ، في قولهم بإلهيّة البشر.

وليس للمُلحِد حجّة في طعْنه على الأنبياء (ع)، وفي عيْبه المسلمين[1] بضلالة النّصارى، وما ابْتدَعه من جهْل معاني كلام الأنبياء في كلامه؛ فضلّوا في القوْل، وافْتروا على الله.

ولوْ أنّ الأمم كلّها اهتدَت قاطبة، ولم يقمْ في كلّ شريعة هؤلاء المُبتدِعون الذين اختلفوا في الأهواء، واعْتقدوا الرّياسات، وضلّوا عن طريق الهُدى وسواء السّبيل، وتأوّلوا كلام الأنبياء بآرائهم، ولم يرجعوا إلى العلماء استنكافًا واستكبارًا، وأضلّوا أتباعهم؛ لَسقط الاختلاف، وصفَا الأمر، وارْتفعت المحنةُ.

ولكنّ الله امْتحن الخلْق بالاختلافات، ليطلبوا الائتلاف، ويَدَعُوا التّنازع والتّفرّق، ويعرفوا معاني كلام الرّسل؛ فيقتدوا بأوليائه الهادين، ويتجنّبوا سبيل أعدائه الضّالّين؛ لأنّ الدّنيا دار المحْنة ومحلُّ فتْنة، ميَّز الله فيها بين العباد وابتلاهم بما أراد، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذين أَحْسَنُوا بالحُسنى﴾[2].

وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لمّا قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.

حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

[1] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج1/ص40–ص41): "فرق في التّفسير بين الإسلام والإيمان. والإسلام قد يرد بمعنى الاستسلام ظاهرًا، ويشترك فيه المؤمن والمنافق. قال الله –تعالى–: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ (سورة الحجرات (49)، الآية 13)، ففرّق التّنزيل بينهما. فإذا كان الإسلام بمعنى التّسليم والانقياد ظاهرا موضع الاشتراك، فهو المبدأ؛ ثمّ إذا كان الإخلاص معه بأن يصدّق بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، ويقرّ عقدا بأنّ القدر خيره وشرّه من الله –تعالى–، بمعنى أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ كان مؤمنا حقًا. ثمّ إذا جمع بين الإسلام والتّصديق، وقرن المجاهدة بالمشاهدة، وصار غيبه شهادة؛ فهو الكمال. فكان الإسلام مبدأ والإيمان وسطًا والإحسان كمالاً، وعلى هذا شمل لفظ المسلمين: النّاجي والهالك".

[2] سورة النّجم (53)، الآية 31.

فسبيل النّصارى في القول بأنّ المسيح ابن الله، وسبيل المجوس في القول بالاثنيْن، وسبيل سائر الضُّلاّل في كلّ أمّة، هو على ما شرحْناه؛ وليس ضَلالُهم وبِدَعهم بحجّة للمُلحِد.

فإنّ الأنبياء لم يختلفوا في أصل الدّين، واتّفقوا كلّهم على أنّ الله –عزّ وجلّ– واحدٌ لا إله غيره، ولا ضدٌّ له ولا ندٌّ، ولم يتّخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يُشرك في ملْكه، وسلْطانه، وحكْمه من بريّته أحدًا؛ ودعوْا إلى عبادته على حسب ما قدّمنا القول به.

وقد نزّههم الله أن يقولوا في الله –سبحانه– ما لا يليق بعظمته وكبريائه –تعالى الله عمّا يقول الظّالمون علوًّا كبيرًا–، ونزّه أنبياءَه (ع) والهادين من أُممهم عن الافتراء على الله، فلم يختلفوا في أصول العبادة.

كما شرحْنا أنّهم أمروا بها، ودعوا إليها، ووعدوا وأوْعدوا، وحثّوا الأنام على الاجتهاد وعلى طلب ما عليه المُعوّل، وله القصْد، وعنه يجب البحث والنّظر، رجاءً للثّواب وخشْية من العقاب في يوم المداينة والجزاء.

وإن لم يكن الأمْر على ما دعوْا إليه، ولم يكن نشورٌ، ولا بعثٌ، ولا جنّةٌ، ولا نارٌ على ما ادّعاه المُلحِدون والمُعطّلون؛ فإنّ النّظر في هذه الأمور والبحْث عنها، لا معْنى ولا محْصول له؛ والجاهل، والعالم، والبرّ، والفاجر، والظّالِم، والعادِل فيها سواء.

وإذًا، ليس لإتعاب النّفس والمشقّة في البحْث عن ذلك وطلبه معْنى، إذ لم يكن في ذلك نفعٌ ولا جدْوى.

ونعوذ بالله أن يكون كذلك؛ بل الأمْر كما قال الصّادق جعفر بن محمّد (ع) لبعض المُلحِدين: "إن كان الأمْر كما تقولون –وليس كما تقولون–، فقد نجوْنا ونجوْتم؛ وإن كان الأمْر كما نقول –وهو كما نقول–، فقد نجوْنا وهلكْتم".

ونقول إنّ الله –عزّ وجلّ– لم ينشئ هذا الخلْق لعبًا، ولا خَلَق السّموات والأرض وما بينهما باطلاً، ولا بعَث النّبيّين عبثًا، ولا ترَك النّاس سدًى؛ ﴿وَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[1].

وأمّا قول المُلحِد: إنّ القرآن يخالِف ما عليه اليهود والنّصارى من قتْل المسيح (ع)، لأنّ اليهود والنّصارى يقولون إنّ المسيح قُتِل وصُلِبَ، والقرآن ينْطق بأنّه لم يُقتَل ولم يُصلَب، وأنّ الله رَفَعه إليه.

---

[1] سورة ص (38)، الآية 27.

فإنّا نقول: إنّ الذي في القرآن هو حقٌّ وصدقٌ، وهو مثلٌ ضربَه الله، يعرف تأويله أهلُ العلم من الأمّة.

ومع ذلك، فقد قال بعض العلماء قولاً، ذكروا: "أنّ معنى قوله -عزّ وجلّ-: ﴿وما قتلُهُ يَقينًا: بَلْ رَفَعَهُ الله إِلَيْهِ﴾[1] إنّما عنَى أنّهم، وإن كانوا ادّعوا أنّهم قتلوه، فإنّه حيٌّ، رفعَه الله إليه؛ وهو عند الله محبورٌ، مُكرَّمٌ، مسرورٌ، لأنّه شهيدٌ؛ والشّهداء هم أحْياء عند الله، كما وصفَهم الله به، فقال -جلّ ذكره-: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[2]، وقال في آية أخرى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عند رَبِهِمْ يُرْزَقُون فَرِحِينَ بِمَا آتَهُمْ الله مِنْ فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاّ خوف عليهم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3].

قال: فكذلك المسيح (ع) لم يقْتلوه يقينًا، أي لم يقْتلوه على الحقيقة، لأنّه شهيدٌ رفَعه الله إليه، وهو حيٌّ عنده، محبورٌ، مسرورٌ.

ومثل ذلك في الإنجيل في بُشرى يوحنّا: "أنّ المسيح مات بالجسد، وهو حيّ بالرّوح؛ فتفكّروا بأنّ الذي مات بالجسد استراح من الخطايا".

وفي بُشرى لوقا: "أقول لكم يا أوليائي: لا تخافوا الذين يقْتلون الجسد ولا يقدرون على غير ذلك. أخبركم ممَّن تخافون من الذي يقتل الجسد، وهو مُسلَّطٌ أن يقذفه في نار جهنّم؛ أقول لكم يقينًا إنّي أصير إلى ملكوت السّماء؛ وهذا جسدي يُبذَل للموت في سبيلكم. فلذلك، فاصنْعوا كلّ ما اجْتمعتم لذكري".

وفي بُشرى متّى: "ما سمعْتم بآذانكم، فنادوا به فوق الطّوايا؛ ولا تخشوا الذين يقتلون الجسد، ولا يقدرون على قتْل النّفس؛ واخشوا مَن يقْدر أن يهلك النّفس، ويطرح الجسد في النّار".

فهذا ما في الإنجيل؛ وهو مُوافِقٌ لِمَا في القرآن في هذا المعْنى.

وقد قال المسيح (ع) إنّه يبْذل جسده للموْت، ويصير إلى ملكوت الله. وقال: "يقتلون الجسد، ولا يقْدرون على قتْل النّفس".

---

[1] سورة النّساء (4)، الآية 157.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 154.

[3] سورة آل عمران (3)، الآية 170.

وقد وافق هذا القول ما قال الله -عزّ وجلّ- في القرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يقينًا بَلْ رَفَعَهُ الله إِلَيْهِ﴾[1].

وقال في آية أخرى حكاية عن المسيح (ع): ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شيء شَهِيدٌ﴾[2]. فقال: ﴿وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم﴾[3]. ثمّ قال: ﴿فلمّا توفّيتني كنتَ أنتَ الرّقيب عليهم وأنتَ على كلّ شيء شهيدٌ﴾[4]، فدلّ أنّ الله -عزّ وجلّ- توفّاه لمّا غاب عنهم.

فالقرآن قد وافق الإنجيل أنّ الله توفّاه، ورفعَه إليه؛ وأنّه حيٌّ عند الله. وصَحّ هذا المعنى من القرآن والإنجيل، وبَطُلت دعوى المُلحِد أنّ القرآن يخالف الإنجيل في هذا الباب.

---

[1] سورة النّساء (4)، الآية 157.

[2] سورة المائدة (5)، الآية 117.

[3] سورة المائدة (5)، الآية 117.

[4] سورة المائدة (5)، الآية 117.

الفصل السّادس
الشّرائع كلُّها حقّ
ولكن خُلِط به الباطل

- **قال المُلحِد:** رأيْنا اعتماد المُقلّدين في اعتقادهم صحّة مذاهبهم على تصديق أسلافهم، وتعظيم أئمّتهم، وكثرة مساعداتهم؛ يعني بذلك: أهْل الإسلام.

ثمّ قال: إن كان ذلك حقًّا لهذه العلّة، فكذلك سبيل اليهود، والنّصارى، والمجوس، وغيرهم من أهل المِلَل، لأنّ سبيلهم في ذلك سبيل أهْل الإسلام.

وإن كان من جهة القَهْر والغَلَبة، فكذلك لهذه المِلَل مثل ذلك، كغلبة النّصارى بروميّة، واليهود بخزر، والمجوس في بعض الجبال، والمنّانيّة[1] بالصّين والتّرك، والبراهمة بالهند؛ كغلبة المسلمين بالعراق، والحجاز، والشّام، وخرسان، وسائر البلدان.

فإذًا النّصرانيّة حقٌّ بروميّة، وباطلٌ في سائر البلدان؛ والمجوسيّة حقٌّ أيّام الأكاسرة، وباطلٌ في دولة الإسلام. وإن وجب ذلك، وجب أن يكون الشّيء حقًّا باطلاً، وهذا خُلفٌ.

---

[1] هو دين استحدثه ماني من النّصرانيّة والمجوسيّة. وهو ماني بن فاتك -أو فتّق-، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من " العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولا للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.

انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفراييني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *المنية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250– ص251.

هذا قولُ المُلحِد.

- **نقول في جوابه:** لا يجوز أن يكون الشّيءُ حقًّا باطلاً، ولكنّا نقول: إنّ أصل هذه المِلل كلّها حقٌّ لا مريّة فيه، لأنّها من رسوم الأنبياء (ع)، رسموها[1] لأممهم وأمَروهم بالاقتداء بما فيها؛ وكلّ نبيّ دلَّ على النّبيِّ الذي يجيءُ بعده، وشهد بصدْق مَن تقدّمه، وأمروا أُممهم بالإيمان بمَن مضى والتّصديق لمَن يجيءُ بعْدهم؛ فاختلفت أهواؤهم، وابتدعوا البِدَع، وبغَى بعضهم على بعض، وخلطوا بدعهم بسُنن الأنبياء (ع)؛ وبعث الله -عزّ وجلّ- النّبيّين في دهور شتّى وأزْمنة مختلفة ليعظوهم ويعرّفوهم وجهَ الحَقّ من الباطل، وسبيل الهُدى من الضّلال، ويخلّصوا السّنن من البدع؛ وامْتحن -عزّ وجلّ- عباده بطاعتهم.

فكلّ نبيّ جاء وافق مَن تقدّمه في أصْل التّوحيد، ودعوا كلّهم إلى عبادة الواحد الباري -سبحانه-، ووضعوا للنّاس كتبًا بوحْي من الله -عزّ وجلّ- ومن كلامه.

فبقيتْ قوّة ذلك الوحْي، وسار طلسمًا للأُمم الذين تمسّكوا بتلك الشّرائع، ورسَخ ذلك في قلوبهم، لأنّه زرعُ الأنْبياء؛ ولكن قد خُلِطَتْ فيه البدَع، كما يختلط العشب بالزّرْع؛ مثل ما قال المسيح في المثل الذي ضربَه، فقال: "يشْبه ملكوت السّماء رجلاً زرَع في قريته زرعًا صالحًا. فلمّا رقد النّاس، جاء عدوٌّ له، فزرع زُوَانًا بين الحنطة...". وقد ذكرنا هذا المثل وتفسيره.

فهكذا كانوا يخْلطون البدع بالسُّنن، وكان ذلك بمنزلة الزُّوان الذي زرعه الشّيطان بين الحنطة.

فكذلك كان سبيل المُبتدِعين في كلّ شريعة حُبًّا منهم للرّياسة، وتنافسًا على أعراض الدُّنيا.

فدعاهم ذلك إلى تكذيب مَن جاءهم من الأنبياء بعد الأنبياء الذين تقدّموهم، وتعلّقوا بالرّسوم التي كانت في أيديهم، واستغووا ضعفاءهم الذين لم يعرفوا حقائق ما في الكتب، لأنّ أكثر كلام الأنبياء في كلّ أمّة.

فخالفهم الرّؤساء المُبتدِعون، وبغوا عليهم، وتعلّقوا بتلك الرّسوم التي خلطوها ببِدَعهم، وزادوا فيها ونقصوا؛ كما ذكر الله -عزّ وجلّ- ذلك في القرآن، فقال:

---

[1] في الأصل: رسومها.

﴿وإنّ منكُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِن الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وظواهر رسوم الأنبياء، التي هي في أيدي الأُمم، هي حقٌّ، والبدع التي خلطها بها المبتدعون هي باطلٌ. والمتمسّكون بتلك الرّسوم معهم حقٌّ قد خُلط بباطل.

فعلى هذا، النّصرانيّة بروميةٍ، واليهوديّة بالخزر، والمجوسيّة في بعض الجبال -وسبيلها، كما قلنا، في كلّ بلد، وفي كلّ دهْر وزمان- معهم حقٌّ قد خُلط بباطل.

ومثال ذلك، مثال إنسان معه صرّة مسك قد خلط به أضعافه ممّا يشاكل[2] جرمه جرم المسك؛ مثل الزّعفران، ولبّ الفستق المحرّق، وغير ذلك ممّا يُغَشُّ به المسك، ويُنفق كلّه بريح المسك؛ ومثل الذّهب والفضّة وما يختلط بهما من الأجسام المذابة، فينفق مع الذّهب والفضّة النّقيّة.

والبِدَع التي خُلطت بتلك الرّسوم مثال ما ذكرنا من الغشوش. وقد ذكر حزقيال -النّبيّ- في كتابه مثل ذلك، وقال:" أوحَى الرّبُّ إليَّ وقال: "يا أيّها الإنسان قد صار بنو إسرائيل كلّهم عندي مُرَذَّلين كالنّحاس والرّصاص والأسربُ في الكوز، كذلك تذوبون وتعلمون أنّي أنا الرّبُّ الذي أنزلتُ بكم غضبي".

فهكذا سبيل الشّرائع كلّها، هي حقٌّ قد خُلِط بباطل؛ وبقي أهْل تلك الشّرائع المُستولِية على تلك الرّسوم، وضلّوا عن سبيل الهُدى، ولا يحسنوا[3] أن يميّزوا الحقّ من الباطل.

ولولا ما في تلك الرّسوم من قوّة الوحْي الذي هو كلام الله، كالتّوراة، والإنجيل، وسائر الكتب المُنزّلة، لَنفقت البدع، ولَمَا بقي رسم الشّرائع في العالم؛ ولكنّ تلك القوّة قد أمْسكت عليهم الرّسوم، وجذبت قلوب البشر إلى تلك الشّرائع؛ وبتلك القوّة صارت لهم الغلبة والقهْر في هذه الممالك؛ ولكنّه حقٌّ ممتزجٌ بباطل.

وبهذا شهدت الأمم المتأخّرة للأمم المُتقدّمة، كشهادة النّصارى: أنّ التّوراة حقٌّ، وما أبْدعه اليهود باطلٌ؛ وكشهادة أهل الإسلام: أنّ التّوراة والإنجيل حقٌّ، وما أبْدعه اليهود والنّصارى باطلٌ.

---

[1] سورة آل عمران (3)، الآية 78.

[2] في الأصل: يشكل.

[3] في الأصل: يحسنه.

والمُتمسِّكون بذلك جاهِلون ضالُّون، لتركهم أمْر الأنبياء الذين جاءوا بعد مَن تقدّمهم، ودعوا الأُمم إلى أن يميّزوا لهم الحقّ من الباطل، ويعرّفوهم سبيل الهُدى؛ كما هو مكتوبٌ في الإنجيل أنّ يوحنّا الصّابغ قال: "أنا أصبغكم بالماء، فأمّا الذي يجيء بعدي فيصبغكم بروح القدس وبالنّار، الذي بيده المدرى، ينقّي بيادره ويحرز الحنطة في أهرائه".

ولولا أصل هذه الكتب حقّ، وهي مُنزّلة من الله -عزّ وجلّ- إلى أنبيائه (ع)، لَمّا أقرّ -صلّى الله عليه وسلّم- أحدًا من أهل الذّمّة عليها، بل كان يستنّ فيهم بسنّة العرب الذين كانوا عبدة الأصنام[1].

فإنّه حمّلهم على خطبيْن: إمّا قبول ما أتى به، وإمّا القتْل؛ ولم يقْبل منهم الجزية كما قبلها من أهل الذّمّة، لأنّه وجدهم عاكفين على الأصنام التي ابْتدعوها، وادّعوا أنّهم على ملّة إبراهيم (ع)؛ وبعث الله محمّدًا بإحياء ملّة إبراهيم، فقطع رسوم المُبتدِعين في تلك الملّة، إذ كان الله -عزّ وجلّ- أرْسله بتجديدها، فقال: ﴿مِلَّةُ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمْ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾[2].

ونقّى الملّة من البدَع، وجَدّد ما كان من رسوم إبراهيم (ع)، مثل حجّ البيت، والختان، وسائر ذلك ممّا كانت عليه العرب من بقايا سُنن إبراهيم؛ وأقرّ اليهود والنّصارى على مِلَلِهم، لتبقى رُسوم الأنبياء، وتكون عبْرة للحُكماء والعُلماء في هذه الملّة، وحجّة لله على النّاس أجْمعين؛ وألْزمهم الجزية والذّلّة لمّا امتنعوا من قبول ما جاء به، ومن إجابتهم في إقامة طاعته فيما دعاهم إليه من أن يخلّص لهم الحقّ الذي معهم من الباطل الذي خلطوه به.

---

[1] في الأصل: الأنام.

يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص259 إلى ص262): "اعلم أنّ الأصناف التي ذكرنا مذاهبهم يرجعون في آخر الأمر إلى عبادة الأصنام، إذ كان لا يستمرّ لهم طريقة إلاّ بشخص حاضر، ينظرون إليه ويعكفون عليه. وعن هذا اتّخذ أصحاب الرّوحانيّات والكواكب أصناما زعموا أنّها على صورتها... لكنّ القوم لمّا عكفوا على التّوجّه إليها، كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهيّة لها، وعن هذا كانوا يقولون: "ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى"، فقد كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الرّبوبيّة والإلهيّة لمّا تعدّوا عنها إلى ربّ الأرباب. ومن أشهر فرق عبدة الأصنام: المهاكاليّة، البركسهيكيّة، الدّهكينيّة، الجلهكيّة (أي عبّاد الماء)، الأكنواطريّة (أي عبّاد النّار).

[2] سورة الحجّ (22)، الآية 78.

ولولا أنّه –صلّى الله عليه وسلّم– أراد أن يعرّف[1] النّاس أنّ الذي معهم من الكتب المُنزّلة هو حقٌّ، لَمَا أقرّهم على ذلك؛ فإنّ شوْكتهم كانت أهْون من شوْكة العرب؛ ولو شاء لأبادهم وقطع رسومهم، كما فعل بالعرب؛ فكان لا يبقى في دار الإسلام شيءٌ من رسوم أهل الذّمّة، إذ كان الإسلام قد غلب جميع الأمم.

ولمّا فُتِحت بلاد العَجَم، أراد عمر بن الخطّاب[2] أن يقتل المجوس، وأن لا يقْبل منهم الجزية؛ فقال عليٌّ (ع): "إنّه كان لهم نبيٌّ وكتابٌ، فيجب أن تستنّ فيهم بسنّة أهْل الكتاب"[3]؛ فأقرّهم حينئذ على ملّتهم.

ولولا أنّ معهم رسمًا من رسوم الأنبياء (ع)، وإن كانوا قد خلطوه بالبدع، لَمَا كان يوجد في مملكة الإسلام مجوسيّ.

فالمِلل كلُّها سبيلها على ما ذكرنا، هي حقٌّ، وهي رسوم الأنبياء، لكن قد خُلط بها الباطل؛ ومثالها ما قد ذكرناه في باب المسك، والذّهب، والفضّة؛ فهي في جميع المواضع، وفي كلّ دهْر وزمان، حقٌّ قد خُلِطَ به الباطل.

وليْس الأمْر كما ذكر المُلحِد: أنّه كان الأمْر بالغَلَبة والقهْر، فاليهوديّة حقٌّ بالخزر، والنّصرانيّة حقٌّ بروميّة، وهما باطلٌ في غيرهما من المواضع؛ وكذلك المجوسيّة حقٌّ أيّام الأكاسرة، وباطلٌ في دولة الإسلام؛ وأنّه، إن وجب ذلك، وَجَب أن يكون الشّيء حقًّا باطلاً؛ وهذا خُلفٌ.

هكذا قال المُلحِد.

وليْست له في هذا حجّة، لأنّ سبيل المِلَل، كما ذكرنا، أنّها حقٌّ قد خُلط بها الباطل في كلّ بلد وفي كلّ وقت وزمان، وليست بحقّ في بلَد وفي وقْت، وباطلٌ في بلَد وفي وقْت؛ فيكون الحقّ باطلاً. ويكون خُلفًا.

---

[1] في الأصل: عرف.

[2] هو أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه–، أبو حفص العدوي الفاروق، وزير رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–. وهو الذي سنّ المحدّثين التّثبّت في النّقل، وربّما كان يتوقّف في خبر الواحد إذا ارْتاب. وقد كان عمر أمر الصّحابة أن يقلّوا الرّواية عن نبيّهم ولئلاّ يتشاغل النّاس بالأحاديث عن حفظ القرآن. استشهد أمير المؤمنين عمر في أواخر ذي الحجّة من سنة ثلاث وعشرين، وعاش نحوا من ستّين سنة، وقيل إنّه عاش خمسين سنة، والأرجح أنّه عاش ثلاثًا وستّين سنة.

حول ترجمته راجع: الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*، ج1/ص5 إلى ص8.

[3] في الأصل: الكتابي.

ونذْكر ما يجب في باب الغلَبة والقهْر بعد هذا في موْضعه، ولنُشبع القول فيه -إن شاء الله تعالى-.

الباب الخامس

الفصل الأوّل

وممّا قال المُلحِد أيضًا

قال المُلحِد: أخبرُونا مَن وجَد إلى أمْرٍ طريقيْن، فسلك الأطْول[1] منهما والأوْعر؛ وهل يكون مريدًا إلى الأفْضل والأصْلح مَن يجد إلى تعريف شيء من وجهيْن سبيلاً، فيعرّفه مَن أعْسَرهما، وأبْدَعهما، وأكْثَرهما ريْبًا، وشكوكًا، وجلْبًا لسُوء العواقب، ويدَع ما خالف هذه الوجوه؟

فإن قلتُمْ: "لا"، قلنا: "فهلاّ ألْهَم الله عباده معرفة منافعهم ومضارّهم في عاجلهم وآجلهم، وترك الاحتجاج ببعضهم على بعض؟! فإنّا نرى ذلك قد أهْلك كثيرًا من النّاس، وأدْخل عليهم أعْظم البلاء في عاجلهم بالعيان وفي آجلهم. أمّا في عاجلهم، فلتصديق كلّ أمّة إمامَها، وضرْب بعضهم وجوه بعض بالسّيف، واجتهادهم في ذلك".

وقال: لوْلا ما انْعقد بين النّاس بأسباب الدّيانات، لَسقطت المجاذبات، والمحاربات، والبلايا[2]؛ لأنّ المنازعات تقع إمّا لعاجل، وإمّا لآجل.

وأوْرد كلامًا طويلاً في هذا الباب، ولكن هذه جملته.

وقال أيضًا: إن قُلتُم: "إنّ المجاذبات والمحاربات، من أجْل إيثارهم أعراض الدّنيا"، قلنا لكم: "هل رأيْتم أحدًا آثر القليل على الكثير، إلاّ لِشكٍّ منه في نيْل الكثير".

فإن قُلتُم: "نعمْ"، كابَرْتم؛ وإن قُلْتم: "لا"، فكذلك المُؤْثِرُ لأعراض الدّنيا وشهواتها على الأمور الجليلة والثّواب العظيم الذي عجَز الوَاصِفون عنه، ليس ذلك إلاّ لِشكٍّ منه في نيْل ذلك الكثير العظيم الدّائم الذي يعجز الواصفون عنه؛ كما نرى الرّجل يُؤْثِر المائة دينار على الألْف إذا خاف فَوْت المائة والألف. فإذا كان مستيْقنًا أنّه يصل الألْف، مع ترْك المائة، فإنّه لا يرى أخْذ المائة.

قال: وكذلك لو أنّ النّاس أخْلصوا اليقين بقوْل أئمّتهم فيما وَعدوهم من الثّواب الجزيل، لَمَا آثروا القليل من عاجلهم على الكثير من آجلهم.

---

[1] في الأصل: الأطوال.

[2] في الأصل: البلاية.

قال: وفِيمَ جُعل بعض الخَلْق أئمّة لبعض؟ هو إشلاءُ بعضهم على بعض، وكثْرة الهرج، والفساد، والتّهالك.

وليْس يجوز هذا في حكمة الحكيم، بل الأفْضل والأعمُّ للنّفع: أن يلْهم النّاس معْرفة منافعهم ومضارّهم، ويركّب ذلك في طباعهم كما ركّبه في طباع البهائم؛ فإنّا نرى البهائم بطباعها وبضروب من الرّوائح تعْرف كثيرًا من الأشياء التي لا توافقها. فهلاّ جُعِل النّاس كذلك، إذ كان ذلك في طباعهم ممكنًا؟! فإنّ ذلك أعمُّ نفعًا وأحْوَط لهم من أن يُجعَل بعضهم أئمّة لبعض.

هذا قوْل المُلحِد، وحذَفْنا الكثير منه تركًا للتّطويل، وذكرتُ النّكت منه.

وإنّما أراد بقوله: "جُعِل بعضهم أئمّة لبعض"، أنّه اختار منهم أنبياء ورُسلاً، فجعلهم أئمّة لهم.

وقد تقدّم القوْل منّا فيما ذكرْنا أنّه جرى بيْننا وبيْنه؛ وفيما أجبْناه مقْنَع لمَن أنْصف -إن شاء الله-، ولكنّا نُعيده، ونُشبِع القول به، إذ كان رسمه في كتابه.

فنقول في جوابه: إنّ الأفْضل والأصْلح والأشْبهَ بحكْمة الحكيم: أن يقْصد لأيسر الأمريْن، ويأْتي من أقرب الطّريقيْن، ويتْرك الأوْعر والأبْعد.

وقد وجَدْنا ما اختاره الله -عزّ وجلّ- لخلْقه بأن بعَث فيهم أنبياء ورُسُلاً، وجعَل بعضهم أئمّة لبعض، هو أشْبه بحكْمته ورحْمته، وأحْوط لعباده وأعمّ نفعًا؛ وهو أيْسر الأمريْن وأقرب الطّريقيْن من أن يكلّفهم النّظر في أمور دُنياهم، وأن يهْملهم في أمور أخراهم؛ فيكونوا كالسّوائم المُهملة التي قد طُبعت على منافعها ومضارّها، فعرفت ذلك بضروب من الرّوائح وبطابعها، وميّزت ذلك، وأهْملَت في أمْر معادها؛ فلا ثوابٌ عليها ولا عقابٌ، على حسب ما اختاره[1] المُلحِد[2] لنفسه وأشباهه؛ وأنّه لو جُعل مثل البهيمة على هذه الشّريطة، لَكان خيرًا له.

ولَعمْري إنّهم لو كانوا كالبهائم في صورها وطباعها، لَسقط عنهم الثّواب والعقاب؛ ولَكان ذلك خيرًا لهم من أن كانوا في دُنيَاهم في صوَر البشر وفي معرفة البهائم، فألْحدوا في دين الله، وهم يُرَدُّون في أخراهم إلى العذاب الأليم.

---

[1] في الأصل: اختارها.

[2] في الأصل: ملحد.

فأمّا أهل الدّيانة، فما اخْتاره الله لهم من طاعة الأنبياء والرّسل التي قامت بها سياستهم في أُولاهم، ثمّ جزاهم على ذلك بالثّواب الجزيل في أُخراهم، هو خيرٌ لهم وأعمّ نفعًا من أن يكون سبيلهم سبيل البهائم.

وبعد، فلوْ اخْتار الله لهم ما ذكره المُلحِد، لَقُلنا: إنّ الذي اخْتاره الله لهم هو خيرٌ لهم. ولكنّا نجدهم مُحتاجين إلى الأئمّة والمُعلّمين في جميع أسباب الدّين والدّنيا، ولا نجدُهم قد أُلهموا ذلك طبعًا، ولا يستغْنون عن مُعلّمين في كلّ صناعة.

ولوْ أنّ أحدهم تكلّف شيئًا من الصّناعات من غيْر تعْليم من مُعلّم قد راضه وعلّمه حتّى مهر به، ثمّ خاض فيه بتكلّفه، لأفْسد علْمه، ولا يلْتئم له شيءٌ ممّا يُحاوِلُه.

هذا في الأمور الدُّنيويَّة، فكيْف مَن ينْظر في أمور الدّين، وما يحْتاج إليه من دقيق العلْم وجليله؟

وكذلك في سائر العلوم الدُّنيويّة الدّقيقة مثل النّجوم، والهندسة، ومعرفة الطّبائع، وغير ذلك، لا يستغنى النّاظر فيها عن معلّم يوقفه على تلك الأصول.

فترَى الصّانع الحكيم، الرّحيم بخلْقه، قد اخْتار لهم أن يبْعث فيهم أنبياء، فعلّموهم هذه الأسباب بوحْي من الله -عزّ وجلّ-؛ ثمّ أخذها الآخر عن الأوّل بتعليم.

ولم يُكلّفوا أن ينظروا في ذلك بطباعهم؛ وهذا ما نُشاهده ونعاينُه.

ولوْ كُلّفوا ذلك كذلك، لكُلّفوا عسيرًا، لتفاوت طبقات النّاس في العقول، والأفْهام، والتّمييز، والمعرفة؛ لأنّ النّاس لم يُخلقوا مُتساوين في الطّبائع، كما خُلقت البهائم التي لا تتفاضل في معرفة ما تحتاج إليه؛ ولأنّ كلّ طبقة من الحيوان قد استوَت في طباعها من معرفة ما كُلّفت من طلب الغذاء والتّناسل؛ فلا تفاوتٌ فيها، كما ذكرنا من تفاوت طبقات النّاس في العقول والأفهام.

وهكذا نرَى التّفاوت في جبلّة البشر، وفي جبلّة الحيوان. ولو خلَقهم الحكيم -جلّ ذكره- مُتساوِين على خلْقة البهائم، لَقُلْنا ما اختاره الله لهم، وهو خيرٌ لهم. ولكنّه -عزّ وجلّ- أعْدل، وأحْكم، وأرْحم من أن يسوّي بين البشر والبهائم، وهو -سبحانه- أحْسن الخالقِين.

الفصل الثّاني

في القهْر والغلَبة

وأمّا قوله: لولا ما انْعقد بين النّاس بأسباب الدّيانات، لَسقطت المجاذبات والمحاربات، من أجْل إيثارها أعراض الدّنيا؛ وأنّهم إنّما آثروا القليل من عرض الدّنيا على الثّواب الجزيل في الأخرى، لأنّهم شكُّوا في نيْل الكثير والجَزاء العظيم؛ وضرب المثل بالألف دينار والمائة، كما حكيْنا.

نقول في جوابه: إنّا قد نجد أكثر المُجاذبات والمُحاربات في أمُور الدّنيا، لا في أمور الدّين؛ لأنّا نرى الحروب بين أهل المِلَل بعضهم في إثر بعض أكثر من محاربتهم لِمخالِفهم، تنازعًا في الدّنيا، وتنافسًا عليها؛ كما نشاهده في دار الإسْلام من المنازعات على الممالك والأمصار. وهكذا سبيل سائر أهل الملل في بلادهم.

وليس ذلك من جهة أنّ أهل الإسلام شكُّوا في الإسلام، وأنكروا ما جاء به محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، بل اتّفقوا على الإقرار به، والتّمسّك بشرائعه، وإقامته.

وكذلك سائر أهل الملل، والمتنازعين بينهم لم يشكّوا في ملَلهم ولم يتنازعوا فيها، ولكنّهم آثروا الدّنيا على الدّين؛ وهم موقِنون بالثّواب والعقاب اللّذيْن وُعِدوا وأُوعدوا بهما؛ فاختاروا عَرَض الدّنيا على الآخرة، إلاّ القليل من النّاس.

ونرَى كثيرًا منهم يقْتلون الأنفس، ويأْخذون الأموال، ويرتكبون المحارم، ويأتُون الحدود؛ وقد عرفوا ما يُحرِّم عليهم من ذلك، وآمنوا بالعقاب على ما يرتكبونه في أُخراهم؛ ولا يرتابون فيما أُوعدوا من العذاب الأليم؛ ولا يشكّون فيما وُعِدوا من الثّوَاب العظيم على اجْتناب هذه الحدود، والقصْد لأعمال الخيْر؛ وقد أيقنوا بذلك ويعتقدونه في دينهم. ولكنّ الشّهوة الغريزيّة تحْملهم على ذلك وتغْلب عقولهم، حتّى يختاروا الأخسَّ على الأفضل، وذلك على يقين وبصيرة.

وهذا أشْهرُ من أن يُحْتاج فيه إلى شاهد ودليل. ومَن دفع هذا، فقد ردّ العيان وكابَر.

فإنّ شغب[1] مُشاغِبٌ[2]، وعاند، ودفع العيان، قلنا: فهل تشكُّ فيما يُلحق أهل العبث والفساد في هذه الدّنيا من القتْل، والصّلْب، وقطْع الأيْدي والأرْجل، والحبْس، والضّرْب، وغير ذلك ممّا يلحقهم على ما يرتكبونه، وهم يشاهدون ذلك ويعاينونه ولا يرتدعون؟ فهل يقدر على دفْع هذا أحدٌ، وهل يردّه إلاّ مجنون؟

ولوْلا ما سنّه الأنبياء (ع) في كلّ أمّة، بأن أقاموا فيهم أئمّة يأخذون على أيْدي سفهائهم، يعلّمون جاهلهم، ويحامون عن ضعفائهم، ويقمعون أهْل العبث والفساد، ويقيمون فيهم الحدود من القصاص والقود وغير ذلك، كما سنّه محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-؛ لتهارج النّاس، وفسد أمْر العالم؛ ولَمَا كان يُسَالِم بعْضهم بعْضًا، كما يجْري عليه أمْر أصْناف الحيوان من المسالَمة؛ فإنّها لا يعدو[3] بعضها عن بعْض في أجناسها؛ إلاّ ما يعدو بعْض الأجناس على بعْض، ويصيدها للغذاء وطلب الرّزق.

ولكنّ النّاس قد طُبعوا على الحرْص والتّنافس على أعراض الدّنيا، والجمْع، والادّخار؛ وما رُكّب فيهم من حُبّ الشّهوات من النّساء، والبنين، والقناطير المُقنطَرة من الذّهب والفضّة، والخيل المسوّمة، والأنعام، والحرث، وسائر ذلك من متاع الدّنيا؛ وليس سبيل أصناف الحيوان هكذا.

كما نرى أنّ إنسانًا لو جمَع ما يعلم أنّه يكْفيه ألْف سنةٍ وزيادة، لَمَا انتهى عن الجمع، والزّيادة فيه، والحرْص عليه.

وكلّ أصْناف الحيوان تطلب غذاءها مقدار ما يشبعها، وليس سبيلها سبيل البشر.

فلذلك اخْتار الله -عزّ وجلّ- للنّاس أئمّة يسُوسُونَهم ويقوّمونهم، لِيَستقيم أمْر العالم، ويكون فيه صلاح النّاس دينًا ودنيًا، فيحيا الأنام ولا يهْلكوا؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿ولَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْض﴾[4]... بما شرّعه الأنبياء للنّاس وسنّوه، وحملوهم عليه، وأقاموا فيهم الحدود والأحكام.

والنّاس، وإن كانوا يتَنافسون في أمور الدّنيا، فإنّ كلّ مُتغلِّب لا يقْدر على التّغلّب، حتّى يكون مرْجعه إلى الدّين، ويقْهر النّاس على ذلك الأصل وبتلك الرّيح؛ كما نرى لو أنّ

---

[1] في الأصل: شغب.

[2] في الأصل: مشغب.

[3] في الأصل: يعدوا.

[4] سورة الحجّ (22)، الآية 40.

يهوديًّا أو نصرانيًّا، أو مَن كان من أيّ ملّة غير ملّة الإسلام، إن أراد أن يتغلّب في دار الإسلام، لَمَا طاق ذلك، ولا قدر عليه.

وهم، مع إيثارهم أعْراض الدّنيا على الآخرة، غير شاكّين في أمْر الملّة حسب ما قد شرحْناه.

وكذلك السّبيل في سائر المِلَل، لا يقْدر أحدٌ أن يرْأسهم، حتّى يكون من أهْل ملّتهم في البلدان التي تغلّبوا عليها.

وما قال المُلحِد: إنّهم آثاروا الدّنيا على الدّين، لأنّهم شكّوا في أمْر الدّين، فهو أمْحل المُحال، وهو ردّ للعيان: لأنّ المتجاذبين في أمْر الدّنيا والمتنافسين فيها، مرْجعهم إلى الدّنيا؛ ويجتّمعون على كلّ مُتغلِّب بريح الدّيانة في كلّ ملّة، على ما ذكرْنا؛ كما نرَى من اقْتداء هذه الأمّة بمَن هو أوْلى بالخلافة، وتفْويضهم أمْر الخلافة إليه.

وكذلك مَن يرى الخلافة في قريش، يجعلونها فيمَن هو مُقدَّمٌ عندهم في الدّين.

وهكذا سبيل اليهود في اقتدائهم بآل داود؛ وكذلك سبيل كلّ أمّة، وإن كان الأمْر مُختلِطًا عليهم من غَلَبة الأهواء، فأصلْهم على ما قلْنا.

وكذلك الملوك في كلّ أمّة: ملكوا النّاس بريح الدّيانة، ثمّ قويت أسبابهم بالتّغلّب؛ ومع ذلك، فإنّهم حملوا النّاس على أحْكام الدّين في كلّ أمّة حتّى انْتظم أمْرهم، واستتبّ أمْر العالم بريح الدّين في الوقت المعلوم.

وكذلك قوْل المُلحِد: إنّه لولا ما انْعقد بين النّاس بأسباب الدّيانات، لَسقطت المجاذبات والمُحاربات، وهو أمْحل من الأوّل؛ لأنّ المجاذبات والمحاربات، كما قلْنا، هي في أمُور الدّنيا أكثر وأعمّ؛ ولولا الدّين وشرائع الأنبياء التي قام بها أمرُ العالم وانْتظم، لَتفاني النّاس، ولَمَا قامت في الأرض سياسة.

فبِأحْكام الأنبياء (ع) قد استقام العالم؛ وهذا واضحٌ لا خفاء به، والحمد لله.

الفصل الثّالث

الفرْق بين المعْجزات والدّلائل

قال المُلحِد في باب المُعْجِزات قولاً كثيرًا، وجَعَله سؤالاً وجوابًا، وضعَّف فيه حُجج مَن ادَّعى المُعجِزات للأنبياء (ع)، واحتَجّ بكلام واهٍ، نتْركه.

ونخْتصر النّكت التي ادّعاها، ونذْكر بعض دلائل مُحَمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، ومُعْجِزاته التي ليس في وسْع البَشَر أن يأتوا بمثْلها إلاّ بتأييد[1] من الله -عزّ وجلّ-؛ وهي على وُجُوه كثيرة.

فنَذْكُر من كلّ وجْه شيئًا بالاخْتصار دون ذكر الجميع؛ لأنّنا، إن ذكرْناها بأسْرها، ذهب الكتاب بقنّها، وطال القوْل بها، لأنّها كثيرة جدًّا.

وقد اتّفقت عليها الأمّة، وشاهدها المؤمن والكافر، وأُخذها الخلَف عن السّلف.

وليْس قوْل المُلحِد بحُجّة حين زعَم أنّ أعلام مُحَمَّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم- نقلَها واحدٌ واثنان وثلاثة، ويجوز عليهم التّواطؤ؛ لأنّ أكْثرها ما قد شاهَدها عددٌ كثير من المسلمين[2] والكافِرين، ولا يجوز عليهم التّواطؤ؛ وأكْثَرها برْهانها واضحٌ، وشاهَدها عدلٌ قائمٌ، لا مدْفع له.

ولكنّا لا نحتجُّ عليه بما يقدر المُلْحِدون على دفْعه وإنْكاره، وإنّما نذْكرها ليكون لها في الكتاب رسمٌ.

---

[1] في الأصل: بتأيد.

[2] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج1/ص40-ص41): "فرق في التّفسير بين الإسلام والإيمان. والإسلام قد يرد بمعنى الاستسلام ظاهرًا، ويشترك فيه المؤمن والمنافق. قال الله -تعالى-: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ (سورة الحجرات (49)، الآية 13)، ففرّق التّنزيل بينهما. فإذا كان الإسلام بمعنى التّسليم والانقياد ظاهرا موْضع الاشتراك، فهو المبدأ؛ ثمّ إذا كان الإخلاص معه بأن يصدّق بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، ويقرّ عقدا بأنّ القدر خيره وشرّه من الله تعالى، بمعنى أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ كان مؤمنا حقّا. ثمّ إذا جمع بين الإسلام والتّصديق، وقرن المجاهدة بالمشاهدة، وصار غيبه شهادة؛ فهو الكمال. فكان الإسلام مبدأ والإيمان وسطًا والإحسان كمالاً، وعلى هذا شمل لفظ المسلمين: النّاجي والهالك".

فإنّ النّاظِر في كتابنا هذا لا يخلو[1] من أن يكون مُوافِقًا أو مُخالِفًا. فأمّا المُوَافِق، فإنّ الله -عزّ وجلّ- يزيده بذلك إيمانًا وتصديقًا؛ ولعلّ بعْض المُخالِفين يوفّقه الله للرُّشد والهداية.

ثمّ نكْشف، بعد ذكْرها، عمّا في القرآن العظيم من المُعجِزة الكبيرة التي هي حجّة أكيدة على المُلحِدين، وبرهانٌ واضحٌ منيرٌ لا يقْدر على دفْعه إلاّ مباهِتٌ[2] مُكَابِرٌ؛ لأنّه علمٌ قائمٌ في العالم، وليست سبيله سبيل الدّلائل والمعْجزات التي قد سلَفتْ، ويقْدر المُلحِدون أن ينكروها، ويدّعون أنّه يجوز عليها التّواطؤ، وأنّهم لم يشاهدوها، ولا يقْبلون دعاوينا فيها إلاّ ببراهين حاضرة؛ كما قال المُلحِد في كتابه، وكما ادّعى أنّ مثْل هذه الأسباب قد كانت ممَّن لم يدّع النّبوّة؛ ثمّ ذكر عمل أصحاب الخفّة والشّعبذة، كالرّقص على الأرسان، والدَّوَران على الأسنّة فوق الرّماح، وكلام القافية، والكهّان، وسحْر السَّحَرة، وغير ذلك ممّا ادّعاه، وعارض به مَن يدّعي المُعجِزات للأنبياء (ع).

ثمّ قال: إنّكم تدّعون أنّ المُعجِزة قائمة موْجودة، وهي القرآن؛ وتقولون: مَن أنكر ذلك، فلْيَأتِ بمثْله.

وقال: نحن نأْتيكم بألْف مثْله. وسوْف نشْرح ما في القرآن من المُعجز العظيم، حتّى يعلم المُلحِدون أنّه لا يقْدر أهْل الأرض أن يأتوا بمثْله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وبالله الحوْل والقوّة.

نقول: إنّ دلائل محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- ومعجزاته كثيرة، وهي على وجوه: فمنها ما يُقال لها: دلائل؛ ومنها ما يُقال لها: مُعجِزات.

فأمّا المُعجِزات، فإنّها تُسمّى: مُعجِزات، وتُسمّى: دلائل؛ لأنّها أسْباب يأتي بها الأنبياء (ع)، ويعْجز غيرهم أن يأتوا بمثلها؛ فلذلك يُقال إنّها معْجزات. وتكون دالّة على صدق دعواهم في نبوّاتهم؛ فلذلك يُقال لها: دلائل.

ومنها أسباب يُقال لها: دلالات، ولا يُقال لها: مُعجِزات؛ لأنّها أسباب لا يأتي بها النّبيُّ بنفْسه، بل تكون من غيره، وتدلُّ على نُبوّته؛ كقول نبيّ يشْهد لِمَن يجيء بعْده ويدلُّ عليه؛ مثل الذي هو في التّوراة، والإنجيل، وسائر الكتب من الدّلائل على نُبوّة محمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم-؛ ومثل أشياء حدثت في العالم.

---

[1] في الأصل: يخلوا.

[2] في الأصل: مباهات.

كما حدَث أيّام كسرى من ارتجاس الإيوان، وغير ذلك؛ فسأل عنه الكهَنة، فتكلّموا فيه بما يكون من بعد، ودلُّوا على ظهور محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- بالنّبوّة.

وكذلك ما جاء عن سائر الكهّان من سجعهم بنبوّته، مثل كلام البهائم، والسّباع، وغير ذلك، ونطْقهم بنبوّته، وآيات كانت في العالم نحو ذلك.

فهذه يُقال لها: دلائل، ولا يُقال لها: مُعْجِزات، لأنّها كانت من غيْره فيه، لم يأتِ هو بها بنفْسه.

فكلٌّ هذه يُقال لها: أعلام، ويُقال لها: آيات؛ لأنّها علامات وشَوَاهد تدلّ عليه.

وهذه الوجوه كلّها من الآيات والأعلام التي قد كانت لمُحمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم-.

ونحن نذْكر من كلّ نوع شيئًا على الاختصار كما شرطْنا، ونتْرك التّطوِيل[1] بذكْر الجميع، وبالله التّوفيق.

[1] في الأصل: الطويل.

الفصل الرّابع

ذكْر دلائل محمّد في الكتب[1] المُنزَّلة

في التّوراة أنّ الله -عزّ وجلّ- قال لبني إسرائيل: "إنّي أُقيمُ نبيًّا من إخوتكم أجْعل كلامي على فَمِه". فإخْوَة بني إسرائيل هم بنُو إسماعيل: هو محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-.

وفي التّوراة أيضًا: جاء الله من سيناء، وأشْرف من ساعير، وأضاء من جبال فاران. فمجيءُ الله من سيناءَ هو مجيءُ موسى (ع)، لأنّ الله أعْطاه الألْواح بطور سيناء؛ وإشراقه من ساعير هو خروج المسيح (ع)، لأنّه كان من ساعير، من أرض الجليل من قرْية يُقال لها: ناصرة؛ وإضاءته من جبال فاران هي ظهور محمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم- من مكّة، لأنّ فاران هو مكّة.

وفي التّوراة: أنّ إسماعيل كان يتعلّم الرّمي في بريّة فاران، وهذا ما لا مرية فيه أنّ إسماعيل نشأ بمكّة، وفيها تعلّم الرّمي.

وفي الإنجيل: قال المسيح: "إنّي ذاهبٌ وسيأتيكم "البارقليط" روح حقّ الذي لا يتكلّم من قبَل نفسه، ويعلّمكم كلّ شيء، وهو يشْهد لي كما شهدتُ له، وهُو يُرْسَل باسْمي".

قولُه: "يُرسَل باسْمي"، أي يكون صاحب شريعة مثْله. ولم يخْرج بعْده صاحب شريعة[2] مثْله إلاّ محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-: أنّه ينْقذ الضّعيف الذي لا ناصر له، ويرْأف بالمَساكين، ويصلّى عليه في كلّ وقت، ويُبارك عليه في كلّ يوم، ويدوم ذكْره إلى الأبد، ويحوز ملْكه من البحر إلى البحر.

فهذا ما لا مريّة فيه أنّه صِفة محمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم-، لأنّ شريعته متّصلة بالقيامة لا تُنسَخ، ولا نبيّ بعده؛ فهو الذي ذِكْره يدوم إلى الأبَد، وهو الذي يُصلَّى عليه ويُبَارَك في كلّ يوم وفي كلّ وقْت.

---

[1] في الأصل: الكتاب.

[2] في الأصل: شرعة.

وفي كتاب إشعياء: "قال لي الرّب: أقمْ نظّارًا ليخبر بما يرى"، فكان الذي رأى صاحب المنظرة، قال: "قد أقبل راكبان: أحدهما على حمار، والآخر على جمل. فبينا أنا كذلك إذ أقبل أحد الرّاكبيْن وهو يقول: "هوت هوت بابل، ونكست جميع آلهتها النّخرة على الأرض". فهذا الذي سمعتُ من الرّب إله إسرائيل العزيز، قد نبّأتكم به".

يعني براكِب الحمار: المسيح (ع)، لأنّه دخَل أورشليم، وهو راكب حمارًا؛ ويعني براكب الجمل: محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم-، لأنّه دخل المدينة وهو راكِب الجمَل، وعلى يديْه فُتحت بابل، وكُسِّرت أصنامها.

وفي كتاب إشعياء أيضًا: "عبدي الذي سُرَّت به نفسي أحمد المحمود بحمد الله حمدًا حديثًا تفْرح به البريّة وسكّانها"؛ فهذا إفْصاح باسْمه.

والبرّيّة يعني: البادية، لأنّها مسْكن العرَب، وبها أرْض الحجاز، ومنها خرج محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-.

وفي كتاب إشعياء أيضًا: "لتفْرح أرض[1] البادية، ولتبْتهج البراري والفلوات، وليخرج نور كنور الشّنبليد وتستنير وتزهو مثل الوعاء، لأنّها ستعطي بأحمد محاسن الشّأن".

وفي كتاب إشعياء أيضًا: "وُلد لنا موْلودٌ، ووُهِب لنا ابنٌ على كتفيْه علامة النّبوّة". ولم يكنْ أحدٌ من الأنبياء على كتفيْه علامة النّبوّة غير محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-.

وفي كتاب حبقّوق[2]: "لقد انْكشفت السّماء من بهاء محمّدٍ، وامْتلأت الأرض من حمْده".

---

[1] .في الأصل: الأرض.

[2] .ظهر حبقوق في أثناء السنوات الأخيرة قبل سقوط أُورشليم في سنة 586 ق.م.، وقد رأى بعين النبوءة، في أواخر القرن السابع، الدينونة الماحقة التي ستحل بيهوذا، وتساءل بانزعاج: لماذا سمح الله بشُيُوع الشر في أوساط يهوذا وكيف يرضى الله أن يستخدم أمّة وثنيّة كالبابليين لمعاقبة يهوذا على شرها. وقد أجاب الله عن حيرة حبقوق وكشف له عن أكثر مما طلب، إذ أعطاه رؤيا عن ذاته المقدسة. هذه البصيرة الجديدة لإدراك ذات الله، وتبيّن النّبيّ عجزه ونقصه أمام كمال الله، منحاه الشّجاعة على تحمّل نكبات تلك الأيّام السّود بقوة وتصميم. إنّ سيادة الله وافتقار الإنسان إلى الاتكال عليه هما محور رسالة هذا الكتاب الرّائع. إنّ الله يتحكم بجميع الأمم، ويجري ما يراه حقا، لهذا فإن الموقف السّليم الذي يجب على الإنسان أن يتّخذه هو الثقة به، وليس التشكّك في عدله (2: 4). عندما يتّخذ الإنسان هذا الموقف

هذا، مع كلام كثير مثله يذكره في كتابه.

وفي كتاب دانيال[1] رؤياه التي رآها وعبّرها، وذكر تفسيرها، وقال فيها: "رأيتُ عتيق الأيّام قد جلَس وبيْن يديْه ألف ألف خدّام يخدمونه وكتّاب لا تُحصَى، وذكَر أشياء

يمكنه آنئذ أن ينظر إلى ما هو أبعد من المظاهر الأليمة للأشياء ويتأمل في المعنى الحقيقي الأعمق لذات الله فيجد القوة على تحمل الظروف مهما كانت قاسية. نحن لا نعرف ما يضمره لنا الغد ولكن الله مطلع على المستقبل فعلينا أن نتّكل عليه كلّ الاتّكال.

[1] النّبيّ دانيال كان ممن تم أسرهم ونقلهم إلى بابل إبان السبي البابلي لبيت المقدس وتدميرها على زمن نبوخذ نصر. ودانيال نبي من أنبياء بني إسرائيل ممّن لا يُعلم وقته على اليقين، إلاّ أنّه كان في الزّمن الذي بعد داود، وقبل زكريا و يحيى -عليهم السّلام-، وكان في الوقت الذي قدم فيه بختنصر إلى بيت المقدس وخرّبه، وقتل فيه مَن قتل من بني إسرائيل وسبى من سبى وأحرق التوراة. وقيل: إنه أسر دانيال الأصغر، وقيل: بل وجدوه ميّتًا عندما دخل بختنصر بيت المقدس، والظّاهر أنّه كان في بني إسرائيل دانيال الأكبر ودانيال الأصغر -والله أعلم-. وقد أورد ابن أبي الدنيا بإسناده إلى عبد الله بن أبي الهذيل أن بختنصر سلط أسدين على دانيال بعد أن ألقاه في جُب -أي بئر- فلم يفعلا به شيئاً. فمكث ما شاء الله ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب، فأوحى الله إلى أرمياء وهو من أنبياء بني إسرائيل وهو بالشام أن أعد طعاماً وشراباً لـــ دانيال . فقال: يا رب أنا بالأرض المقدسة، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله إليه أن أعد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب، فقال دانيال من هذا؟ قال أنا أرمياء فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلني إليك ربك، قال: وقد ذكرني ربي؟ قال: نعم. فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي يجيب من دعاه، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً. والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا وكربنا، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطّع الحيل عنّا... واشتهر أن الصحابة عثروا على قبره عندما فتحوا (تستر) ثم أمرهم عمر بن الخطاب أن يغيبوا قبره خشية أن يتخذه الناس معبدًا أو يشرك بالله عنده. وقيل إنّ الذي وجدوه رجلاً صالحًا. والأوّل أشهر. وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناد حسن -كما قال الحافظ ابن كثير- عن أبي الزناد قال: رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتمًا نقش فصّه (أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرّجل). قال أبو بردة وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه أي يوم دفن دانيال. قال أبو بردة فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا: إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه، جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنّه يولد كذا وكذا غلام يُذهب ملكك ويفسده، فقال الملك :والله لا يبقى تلك الليلة مولود إلا قتلته. إلاّ أنّهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضراه. فجاءت أمّه فوجدتهما

كثيرة قد جرى ذكْرها في صدْر كتابنا هذا، وقال فيها: "رأيتُ على سحاب السّماء كهيئة إنسان، فانْتهى إلى عتيق الأيّام، وقدّموه بين يديْه، فخوّلوه المُلك والسُّلطان والكرامة؛ وأن تتعبّد له جميع الشّعوب، والأُمَم، واللّغات؛ سلْطانه دائمٌ إلى الأبَد، وملْكه لا يتغيّر إلى الأبد".

وقد ذكرْنا رؤياه التي رآها المَلِك، في آخر كلامه: "فيفْتح إله السّماء في تلك الأيّام مُلكًا دائمًا لا يتغيّر ولا يزول، ولا يذر لغيْره من الأمم مملكة ولا سلطانًا، بل يدقّ ويُبيد الممالك كلّها، ويقول هو إلى دهْر الدّاهرين".

هذا في تعبير الحجر الذي دقّ ذلك الصّنم من الحديد، والنُّحاس، والخزَف الذي رآه الملك في رؤياه؛ وهو مشْهورٌ في كتاب دانيال، وفي حديثه الذي في أيْدي العامّة.

وفي كتاب إرميا: "جعلتك نبيًّا للأُمَم لتنْسف، وتهْدم، وتبيد، وتسْحق، وتبْني، وتغْرس".

وفي كتاب هوشع: "أنا الرّبُّ الإله الذي أرْعاك في البَدْو في أرْض خراب قفر".

فليس نبيٌّ خرج في أرْض قفر إلاّ محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، لأنّه خرج في البادية[1].

فهذه دلائله -صلّى الله عليه وآله- في كتب الأنبياء (ع)؛ وأهْل الكتاب يقرؤونها[2]، ولا ينكرون ما قد ذكرْنا منها؛ لأنّها مكتوبة في هذه الكُتب؛ ولكن قد غلب عليهم الهَوى ورموا بالخذْلان والعمى، ليقْضي الله أمرًا كان مفعولاً.

وفيها من هذا النّحو دلائل كثيرة، تركْنا الأكثر منها لشرْط الاختْصار الذي قدّمنا، أنّا نذْكر من كلّ فنّ شيئًا دون الجميع.

وهذا ممّا[3] لا يجوز عليه التّواطؤ، وليس هو ممّا نقلَه رجلٌ أو رجلان أو ثلاثة، كما ادّعاه المُلحِد؛ لأنّها نبوّات من الأنبياء، وكانوا في دهور متباينة قبْل محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- بزمن طويل.

يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ. قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلاّ ينسى نعمة الله عليه في ذلك.

1 في الأصل: البداية.

2 في الأصل: يقرأونها.

3 في الأصل: ما.

الفصل الخامس

أعلام محمّد - صلّى الله عليه وسلّم- في الإسلام

- **ووَجْهٌ آخر من دلالته وأعْلامه:** أمور حدثت في العالم، دلّت على نبوّته، مثل: حديث كسرى وإيوانه، وسطيح الكاهن.

فإنّه لمّا كان في اللّيلة التي وُلد فيها رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- ارْتجس إيوان كسْرى، وسَقطتْ منه أربع عشرة شرْفة، فاهتمَّ لذلك كسْرى، وجمع وزراءه وموابذته، وسألهم عن الحال فيه. فقال له الموبذان الأكبر: "أنا رأيتُ في هذه اللّيلة في منامي إبلاً صعابًا تقود خيلاً عرابًا، قد قطعتْ دجلة، [و]دخلتْ من بلاد العرَب، فرَعَت في بلاد العَجَم".

وما لبث إلاّ قليلاً حتّى أتاه كتاب عامله بفارِس: أنّ نار فارس طُفِئت في تلك اللّيلة، ولمْ تُطْفأ قبْل ذلك بألْف عام. فهمّه ذلك، واستقْصى في البحْث عنه، فقالوا: "حادثة تكون في بلاد العرب!".

فكتَب إلى النّعمان بن المنذر ليبْعث إليه رجلاً عالمًا يسْأله عن أشياء، فبعَث إليه عبد المسيح بن عمرو بن نُفَيْلة العبادي.

فلمّا قدم عليه، سأله عن ذلك، فقال: "عِلْمُ هذا عند خالٍ لي بالشّام، اسمه: سطيح". فجهّزه وأخرجه إليه ليسْأله. فخرج حتّى قدم عليه وهو بآخر رمقٍ، فوقَف عليه، وقال: "أصمّ أم يسْمع غطريف اليمن؟"، في سجع له.

فلمّا سمعها سطيح، رفع رأسه، وقال: "عبد المسيح جاء إلى سطيح، وقد أوْفى على الضّريح. بعثك ملك ساسان لارتجاس الإيوان ورؤيا الموبذان وخمود النّيران". قال: "نعم، فما تقول في ذلك؟". قال: "إذا كثرت التّلاوة، وفاض وادي السّموات، وغارت بحيرة ساوة، بُعث صاحب الهراوة، فليست الشّام لسطيح شامًّا". قال: "متى يكون هذا؟". قال: "يملك منْهم ملوك ومَلِكات على عدد الشّرفات، وكلّ ما هو آتٍ آتٍ".

فانْصرف عبد المسيح إلى كسرى، وأخْبره بقوْل سطيح، فقال: "إلى أن يملك منّا أربعة عشر ملكًا، قد كانت أمورٌ". فملك منهم أربعة عشر ملكًا في مدّة يسيرة.

وهذا حديثٌ طويلٌ اختصرْناه.

ومثل هذا: حديث كاهن كان بعسفان، فسافر إليه هاشم بن عبد مناف وأميّة بن عبد شمس[1]؛ وقيل له: "احْكم بينهما: أيّهما أشْرف؟"، فقال: "والقمر الباهر، والكوكب الزّاهر، والغمام الماطر، وما بالجوّ من طائر، وما اهْتدى بعلْم مسافر، لقد سبق هاشم إلى مآثر، أوّلاً منه وآخرًا[2]؛ وسيكون له ولدٌ فاخرٌ على كلّ بادٍ وحاضر، نبيٌّ مُؤيَّدٌ طاهرٌ، والله لدينِه ناصرٌ؛ وهو على الأديان كلّها ظاهرٌ إلى انقضاء الدّهور الغوابر".

ومثل هذا: حديث عبد المطّلب، حين وُلد رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أخذه عبد المطّلب، فأدْخله على هبل، كما كانت قريْش تفْعل بمَن يولد لهم؛ فولّى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وجْهه عن هبل، فارْتاع عبد المطّلب لذلك، وسمع صوتًا من جوْف الصّنم -ويُقال: من جدار الكعْبة- يقول: "ما لهذا وللصّنم، ثمّ يجلو دجى الظُّلَم!". فارتعدتْ فرائص عبد المطّلب، وفزع فزعًا شديدًا.

وهو حديثٌ طويلٌ اختصرْناه.

ومثله أيضًا حديث العبّاس بن مرداس السّلميّ: أنّه كان عند صنم لِبَني سُليم يُقال له "ضِمَار"، فسمع صوتًا من جوف الصّنم في بعض اللّيالي يقول:

قُلْ للقبائل من سُلَيْم كلّها ... هلك الضّمار وعاش أهلُ المسجدِ
أودى ضِمار وكان يعبد مرّة ... قبْل الكتاب إلى النّبيّ محمّدِ

في أبياتٍ كثيرةٍ؛ فخرج فزعًا وتلقّاه رجلٌ على نعامة، وهو يقول: "بشّر الجنُّ وأبلاسها، ألاّ قد كفيت السّماء أحراسها، ووضعتْ الحربُ أحلاسها، وتجرّعت أنفاسها للنّور الذي نزل يوم الاثنيْن وليلة الثّلاثاء على صاحب النّاقة الغضباء في وادي العنقاء".

فرجع العبّاس بن مرداس إلى ضمار، فأحرقه؛ ثمّ توجّه إلى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وآمن به، وقال في ذلك شعرًا:

---

[1] أميّة بن عبد شمس هو الجد الجامع لقبيلة بني أمية القرشية. هو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

[2] في الأصل: آخر.

لعمرك أنّي يوم أجعل جاهلاً ضـــمارًا لربّ العالمين مُشـــاركا

فآمنت بالله الذي أنا عبـــده وخالفت مَن أمسى يريد المهالكا

وهذه قصيدة طويلة.

فهذه من جهة الكهّان وسدنة الأصنام؛ ومثلها أخبار كثيرة تركْنا ذكْرها.

وهذا وجْه من الدّلالات.

- **ووَجْهٌ آخرٌ من أعْلامه:** كلام أصناف الحيوان من البهائم، والسّباع، وغير ذلك؛ ونطْقهم بنبوّته -صلّى الله عليه وسلّم-.

من ذلك: حديث أهبان بن أوْس الأسلمي[1] -مكلّمُ الذّئب-.

كان في غنَم له، فرأى ذئبًا قد شدّ على ظَبْي فصاده، فحمل عليه أهبان، فانْتزعه منه؛ فأقعى الذّئب بعيدًا منه على ذَنْبه، ثمّ قال: "ما لي ولك، سلبتَ[2] منّي رزقًا رزقْنية الله ليس من مالك؟!"؛ فتحيّر أهبان لذلك، وقال: "يا عجبي، ذئبٌ يتكلّم!"، فقال الذّئب: "أعجبُ من كلامي: رسول الله بين هذه النّخلات يحدّث النّاس بأخبار ما سبق وأنباء ما يكون، يدعو إلى عبادة الرّحمن، وتأبون إلاّ عبادة الأوْثان". فأتى أهبان رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وآمن به؛ وله حديثٌ.

ووُلْده يُسَمّون إلى يومنا هذا: بنو مكلّم الذّئب.

وله في ذلك شعرًا[3] يقول فيه:

رعيتُ الضّأن أحميها بكلبي من اللّص الخفيّ وكلّ ذيـــبِ

فلمّا أن سمعتُ الذّئب نادى يبشّرنـــي بأحمَدَ من قريـــبِ

---

[1] أهبان بن أوس الأسلمي الصحابي الجليل , ويقال هبان بن أوس الأسلمي، قديم الإسلام، وصلّى القبلتين ونزل الكوفة ومات بها في ولاية المغيرة بن شعبة. قال البخاري: له صحبة يعد في أهل الكوفة. وروى البخاري أيضا عن مجزأة بن زاهر عنه وفيه أنه كان له صحبة. وكان من أصحاب الشجرة, وروى في عن أنيس بن عمرو عن أهبان بن أوس أنه كان في غنم له فشد الذئب على شاة منها فصاح عليه فأقعى على ذنبه, قال: فخاطبني فقال من لها يوم يشغل عنها, قال ابن حبان مات أهبان بن أوس في ولاية المغيرة بن شعبة بالكوفة حيث كان واليا عليها لمعاوية بن أبي سفيان.

انظر ترجمته في: نداء الايمان؛ الإصابة في تمييز الصّحابة.

[2] في الأصل: سلب.

[3] في الأصل: شعر.

سعيتُ إليه شمّرْتُ ثوبــي عن السّاقيْن في الوفْد الرّكيبِ
فألفيتُ النّبــيَّ يقول قولاً صدُوقًا ليس بالهزْل الـكذوبِ

وهي قصيدةٌ.

ومنْه: أنّ بعيرًا للوليد بن مغيرة المخزوميّ تكلّم في اليوم الذي وُلد فيه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– وقال: "هذا أحمد قد وُلِد، أفْلح منكم مَن تبعه، وخسر مَن ولّى عنه". فأقبل الوليد وهو يقول: "يا آل قريْش أدْركوني[1]، فإنّ بعيري قد سُحِر!". فاجتمعتْ قريْش والبعير يقول ذلك، والوليد يقول: "سُحر بعيري، وربِّ الكعْبة!".

فقال في ذلك بعض قريْش:

ألا يا قوم رأيــتم بهيــمـــة تكلّم في النّادي بأنباء ما مضى
وتخبر عن عملٍ بمــا هو كــائن فهــذا بعير للوليد قد انْــــبرى
ينادي بأعْلى الصّوت والنّاس حوله ألا ضلّت الأصنام واللاّت والعزى
وهـــذا أوان الهاشمــيّ مــحمّدٍ بديـــن الله والحـــقُّ قـد بَـدا

ومنها: حديث هشام بن سعيد: كان خرج إلى الشّام، فاقْتنص في طريقه ظبية في اليوم الذي وُلد فيه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–.

فلمّا صارت في يديْه وقبض عليها، تكلّمتْ وقالت: "وُلِدَ أحمد بن عبد الله سيّد المُرسَلين". ففزع هشام، وارْتعشت يداه، وذهبت الظّبية.

فلمّا قدم الشّام، دخل على قيصر[2] وأخبره بذلك؛ فبعث إلى الرّهبان، وجمَعهم، وأخبرهم بذلك، فقالوا: "رأيْنا الصّوامع في هذه اللّيلة قد أضاءت نورًا ومالت، حتّى ظنَنّا أنّها سقطت؛ ورأيْنا قناديل الكنائس كلّها منكوسةً". فحفظوا ذلك اليوم، فإذا هو اليوم الذي وُلد فيه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–.

ومثل هذا من كلام البهائم، والطّير، وغير ذلك أخْبار كثيرة تركْنا التّطويل بها.

مثل البعير الذي جاء إلى رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، فاستناخ ورغا، فدعا رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– أصحابه وعرّفهم ما شكاه منهم.

---

[1] في الأصل: أدركوا.

[2] في الأصل: قصير.

ومثله حديث العجل الذي لِبَني غفار، أرادوا أن يذبحوه فنطق وقال: "يا بني غفار، أمِن نجيح ينجح، صائح بمكّة يصيح أن "لا إله إلاّ الله؟". فوفد بنو غفار على رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، وآمنوا به.

ومثله حديث الجمل الذي نُحِر بمكّة، فتكلّم بعدما نُحر؛ فأقبل الجزّار إلى نادي قريش، فقال: "هلّموا، فاسمعوا العجب! نحرتُ جزورًا لي وهو يتكلّم!"؛ فأقبلوا إليه، فإذا هو يقول: "وُلد أحمد، نُحرَتْ قُرَيْش كما نُحرتُ". فانصرفوا، فإذا عبد المطّلب يحمل محمّدًا إلى هبل. وقد ذكرنا حديثه.

ومثله حديث أتان حليمة، ظئر رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–. كانت تسبق الرّكب، وكانت قبل ذلك لا تنبعث هزلاً وضرًّا؛ وقالوا لها: "إن لأتانك شأنًا". فنطقت وقالت: "أعْظم شأنٍ، حَمَلَت سيّدَ الأوّلين والآخرين".

ومثله حديث الطّير الذي أُخذت فراخه، فجاء يرفْرِف على رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، فقال: "إنّ هذا الطّير يزْعم أنّ فراخه أُخذت، فاطْلبوها!"؛ فوُجدت عند رجل، فسيّبوها.

ومثلها أخبار كثيرة، ولكلّ خبَر من هذه وغيرها حديث طويل، تركْنا تطويل الخطاب بها.

وهذا وجْهٌ من أعلامه.

– **ووَجْهٌ آخر من أعْلامه**، وهي أمور كانت منه –صلّى الله عليه وسلّم–: من ذلك أنّه لمّا خرج مهاجرًا إلى المدينة مستخفيًا من قريش، ومضى إلى الغار، جعلت قريش لمَن يدلُّ عليه مائة ناقةٍ.

فخرج سراقة بن جعشم المدلجي[1] على فَرَس له في طلبه، رغبة فيما بذلتْه قريش. فلحق رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– في طريقه.

---

[1] سراقة بن مالك المدلجي الكناني، (24 هـ) سيد بني مدلج وأحد أشراف قبيلة كنانة وصحابي جليل قائف يقتص الأثر لحق بالرسول محمّد وصاحبه أبي بكر الصدّيق في الهجرة، وهو يومئذ مشرك طمعًا في جائزة قريش. فلمّا وصل للرّسول انغرست قدما فرسه في الوحل، فطلب من رسول الله أن يدعوا الله لينجيه ممّا هو فيه على أن يرجع علهم ويعمي عنهم الطّلب، فدعا له رسول الله، ثمّ قال له: كيف بك إذا لبست سِوَارَيْ كسرى ومِنْطَقَتَه وتاجه، فقال سراقة: كسرى بن هرمز؟ فقال رسول الله: نعم.

فلمّا رآه -صلّى الله عليه وسلّم-، قال: "اللهمّ امْنعْه عنّا"؛ فعثر به فرسه، وساخت قوائمه في الأرض، فناداه سراقة وقال: "يا محمّد، دعْني وخلِّ عنّي! فوالله لا يأتيك عنّي ما تكْره!"، فقال -صلّى الله عليه وسلّم-: "اللّهُمّ إن كان صادقًا، فأنْجه". فخرجتْ قوائم فرسه، وانْصرف إلى مكّة، وأخْبرهم بشأنه. فخاف أبو جهل[1] أن يكون قد أسْلم سراقة، فقال:

ثمّ انْصرف سراقة. فلمّا فتح سعد بن أبي وقاص المدائن في زمن خلافة عمر بن الخطّاب، أرْسل سواري كسرى وتاجه ضمن الغنائم إلى الخليفة فتحقق لسراقة وعْد النّبيّ له حيث ألْبسه عمر سواري كسرى. مات سراقة سنة 24 في خلافة عثمان بن عفّان وقيل: مات بعد عثمان.

انظر ترجمته في: البداية والنهاية لابن كثير؛ الإصابة في تمييز الصّحابة لابن حجر العسقلاني؛ تفسير القرآن للحسين البغوي؛ الاستيعاب لابن عبد البرّ؛ الطبقات الكبير لابن سعد الزّهري.

[1] هو عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بنقريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بنعدنان. وأمّه: أسماء بنت مخربة بن جندل بن أبير بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم بن مر بن إد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. والوليد بن المغيرة هو من سمي عمرو بن هشام أبا جهل وذلك لسرعة غضبه والجهل في لغة العرب ضد الحلم وهو العفو بعد المقدرة. وفي رواية عن عمر بن الخطّاب قال: كنت جالسا مع أبي جهل وشيبة ابن ربيعة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش !إن محمداً قد شتم آلهتكم وسفه أحلامكم وزعم أن من مضي من آبائكم يتهافتون في النار، ألا! ومن قتل محمداً فله علي مائة ناقة حمراء وسوداء وألف أوقية من فضة! وقال أبو جهل: "يا معشر قريش، إن محمدا قد أبي إلاّ ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله -أو كما قال- فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف، ما بدا لهم"، قالوا" :والله لا نسلمك لشيء أبدا، فامض لما تريد". فلمّا أصبح أبو جهل، أخذ حجرا كما وصف، ثمّ جلس لرسول الله ينتظره وغدا رسول الله كما كان يغدو، وكان رسول الله بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلّى، صلّى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام .فقام رسول الله يصلي وقد غدت قريش، فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل. فلما سجد رسول الله احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما. منتقعا لونه مرعوبا. قد يبست يداه على حجره. حتّى قذف الحجر من يده. فقامت إليه رجال قريش، وقالوا له: "ما لك يا أبا الحكم؟"، قال: "قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني". وجاء الأخنس بن شريق قائد بني زهرة إلى أبي جهل ابن هشام بن المغيرة، ولمّا اختلى به سأله قائلاً: "أترى محمداً يكذب؟"، فقال أبو جهل: "ما كذب قطّ

بني مدلجٍ إنّي أخال سفيهَكُم   سراقة متسغوٍ لأمر محمّد

وهي قصيدة مشهورة لأبي جهل، فأجابه سراقة:

أبا حكم واللاّت لو كنت شاهدًا   لأمر جوادي إذْ تسوخ قوائمه

شهدتَ ولم تشكّك بأنّ مُحَمَّدًا   نبيٌّ ببرهان فمَن ذَا يكاتمه

وهي قصيدة له.

وقيل في ذلك شِعرٌ كثيرٌ.

من ذلك: قول أبي بكر[1]:

وكنّا نسميه الأمين ولكن إذا كان في بني هاشم السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة فأي شيء لبني مخزوم؟". قال أبو جهل: "والله إن لي فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد". قالوا: "وما هو يا أبا الحكم؟" قال: "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شابًا جليدًا نَسيبا وَسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقْل، فعقلناه لهم". وهو الذي من ألد المشركين يوم بدر فقد قرر كبير القوم عتبة بن ربيعة الانسحاب والعودة إلي مكة وقال: "لا يشق القوم إلاّ ابن الحنظلية"، يقصد أبا جهل، وهو ما حصل إذ ردّ عليه أبو جهل بوساطة حكيم بن حزام وقال: "لقد جبن ابن ربيعة لأنّ ابنه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في جيش محمد، فلا نرجع حتى نرد ماء بدر وتعزف القيان وتدق الطّبول وتسمع بنا العرب". فقتل يوم بدر علي يد معوذ ومعاذ أبناء عفراء وقد كانا في حوالي السّادسة عشر من عمرهما، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود فسأله أبو جهل قبل موته: "لمن الغلبة اليوم؟"، فردّ عليه ابن مسعود: "لله ورسوله يا عدو الله"، فرد عليه أبو جهل: "لقد ارتقيت مرتقا صعبا يا رويعي الغنم"، فقطع ابن مسعود رأسه وحمله إلى رسول الله وقد قطعت أذنه، فضحك الرسول وقال: "أذن بأذن والرأس زيادة"، حيث قطع أبو جهل ذات مرة أذن ابن مسعود، ويقال أن رأس أبو جهل كانت ثقيلة جدًّا.

انظر ترجمته في: سيرة ابن هشام؛ القرآن الكريم، سورة غافر ,الآيات3-1؛ القرآن الكريم؛ سورة المدثر ,الآيات 25-18؛ البداية والنهاية لابن كثير؛ تاريخ الطبري. تفسير القرطبي.سير أعلام النّبلاء للذهبي.سيرة ابن هشام. معجم البلدان لياقوت الحموي.

[1] هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة –و اسمه عثمان– بن عامر، من ولد تيم ابن مرّة –تيم قريش–. كان اسمه في الجاهليّة عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– عبد الله، ولقبه عتيق، لُقّب به لجمال وجهه –رضي الله عنه–، وسمّي صدّيقًا لتصديقه خبر المسرى. وأمّه سلمى وتكنّى أمّ الخير بنت صخر، وهي بنت عمّ أبيه. بويع له يوم الاثنين الذي توفّي فيه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، وتوفّي بالسلّ ليلة الثّلاثاء، وقيل يوم الجمعة، لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة،

إن تخسف الأرض بالأحوى وفارسه   فانْظر إلى أربع في الأرض غــوارِ
فهيل لمّا رأى أرســـاغ مـــعـــرفـــة   قد سخن في الأرض لم تُحفَر بمحفارِ

ومن ذلك: حديث الشّجرة التي دعاها، فأقبلت إليه تخدّ الأرض؛ وحديثها: أنّ رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطّلب بن عبد مناف[1]، وكان من أشدّ النّاس بطشًا وأقْواهم قوّة، قد اعترفت له بذلك قريْش كلّها، تلقّاه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في بعض شعاب مكّة، فقال له:" ألستَ تزعم أنّك أشدُّ العرب بطشًا وأقواهم قوّة، قد أُعترف لك بذلك؟"، قال: "نعم!"، قال: "أرأيتك إن صارَعتك فصرَعتُك، تؤمن بي، وأنّ ما أتيتُ به حقّ؟"، قال: نعم!".

وسنّه ثلاث وستّون سنة. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيّام، وصلّى عليه عمر -رضي الله عنه-. ودُفن في حجرة عائشة ورأسه بين كتفي رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-.

حول ترجمته راجع: ابن خلّكان، *وفيّات الأعيان*، ج3/ص64 إلى ص71؛ *الرّياض النّضرة*؛ الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*؛ *غاية النّهاية*.

[1] قد صارع النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- رجلا معروفا بقوته يسمى (ركانة) فصرعه النّبيّ أكثر من مرة. وفي رواية أن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- صارعه -وكان شديدًا-، فقال: شاة بشاة. فصرعه النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، فقال: عاودني في أخرى، فصرعه النّبيّ، فقال: عاودني، فصرعه النّبيّ الثّالثة، فقال الرّجل: ماذا أقول لأهلي؟ شاة أكلها الذئب، وشاة نشزت، فما أقول في الثالثة؟ فقال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: "ما كنّا لنجمع عليك أن نصرعك ونغرمك، خذ غنمك". وهو ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وأمّه بنت العجلان، من بني سعد بن ليث بن بكر بن كنانة، يُقال: إنّه بقي إلى زمن عثمان بن عفان -رضي الله عنهما-". حدثّنا عبد الله بن محمّد بن سعيد بن أبي مريم، ثنا محمد بن يوسف الفرياوي (ح). وحدثّنا أبو مسلم الكشي، ثنا سليمان بن حرب (ح). وحدثّنا علي بن عبد العزيز، ثنا حجاج بن المنهال (ح). وحدثّنا أحمد بن عمرو القطراني، ثنا أبو الربيع الزهراني (ح). وحدثّنا محمّد بن عبد الله الحضرمي، ثنا شيبان بن فروخ قالوا: ثنا جرير بن حازم، ثنا الزّبير بن سعيد، ثنا عبد الله بن عليّ بن يزيد بنَ ركانة فأتيته في قرية، فحدثني عن أبيه، عن جدّه، أنّه طلّق امرأته البتّة فأتى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، فسأله فقال له: "ما نويتَ؟". قال: واحدة، قال: "آلله" قال: "آلله" قال: "هو ما نويت". قالوا: وكان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب الشديد قدم من سفر له، فأخبر خبر النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، فلقيه في بعض جبال مكة ، فقال: يا ابن أخي، قد بلغني عنك أمر، وما كنت عندي بكذّاب، فإن صرعتني، علمت أنك صادق، فصرعه النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ثلاثًا. فأتى قريشًا، فقال: "يا هؤلاء ، صاحبكم ساحر، فساحروا به مَن شئتم".

فصارَعه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وأضْجعه، حتّى لا يملك من نفسه شيئًا؛ فعاد أيضًا، فصرَعه؛ وفعَل به مثل ذلك، حتّى فعَل به ذلك ثلاث مرّات؛ فقال: "إنّ هذا واللهِ لَعجبٌ يا محمّد أن تصرَعني، وأنا أشدّ قريْش بطشًا!"، فقال له رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم-: "إن شئتَ أريتُك ما هو أعْجب من هذا إن اتّبعت أمري!"، قال: "وما هو؟"، قال: "أدْعو هذه الشّجرة فتأتيني"، قال: "فافعْل!". فدعاها، فأقبلت تخدّ الأرض حتّى وقعت بين يديْه؛ ثمّ قال لها: "ارْجعي إلى مكانك!"، فرجعت إلى مكانها.

فجاء رُكانة إلى نادي قريش وقال: "يا آل قريش! ساحِروا بصاحبكم أهل الأرض! فما في الأرض أسحرُ منه!". ثمّ أخْبرَهم بالذي رأى منه، وانْتشر ذلك في قريْش. ولم يزالوا يتحدّثون به، وأخذه الخلَف من كفّار قريش.

فهذا وجْهٌ من أعلامه، ومن هذا النّوع أخباره كثيرة.

مثل خروجه على قريْش لمّا اجْتمعوا في دار النّدوة، وتشاوروا في أمْره؛ فاتّفقوا على أن يجتمع عليه من كلّ قبيلة قومٌ، فيقْتلوه ويطلب دمه، فلا يقدر بنُو هاشم على قريْش كلّها في الطّلب بدمه؛ فاجتمعوا على باب داره ليدخلوا عليه؛ فخرج عليهم، ووضع التّراب على رؤوسهم، ومضى وهُم لا يرونْه.

ومن ذلك حين رماهم يوْم بدْر بكفٍّ من حصًى، وقال: "شاهت الوجوه"، فهزمهم الله؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ- في ذلك: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولَكِنَّ الله رَمَى﴾[1].

وممّا يُشاكِل هذه، أعْلام كثيرة.

ووجْهٌ آخر منها: أمور غائبة عنه كان يُخبر بها، فيظهر صدقه[2] فيها.

من ذلك: حديث النّجاشي حين مات بأرْض الحبشة، وقد كان أجاب إلى الإسلام، فقال -صلّى الله عليه وسلّم- لأصحابه: "إنّ أخاكم النّجاشيّ قد مات بأرض الحبشة، فاخْرجوا نصلّي عليه". فخرج بأصحابه إلى البقيع، فصفّهم خلْفه، وصلّى عليه. فحفظوا ذلك يوم ورَد الخبر أنّه مات في ذلك اليوم.

ومثْله: خبر كسْرى لمّا كتب إلى باذان، وهو عامله على اليمن، أن "ابْعث إلى هذا الرّجل الذي خرج بالحجاز رجليْن من عندك يأتياني به"؛ فبعث باذان قهرمانة ورجلاً آخر معه في ذلك.

---

[1] سورة الأنفال (8)، الآية 17.

[2] في الأصل: صدقة.

فلمّا قدمَا عليه -صلّى الله عليه وسلّم-، قال لهما: "إنَّ الله قد أوْحى إليَّ أنّ شيرويه[1] وَثَب على أبيه كسرى، فقتله في شهر كذا من ليلة كذا ". فانصرفَا إلى باذان، فأخبراه بذلك؛ فقال باذان: "ننْتظر به. فإن صحَّ ما قال، فهو نبيٌّ؛ وإن يكُ غير ذلك، رأيْنا فيه".

فلم يلْبث باذان أن ورَد عليه كتاب شيرويه بقتْله أباه.

فأسْلم باذان، وأسلم مَن كان معه من أصحابه.

ومثله: حديث خالد بن الوليد[2] لمّا وجّهه النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- إلى أُكَيْدَرِ -[ملك] دومة الجندل-[3]، وكان ملكًا عليها، وكان نصرانيًّا؛ فقال لخالد: "إنّك تجده يصيد البقر، ويظفّرك الله به".

---

1 في الأصل: شيروية.

2 . خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي. توفي سنة 21هـ/642م صحابي وقائد عسكري مسلم، لقّبه الرسول بسيف الله المسلول. اشتهر بحسن تخطيطه العسكري وبراعته في قيادة جيوش المسلمين في حروب الردة وفتح العراق والشام، في عهد خليفتي الرسول أبي بكر وعمر في غضون عدة سنوات من عام 632 حتّى عام 636. يعد أحد قادة الجيوش القلائل في التاريخ الذين لم يهزموا في معركة طوال حياتهم، فهو لم يهزم في أكثر من مائة معركة أمام قوات متفوقة عدديًا من الإمبراطورية الرومية البيزنطية والإمبراطورية السّاسانيّة الفارسيّة وحلفائهم، بالإضافة إلى العديد من القبائل العربية الأخرى. اشتهر خالد بانتصاراته الحاسمة في معارك اليمامة وألّيس والفراض، وتكتيكاته التي استخدمها في معركتي الولجة واليرموك. قبل إسلامه، لعب خالد بن الوليد دورًا حيويًا في انتصار قريش على قوّات المسلمين في غزوة أحد، كما شارك ضمن صفوف الأحزاب في غزوة الخندق. ومع ذلك، اعتنق خالد الدين الإسلامي بعد صلح الحديبية، شارك في حملات مختلفة في عهد الرّسول، أهمها غزوة مؤتة وفتح مكّة. وفي عام 638، وهو في أوج انتصاراته العسكريّة، عزله الخليفة عمر بن الخطاب من قيادة الجيوش، ثمّ انتقل إلى حمص حيث عاش لأقلّ من أربع سنوات حتّى وفاته ودفنه بها.

3 هو أكيدر بن عبد الملك الكندي ملك دومة الجندل، أحد نصارى العرب الذين صالحهم النّبيّ محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- على الجزية وأخوه بشر بن عبد الملك يذكرون أنّه ذهب إلى الحيرة، وتعلم بها الخط، ثم رجع إلى مكّة فتزوّج الضهياء بنت حرب أخت أبي سفيان. أرسل الرّسول محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- خالد بن الوليد على 450 فارس لقتال الأكيدر بعد معركة تبوك لمساندة الأكيدر حلفاء الرّوم من العرب في معركتهم تلك. و صالح نصارى العرب مثل يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة ولم يبقى إلاّ الأكيدر الكندي. وأبلغه رسول الله أنّه سيلاقي أكيدر خارج حصنه، وكان الأكيدر يهوى اصطياد الوحوش فلقيه خالد يصطاد البقر الوحشي مع أخاه حسان ونفر من العرب فقتل خالد حسان وأسّر الأكيدر، وكان عليه قباء من ديباج منسوج بالذّهب، فبعثها إلى رسول الله في المدينة وصالحه

فمضى خالد، فلمّا قرب من قصْره، وهو مع حرمه في قصره، وجاءت بقرٌ وحكّت بقرونها باب قصره؛ فخرج مع نفر من أصحابه يتّبع البقر ليصيدها؛ فأوْقع به خالد، وأخذه، وقتل أخاه حسّان. فقال في ذلك بجير بن بُجْرَة الطّائي:

تبارك سائقُ البقرات إنّي   رأيتُ الله يهدي كلّ هــادِ

وهي قصيدة.

ومثله: حديث صرد بن عبد الله الأزّدي: بعثه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وأمره أن يجاهد بمَن معه من قبائل اليمن؛ فمضى ونزل بجرَش، وهي يومئذ مدينة مُغلَقة. فخرجوا إليه، والْتقوا بجبل يُقال له: كَشْر.

على الجزية شرط ألاّ يقاتل المسلمين. وروي كذلك أنّه سمع بتوجه سرية خالد نحوه فاستقبهم لمقابلة رسول الله وطلب منه الأمان وأهداه قبة ديباج من ذهب فوهبها رسول الله إلى عمر بن الخطاب، وقال رسول لله للأكيدر :"ارْجِعْ بِقَبَائِكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَلْبَسُ هَذَا في الدُّنْيَا إِلَّا حُرِمَهُ في الآخِرَةِ" واستنكر رسول الله تعجب الصحابة من ديباج الأكيدر وقال :"لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا "وكتب إليه كتابا بالأمان و لم يكن معه خاتم فختمه بظفره -صلّى الله عليه وسلّم- وجاء في الكتاب: "بسم الله الرّحمن الرّحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها إنّ له الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسّلاح والحافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور وبعد الخمس لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها وعليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين". وهذا الكتاب هو ماجعل بعض الرواة يقول بإسلامه وإعترض ابن الأثير. بعد وفاة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- توقف الأكيدر وجودي بن ربيعة عن دفع الجزية وقاتل الأكيدر عياض بن غنم وعزم نصارى العرب على قتال المسلمين فلما علم بقدوم المدد للمسلمين رأى الصلح وقال :"أنا اعلم النّاس بخالد لا أحد أيمن طائرًا منه ولا أحد في حرب ولا يرى وجه خالد قومًا أبدًا قلوا أو كثروا إلاّ انهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم"، فأبوا عليه واتّجه الأكيدر نحو العراق فبلغ خالد ذلك وأرسل في طلبه وضرب عنقه.

انظر ترجمته في: الإصابة – ابن حجر – ج ١ أسد الغابة في معرفة الصحابة؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ص 2130؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة؛ معرفة الصحابة, أحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصبهاني؛ المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم 41888؛ السّيرة الحلبية؛ المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي؛ السيرة الحلبية؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة؛ تاريخ الطبري.

وكان قد أُحضِر عند رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– رجلان من جرش وَفَدا لهم. فبينا هما عنده عشيّةً بعد العصر، قال –صلّى الله عليه وسلّم–: "أيّ بلادكم شكر؟"، فقالاَ: "يا رسول الله! ببلادنا جبَل يُقال له كشر"، فقال: "ليس بكشر ولكنّه شَكْر، وإنّ البدن تُنحر فيه الآن"، فقال أبو بكر للرّجلين: "وَيْحكما! إنّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– ينْعى إليكما قوْمكما، فاسْألاه أن يدعو الله ليرْفع عن قومكما". فسألاه، فقال: "اللهمّ، ارْفع عنهم". فرجعَا إلى قوْمهما، وقد أُصيبوا في ذلك اليوم، وفي تلك السّاعة.

ووجْهٌ آخر، وهو قريبٌ من هذا الباب، حديث العبّاس بن عبد المطّلب[1] حين أُسّر، فقال النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– له: "افْدِ نفسك، وابنَيْ أخيك: عقيلاً ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب، وحليفك عتبة بن عمرو[2] بن جحدم، فإنّك ذو مال"، فقال: يا رسول الله، ليس لي مال". قال: "فأيْن المال الذي دفعتَه إلى أمّ الفضل وقلتَ لها:

---

1 هو العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، عمّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، أبو الفضل. كان أسنّ من رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– بسنتيْن –وقيل: بثلاث–. كان العبّاس رئيسًا في الجاهليّة وفي قري، وإليه كانت عمارة البيت والسّقاية في الجاهليّة. قال ابن عبد البرّ: أسلم العبّاس قبل فتح خيبر، وكان يكتم إسلامه، ثمّ أظهر إسلامه يوم الفتح؛ وشهد حنينا والطّائف وتبوك. وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–. فلذلك قال رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– يوم بدر: "مَن لقي منكم العبّاس فلا يقتله، فإنّه أُخرِج كُرهًا". تُوفّي سنة 32 هـ.، وصلّى عليه عثمان. ودُفن بالبقيع. وعاش 88 سنة.

حول ترجمته راجع: *الوافي بالوفيّات*، ج/ص629 إلى ص633؛ *نكت الهميان في نكت العميان* للصّلاح الصّفدي، ص175؛ *طبقات* ابن سعد، ج4/ق1/ص1؛ *المحبّر* لابن حبيب، ص16 وص63؛ *طبقات* خليفة، ص10؛ *تاريخ* خليفة بن خيّاط، ص168؛ *تاريخ* البخاري، ج7/ص2؛ *أنساب الأشراف* للبلاذري، (نشرة الدّوري) ج3/ص1 إلى ص42؛ *المعرفة والتّاريخ*، ج1/ص295 وص493؛ *المعارف*، ص118 وما بعدها؛ *ذيل المذيّل*، ص505، وص548؛ *الجرح والتّعديل*، ج6/ص210؛ معجم المرزباني، ص101؛ جمهرة *أنساب العرب* لأبي محمّد ابن حزم الظّاهري، ص17 إلى ص37؛ *الاستيعاب*، ص810؛ *الجمع بين رجال الصّحيحين*، ج1/ص360؛ *تهذيب* ابن عساكر، ج7/ص229؛ *صفة الصّفوة*، ج1/ص203؛ *أسد الغابة*، ج3/ص109؛ تهذيب *الأسماء واللّغات*، ج1/ق1/ص257؛ *تاريخ الإسلام*، ج2/ص98؛ سير *أعلام النّبلاء*، ج2/ص78؛ *العبر*، ج1/ص33؛ *البداية والنّهاية*، ج7/ص161؛ *مرآة الجنان*، ج1/ص85؛ *الإصابة*، ج2/ص271؛ تهذيب *التّهذيب*، ج5/ص122؛ *شذرات الذّهب*، ج1/ص38؛ *العقد الثّمين في تاريخ البلد الأمين* لتقيّ الدّين المكّي، ج5/ص93؛ معجم *الرّجال*، ج3/ص247.

2 في الأصل: عمروا.

إن أُصيبتُ في سفري هذا. فللفضْل كذا، ولعبْد الله كذا، ولقثم كذا، ولعبيد الله كذا؟!". وذكر له مقدار ما سمّاه لكلّ واحد منهم. فقال له العبّاس: "وربّ الكعبة، ما علم هذا أحدٌ غيري وغيرها، وإنّي لأعلم أنّك رسول الله". ففدى نفسه، وابنيْ أخيه، وحليفه.

ومثل ذلك: حديث ناقته التي ضلّت، فخرج قومٌ في طلبها، وكان زيد بن اللُّصيت[1] منافقًا، وكان في رحل عمارة بن حزم، وكان عمارة عقبيًّا بدريًّا، وكان عمارة جالسًا عند رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، فقال: -صلّى الله عليه وسلّم-: "إنّ رجلاً من المُنافِقين قد قال: إنّ محمّدًا يزْعم أنّه نبيٌّ، وأنّه يُخبر بأخبار السّماء، وهو لا يدري ناقته أنّى [هي]"؛ فقال-صلّى الله عليه وسلّم-: "والله ما أعلم إلاّ ما علّمني الله، وقد دلّني عليها، هي في وادي كذا من شعْب كذا، قد حبستها شجرة بزمامها"؛ فانطلقوا، فوجدوها هناك. فرجع عمارة إلى أهله، فحدّثهم بذلك، فقال أهله: "زيد بن اللّصيت هو والله قال هذا القول". فأقبل عمارة يجافي عنقه وقال: "والله إنّ في رحْلي منافقًا داهيةً، والله لا يصْحبني أبدًا!". فأخْرجه من رحْله.

ومن هذا الوجْه أخبار كثيرة، ومنها أمورٌ كان يخْبر أن تكون بعْده، فكانت كما قال.

---

[1] قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- سار حتّى إذا كان ببعض الطريق ضلّت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- رجل من أصحابه ، يقال له عمارة بن حزم، وكان عقبيا بدريا؟ وهو عم بني عمرو بن حزم ، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقًا. قال ابن هشام: ويقال: ابن لصيب (بالباء) . قال ابن إسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رجال من بني عبد الأشهل، قالوا: فقال زيد بن اللصيت، وهو في رحل عمارة وعمارة عند رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: أليس محمد يزعم أنّه نبيّ، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وعمارة عنده: إنّ رجلاً قال: هذا محمّد يخبركم أنّه نبيّ، ويزعم أنّه يخبركم بأمر السّماء وهو لا يدري أين ناقته، وإنّي والله ما أعلم إلاّ ما علّمني الله وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتّى تأتوني بها، فذهبوا، فجاءوا بها. فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: والله لعجب من شيء حدّثناه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- آنفا، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للّذي قال زيد بن لصيت؛ فقال رجل ممّن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي. فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إلي عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، اخرج أي عدو الله من رحلي، فلا تصحبني.

من ذلك: قوله -صلّى الله عليه وسلّم- في كسرى وقيْصر لمّا بعث حذّافة بن قيس السّهمي بكتابه إلى كسرى. فلمّا وصل إليه وقرأ كتابه، شقّه وقال: "يكْتب إليّ بمثل هذا، وهو لي عبدٌ؟!"، وأمَر أن يعطي حذّافة بن قيس كفًّا من تراب. فقال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: "مزّق ملْكه وملّكني من أرْضه!"، فكان كما قال.

وكتَب إلى قيصر مع دحية بن خليفة الكلبيّ[1]، فأخذ كتابه ووَضَعه بين فخْذه وخاصرته، فقال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: "ثبّت ملْكه!"، فكان كما قال.

---

[1] دحية بن خليفة الكلبي هو سفير رسول الله، -عليه الصّلاة والسّلام-، إلى هرقل ملك الروم وتروي عائشة أن جبريل كان يأتي رسول الله -عليه الصّلاة والسّلام- في صورة رجل حسن الهيئة يشبه الصّحابي دحية الكلبي. وهو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرؤ القيس بن الخزرج وهو زيد مناة بن عامر بن بكر بن عامر الأكبر بن عوف بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. أسلم دحية بن خليفة قديماً ولم يشهد بدرًا، وكان يشبهه بجبرائيل، وقد تزوّج درة بنت أبي لهب بنت عمّ الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام-. قال: أخبرنا يعلى بن عبيد وعبيد الله بن موسى والفضل بن دكين قالوا: حدثنا زكرياء بن أبي زائدة عن عامر الشّعبي قال: شبه رسول الله، ثلاثة نفر من أميّة، فقال: دحية الكلبي يشبه الرسول -عليه الصّلاة والسّلام-، وعروة بن مسعود الثقفي يشبه عيسى بن مريم، وعبد العزى يشبه بالمسيح الدجّال. قال: أخبرنا عفان بن مسلم قال: حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن يزيد بن الوليد عن أبي وائل قال: كان دحية الكلبي يشبه النبي -عليه الصّلاة والسّلام-، وكان عروة بن مسعود مثله كمثل صاحب يس وكان عبد العزى ابن قطن يشبه بالدجال. قال: أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري عن أبيه عن ابن شهاب قال: قال رسول الله : أشبه ما رأيت بالنّبيّ الكريم دحية الكلبي. قال: أخبرنا عفان بن مسلم قال: حدثنا حماد بن سلمة بن إسحاق بن سويد عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن النّبيّ قال: كان جبرائيل يأتي النبي في صورة دحية الكلبي. قال: أخبرنا خالد بن مخلد قال: حدثنا عبد الله بن عمر بن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمّد عن عائشة قالت: وثب رسول الله وثبةً شديدةً فنظرت فإذا معه رجلٌ واقف على برذون وعليه عمامةٌ بيضاء قد سدل طرفها بين كتفيه ورسول الله، واضع يده على معرفة برذونه، فقلت: يا رسول الله لقد راعتني وثبتك، من هذا؟ قال: ورأيته؟ قلت: نعم قال: ومن رأيت؟ قلت: دحية الكلبي قال: ذاك جبرائيل. قال: أخبرنا وكيع بن الجراح عن سفيان بن عيينة عن ابن نجيح عن مجاهد قال: بعث رسول الله، دحية الكلبي سرية وحده. قال: أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري عن أبيه عن صالح بن كيسان قال :قال ابن شهاب: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عبّاس أخبره أنّ رسول الله، كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه مع دحية الكلبي وأمره رسول الله أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر. قال محمّد بن عمر: لقيه بحمص

ومنها: قوله لعليّ[1] -كرّم الله وجهه-: "إنّك تقاتل النّاكثين والمارقين والفاسقين"، فقاتل بعْده هذه الفِرَق الثّلاث.

وقوْله في غزوة العشيرة، حين نظر إليه وهو نائمٌ مع عمّار، وقد أصابه من دقعاء التّراب، فوقف عليهما، وأيْقظهما برجْله، وجعَل ينْفض التّراب عن رأس عليّ -كرّم الله وجهه-، ويقول له: "يا أبا تراب! ألا أخبرك بأشْقى النّاس؟". قال: "بلى يا رسول الله!". قال: "رجلان، أحيمر ثمود عاقر النّاقة، والآخر الذي يضربك على هذه، -ووضَع يدَه على هامته- حتّى تبتلّ منها هذه"، وأخذ بلحْيته.

فكان عليّ -كرّم الله وجهه- يقول في أوْقات ملاله أشياء كان يراها من أصحابه، فيضيق صدْره، منها: "ما يمْنع أشقاها أن يُخضّب هذه من هذه".

ومرض مرضًا شديدًا، فقال له أهله: "إنّا نخاف عليك"، فقال: "أنا -والله- ما أخاف على نفسي من مرَضي هذا؛ فقد أعْلمني رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه يقْتلني أشْقى هذه الأمّة".

ومثل هذا: حديث عمّار عند حفر الخنْدق ونظره إليه، وقد أثْقلوه بحمل التّراب، فقال: "يا رسول الله، يقتلونني يحملون عليَّ ما لا أُطيق"؛ فنفض التّراب عن رأسه، ووفرته بيده، وقال : "ويْح ابن سميّة! ليسوا بالذين يقتلونك، إنّما تقتلك الفئة الباغية"؛ فاستُشْهد بصفّين، وهو مع عليّ -كرّم الله وجهه-.

وقالوا لعمرو: "ألستَ حدّثْتنا أنّ رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم- قال لعمّار: "تقتلك الفئة الباغية؟"؛ فلام معاوية[2] عمرو على ذلك. فقال عمرو: "حدّثتُ النّاس بهذا قبْل أن يكون صفّين، وأنا لا أعلم بأنّ صفّين يكون".

فدفع إليه كتاب رسول الله، وذلك في المحرم سنة سبع من الهجرة. وشهد دحية مع رسول الله المشاهد بعد بدر وبقي إلى خلافة معاوية ابن أبي سفيان.

[1] واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى. وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لمّا قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.

حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

[2] أبوه: أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس

ومن ذلك: حديث أبي ذرّة، فإنّه لمّا خرج إلى تبوك تخلّف عنه قومٌ، فقيل له: "تخلّف فلان وفلان"، فقال: "دَعوهم، فإن يكنْ فيهم خيرٌ يُلحقهم الله بكم". وأبطأ بأبي ذرّ بعيره، فتخلّف؛ ثمّ أخذ متاعه على ظهره ولحقه، فقيل: "يا رسول الله، قد أقْبل رجلٌ"، فقال:" اللّهُمّ، اجْعله أبا ذرّ". فلمّا دنا، قال: "يرحم الله أبا ذرّ! يمشي وحْده، ويموت وحْده، ويُدفَنُ وحْده". فتوفّي بالرّبذة، ولم يكنْ معه غير امرأته وغلامه؛ فوضَعوه على الطّريق؛ فأقْبل رهطٌ من العراق مارًّا، وفيهم ابن مسعود؛ فقال الغلام: "هذا أبو ذرّ أعينونا

بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وابنته هي أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان. وأبو سفيان من سادات قريش وواحد من ذوي الرأي والحكمة في مكة. أمه: هند بنت عتبة بنت ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهي أخت الصحابي الجليل أبو حذيفة بن عتبة، وتجتمع مع أبو سفيان في عبد مناف بن قصي. ولد معاوية بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وكان سنه يوم الفتح 23 سنة. وأسلم معاوية يوم فتح مكة وهو من الطلقاء الذين اسلموا من مسلمة الفتح. تولى قيادة جيش إمداد لأخيه يزيد بن أبي سفيان في خلافة أبو بكر، وأمره أبو بكر بأن يلحق به فكان غازيا تحت إمرة أخيه، وقاتل المرتدين في معركة اليمامة، ومن بعد ذلك أرسلة الخليفة أبو بكر مع أخيهِ يزيد لفتح الشام وكان معه يوم فتح صيدا وعرقة وجبل وبيروت وهم من سواحل الشام. تولى معاوية بن ابي سفيان ولاية الأردن في الشام سنة 21 هـ في عهد عمر بن الخطاب. وبعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان من طاعون عمواس، ولاّه عمر ولاية دمشق وما يتبع لها من البلاد، ثمّ جمع له الخليفة عثمان بن عفان على ولاية الشام كلها، فكان من ولاّة أمصارها. وبعد موت عثمان سنة 35 هـ خرج عن أمر خليفة المسلمين عليّ بن أبي طالب ونادى بأخذ الثأر من قتلة الخليفة عثمان ابن عفان وحرض على قتالهم. وقبل ذلك وقعت موقعة الجمل حيث كانت عائشة بنت أبي بكر زوجة النّبيّ محمّد في جيشا يقاتل خليفة المسلمين آنذاك وكان في قيادة الجيش طلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوامّ، وكانوا خرجوا جميعا لأخذ الثأر من قتلة عثمان، وبعد موقعة الجمل قاد معاوية جيشاً ضد خليفة المسلمين عليّ بن أبي طالب وكانت موقعة صفين التي انتهت بالتحكيم الجبري، وبعد مقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب تولى الحسن بن علي الخلافة فثار معاوية على الحسن وحاربه؛ فما كان من الحسن إلاّ أن حقن دماء المسلمين وأقام عهدًا مع معاوية ينصّ على أنّ الأمر يعود للمسلمين لاختيار خليفتهم بعد وفاة معاوية وهذا ما لم يحدث، وبموجب ذلك العهد تسلم معاوية الحكم فأصبح خليفة المسلمين في دمشق عاصمة دولة الخلافة الإسلامية. توفّي في دمشق عن 78 سنة بعدما عهد بالأمر إلى ابنه يزيد بن معاوية ودفن في دمشق وكانت وفاته في رجب سنة 60 هـ كان خلالها واليًا ل 20 عام وخليفة ل 20 عام أخرى. كان معاوية أوّل مَن أوْصى بالملك لولده من الخلفاء.

على دفْنه". فجعل ابن مسعود يبكي ويقول: "صَدَق رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– حيث (قال): "تمْشي وحْدك، وتموت وحْدك، وتُدفن وحْدك".

ومن قوله –صلّى الله عليه وسلّم– لفاطمة[1] (ع): "أنتِ أوّل أهلي لحوقًا بي"؛ فكان كما قال.

فهذا وجْهٌ آخرٌ من أعلامه. ومثلها كثيرة تشاكلها.

منها: أخبارٌ جاءت في وقت الطّعام والشّراب الذي كثّره الله وبارك فيه، حتّى أكَل منه وشرب قومٌ كثيرٌ، فشبعوا ورووا.

من ذلك: حديث عليّ –كرّم الله وجهه–، قال: "لمّا أُنْزِلت: ﴿وأَنْذِر عَشِيرَتَكَ الأقربين﴾[2]، قال لي رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–: "اصنْع لي صاعًا من طعام، واجعل عليه رِجل شاة، واملأ لنا عسًّا من لبن"، ففعلتُ. فاجْتمع بنو عبد المطّلب، وهم يومئذ أربعون يزيدون رجلاً أو ينقصون.

ثمّ دَعَا بالطّعام، فتناول جذبة من اللّحم، فشقّها، ثمّ ألْقاها في نواحي الصّحفة، [و]قال: "خُذوا باسْم الله!"؛ فأكلوا حتّى ما لهم بشيء من حاجة، ثمّ قال: "اسْق القوْم"؛ فجئْتهم بالعسّ، فشربوا، حتّى رووا منه. وأيم الله إنّ الرّجل منهم ليأْكل ما قدّمتُ ويشْرب مثل ذلك العسّ.

فلمّا أراد –صلّى الله عليه وسلّم– أن يتكلّم، بَدَرَه أبو لهب فقال: "سحَرنا محمّد!"؛ فتفرّق القوْم، ولم يكلّمهم.

ثمّ قال من الغد: "يا عليّ، إنّ هذا سبقني إلى القوْل، فتفرّق القوْم؛ فاتّخذ لنا من الطّعام مثل ما صنعته". ففعلتُ، ثمّ اجتمعوا؛ ففعل مثل ما فعل بالأمس؛ فأكلوا وشربوا، حتّى شبعوا ورووا.

ثمّ تكلّم –صلّى الله عليه وسلّم–، فقال: "إنّ الله أمَرني أن أُنْذر عشيرتي الأقربين"، الحديث المشهور.

---

[1] هي فاطمة بنت رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–. توفّيت بعد الرّسول –عليه السّلام– بستّة أشهر، وقيل بثمانية؛ علمًا بأنّه توفّي –عليه الصّلاة والسّلام– في ضحى يوم الاثنين الثّامن من شهر ربيع الأوّل –وقيل: الثّاني عشر منه– سنة إحدى عشرة من الهجرة.

حول ترجمتها راجع: ابن قنفد، *الوفيات*، ص9.

[2] سورة الشّعراء (26)، الآية 214.

ومثل ذلك حديث جابر بن عبد الله الجعفي[1] أيّام الخندق، قال: "ذبحتُ شاة غير جدّ سمينة، وأمرتُ بها، فطُبخت، وصُنع خبزٌ من شعير؛ وقلتُ لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: "أُحبُّ أن تنْصرف معي إلى منْزلي". قال: "نعم"، وأمَر صارخًا؛ فنادى في الخنْدق: "انصرفوا مع رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- إلى منزل جابر". فقلتُ: "إنّا لله، وإنّا إليه راجعون"؛ فأقْبل -صلّى الله عليه وسلّم- وأقْبل النّاس، وقعد -صلّى الله عليه وسلّم- يأكل ويوردها النّاس، كلّما فرغ قومٌ جاء قومٌ؛ حتّى صدر عنها أهْل الخنْدق، وقد شبعوا، وهم ثلاثة ألف رجل.

ومثل ذلك: حديث ابنة أُخت عبد الله بن رواحة، كانت قد حملتْ تمرًا إلى خالها، وهو يعمل في الخندق؛ فقال لها رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: "هاتيه يا بنيّة!"، فأخذه وهو ملء كفّيْه؛ فدعى بثوْب وبسطه، ثمّ دحى بالتّمر عليه، فسدّد فوق الثّوب. ثمّ أمَر أن

---

[1] هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة، صحابي جليل من الأنصار، يكنّى أبا عبد الله، وقيل: أبُو عبد الرّحمن، والأوّل أصحّ، شهد العقبة الثّانية مع أبيه وهو صبيّ، وقد كان أصغر من شهد العقبة الثّانية، وقال بعضهم: شهد بدرًا، وقيل: لم يشهدها، وكذلك غزوة أحد. وكان من المكثرين في الحديث، الحافظين للسّنن، روى عنه محمد بن علي بن الحسين، وعمرو بن دينار، وأبو الزبير المكّي، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم. كما روى جابر بن عبد الله علمًا كثيرًا عن النّبي -صلى اللّهُ عليه وسلم- وعن عمر وعلي وأبي بكر وأبي عبيدة ومعاذ بن جبل والزّبير وطائفة، وكان مفتي المدينة في زمانه، شهد ليلة العقبة مع والده، وكان والده من النّقباء البدريين، استشهد يوم أحد، وكان جابر قد أطاع أباه يوم أحد، وقعد لأجل أخواته. وقاتل جابر بن عبد الله مع الرّسول في سبع عشرة غزوة، قال جابر: غزوت مع رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- سبع عشرة غزوة، لم أشهد بدرا ولا أحدا، منعني أبي، فلما قتل يوم أحد، لم أتخلف عن رسول الله -صلّى اللهُ عليه وسلّم- في غزوة قط. وقال الكلبي: شهد جابر أحدا، وقيل: شهد مع النبي -صلّى اللهُ عليه وسلّم- ثمان عشرة غزوة، وشهد صفين مع عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وعمي في آخر عمره، وكان يحفي شاربه، وكان يخضب بالصفرة، وهو آخر من مات بالمدينة ممّن شهد العقبة. وقد استغفر له رسول الله ، قال جابر: استغفر لي رسول الله -صلّى اللهُ عليه وسلّم- ليلة البعير خمسًا وعشرين مرة، يعني بقوله ليلة البعير: أنّه باع من رسول الله -صلّى اللهُ عليه وسلّم- بعيرًا، واشترط ظهره إلى المدينة، وكان في غزوة لهم؛ وتوفّي جابر سنة أربع وسبعين، وقيل: سنة سبع وسبعين، وصلّى عليه أبان بن عثمان، وكان أمير المدينة، وكان عمر جابر أربعًا وتسعين سنة.

انظر ترجمته في: أسد الغابة في معرفة الصّحابة؛ سير أعلام النبلاء؛ كتاب الإيمان للقاسم بن سلام؛ المحدث الفاصل بين الرّاوي والواعي للرامهرمزي؛ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي؛ الأسماء المبهمة في الأسماء المحكمة.

يصرخ في أهل الخندق، وهم ثلاثة ألف، يجيء نَفرٌ وينْصرف آخرون، حتّى صدروا عنه، وبقيتْ على الثّوب بقيّة.

فهذا في باب الطّعام، ومثله أخبار غيرها.

وشبه هذا: فعل المسيح (ع)، كما هو مكتوبٌ في الإنجيل، أنّ المسيح لمّا سمع بقتْل يوحنّا الصّابغ، انتقل إلى القفر ومعه جمعٌ من المدائن، فرحمهم وأبرأ مرضاهم.

فلمّا كان العشاء، قال له تلاميذه: "المكان قفرٌ، وقد حان أن يسرّح النّاس، فيذهبوا ويشتروا طعامهم"، فقال: "أطْعِموهم أنتم ما تأكلون". قالوا: "ليس معنا إلاّ خمسة أرغفة وسمكتان!". قال: "ائتوني بها"، وأمَرَ النّاس أن يتّكئوا رفاقًا، وأخَذ الخبز والسّمكتيْن؛ فبارك عليه، وكسّره، وفرّقه؛ فأكل جميعهم، وشبعوا، وأخذوا فضلة الكسر اثنتيْ عشرة قفّة.

وكان الذين أكلوا: خمسة ألف رجل، سوى النّساء والصّبيان.

فهذا شبيه بما فعَل النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في هذا الباب.

وأمّا في باب الماء، فإنّه لمّا خرج في غزوة الحديبيّة، نزل ثنية المُرار، فقيل: "يا رسول الله، ما بالوادي ماء". فنزل عليه، فأخرج سهمًا من كنانته، فأعطاه البراء بن عازب؛ فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه في جوف القليب ناجية بن جندب يميح على النّاس، وهو يقول:

قد علمت جارية يمانيّة   أنّي أنا المائح واسمي ناجية

ببلغة ذات رشاشة واهية

ومثل ذلك: لمّا كان بتبوك، أصاب المسلمين العطش، حتّى كادوا يهلكون؛ فأمر -صلّى الله عليه وسلّم- أن يطلبوا الماء في الرّحال، فأتى بأداوة وأمر، فصبُبّت في إناء، ووضع يده فيها.

قال أنس بن مالك[1]: "فرأينا الماء تخلّل من بين أصابعه، كأنّها عيون، ففاضت؛ فرُويَ منها العسْكر مع إبلهم وخيلهم".

---

[1] وهو: أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجّار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن غسان بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وأمّه: أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجّار

بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن غسان بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، النجارية الخزرجية. وكنيته حمزة, كناه الرسول محمد ببقلة كان يجتنيها، ويقال: أبو ثمامة. ومن أشهر إخوته البراء بن مالك وزيد بن مالك ,وكان له أخ من أمه من أبو طلحة الأنصاري يقال له: أبو عمير، حيث كان النبي محمد يمازحه إذا دخل على أم سليم، فدخل يوماً فوجده حزينًا، فقال: "ما لأبي عمير حزيناً؟ فقالت: يا رسول الله مات نغيره الذي كان يلعب به، فجعل يقول: "يا أبا عمير ما فعل النغير؟". وُلد قبل الهجرة بعشر سنوات، وكان عمره لما قدم النبي محمد المدينة المنورة مهاجرًا عشر سنين, وتوفي النبي محمد وهو ابن عشرين سنة. كان يخضب بالصفرة: وقيل: بالحناء، وقيل بالورس، وكان يخلق ذراعيه بخلوق للمعة بياض كانت به، وكانت له ذؤابة فأراد أن يجزها فنهته أمه، وقالت: كان النبي يمدها ويأخذ بها. وداعبه النبي محمد فقال له: "يا ذا الأذنين". قدم دمشق أيام الوليد بن عبد الملك,[6] ثم رحل إلى البصرة، يحدث الناس، وهو آخر من مات من الصحابة توفي يوم الجمعة في سنة ثلاث وتسعين بعد الهجرة الموافق لعام 712 م, روى عن الرسول محمد 2286 حديثًا ,اتفق له البخاري ومسلم على مائة وثمانين حديثًا، وانفرد البخاري بثمانين حديثًا، ومسلم بتسعين. عاش أنس بن مالك مع الرسول أبرز أيام حياته فكان لخدمة الرسول محمد أبلغ الأثر في حياة أنس, نقل من خلالها أنس للمسلمين أخلاق نبيهم في التعامل معه ومع زوجاته ومع مواليه ومع عامة الأمّة, كان الرّسول محمد بالنّسبة لأنس الأب والمربي والقدوة والأسوة الحسنة. وكان أنس حريصًا أشد الحرص في فترة خدمة الرّسول على اقتفاء أثره وحفظ حديثه ومعاملته حتى مع زوجاته, لذلك اكتسب حديث أنس بن مالك أهمية بالغة بالنسبة للمسلمين حتى حزن كثير من المسلمين لوفاته حتى قال مؤرق العجلي لما مات أنس بن مالك »ذهب اليوم نصف العلم. وكان أنس شديد الإعجاب بشخصية الرّسول محمّد وكان يقول: "كان رسول الله من أحسن النّاس خلقا ولا مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ولا شممت مسكًا قط ولا عطرًا كان أطيب من عرق النبيّ". ولم يكن أنس بالنسبة للرسول مجرد خادم ولكنه كان أمين سره ومساعده وتلميذه وصاحبه ومرافقة وكان يدعو له فيقول: "اللّهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته". وكان أنس مجاب الدعاء فما دعا لأرض بالمطر إلاّ ثار السّحاب وغشيت الأرض الأمطار حتّى في الصّيف. أبتلي أنس بن مالك في نهاية حياته بمرض البهاق ,وضعف جسده حتّى أنّه لم يستطع الصيام فصنع جفنة من ثريد ودعا بثلاثين مسكينًا، فأطعمهم. توفي أنس بن مالك في يوم جمعة من سنة ثلاث وتسعين وهو يقول: لقنوني لا إله إلا الله فلم يزل يقولها حتى قبض. وكان ذلك في البصرة, وكان موته بقصره بالطف، ودفن هناك على فرسخين من البصرة، وصلى عليه صلاة الميت قطن بن مدرك الكلابي. وكان عنده عصية للرّسول محمّد، فمات فدفنت معه بين جيبه وبين قميصه. قال قتاده: "لمّا مات أنس بن مالك قال مورق: ذهب اليوم نصف العلم، قيل: كيف ذلك يا أبا المعتمر؟ قال: كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفنا في الحديث قلنا: تعالى إلى من سمعه من النّبيّ".

ولمّا انْصرف من تبوك، فبلغ وادي المشقّق قال -صلّى الله عليه وسلّم-: "مَن سبقنا إلى الماء، فلا يستقينَّ".

فلمّا أتاه، وقَف عليه، فلم يرَ شيئًا، فقال: "مَن سبق إلى الماء؟"، فقالوا: "فلان وفلان"، فقال:" أوَلَمْ أنْههم أن يستقوا؟"؛ فلعنهم، ودَعَا عليهم.

ثمّ نزَل، فوضع يده تحت الوشل، ثمّ مسحه بيده؛ فانْخرق الماء، حتّى سمعوا له حسًّا شديدًا؛ فشرب النّاس، واستقوا حاجتهم؛ فقال -صلّى الله عليه وسلّم-: "لَتسمعنَّ بهذا الوادي، وهو أخْصب ما بين يديْه وخلْفه". فخضب ذلك الوادي بعد ذلك كما قال.

ومثل هذا فعَل موسى (ع)، كما هو مكتوبٌ في التّوراة، أنّ بني إسرائيل لمّا نزلوا بريّة سيناء، ولم يقدروا على ماء يشربون؛ وضجّ الشّعب إلى موسى وهارون، فكلّم الربّ موسى، فقال له: "خُذ قضيبًا، واجمع الجماعة أنت وهارون، وتكلّم على

انظر ترجمته في: مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور,127/2؛ أنس بن مالك في قصّة إسلام؛ أسد الغابة، ابن الأثير، 80/1 مختصر تاريخ ديمشق، ابن منظور، 131/2 الموسوعة العربية العالمية سورة الفتح، الآية 18 تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، 331/1؛ الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمّد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، (368/4) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، (2336/5)؛ تاريخ دمشق، ابن عساكر، (365/9)، تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي، (364/3 (البداية والنهاية، ابن كثير، (353/5) الروض الداني والمعجم الصغير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، (100/2) جامع الأصول من أحاديث الرسول، ابن الأثير، (8935/1) المتفق والمفترق، الخطيب البغدادي،(19/1) مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، (273/7) المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (328/5 مسند الشهاب، محمّد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، (376/1 (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدّين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، (909/15) تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبد الرّحمن أبو الحجاج المزي، (371/3) مختصر تاريخ ديمشق، ابن منظور، (129/2) كتاب فضل قيام اللّيل والتهجّد، أبو بكر محمّد بن الحسين بن عبد الله الآجُرّيّ البغدادي، (14/1) شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، (428/6) مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، (128/2) اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، (96/7) تاريخ ديمشق، ابن عساكر، (364/9) صحيح البخاري، محمّد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، -830/2 خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، السمهودي، -268/1- سير أعلام النّبلاء، الذهبي، (402/3) الوافي بالوفايات، الصّفدي، (306/3) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، (284/2).

الصّخرة باسمي يجرّ ماؤها". فأخرج لهم الماء في الصّخرة، فشرب منه الجماعة كلّها ومواشيها.

فهذا في التّوراة وتصديقه في القرآن؛ قال الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَومُه أَن اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثنتا عَشَرَة عَيْنًا قَد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾[1].

فهذا شبيه بما فعله محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- في هذا الباب.

ووجْه آخر من أعلامه، وهو دعاؤه على قوْمٍ، فاستجاب الله له فيهم.

ومن ذلك: دعاؤه -عليه السّلام- على مضر حين آذوه وكذّبوه، فقال: "اللّهُمَّ أشددْ وطأتَك على مضر؛ ابعثْ عليهم سنين كسنّي يوسف". فاحتَبسَ عنهم المطر وقحطوا، حتّى جفّ الشّجر والنّبات، وهلك الخفُّ والظّلف، وأكلوا العهن، واشْتووا القدّ.

ومن ذلك: دعاؤه على عامر بن الطّفيل وأربد بن قيس[2]، كانَا وفدَا إليه عن بني عامر، فطلبَا منه شرائط، ولم يجبْهما إلى ذلك؛ فقال عامر بن الطّفيل: "والله لأملأنّها عليك خيلاً ورَجْلاً"؛ فدَعَا عليهما حين ولّيَا عنه وقال: "اللّهمّ اكْفني عامرًا، واهْدِ بني عامر".

فلمّا كان ببعْض الطّريق أرْسل الله إلى عامر بن الطُّفيل الطّاعون، فمات في بيت امرأة من بني سلول، وهو يقول: "أغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية؟!".

وأرْسل الله على أربد بن قيس صاعقة، فأحْرقته.

وفيه يقول لبيد بن ربيعة، وكان أخاه لأمّه:

أخشى على أربد الحتــوف ولا أرهب نوء السّماك والأسد

فجّعني الرّعد والصّوّاعق بالـــ ـــفارس يوم الكريهة النّجد

فهلكَا في طريقهما، وجاءت بنو عامر، فأسلمتْ.

ومن ذلك: أنّه بعث نفرًا من أصحابه إلى إضم، وفيهم مُحلّم بن جثامة؛ فمَرَّ عليهم في طريقهم عامر بن الأضبط الأشجعي، فسلّم عليهم، فأمسكوا عن أذاه؛ فقام إليه محلّم بن جثامة، فقتله لأمر كان بينهما، وأخذ بعيره ومتاعه.

---

[1] سورة الأعراف (7)، الآية 160.

[2] هو أربد بن مقيس بن جزء بن جعفر بن خالد.

انظر: البداية والنهاية/الجزء الخامس/وفد بني عامر وقصة عامر بن الطفيل وأربد بن مقيس.

فلمّا انصرفوا، أخبروا به رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، فرَفع يديْه وقال: "اللّهمّ لا تغفر لمحلّم بن جثّامة!"؛ فما لبث إلاّ قليلاً حتّى مات، فدفنوه، فلفَظتْه الأرض؛ ثمّ أعادوه، فلفَظتْه الأرْض، حتّى فعلوا ذلك ثلاث مرّات، ثمّ واروه بالحجارة. فقال -صلّى الله عليه وسلّم-: "إنّ الأرْض لتنْطوي على مَن هو أشرّ[1] منه، ولكنّ الله -عزّ وجلّ- أراد أن يعظكم به".

ومن ذلك: دعاؤه على المُستهزئين، وهم نفرٌ من قريش كانوا يؤذونه ويستهزئون به وبالقرآن، وهم لهب بن أبي لهب، والأسود بن المطّلب، والعاص بن وائل السّهمي، والحارث بن الطّلاطلة[2]؛ كانوا يجْتمعون، فيستْهزئون. فأوْحَى الله إليه: "أن سلْني فيهم"؛ فوقف حتّى مرَّ عليه لهب بن أبي لهب، فقال: "اللّهُمّ سلّط عليه كلبًا من كلابك"؛ فأكله الأسد. ومرّ عليه الوليد بن المغيرة، وفي رجله جرح، فأوْمى -صلّى الله عليه وسلّم- إلى رجْله، فانْتقض جرحه حتّى قتله. ومرّ عليه الأسود بن عبد يغوث[3]، فأوْمى إلى بطنه ودعَا

---

[1] في الأصل: شر.

[2] هو مالك بن الطلاطلة بن عمرو بن عبسان، واسمه الحارث بن عمرو بن مزيقياء كان من المستهزئين وكان سفيها، فدعى عليه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- واستعاذ بالله من شره فعصر جبريل عليه السلام بطنه حتى خرج خلاه من بطنه فمات وقيل: بل أشار إليه فامتخض رأسه قبحا، وقتل به عمرو بن الطلاطلة، وهو باطل. وقيل: الحارث بن الطلاطلة وليس بشئ، وهم يخلطون بابن الغيطلة وابن الطلاطلة فيجعلون هذا ذلك، وذاك هذا. قاله ابن الكلبي. وقيل: إن المستهزئين ماتوا في وقت واحد، وما تقدّم ذكره أثبت.

[3] هو الأسود بن خلف بن عبد يغوث القرشي كذا نسبه البخاري في ترجمته وفي ترجمة ابنه محمد وقال ابن السكن يقال أنه من بني جمح ورجحه ابن عبد البر وتعقب ذلك بن الأثير بأنه ليس في بني جمح أحد اسمه عبد يغوث. وقال ابن منده: هو زهري وقال العسكري قال مطين: هو قرشيّ أسلم يوم الفتح وعبد يغوث هو ابن وهب بن زهرة. وكان له ابن يُقال له الأسود بن عبد يغوث وكان أحد المستهزئين ومات على كفره وكان الأسود بن خلف يسمي باسم عمه والله أعلم. وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا بن جريج قال :أخبرني ابن خثيم أن محمد بن الأسود بن خلف أخبره أن أبا الأسود رأى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يبايع النّاس عند قرن مصقلة وأخرجه الحاكم من رواية بن جريج وقال فيه أنّ آباه حدّثه أنّه رأى قال البغوي وابن السكن: لم يحدّث به غير بن جريج. وروى البغوي من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن خثيم بهذا الإسناد أن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أخذ حسنًا فقبله وقال: "إنّ الولد مبخلة مجبنة". قال البغوي وابن السكن والدارقطني: تفرّد به معمر، وقال البغوي وابن السكن: ليس للأسود غير هذين الحديثين انتهى. وقد وجدت له ثالثا أخرجه البزار:

عليه، فسُقي ومات. ومرّ عليه الأسود بن المطّلب[1]، فرماه بورقة في وجهه وقال: "اللّهمّ اعْم بصره، واثكله ولده"، ففعل الله ذلك به. ومَرّ عليه العاص بن وائل السّهمي،

عن بشر بن معاذ عن فضيل بن سليما عن ابن خثيم عن محمد بن خلف عن أبيه أن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أمَره أن يجدّد أنصاب الحرم وأخرجه الطبراني عن البزار وله رابع قال البخاري في تاريخه: حدّثنا معلي حدثنا وهيب عن ابن خثيم حدثني محمّد بن الأسود بن خلف بن عبد يغوث عن أبيه إنهم وجدوا كتابًا أسفل المقام فدعت قريش رجلاً من حمير فقال إنّ فيه لحرفا لو أحد ثكموه لقتلتمولي قال فظننا أن فيه ذكر محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- فكتمناه. لأسود بن خلف بن عبد يغوث القرشي كذا نسبه البخاري في ترجمته وفي ترجمة ابنه محمد وقال ابن السكن يقال أنّه من بني جمح ورجحه ابن عبد البر وتعقب ذلك بن الأثير بأنه ليس في بني جمح أحد اسمه عبد يغوث. وقال ابن منده: هو زهري وقال العسكري قال مطين: هو قرشي أسلم يوم الفتح وعبد يغوث هو ابن وهب بن زهرة وكان له ابن يقال له الأسود بن عبد يغوث. وكان أحد المستهزئين. ومات على كفره. وكان الأسود بن خلف يسمى باسم عمّه والله أعلم. وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا بن جريج قال: أخبرني ابن خثيم أنّ محمّد بن الأسود بن خلف أخبره أنّ أبا الأسود رأى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يبايع الناس عند قرن مصقلة وأخرجه الحاكم من رواية بن جريج وقال فيه أن آباه حدثه أنّه رأى قال البغوي وابن السكن: لم يحدث به غير بن جريج وروى البغوي من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن خثيم بهذا الإسناد أن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أخذ حسناً فقبله وقال: "إنّ الولد مبخلة مجبنة". "قال البغوي وابن السكن والدارقطني: تفرد به معمر وقال البغوي وابن السكن: ليس للأسود غير هذين الحديثين انتهى. وقد وجدت له ثالثا أخرجه البزار: عن بشر بن معاذ عن فضيل بن سليما عن ابن خثيم عن محمد بن خلف عن أبيه أن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أمره أن يجدد انصاب الحرم وأخرجه الطبراني عن البزار وله رابع. قال البخاري في تاريخه: حدّثنا معلي حدّثنا وهيب عن ابن خثيم حدّثني محمّد بن الأسود بن خلف بن عبد يغوث عن أبيه إنّهم وجدوا كتابًا أسفل المقام فدعت قريش رجلاً من حمير فقال إن فيه لحرفا لو أحد ثكموه لقتلتموني قال فظننّا أنّ فيه ذكر محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، فكتمناه.

[1] كان الأسود من المستهزئين، وكان يكنى: أبا زمعة، وكان هو وأصحابه يتغامزون بالنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وأصحابه، ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر، ثم يمكون ويصفرون، وكلم رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- بكلام شق عليه. فدعا عليه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أن يعمي الله بصره ويثكله ولده .فخرج يستقبل ابنه. وقد قدم من الشّام، فلمّا كان في بعض طريقه، جلس في ظل شجرة. فجعل جبريل -عليه السّلام- يضرب وجهه وعينيه بورقة من ورقها خضراء، وبشوك من شوكها، حتّى عمي .ويقال: إنّ جبريل -عليه السّلام- أومأ إلى عينيه، فعمي، فشغل عن رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-. ولمّا كان يوم بدر قتل ابنه زمعة بن الأسود، ويكنى: أبا حكيمة، قتله أبو دجانة. ويقال: ثابت بن الجذع. وقتل ابنه عقيل أيضا، قتله حمزة وعليّ

فأشار إلى رجله ودعًا عليه، فدخلت الشّوكة في أخمصه، فقتلته. ومرّ عليه الحارث بن الطّلاطلة، فأوْمى إليه ودعًا عليه، فجعل يتقيّأ قيحًا، حتّى هلك: فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿إنّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ الله إلهًا آخَرَ فَسَوفَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ووجهٌ آخر من إعلامه: أمورٌ نطَق بها القرآن قبْل أن حدثت، ثمّ حدثت وصحّت، وظهر صدْق ما أنْزل الله على لسانه -صلّى الله عليه وسلّم-.

فمنْها ما صحّت في حياته، ومنها ما صحّت بعد وفاته.

من ذلك: فتْح مكّة، وصلْح الحديبيّة. وقد كان الله -عزّ وجلّ- بشّر بأن يفتح عليه مكّة، حتّى يدخل هو وأصحابه والمسلمون مكّة آمنين، محلّقين رؤوسهم، ومقصّرين حاجّين ومُعتمِرين لا يخافون؛ فقال -جلّ ذكره-: ﴿لَقَد صَدَقَ اللهُ رَسُولَه الرّؤيا بالحقّ

-رضي الله تعالى عنهما-، اشتركا فيه. ويقال: قتله علي وحده. وقتل الحارث بن زمعة بن الأسود، قتله علي. وقوم يقولون: والحارث بن الأسود نفسه، والأول أثبت. وكان الأسود بن المطلب، يقول: دعوت على محمد أن يكون طريدا في غير قومه وبلده. واستجيب لي. ودعا علي بعمى عيني، فعميت، وأن أثكل ولدي، فثكلتهم. قال الواقدي: ومات الأسود بمكة، وهم يتجهّزون لأحد، وهو يذمرهم، أي: يحثّهم، ويشجعهم في مرضه، وقد قارب المائة. وكان أهل مكّة، لما قتل منهم من قتل منهم ببدر، تركوا البكاء على قتلاهم، كراهة أن يبلغ المسلمين جزعهم فيشمتوا بهم، فسمع الأسود بكاء، فسأل عنه، فقيل: امرأة ضل لها بعير، فهي تبكي عليه. فقال: أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود فلا تبكي على بكر ولكن على بدر تصاعرت الخدود فبكي إن بكيت على عقيل وبكي حارثا أسد الأسود وبكيهم ولا تسمّي جميعًا وما لأبي حكيمة من نديد على بدر سراة بني هصيص ومخزوم ورهط أبي الوليد ألا قد ساد بعدها رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا قال: وكان الأسود يجلس، ومعه قوم من المشركين، فيقولون: ما ندري ما جاء به محمّد؟ ما هو إلى سجع كسجع الكهان. فنزلت فيهم: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْءَانَ عِضِينَ﴾ (سورة الحجر آية 91)، أي: عضة عضة. ويقال: إن الآية نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا ببعضه وكفروا ببعض. والأثبت أنّها نزلت في كفّار قريش. وكانوا يسألون عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، فيقول بعضهم: مجنون، ويقول بعضهم: ساحر، ويقول بعضهم: شاعر، ويتحدّثون عليه ويصدّون النّاس عنه. فأنزل الله -عزّ وجلّ- ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت آية 13). يقول: "أوزار من يصدونه عن الإسلام". وذكر رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- عاقر النّاقة، فقال: "كان عزيزا منيعا ، كان كأبي زمعة الأسود بن المطلب فيكم". وكان يقال لأبي زمعة بن الأسود: زاد الراكب.

[1] سورة الحجر (15)، الآيتان 95-96.

لتَدْخُلنّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاء الله آمنين مُحلّقين رُؤوسكم ومُقصّرين لا تخافون فَعَلِمَ مَا لَم تَعلَمُوا فجَعَلَ مِنْ دون ذَلِكَ فتْحًا قريبًا﴾[1].

فسهّل الله له صلح الحديبيّة، وفتّح له بعد ذلك مكّة، وأنْجز وعْده.

فلمّا فتَحها، دخل الكعْبة، وأخذ بعضادتيْ الباب، وأمَر بالصُّور التي كانت في الكعبة فطُلست، وبالأصنام فكُسّرت. وقال: "الحمد لله وحْده، أنْجز وعْده، ونصر عبْده، وهزم الأحزاب وحْده".

فإن قال قائلٌ: فلِمَا استثنى في هذه الآية حين قال: "لتدخلنّ المسْجد الحرام -إن شاء الله- آمنين"، فإنّ الاستثناء في أشياء يقع فيها الشّك؛ فقد احتجّ المُلحِدون بذلك.

قلنا: لم يشكّ في أنّ الله ينجز له ما وعَده، ولم يكن استثناؤه لذلك، ولكنّه -عزّ وجلّ- كان أدّبه أن لا يقول لشيء إنّه يفعل حتّى يستثني فيه.

وذلك أنّ المُشركين كانوا سألوه عن قصّة أصحاب الكهف، فقال: "أُخبركم بها غدًا"، ولم يستثنِ؛ فانْقطَع عنه الوحْي أربعين يومًا، حتّى قال المُشركون: "قد قلاه صاحبه وودّعه"، يعنون به: جبرائيل -عليه السّلام-. فأنزل الله -عزّ وجلّ- بعد ذلك: ﴿ما ودّعك ربُكَ ومَا قَلَى﴾[2]، وأنْزل عليه "سورة الكهف"، وقصَّ عليه نبأ الفِتْيَة؛ ثمّ قال له بعْد تمام القصّة: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إلاَّ أَنْ يَشَاءَ الله﴾[3]، فأدّبه بذلك. فكان لا يقول بعد ذلك لشيْءٍ أن يكون إلاّ ويستثني فيه.

ونزلت "سورة الكهف" قبيل الهجرة بمكّة، ونزلت "سورة الفتح" بعد الهجرة بالمدينة؛ فلذلك استثنى.

وكان نزل أيضًا في فتح مكّة: ﴿إنّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآن لَرَادُّكَ إلَى مَعَادٍ﴾[4]، فوعده -عزّ وجلّ- أن يرُدّه إلى مكّة عوْدًا بعد بدْء ويفْتحها عليه؛ ونزل به القرآن، فأنْجز الله وعْده.

فهذا ما كان في حياته.

---

[1] سورة الفتح (48)، الآية 27.

[2] سورة الضّحى (93)، الآية 3.

[3] سورة الكهف (18)، الآية 23.

[4] سورة القصص (28)، الآية 85.

ومن ذلك: أنّ فارس غلبت الرّوم على مملكة الجزيرة، فسُرَّت قريش بذلك مخالفة لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وحزن -عليه السّلام- وأصحابه لميْلهم إلى الرّوم، لأنّ هرقل قبلَ كتاب رسول الله وكسرى مزّقه؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿الٓم غُلبَت الرّومُ في أدْنَى الأرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُون في بِضْعِ سِنِينِ﴾[1]؛ فجاءت الرّوم، وغلبت فارس بعد سبع سنين، وحقّق الله قوله، وسُرَّ المُؤمنون بذلك.

فهذا ما نزل في القرآن قبل أن كان ثمّ صحّ بعد ذلك، وهذا في حياته -صلّى الله عليه وسلّم-.

ومن ذلك: قوله -عزّ وجلّ-: ﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصّالحات لِيَستَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كما استَخْلَفَ الّذين من قبلهم ولَيُمَكِنَنَّ لَهُمْ دينَهم الذي ارتَضَى لَهُمْ ولِيُبَدِّلَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوفِهم أَمِنًا يعبدُونَنِي لا يُشْرِكُون بي شيئًا﴾[2]؛ فحقّق الله قوله، فاستخلَفهم في حياته، وأهْلك أعدائهم، ومكّن لهم في دارِهم في حياته -صلّى الله عليه وسلّم-، حتّى عبدوا الله، وأقاموا شرائع الإسلام؛ وأباد أهلَ الشّرك. هذا قبْل أن مكّن أهل الإسلام في الأرض، وفتَح عليهم هذه الفتوح.

ومن ذلك: ما وعَده الله أن ينصره[3] على قريش ببدْر، وأنزل عليه في قوله -عزّ وجلّ-: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمعُ ويُوَلُّون الدّبر﴾[4]. وذلك أنّ أبا جهل قال: "نحن أكثر منه جمعًا، وعدّة، وعتادًا، وأقوى قوّة؛ لأنّهم كانوا يزيدون على ألفٍ في خيْل، وسلاح، وشوكة شديدة.

وكان أصحاب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ليس معه إلاّ فرس المقداد بن الأسود، وفرس الزّبير بن العوّام[5]، كانوا يركبون المطايا، وكانوا خرجوا يطلبون عير قريش، وفيها الأموال؛ فاجتمعت قريش تنصر بعضها بعضًا.

---

1 سورة الرّوم (30)، الآيات 1 إلى 4.

2 سورة النّور (24)، الآية 55.

3 في الأصل: ينصر.

4 سورة القمر (54)، الآية 45.

5 هو الزّبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان والعوامّ. وعمّته هي أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد. أمّه الصحابية الجليلة: صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن

وكان أصحاب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يودُّون أن يظفروا بالعير، ويأخذوا الأموال. فلمّا فاتتْهم العير وجاءت قريش بشوكتها هالهم ذلك، فنزل جبرائيل (ع) بهذه الآية، وأنْزل أيضًا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابرين﴾[1]؛ فقال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- لأصحابه: "إنّ الله قد بشّرني أن ينصرّني عليهم، ووعدَني إحدى الطّائفتيْن: إمّا العير، وإمّا الظّفر بقريْش؛ وقد فاتت العير، وجاءكم جبرائيل (ع) بالنّصر، وقد عرّفني مصارع القوم".

ووَقَف -صلّى الله عليه وسلّم- على مصارعهم[2]، وقال لأصحابه: "هذا مصرْع فلان، وهذا مصرْع فلان"؛ فعرّفهم مصارعهم رَجلاً رجلاً.

فأظْفره الله -عزّ وجلّ- بهم، ولم يخالف أحدٌ مصرَعه، وحقّق قوله، وصدق وَعْده؛ ثمّ نزلت: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمْ الله إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وتَوَدُّون أَنْ غَيْرَ ذاتِ الشّوكةِ تكونُ لَكُمْ ويُريدون اللهُ أَنْ يُحَقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرِ الكَافِرِين﴾[3]؛ فحقّق الله قوله، وقطع دابرهم، وقتل فُرسانهم وصناديدهم، وأسّر رؤسائهم وعظمائهم، وانْتقم الله منهم ببطْشه.

مالك بن النضر. وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهي عمة رسول الله وشقيقة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطّلب. كان من المهاجرين بدينهم إلى الحبشة، تزوّج أسماء بنت أبي بكر وهاجرا إلى المدينة، فولدت له أول مولود للمسلمين في المدينة عبد الله بن الزّبير، ثمّ مصعب بن الزّبير. يعرف الزّبير بن العوام بحواري الرسول -صلّى الله عليه وسلّم-، كما أن الزبير يعتبر أحد العشرة المبشّرين بالجنّة. قتله غدرا رجل يدعى عمرو بن جرموز، فقد طعنه في ظهره وهو يصلّي. وقد توعد النّبي قاتله بالنّار. وقد دفن الزّبير في أطراف البصرة في موضع يسمى اليوم باسمه. دُمّر ضريح الزّبير بن العوام بعد هجوم دموي على منطقة البصرة جنوب العراق، وقد تمت إعادة بناء الضريح بعد قيام الدولة العراقية الحديثة وفي عام 2007 م.

انظر ترجمته في: سيرة ابن هشام؛ غريب تفرد به البخاري؛ تاريخ العراق بين الاحتلالين - عباس العزاوي، بغداد 1954، الطبعة المنقحة, عام 1963 ج 6, ص161.

[1] سورة البقرة (2)، الآية 249.

[2] في الأصل: مصراعهم.

[3] سورة الأنفال (8)، الآية 7.

وأنْزل أيضًا: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[1]، ونزلت: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ الله وَعْدَهُ إذْ تَحِسُونَهُمْ بِإذنه حَتَّى إذَا فَشِلْتُمْ﴾[2] إلى قوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخرة﴾[3].

وذلك أنّ كثيرًا منهم كانوا يودّون أن يأخذوا الأموال التي في العير بغير حرب، وكثيرًا منهم رضوا بما اختار الله لهم، فنزلتْ أيضًا: ﴿إنَّ الَّذين يُحادُّونَ اللهَ ورَسُوله أُولئك في الأذلين كَتَبَ الله لأغلبنّ أنا ورُسُلي إنّ الله قويٌّ عزيز﴾[4].

فهذا نزَل به القرآن قبل أن كان قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُولّون الدّبر﴾[5]. والآية تدلُّ على أنّها نزلت قبل هذه القصّة؛ لأنّ قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الجمعُ﴾[6]. هذه السّين تكون للمستقبل لا للماضي. وكذلك السّين التي في الآية قصّة الرّوم: ﴿سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سنين﴾[7] تدلُّ على المستقبل.

ونزلت هذه الآيات بهذه الأنباء قبل أن كانت، ثمّ كانت من بعد ذلك وصحَّت.

وهذا القرآن ينطق إلاّ جاهلٌ عديم العقل.

ومثل مَن ينكر هذه القصص مثْل شيْخ كان يقول بالإرجاء والنّصب، وكان جاهلاً، قال لي يومًا: "ما رأيتُ أكْذب من الرّافضة[8]، يزْعمون أنّ طلحة[1] والزّبير[1] أخْرجَا

---

[1] سورة الدّخان (44)، الآية 16.

[2] سورة آل عمران (3)، الآية 152.

[3] سورة آل عمران (3)، الآية 152.

[4] سورة المجادلة (58)، الآيتان 20-21.

[5] سورة القمر (54)، الآية 45.

[6] سورة القمر (54)، الآية 45.

[7] سورة الرّوم (30)، الآيتان 3-4.

[8] أو الرّوافض. وإنّما سمّوا بالرّوافض لأنّ زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- خرج على هشام بن عبد الملك، فطعن عسكره في أبي بكر، فمنعهم من ذلك فرفضوه، ولم يبق معه إلاّ مائتا فارس. فقال لهم -أي زيد بن عليّ- : "رفضتموني"، قالوا: "نعم"، فبقي عليهم هذا الاسم. وهم أربع طوائف: الزّيديّة، الإماميّة، الكيسانيّة، الغالية. وفي *مقالات الإسلاميّين* للإمام الأشعري: سمّوا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر، وهم مجمعون على أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- نصّ على استخلاف عليّ بن أبي طالب باسمه، وأظهر ذلك وأعلنه، وأنّ أكثر الصّحابة ضلّوا بتركهم الإقتداء به بعد وفاة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، وأنّ الإمامة لا تكون إلاّ بنصّ وتوقيف، وأنّها قرابة، وأنّه جائز للإمام في حال التّقيّة أن يقول إنّه ليس بإمام... (ص17 من طبعة ريتر). وفي *تاج العروس* للزّبيدي:

فرق من الشّيعة. قال الأصمعي: سمّوا بذلك لأنّهم تركوا زيد بن عليّ، كذا نصّ الصّحاح. وفي *اللّسان والعباب* قال الأصمعي: كانوا بايعوا زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب –رحمهم الله تعالى–، ثمّ قالوا له: "تبرّأ –وفي بعض النّصوص: إبرأ– من الشّيخين نقاتل معك"، فأبى وقال : "كانا وزيريْ جدّي –صلّى الله عليه وسلّم–، فلا أبرأ منهما"، وفي بعض النّسخ: "أنا مع وزيريْ جدّي"، فتركوه وأرفضوا عنه... فسمّوا رافضة... (ج5/ص34). وفي *فرق الشّيعة* للنّوبختي: لمّا توفّي أبو جعفر –عليه السّلام– افترقت أصحابه فرقتين: فرقة منهما قالت بإمامة محمّد بن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، الخارج بالمدينة المقتول بها؛ وزعموا أنّه القائم، وأنّه الإمام المهدي، وأنّه قُتل؛ وقالوا إنّه حيّ لم يمت، مقيم بجبل يُقال له العلميّة... وكان المغيرة بن سعيد قال بهذا القول لمّا توفّي أبو جعفر محمّد بن عليّ وأظهر المقالة بذلك، فبرئت منه الشّيعة أصحاب عبد الله جعفر بن محمّد –عليهما السّلام– ورفضوه، فزعم أنّهم رافضة، وأنّه هو الذي سمّاهم بهذا الاسم..." (ص62–ص63). ويستعمل الأشعري والبغدادي والإسفراييني والملطي لفظ الرّوافض بالمعنى العامّ للفظ الشّيعة، ويعدّون من فرقتهم الزّيديّة والإماميّة والكيسانيّة وغلاة... وهكذا يكون معنى رافضة وأسباب تسميتهم بها يدور على عدّة تفسيرات: الأولى: رفض زيد أن يتبرّأ من الشّيخين، وهو يعني أنّ الرّافضة هم الزّيديّة، ولعلّه أُطلق على الشّيعة عمومًا هذا اللّقب من باب إطلاق الجزء على الكلّ (رأي الرّازي)، وقد سبق أن ذكره الأشعري في *المقالات*). الثّانية: أنّهم سمّوا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر (رأي الأشعري). الثّالثة: أنّ الذين سمّوا رافضة هم فرقة من الشّيعة (رأي النّوبختي). وقد نُقل عن الطّبري أنّ الشّيعة سمّوا بالكوفة بالرّافضة لكونهم رفضوا زيد بن عليّ.

انظر أيضا مادّة رافضة في *موسوعة الإسلام المختصرة*، ص466.

[1] أبوه: عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. أمّه: الصعبة بنت الحضرمي بن عبدة بن ـضماد بن مالك من بني الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت وهي أخت الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي. قال أبو عبد الله بن منده :كان رجلا آدم كثير الشعر ليس بالجعد القطط ولا بالسبط حسن الوجه إذا مشى أسرع ولا يغير شعره. وعن موسى بن طلحة قال: كان أبي أبيض يضرب إلى الحمرة مربوعا إلى القصر هو أقرب رحب الصدر بعيد ما بين المنكبين ضخم القدمين إذا التفت التفت جميعا. كان طلحة في تجارة بأرض بصرى حين لقي راهبا من خيار رهبانها، وأنبأه أن النبي الموعود سيخرج في مكة، والذي تنبأ به الأنبياء وقد هل عصرة وأشرقت أيّامه. ولم يرد طلحة أن يفوته هذ الموكب، فإنه موكب الهدي والرّحمة والخلاص. وحين عاد طلحة إلى مكة بعد شهور قضاها في بصرى وفي السفر، فكلما يلتقي بأحد أو بجماعة منهم يسمعهم يتحدثون عن محمد الأمين. وعن الوحي الذي يأتيه. وعن الرسالة التي يحملها إلى العرب خاصّة، وإلى النّاس كافّة. وسأل طلحة أوّل ما سأل عن أبي بكر الصدّيق فعلم أنه عاد مع قافلته وتجارته من وقت قريب، وأنه يقف إلى جوار محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– مؤمنًا أوابا. وحدّث طلحة نفسه: محمّد، وأبو بكر؟؟

تالله لا يجتمع الإثنان على ضلالة أبدا ولقد بلغ محمد الأربعين من عمره، وما عهدنا عليه خلال هذا العمر كذبة واحدة. أفيكذب اليوم على الله، ويقول: إنه أرسلني وأرسل إلي وحيًا...؟؟ فهذا هو الذي يصعب تصديقه. وأسرع طلحة الخطى إلى دار أبي بكر، ولم يطل بينهم الحديث، فقد كان شوقه إلى لقاء الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– ومبايعته أسرع من دقّات قلبه. فصحبه أبو بكر إلى الرسول –عليه الصّلاة والسّلام–، حيث أسلم وأخذ مكانه في القافلة المباركة, وهكذا كان طلحة من السّابقين الأوّلين المبكّرين للإسلام. كناه رسول الله محمّد –صلّى الله عليه وسلّم- عدّة كنى: هو صقر أحد. في غزوة أحد كناه بــطلحة الخير. في غزوة ذي العشيرة كناه بــطلحة الفياض. في غزوة خيبر كناه بــطلحة الجود. المشهور عند المحققين هو أن مروان بن الحكم قتل طلحة يوم الجمل. روي عن علقمة بن وقاص اللّيثي قال: لمّا خرج طلحة والزّبير وعائشة للطلب بدم عثمان عرجوا عن منصرفهم بذات عرق، فاستصغروا عروة بن الزّبير وأبا بكر بن عبد الرّحمن فردّوهما. قال: ورأيت طلحة وأحبّ المجالس إليه أخلاها، وهو ضارب بلحيته على زوره، فقلت: "يا أبا محمّد، إنّي أراك وأحبّ المجالس إليك أخلاها. إن كنتَ تكره هذا الأمر، فدعْه". فقال: يا علقمة لا تلمني كنا أمس يدا واحدة على من سوانا فأصبحنا اليوم جبلين من حديد يزحف أحدنا إلى صاحبه ولكنه كان مني شيء في أمر عثمان مما لا أرى كفارته إلا سفك دمي وطلب دمه. قلت الذي كان منه في حق عثمان تأليب فعله باجتهاد ثم تغير عندما شاهد مصرع عثمان فندم على ترك نصرته ما، وكان طلحة أول من بايع عليًّا أرهقه قتلة عثمان وأحضروه حتى بايع، قال البخاري حدثنا موسى بن أعين حدثنا أبو عوانة عن حصين في حديث عمرو بن جاوان قال: التقى القوم يوم الجمل فقام كعب بن سور معه المصحف فنشره بين الفريقين وناشدهم الله والإسلام في دمائهم فما زال حتّى قتل وكان طلحة أوّل قتيل وذهب الزبير ليلحق ببنيه فقتل. قال ابن سعد : أخبرني من سمع إسماعيل بن أبي خالد عن حكيم بن جابر قال: قال طلحة إنا داهنا في أمر عثمان فلا نجد اليوم أمثل من أن نبذل دماءنا فيه اللّهم خذ لعثمان مني اليوم حتّى ترضى. وروي عن وكيع :حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم فوقع في ركبته فما زال ينسح حتّى مات. وروي عن عبد الله بن إدريس عن ليث عن طلحة بن مصرف أن عليا انتهى إلى طلحة وقد مات فنزل عن دابته وأجلسه ومسح الغبار عن وجهه ولحيته وهو يترحم عليه وقال: ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وروى زيد بن أبي أنيسة عن الأنصار عن أبيه أنّ عليًّا قال: بشّروا قاتل طلحة بالنّار. وكان قتله سنة ست وثلاثين في جمادى الآخرة وقيل في رجب وهو ابن ثنتين وستّين سنة أو نحوها وقبره بظاهر البصرة.

انظر ترجمته في: سيرة ابن هشام .ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8، .191. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8، .191. محمّد بن طلحة بن عبيد الله سير أعلام النبلاء .ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8، .191. تفسير ابن كثير، سورة الممتحنة، تفسير الآية.10. تقريب التّهذيب، ص 765، ترجمة رقم: 8606 رجال حول الرسول - خالد محمد خالد. طلحة بن عبيد الله من كتاب سير أعلام النّبلاء - الذهبي.

[1] هو الزّبير بن العوامّ، أحد الصّحابة العشرة. توفّي في سنة ستّ وثلاثين، وسنّه وستّون سنة.

عائشة[1] إلى البصرة، وأنّها ركبت الجمل، وحاربت عليًّا بن أبي طالب. قلتُ له: "فما تقول في هذا؟". قال: "هذا حديثٌ وضعه الرّافضة، وهو كذبٌ ليس له أصلٌ".

وكذلك مَن ينْكر هذه القصص ويدْفعها، ويزْعم أنّها لم تكن، فقد ردَّ العيان. وإن أنْكر الآيات التي هي في القرآن، فهو أيضًا رادٌّ للعيان.

ومثال المُلحِد في ردّ هذه الأعلام مثال هذا الشّيخ الذي قد ذكرْناه في ردّ ما هو مثل العيان ولا مرية فيه؛ لأنّها أعلام نطق بها القرآن قبل أن كانت، ثمّ كانت بعد ذلك.

ووجْهٌ آخر من أعلامه ممّا جاءت في القرآن، منها: حديث الإسراء، والبُراق، والمعراج، وما أراه الله -عزّ وجلّ- من ملكوت السّماوات والأرض في ليلة الإسراء. فلمّا أصبح حدثّ به النّاس. فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً من المسْجِدِ الحرام إلى المسْجد الأقْصى الذي باركنا حولَه لِنُريه من آياتنا إنّه هو السّميع البصير﴾[2]؛ فقالت العرب: "ما سمعْنا مثل هذا".

وكانوا يسْألونه عن صفة بيت المقْدس، فجعل يصفه لهم، ثمّ قال: "إنّي مررتُ بعير بني فلان بوادي كذا، وأنا متوجّه إلى المسْجد الأقْصى، فأنْفرها حسُّ الدّابة، فندّ لهم بعير، فدلّلتهم عليه. فلمّا أقبلتُ، مررتُ بعير بني فلان، فوجدتُ القوم نيامًا ولهم إناءٌ فيه ماء قد غطّوه؛ فكشفتُ غطاءه، وشربتُ ما فيه، وغطّيتُ عليه كما كان". وآية ذلك: أنّ بعيرهم الآن يصوب من البيضاء ثنيّة التّنعيم، يقدّمها جمل أورق عليه غرارتان: إحداهما[3] سوداء، والأخرى برقاء. فابْتدر القوم الثّنيّة، فأوّل ما لقيهم: الجمل كما وصَفه. وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنّهم وضعوه مملوءًا وغطّوا عليه، وأنّهم لمّا هبّوا، وجدوه فارغًا

حول ترجمته راجع: ابن قنفد، *الوفيّات*، ص10.

[1] هي عائشة بنت أبي بكر الصدّيق. تزوّجها الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- قبل الهجرة بثلاث سنين. وكان لها يوم تزوّجها ستّ سنين، فكان لها عند موته ثمان عشرة سنة. وتوفّيت هي في خلافة معاوية سنة 58 هـ، ولها 67 سنة، ودُفنت بالبقيع.

حول ترجمتها راجع: *طبقات* ابن سعد، ج8/ص58؛ *الاستيعاب* لأبي عمر بن عبد البرّ، ص1881؛ *أسد الغابة* لعزّ الدّين ابن الأثير الجزري، ج5/ص501؛ *الإصابة* لابن حجر العسقلاني، ج8/ص139؛ *حلية الأولياء* لأبي نعيم الأصفهاني، ج2/ص43؛ *تهذيب التّهذيب*، ج12/ص433؛ *صفة الصّفوة* لابن الجوزي، ج2/ص6.

[2] سورة الإسراء (17)، الآية 1.

[3] في الأصل: أحدهما.

مغطّى. وسألوا القوْم الآخرين، وهم بمكّة، عن خبر البعير الذي ندّ لهم، فقالوا: "ندّ لنا بعير، فسمعْنا صوت رجل يدعونا إليه، فأخذناه". فهذه من دلالاته التي نطَق بها القرآن.

ولمّا نزل ذلك، سمعه المُشرِكون، وسمعوا هذه القصّة، وطالبوه بذلك؛ فكان حديثها ما ذكرناه، والقرآن ينطق بأنّ ذلك كان بمحْضر منهم.

ومن ذلك: حديث انْشقاق القمر. وذلك أنّ أبا جهل قال لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: "إن كنتَ نبيًّا، فأْتِ بآية، كما أتتْ بها الرّسل لنؤمن لك، فأْتِ بآية من السّماء لا من الأرض!". فدعا -صلّى الله عليه وسلّم- ربّه، فانْشقّ القمر والْتقى طرفاه على جبل أبي قبيس. فقال أبو جهل: "يا معشر قريش، إنّ محمّدًا قد سحَر القمر، فانظروا مَن يُقدِّم عليكم من النّواحي هل رأوا ما رأيتم؟". فكان مَن يُقدِّم عليهم يحدّثهم بانْشقاق القمر. فقال أبو جهل: "هذا سحرٌ ذاهبٌ في الدّنيا!". فأنْزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشقَّ القَمَرُ وإنْ يَرَوْا آية يُعرِضُون ويقولوا سِحْرٌ مُستَمِرٌّ﴾[1].

فهذا ما نطق به القرآن، ولو لم يكن ذلك لطالبوه، ولقالوا: "أين هذا الذي تدّعي من انْشقاق القمر؟"، ولكنّهم شاهدوه ورأوه. ويصحّح ذلك قوله: ﴿وإنْ يَروا آيةً يُعْرِضوا وَيَقولوا سِحْرٌ مُستَمِرٌّ﴾[2].

فهذا يدلّ أنّه قد كان، وأنّهم قالوا إنّه سحْرٌ مُستمِرٌّ لمّا رأوه مُنشقًّا؛ وقالوا عند ذلك: "هو من السّحْر، هذا سحْرٌ من سِحْره وحيلة من حيله".

وهذه القصّة كانت بمكّة قبل الهجرة، وأعداؤه متوافرون يتطلّبون عليه العثرات. وهذه السّورة مكّية، والقرآن لا يقع فيه تغيير، وتبديل، وزيادة، [و]نقْصان؛ وليست سبيله سبيل الخبر الذي ادّعى المُلحِد أنّه نقله واحدٌ واثنان وثلاثة، وأنّه يجوز عليه التّواطؤ؛ لأنّ الذي نزل به القرآن سمعه الكافِرون، كما سمعه المسلمون؛ ونطق بهذه القصص بمشْهد من كفّار قريْش، وغيرهم من العرب، ومن أهل الكتاب. ثمّ ظهرت حقيقتها بعد نزول القرآن، وظهر صدقُ محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- فيها؛ ثمّ القرآن نقلتْه الأمّة بأسْرها، ولم يقع فيه زيادة ونقصان.

فهذا أوْكد من أن يقدر أحدٌ على إنكاره، إلاّ أن يجْحده على معرفة ويقين، أو مكابرة، أو يقول إنّه سحرٌ وكَهانةٌ، كما قاله مَن شاهد هذه الآيات؛ أو يكون جاهلاً أحْمق

---

[1] سورة القمر (54)، الآية 1.

[2] سورة القمر (54)، الآية 2.

مثل الشّيخ الذي ذكرنا قوله في شأن عائشة، وحديث الجمل؛ وإلاّ فمَن يقدر أن ينْكر حديث غلَبة فارس على الجزيرة، ثمّ غلبة الرّوم بعد ذلك، فيقول: "إنّ هذا لم يكن"، أو ينْكر حديث غزْوَة بدْر، أو يقْدر أن يقول إنّ هذا الذي نطق به القرآن في هذه القصص هو شيء قد زِيد فيه؟!

ومَن ردّ هذا، فقد ردّ العيان. ونعوذ بالله من الكفْر والطّغْيان.

الباب السّادس

في شأن القرآن

قد ذكرنا بعض دلائل محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، كما اشترطْنا، دون ذكر الجميع، لأنّها كثيرة جدًّا؛ ولم نشْرح قصّة كلّ دلائله، ولا ذكرْنا حديثها بكامله؛ بل اختصرْنا، واقتصرْنا على تلك النّكت.

ولسْنا نحتجّ بها على المُلحِدين، إذ كانت أمورًا قد مضَت، وإن كان منها ما هو شبه العيان؛ على حسب ما قلنا من حديث غلبة الرّوم، وانْشقاق القمر، وغير ذلك. ومنها ما تنطق به كتب الأنبياء، وهي في أيدي أهل الذّمّة.

ولكنّا نقول في جواب قول المُلحِد في شأن القرآن، وما طالب به محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- العرب أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا عنه.

فقال المُلحِد: إنّكم تدّعون أنّ المعْجزة قائمة موجودة، وهي القرآن، وتقولون: "مَن أنكر ذلك، فلْيأْتِ بمثْله".

ثمّ قال: إن أردْتم بمثْله في الوجوه التي يتفاضل بها الكلام، فعلينا أن نأتيكم بألفِ مثْله من كلام البُلَغاء، والفُصَحاء، والسُّجّاء، والشُّعَراء؛ وما هو أطْلَقُ منه ألفاظًا، وأشدُّ اخْتصارًا في المعاني، وأبْلغُ أداءً وعبارة، وأشكلُ سجعًا. فإن لم ترضوا بذلك، فإنّا نطالبكم بالمثل الذي تُطالِبون به.

ثمّ قال على أثر هذا الكلام: قد، والله، تعجّبنا من قولهم في كلام هو، في حكاية أساطير الأوّلين، مملوءٌ مع ذلك تناقضًا من غير أن تكون فيه فائدة أو بيّنة على شيء، ثمّ يقولون: "فأْتوا بمثل هذا".

هذا قول المُلحِد.

ونحن نقول: إنّ المُلحِد لم يخْطئ سنّة مَن تقدّمه من أهل الكفْر والضّلالة حين قالوا: "قد سمعْنا؛ لو نشاء لَقلْنا مثل هذا، إنّ هذا إلاّ أساطير الأوّلين".

فهكذا قال المُلحِد مثل قولهم، حذْو[1] النّعل بالنّعل، والقذّة بالقذّة؛ ولكنّه قال ولم يفعل، ولا يقْدر أمثاله من المُلحِدين أن يفعلوا. وما مثله في هذا القول إلاّ كمَن يقول: "إنّي أخْلق مثل السّموات والأرض"، ثمّ لا يقْدر أن يخْلق.

---

[1] في الأصل: حذوا.

وقوله: "جنون" يُضحِك منه، لأنّ السّموات والأرض الله خلقها، ولا يقْدر على مثل خلْقها غيره. وكذلك القرآن الله أنْزله، ولا يقْدر أن يأتي بمثْله غيره. وفيه من المُعجِز نحْو ما في خلق السّموات والأرض. وسوْف نكْشف عن ذلك -إن شاء الله تعالى-.

ثمّ قال: وأيم الله لو وجب أن يكون كتابٌ حجّة، لَكانت كتب أصول الهندسة *والمجسطي* الذي يؤدّي إلى معرفة حركات الفَلَك والكواكب، ونحو كتب المنطق وكتب الطّبّ، التي فيها علوم مصلحة الأبدان، أوْلى بالحجّة ممّا لا يفيد نفعًا، ولا ضرًّا، ولا يكْشف مستورًا -يعني به: القرآن العظيم-.

وقال أيضًا: مَن ذَا يعْجز عن تأليف الخرافات بلا بيان ولا برْهان، إلاّ دعاوى أنّ ذلك حجّة.

وهذا بابٌ إذا دعا إليه الخصْم، سلّمناه وتركْناه وما قد حلّ به من سكْرة الغفْلة والهَوى، مع ما أنّا نأتيه بأفْضل منه من الشّعر الجيّد، والخُطب البليغة، والرّسائل البديعة، ممّا هو أفْصح، وأطْلق، وأسْجع منه. وهذه معاني تفاضل الكلام ذاته.

فأمّا تفاضل الكلام على الكتاب، فلأمور كثيرة فيها منافع كثيرة، وليْس في القرآن شيءٌ من ذلك الفضْل، إنّما هو في باب الكلام، والقرآن خلوٌ من هذه التي ذكرناها.

هذا قول المُلحِد -لعنه الله-، واحتجاجه، وطعْنه على القرآن الذي هو كتاب محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- ومعجزته، وكلام الله -عزّ وجلّ-؛ وجهْله بما فيه من الأمور العظيمة التي: ﴿لو اجْتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثْله لعجزوا عنه ولو كان بعضُهم لبعض ظهيرًا﴾[1]، كما قال الله -عزّ وجلّ-.

ونحن نكْشف عن حقيقة ما في القرآن من الأمور الجليلة والمعْجز العظيم ببرْهان واضح، لِيعلم مَن هو على مذْهب المُلحِد أنّه ليْس في العالم مُعجِزٌ أكثر منه، ولا دلالة أكْبر منه؛ وليعْرف المُلحِدون أنّ القرآن هو عظيمُ الشّأن، رفيعُ البنْيان، واضحُ البرهان؛ وأنّه نورٌ ساطعٌ لِمَن استْضاء به، ودليلٌ هادٍ لِمَن عرفه، وحجّةٌ قاهرة لِمَن خاصم به، وعِلْمٌ زاهر لمَن وعاه، وحكمةٌ بالغة لمَن نطق به، وحبلٌ وثيقٌ لمَن تعلّق به، وفوزٌ ونجاةٌ لمَن آمن به؛ وأنّ نفعه للأنام أعظم، ومقداره أجلُّ من أن يُقاس بالمجسطيّ، وكتب الهنْدسة، والطبّ، والمنطق، والنّجوم، التي ذكرها المُلحِد، وجعلها نظائر للقرآن؛ بل فضّلها عليه، لِضُعف عقْله، وعمى قلْبه، وقلّة معْرفته؛ ولضلالته، ولغلبة هواه.

---

[1] سورة الإسراء (17)، الآية 88.

وندع الاحتجاج على المُلحِد بالآيات والمُعجزات التي جاءت عن الأنبياء (ع)، وعن محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، على حسب ما اشترطْناه، إلاّ بالقرآن العظيم، ولِمَا فيه من الدّلائل الواضحة القائمة في العالم، وإن جحَدها المُلحِدون.

فليس هم بألْوَم في جحودهم الآيات التي مضتْ أيّامها من الذين شاهدوا تلك العجائب، فردّوها. إنّما يُلامون على ما بلوا به من العمى، والضّلال، والإنْكار للمعْجز العظيم الذي هو في القرآن، لأنّه شاهِدٌ قائمٌ في العالم، وقبلوه لمَن عبر، ألْزم منه لمَن مضى؛ والحجّة عليهم أوْكد، لأنّ برْهانه يزْداد على مرّ الأيّام إيضاحًا.

فأمّا المُعجِزات التي قُصّت، فإنّهم لا يُلامون على دفْعها، لأنّ الذين شاهدوها، ورأوها بأبْصارهم، وسمعوها بآذانهم، وباشروها بأنفسهم، دفعوها، وكفروا بها، ونسبوا الأنبياء (ع) إلى السّحر، فيما ظهَر لهم من بعد أن طالبوا بها الرُّسل (ع). فلمّا أتوا بها، جحدوها وقالوا: "هذا سحرٌ مبينٌ، وهذا ساحرٌ كذّابٌ".

فمنْهم مَن عاجلته نقمة ربّه، ومنهم مَن أمْلى لهم ليزدادوا إثمًا، وقد باؤوا كلّهم خاسرين لدنياهم وأخراهم؛ كما سأل أصحاب صالح (ع) أن يُخرج لهم من الصّخرة ناقة تمخض؛ فخرجت، ونتجت سقيًا، كما حكى الله -عزّ وجلّ- عنهم في قولهم لصالح: ﴿إنّما أنت من المُسحِرين ما أنت إلاّ بشرٌ مثلنا فأْتِ بآيةٍ إن كنت من الصّادقين قال هذه ناقة لها شِربٌ ولَكُم شربُ يومٌ معلوم﴾[1]، ثمّ عقروها ﴿وقالوا يا صالح ائتنا بِما تعدنا إن كنت من المُرْسَلين فأخذتهم الرّجفة﴾[2].

وحديثها مشهورٌ عند أهل الملل وعند غيرهم، لأنّ العرب من أهل الجاهليّة كانوا يعرفون شأن النّاقة، والعذاب الذي نزل على القوْم الذين عقروها، حتّى رغا السّغب، وحديث الوفْد الذي خرجوا إلى مكّة يدعون الله أن يصرف عنهم العذاب.

وذلك مشهورٌ في أشعار الجاهليّين الذين لم يكن لهم كتابٌ، ولا إيمان، كما قال زُهيْر، وهو جاهليّ:

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أشأم كلّهم   كأحمرِ عادٍ، ثُمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ

يعْني بأحْمر عاد: عاقر النّاقة، لأنّهم ضربوا المثل به في الشّوْم.

---

1 سورة الشّعراء (23)، الآيات 153إلى 155.

2 سورة الأعراف (7)، الآية 77.

وقال ابن أحمر، وهو مخضرميّ، يذكر القيل الذي وفد إلى مكّة مع قوم عاد ليدعوا الله أن يصرف عنهم العذاب، فشربوا ولهوا، حتّى نزل العذاب على قومهم:

كَشَـرَابِ قَيْلٍ عَنْ مَطِيَّتِهِ   وَلِـكُـلِّ أَمْـرٍ وَاقِـعٍ قَـدَرِ

ومثل حديث موسى (ع) لمّا سأله فرعون أن يكْشف عنه وعن قوْمه ما نزل بهم من أنواع العذاب. فلمّا كشف الله عنهم العذاب، نكثوا وكفروا، كما حكى الله -عزّ وجلّ- عنهم فقال: ﴿قالوا يا موسى ادعُ لنا ربّك بما عَهِد عندك لئن كشفت عنّا الرّجز لَنؤمننّ لك ولَنرسلنّ معك بني إسرائيل فلمّا كشفْنا عنهم الرّجز إلى أجلٍ هم بالغوه إذ هم ينكثون﴾[1]؛ فكان هذا دأبه ودأب موسى.

فلمّا نزلت آية من الجراد، والقمل، وغير ذلك، سأل أن يكشف عنهم؛ ثمّ نكثوا، وكفروا؛ ثمّ فزع إلى السّحرة وجمعهم، وكان ذلك زمان السّحر.

فلمّا حضروا، ورأوا فعل موسى (ع)، علم السّحَرة أنّه ليس من جنْس السّحْر الذي يستعمله السّحَرة، لأنّهم كانوا من العلماء بالسّحر، وعرفوا صدْق قوله، وأثّر في أنفسهم فعْل موسى وقوّة الوحْي، فآمنوا واعترفوا بنبوّتهم؛ فهدّدهم فرعون، وأوْعدهم بالقتْل، والصّلب، وقطْع الأيدي والأرجل؛ فلم يرجعوا من ذلك يقينًا منهم بأنّ فعْل موسى ليس بسحْر، وقالوا: "لن نُؤثرك على ما جاءنا من البيّنات والذي فطرنا، فاقْض ما أنت قاضٍ".

ولم يؤمن بما أظهر موسى من أمْر العصا وغيره من المعجزات إلاّ السّحَرة، لِمَا قد ذكرنا أنّهم كانوا معْدن السّحر، وعرفوا أنّ فعْله ليس بسحْر.

فأمّا فرْعون وقوْمه الذين جهلوا ذلك، فلم يزدادوا إلاّ طغيانًا، وكفرًا، وعتوًّا، واستكبارًا؛ ودفعوا تلك الآيات التي عاينوها، وقالوا: "هو سحْرٌ"، وقالوا إنّ موسى كبيرهم الذي علّمهم السّحْر.

وهكذا فعْل سائر الأمم بأنبيائهم، كما فعلوا بعيسى، حتّى أحيا لهم الموْتى، وعمل تلك الجرائح العظيمة وعاينوها، فقالوا: "هذا سحْرٌ".

وهكذا فعلوا بمحمّد -صلّى الله عليه وسلّم-: كانوا يطالبونه الآيات، وكلّما رأوا آية، قالوا: ﴿هذا سحرٌ﴾[2]، كما قالوا لمّا انشقّ القمر: هذا ﴿سحرٌ مستمرٌّ﴾[1].

---

[1] سورة الأعراف (7)، الآيتان 134-135.

[2] سورة الزّخرف (43)، الآية 30.

ثمّ عاندوه، وطالبوه بأمور عظيمة، فقالوا: ﴿لنْ نؤمن لك حتّى تفجّر لنا من الأرض ينبوعًا أو تكون لك جنّة من نخيل وعنبٌ فتُفَجِّرَ الأنهار خلالها تفجيرًا أو تُسقِطَ السّماءَ كما زعمت علينا كِسفًا أو تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترْقي في السّماء ولن نؤمنك لرُقيّك حتّى تنزّل علينا كتابًا نقرؤه﴾[2]. فكانوا يسألونه هذه الآيات العظام. فقال الله -عزّ وجلّ-: ﴿قُل سبْحان ربّي هل كنت إلاّ بشرًا رسولاً﴾[3]، أي أنّ هذه القوّة هي لله -عزّ وجلّ-، ولا يقْدر أن يأتي بشيء منها إلاّ ما يؤيّده الله به، وأنّه يفْعل ما يؤمَر به. فإن أعطاه الله آية أظهرها، وإلاّ فلم يسألها؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- قد كان أعلمه أنّهم لا يؤمنون بالآيات وينْسبونه إلى السّحر، فقال -عزّ وجلّ-: ﴿ولو نزّلنا عليك كتابًا في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لَقال الذين كفروا إنّ هذا إلاّ سحْرٌ مبينٌ﴾[4]. وقال: ﴿ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كلّ شيء قُبلا ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله﴾[5]. وأعلمه -عزّ وجلّ- أنّ سبيله سبيل مَن تقدّمه من الأنبياء (ع)، فقال: ﴿قالوا لولا أُوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أُوتي موسى من قبلُ قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنّا بكلّ كافرون﴾[6].

ومثل هذا في القرآن كثيرٌ، ممّا يدلُّ أنّ الذين شاهدوا الآيات والمعجزات من الأنبياء (ع) لم يؤمنوا بها، ونسبوها إلى السّحر، وسمّوا الأنبياء: سَحرةً؛ فكيف يؤمّن المُلحِدون بآيات محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- التي مضت، ولم يعاينوها، ولا يقرّون بأنّ لها حقيقةً، ويزعمون أنّها لا تصحُّ شهادةً لأهل الشّريعة؟!

ولكنّا نحتجُّ عليهم بما هو قائمٌ في العالم من معجز محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- مشهورٌ واضحٌ؛ وبرْهانه معه يشهد أنّه ليس من فعْل السّحَرة؛ وأنّه ليس في وسْع المخلوقين أن يأتوا بمثْله، ولا يقْدر على دفْعه إلاّ معاندٌ؛ لأنّ فعْل السّحَرة يبْطل ولا يثْبت

---

[1] سورة القمر (54)، الآية 2.

[2] سورة الإسراء (17)، الآيات 90 إلى 93.

[3] سورة الإسراء (17)، الآية 93.

[4] سورة الأنعام (6)، الآية 7.

[5] سورة الأنعام (6)، الآية 111.

[6] سورة القصص (28)، الآية 48.

في العالم، ومعْجز محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، الذي هو القرآن، قد خلّد على الدّهر، ويزداد قوّةً على مرور الأيّام.

وسوف نكْشف عن البرهان فيه ليَعلم المُلحِدون أنّ الأمْر كما دعَا إليه -صلّى الله عليه وسلّم- العرب حين قالوا: "لو نشاء لَقلنا مثل هذا"، فقال الله -عزّ وجلّ- ردًّا عليهم: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادْعوا مَن استطعتم من دون الله إنّ كنتم صادقين﴾[1].

ثمّ عرّفهم عجْزهم، فقال: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار التي وقودها النّاس والحجارة أُعِدّت للكافرين﴾[2].

فقوله: ﴿فإن لم تفعلوا﴾[3] يعني أنّهم لم يفعلوا ما ادّعوا أن يأتوا بمثْله.

وقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾[4]، أي لا تفْعلون فيما بعد أبدًا.

ثمّ عرّفهم أنّ ذلك ليس في وسْع الخلائق، فقال: ﴿لئن اجتمعتْ الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثْل هذا القرآن لا يأتون بمثْله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا﴾[5].

وقد قدّمْنا القول إنّ المُلحِد لم يخطئ سُنّة مَن تقدّمه حين زعم أنّه يأتي بألْفٍ مثْله، فإنّه لم يحْصل من هذه الدّعْوى على أكثر من أن صار في جملة مَن ذكره الله حيث يقول: ﴿ومَن قال سأنزل مثلَ ما أنزل الله ولو ترى إذ الظّالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كُنتم تقولون على الله غير الحقّ وكنتم عن آياته تستكبرون﴾[6].

على أنّا نقول في جوابه، حين زعم أنّ الشّعر، والخُطب، والسّجع، وغير ذلك هو مثل القرآن، أنّه قد أحال في هذه الدّعوى، لأنّ الذي يجْمعه القرآن لا يجْمعه شيءٌ ممّا ذكره اللّفظ دون القوّة العظيمة التي هي فيه. فإنّ كلّ صنْف ممّا ذكره هو نوعٌ واحدٌ.

---

[1] سورة يونس (10)، الآية 38.
[2] سورة البقرة (2)، الآية 24.
[3] سورة البقرة (2)، الآية 24.
[4] سورة البقرة (2)، الآية 24.
[5] سورة الإسراء (17)، الآية 88.
[6] سورة الأنعام (6)، الآية 93.

فالشّعر هو كلام فصيحٌ موزونٌ بالأعاريض، وهذه فضيلة لا غير؛ والخُطَب البليغة هي فصاحة وإيجاز لفظ لا غير؛ والسّجع هو كلامٌ فصيحٌ مُسجَّعٌ لا غير، إلاّ ما كان من سجع الكُهّان، فإنّه يجْمع ذلك إلى تلك الأسباب التي كانوا يخْبرون بها لا غير؛ والقرآن يجْمع هذه المعاني كلّها التي هي في الشّعْر، والخُطب البليغة، والسّجع في ظاهر الأمر، دون سائر الأسباب التي يجمعها.

ونحن نذْكرها ونشرح الحال بها -إن شاء الله-، فنقول:

إنّ العرب اشْتبه عليهم الأمْر فيه، لأنّه جمع هذه المعاني كلّها. فقالوا مرّة: هو شعرٌ، فشبّهوا السّور بالقصائد، والآيات بأبيات الشّعراء؛ كما قالت أمّ جميل بنت حرب بن أميّة[1]، امرأة أبي لهب -حمّالة الحطب-، لمّا نزلت "سورة تبّت"، أخذت فِهْرًا تريد أن تضرب به رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وكان جالسًا عند الكعبة ومعه أصحابه، فقالت لهم: "قد بلغني أنّ محمّدًا هجاني، ووالله لو وجدْته لضربتُ بهذا الفهر[2] رأسه، وإنّي والله لَشاعرة، ثمّ قالت:

مــذمّــمًــا عَــصَــيْــنَــا وَدِيــنُــهُ أَبَــيْــنَــا

---

[1] أمّ جميل، زوجة أبو لهب بن عبد المطلب، غضبت عندما نزلت سورة المسد وازداد كرهها للرّسول الإسلام رغم أن ولديها عتبة وعتيبة تزوجا بنتي الرّسول، وهما أمّ كلثوم ورقية. وهي: أروى بنت حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وأخرج ابن جرير والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس في قوله: ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾. قال: كانت تحمل الشّوك فتطرحه على طريق النبي ليعقره وأصحابه. وأخرج ابن أبي الدّنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد: ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾. قال: كانت تمشي بالنميمة ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ من نار. حسب روايات إسلامية، خرجت أم جميل ذات يوم غاضبة حتى وصلت إلى الرّسول، وكان جالسًا مع أبي بكر عند الكعبة، وكان في يدها حجر أرادت أن تضربه به فذهب بصرها فلم تره وقالت لأبي بكر: أين صاحبك قد بلغني انه يهجوني، والله لو وجدته لضربته بهذا الحجر، ثم انصرفت فقال أبو بكر: يا رسول الله أما رأتك؟ قال لا، لقد أخذ الله بصرها عني. فراحت تضغط على ولديها عتبة وعتيبة ليطلقا بنتي الرّسول. ثمّ عاد عتبة إلى أبي لهب وأخبره ثمّ خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير، وقال: إنّ هذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب لأصحابه: أغيثونا يا معشر قريش هذه اللّيلة، فإنّي أخاف على ابني عتبة من دعوة محمّد. فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبة، فجاء السّبع يتشمم وجوههم حتّى ضرب عتبة فقتله.

[2] في الأصل: **الفهرس**.

فقال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: "لو رأتْني لَمَا قالت ما قالت، ولكن قد أخذ الله ببصرها".

فهكذا، مرّة شبّهوه بالشّعر، ومرّة شبّهوه بالخطب البليغة لِمَا فيه من إيجاز القول، وسهولة الألْفاظ، وإحكام المعاني؛ ومرّة شبّهوه بسجع الكهّان لِمَا فيه من مشاكلةٍ للسَّجْعِ؛ ولأنّ الذي كان يخْبر به محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- من الأمور الغائبة كان يصحّ؛ كما كان الكاهن يسجع بأشياء، ثمّ يقع ذلك الأمْر الذي يخبر به؛ كما سجع سطيح الشّامي -الكاهن- في أمْر الحادثة التي كانت ببلاد العجم، ليلةَ وُلِد رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- من ارتجاس الإيوان، ورؤيا الموبذان، وغير ذلك.

فسجع حين سُئل عن ذلك، وأخْبر بما يكون من أمْر محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، فخرج الأمْر كما قال، وحديثه مشهورٌ.

فمن أجل ذلك شبّهوا القرآن بسجع الكهّان، وقالوا لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: هو كاهنٌ. كما ذكرنا أنّه كان يخْبر بأمور غائبة ثمّ تصحّ.

فاشْتبه على العرب أمْر القرآن، فمرّة قالوا: "هو شعرٌ"، ومرّة قالوا: "هو سجع الكهّان"، ومرّة قالوا: "هو بلاغة وفصاحة، ولو شئنا لَقلنا مثل هذا".

ولمّا أعيَتْهم الحيل، ولم يدروا من أيّ صِنْفٍ هو، اجتمعوا، وتشاوروا في ذلك، وتدبّروا فيه؛ فانتُدِب الوليد بن مغيرة المخزومي، وكان مُبجّلاً فيهم، فقال: "قد تدبّرتُ كلام محمّد، وما هو إلاّ سحرٌ يؤثر؛ ألاَ تروْنه كيف يأخذ بقلوب النّاس؟!"، فقالت قريش: "صدقتَ، والقول ما قلتَ"؛ واتّفقوا بعد ذلك على أنّه سحرٌ.

وكان هذا التّشبيه عِنْدهم أوْكد وأبْلغ من سائر ما قالوا فيه إنّه شعرٌ، وخطبٌ، وسجعٌ.

فأنْزل الله -عزّ وجلّ- في ذلك وفي الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وجعلت له مالاً ممدودًا﴾[1] إلى قوله: ﴿إنّه فكّر وقدّر فقُتِلَ كيف قدّر ثمّ نظر ثمّ عبس وبسر ثمّ أدبر واستكبر فقال إنّ هذا إلاّ سحرٌ يُؤثر إِنْ هَذَا إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرْ﴾[2]؛ فاستنكفوا، واستكبروا، وأدبروا عنه، وقالوا: "كيف اختار الله محمّدًا من بيننا، فهلاّ اختار عروة بن مسعود الثّقفي، فإنّه أكْثر أهل مكّة والطّائف مالاً وأوْفرهم عقلاً وأعظمهم جاهًا؟! ما هذا

[1] سورة المدثّر (74)، الآيتان 11-12.

[2] سورة المدثّر (74)، الآيات 18 إلى 25.

إلاّ سحرًا!!"؛ فأنْزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿ولمّا جاءهم الحقّ قالوا هذا سحرٌ وإنّا به كافرون وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتيْن عظيم﴾[1]، يعنون به: عروة بن مسعود، ثمّ قال: ﴿أهُم يقسّمون رحمة ربّك نحن قسّمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدّنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾[2]، أي أنّ الله -عزّ وجلّ- يقسّم في خلْقه نِعَمَه دينًا ودنيًا؛ فمَن شاء، رزقه من أعراض الدّنيا؛ ومَن شاء اختاره، للنّبوّة، واختصّه برحمته، وجعله سببًا لرحمته بعباده، وهو يعلم بحيث يجْعل رسالته؛ لأنّه -جلّ ذكره- أعْرف بنيّات الخلائق.

وليْست القسْمة إليهم، فيختارون مَن يشاءون؛ بل الله يخلق ما يشاء، ويختار ما كان لهم الخيرة -سبحان الله وتعالى عمّا يشْركون-.

فالقرآن فيه هذه المعاني التي ذكرناها ويجْمعها. وسائر كلام العرب كلّ نوع هو في فنّ واحد.

ثمّ في القرآن من الأمور الجليلة التي لا يقاوم الدّين والدّنيا وسياسة العالم إلاّ بها مثل: الدّعاء إلى توحيد الله -عزّ وجلّ-؛ والحثّ على عبادته، وتحميده، وتسْبيحه، وتهليله، وتمجيده، والثّناء عليه بما هو أهْله، والرّغبة إليه بالدّعاء والتّضرّع، والمسألة في العفْو والمغْفرة، والرّهبة منه، والتّصديق برُسُله وإثبات طاعتهم، والأمر بالمعروف والنّهْي عن المنْكر، والتّرغيب في الجنّة والتّرهيب من النّار، والوعد والوعيد، والتّرغيب في الآخرة، والزّهد في الدّنيا، والبسط من رجاء أهل التّوحيد وأهل الإيمان به فيما وعدَهم الله -عزّ وجلّ- من الرّأفة بهم، واجتناب القنوط من غفران الله، وتخويف أهل الكفر بشدّة العقاب وأليم العذاب، والأمر بمكارم الأخلاق ومعاليها مثل: صلة الرّحم، وبذل المعروف، ورعاية الحقوق، والوفاء بالذّمّة والعهد، وبرّ الوالديْن، والأمر بالإحْسان، والنّهي عن الفحشاء والمنْكر والبغْي، واجتناب الشرّ، والأعمال النّجسة، والفواحش القذرة، والأمر بالاقتصاد، وترك البخل والتّقتير والإسراف؛ وإقامة الحدود في القتل، وفي أخذ أموال النّاس بغير حقّها، والفساد في الأرض، والزّنى، والسّرقة[3]؛ وغير ذلك ممّا حُدّدَت فيه الحدود، وبُيّنت فيه الأحكام، وقام بها الدّين وسياسة الدّنيا، وأقرّ بنفْعها وفضْلها العدوّ،

---

[1] سورة الزّخرف (43)، الآيتان 30-31.

[2] سورة الزّخرف (43)، الآية 32.

[3] في الأصل: السرق.

واعتَرف به كما اعتَرف به الوليُّ؛ كما ذكر عنه بطريق البطارقة بأرمنيّة أنّه قال: "ما خفي عليَّ وجه السّياسة بعد أن سمعتُ الآية من القرآن: ﴿خُذ العفْو وأمُرْ بالعُرف وأعرِضْ عن الجاهلين﴾[1].

ولَعمري، قد وقَف مع كفره بالقرآن حين عرف لَطائف المعاني التي في هذه الآية في باب السّياسة ومكارم الأخلاق.

ولها في القرآن نظائر كثيرة؛ فمنها ما خرج على الاختصار والإيجاز؛ ومنها ما خرج على الشّرح والتّفسير.

وفيه أخبار القرون الخالية، وأنباء القرون الآتية، وضرب الأمثال.

فجمع النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في هذا الكتاب من هذه الشّرائع والآداب التي قد ذكرناها إلى غير ذلك ممّا يطول به الشّرح، بتأييد من الله -عزّ وجلّ- ووحْي منه إليه؛ وهو أمّيٌّ، كان لا يقرأ كتابًا قبل ذلك ولا يكتبه، ولم يكن يخالط الملوك والرّؤساء، ولا كان يختلف إلى العلماء والأدباء، كما وصفه الله -عزّ وجلّ-، فقال: ﴿وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّهُ بيمينك إذا لارْتاب المُبطِلون﴾[2].

وهذا من مُعجِزاته: أن يأتي -صلوات الله عليه- بمثل هذه الأسباب الجليلة الخطيرة، ويجمعها في كتابه، وهو أُمِّيٌّ لم يقرأ ولم يكْتب قبل أن أُوحي إليه، فجرى على تلك السّنة؛ ولو أراد أن يكتب لَفعل؛ فإنّ الذي أوْرده في كتابه من ذكر حروف المعجم التي لا يعرفها الأمّيّون يدلّ على ذلك.

فأيْن المُلحِد المعتوه حين زعم أنّه ليس في القرآن فائدة، ولا نفعٌ، ولا ضررٌ؛ ثمّ قارنه بالمجسطي، وكتب الهندسة، والطّب، والمنطق، وغير ذلك؛ وجعل هذه الكتب نظائر القرآن، بل فضّلها عليه، وأبطل فضائل القرآن؟!

فمَن لم يؤمن بشرائعه، وبما فيه في إقامتها من النّفع الذي وعَد الله القائمين بها من الثّواب العظيم، والضرّ الذي أوْعد التّاركين لها من العذاب الأليم، كيف عمي عن الذي فيه من مكارم الأخلاق والأمور الجليلة التي ساس بها الأنام؟! وكيف لم يتدبّر أمْر الكتب التي ذكرها، التي ليس فيها من التّدبير ما يسوس به الإنسان أمر بيْته وأهله وولده، كما قد قامت سياسة العالم بأحكام القرآن وحدوده؟!

---

[1] سورة الأعراف (7)، الآية 199.

[2] سورة العنكبوت (29)، الآية 48.

فإنّ ليس في هذه الكتب إلاّ آداب، إن تعلّمها الإنسان، سُمّي متأدّبًا بنوْع من الأدب؛ وإن لم يتعلّمها، لم يضرّه ذلك شيئًا.

ولو أنّ إنسانًا عاش ألف سنة لا يعرف المجسطيّ، وإقليدس[1]، وكتب الهندسة، والطبّ، والمنطق؛ ولم يكن مُنجّمًا، ولا مهندسًا، ولا طبيبًا؛ لَكان مثاله مثال من لا يكون بنّاءً، ولا خيّاطًا، ولا حائكًا، ولا صائغًا؛ ولَكان يكفي ذلك، ولا يضرّه ترك تعلّمه ذلك، والنّظر فيه في دينه ولا مروءته.

وجميع النّاس لا يستغنون عن أحكام القرآن والشّرائع، ولا بدّ لكلّ واحد [أن] ينظر في شيء منها مقدار ما يكون داخلاً في جملتها؛ كما أنّ كلّ مسلم لا بدّ له أن يحفظ سورتيْن من القرآن؛ وكذلك كلّ مُلحِد متستّر بالإسلام، لا بدّ له من ذلك؛ وإن ترك ذلك طرفة عيْن، هلك في أُولاه وأُخراه.

فإن قال قائلٌ: إنّ العالم كان يُساس قبل نزول القرآن.

قلنا: قامت سياسة العالم قبل نزوله في جميع الممالك برسوم الأنبياء (ع) التي أسّسوها على الدّيانة، وبآثارهم في جميع الممالك. فأهل كلّ مملكة كان يسوسهم مَن يملكهم بتلك الرّسوم.

فلمّا جاء القرآن، طبّق الأرض وكبس العالم تحت أحكامه، وظهَر على جميع الأدْيان وعلى جميع الأمم، وقهَر الأنام كافّةً.

فأيْن يقَع النّفع والضرّ الذي في تلك الكتب من النّفع والضرّ الذي في القرآن؟

فإنّ أحكام القرآن قد نفعت المؤمن والكافر في أمور دنْياهم، لا يستغنون عنها يومًا واحدًا، وخصّت المؤمنين دون الكافرين بالنّفع في أخراهم.

---

1 أقليدِس بن نوقطرس بن برنيقس الإسكندري) [1]إغريقية Εὐκλείδης :وتلفظ ([eʊkle ːˈdɛ ː s]. ولد 300 قبل الميلاد، عالم رياضيات يوناني، بلقب بأبي الهندسة. مشوار إقليدس العلمي كان في الإسكندرية في أيام حكم بطليموس الأوّل (283–323 قبل الميلاد). اشتهر إقليدس بكتابه *العناصر*، وهو الكتاب الأكثر تأثيرًا في تاريخ الرياضيات، وقد استخدم هذا الكتاب في تدريس الرّياضيّات (وخصوصًا الهندسة) منذ بدايات نشره قديمًا حتّى نهاية القرن ال19 وبداية القرن ال20. بين ثنايا هذا الكتاب مبادئ ما يعرف اليوم باسم الهندسة الإقليديّة، والذي تتكون من مجموعة من البديهيات .أنشئ إقليدس بعض المصنفات أيضًا في حقول عديدة؛ كالمنظور، القطع المخروطي، الهندسة الكروية، ونظرية الأعداد وغيرها. الاسم إقليدس هو تعريب للفظ اليوناني *Εὐκλείδης*، والتي تعني "المجد الحسن".

فهلاّ الْتجأ المُلحِد إلى المجسطيّ، وكُتب الهندسة، والطّبّ، والمنطق؛ فحقن بها دمه، وحصّن ماله وذرّيته، حتّى يكون خارجًا من أحكام القرآن الذي زعم أنّه لا نفْع فيه ولا ضرّ، كما في تلك الكتب؛ وجهل ما قد نفع المُلحِدين حين دخلوا تحت أحكام القرآن، وحقنوا دماءهم، وحصّنوا أموالهم وذراريهم؟!

وهل ينْكر هذا الشّأن العظيم من نفْع القرآن وضرّه إلاّ معتوه؟!

ونعوذ بالله من الكفْر لنِعم الله، والعمى في دينه.

وقد ذكرنا طرفًا من الأمور الجليلة التي يجمعها القرآن دون القوّة الإلهيّة التي هي فيه كامنة مستترة[1]، التي هي المؤثّرة في العالم بهذه الأسباب الظّاهرة، التي جمعت الخاصّ والعامّ، والمؤمن والكافر. وتلك القوّة هي للخاصّة دون العامّة، وللمؤمن دون الكافر.

وذلك أنّ الله –عزّ وجلّ– اصْطفى محمّدًا –صلّى الله عليه وسلّم– لنبوّته، وبعثه إلى خلْقه ليدعوهم إلى عبادته، واختاره من الأنام؛ فكان أطْهر النّاس نفسًا، وأطْيبهم روحًا؛ وكانت روحه النّاطقة ونفسه الحسّية أبلغ تهيّؤًا لقبول آثار الوحْي، وأشدّ مشاكلة للرّوح المُقدّسة التي أيّد الله بها أنبياءه ورسله، من جميع أرواح البشر أنفسهم؛ فأثّر ذلك الوحْي في نفسه لصفائها من كدورة العوارض النّفسانيّة التي تكدّر الأنفس، مثل الهوى، والحسد، والكبر، والحرص، والبخل، والطّغيان، والاستنْكاف، وغير ذلك ممّا يشاكلها، الضّارة بأنفس البشر، المُفسِدة لها.

فكان هو –صلّى الله عليه وسلّم– أصفى الخلائق أجمعين نفسًا من الأوْساخ المُدنِّسة للأنفس؛ وأثّرت تلك الرّوح المُقدّسة في نفسه الحسّيّة، وامتزجت بروحه النّاطقة، الطّيّبة، النّقيّة من هذه الآفات والنّجاسات؛ وقَبِل هذه الموهبة من ربّه –عزّ وجلّ–؛ وعرف بها عظمة الله –سبحانه–، وربوبيّته، وإلهيّته، ووحدانيّته، وجلال سلطانه؛ وقام بخالص العبوديّة، وقويت نفسه بذلك التّأييد، وأيْقن بكلّ ما وعَد الله، وقام بأمْره –عزّ وجلّ–، باذلاً نفسه له، موقنًا بكلّ ما أُوحي إليه، مؤمنًا بكلّ ما أعلَمه أنّه يبلغه إذا قام بأمر ربّه من الشّرف الرّفيع في أُولاه والدّرجات العُلى في أُخراه، لم يشكّ في ربّه ولا ارْتاب بوعْده.

فلمّا أثّر ذلك الوحْي في نفْسه، وقبله بقلْبه، وصوّره في فكره، أظهره بنطْقه.

---

[1] في الأصل: مستسرة.

فذلك الوحْي أوكد أسبابه في نبوّته، وأعلى حجج الله على بريّته، وأوْضح ما أتى به من براهينه، وبيّناته، ومعجزاته؛ وكان ما أظْهره بمنزلة ضياء يطلع في العالم؛ فكذلك أضاء في قلوب البشر، فقبله مَن كان أقرب النّاس إليه في الصّفوة والطّهارة، لا في قرب البشريّة، بل في القرب الرّوحانيّ من طهارة الأنفس وسلامتها من الآفات، وقرب بعضها من بعض، والمشاكلة والائتلاف؛ فأثّر كلامه في أنفس الذين قبلوه، واختلط بها كاختلاط الرّوح المُقدّسة بنفس محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-؛ فكان فضله على مَن قَبل منه كلامه كفضل ما قبله عن ربّه بواسطة من الملائكة الرّوحانيين في حدّ اللّطافة على سبيل النّطق.

فمَن كان منهم أصفى نفسًا، كان أحْسن تهيّؤًا لقبول ذلك الكلام، ولتأثير تلك القوّة في نفسه؛ وقبلَه الواحد بعد الواحد يومًا يومًا، هو يلقيه إليهم على حسب ما يوحى[1] إليه ويؤثّر ذلك في الأنفس على حسْب تصفيتها، وتنبو عنه الأنفس الكدرة الظّلمانيّة التي قد أفْسدتها العوارض النّفسانيّة التي قد ذكرناها، ومنعتها عن الطّهارات.

فعلى قدْر سلامة الأنْفس من تلك العوارض وصفائها، وعلى مقدار امْتزاجه بها، كان قبولهم ما أتى به محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-.

ووقَعت عليهم الأسماء على طبقاتهم، فطائفة سمّاهم: مسلمين[2]، وطائفة سمّاهم: مؤمنين، وطائفة سمّاهم: كافرين، على حسب الاسْتحقاق؛ وكذلك سائر الأسماء والنّعوت التي سمّى[3] بها أمّته ونعَتهم بها.

وأكثر هذه الأسماء لم تعرفها الأمّة التي بُعث فيها، بل هو رسَمها بتأييد الله إيّاه على حسب قبولهم ما أتى به.

---

[1] في الأصل: يوحي.

[2] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج1/ص40-ص41): "فرق في التّفسير بين الإسلام والإيمان. والإسلام قد يرد بمعنى الاستسلام ظاهرا، ويشترك فيه المؤمن والمنافق. قال الله -تعالى-: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ (سورة الحجرات (49)، الآية 13)، ففرّق التّنزيل بينهما. فإذا كان الإسلام بمعنى التّسليم والانقياد ظاهرا موضع الاشتراك، فهو المبدأ؛ ثمّ إذا كان الإخلاص معه بأن يصدّق بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، ويقرّ عقدا بأنّ القدر خيره وشرّه من الله -تعالى-، بمعنى أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ كان مؤمنًا حقًّا. ثمّ إذا جمع بين الإسلام والتّصديق، وقرن المجاهدة بالمشاهدة، وصار غيبه شهادة؛ فهو الكمال. فكان الإسلام مبدأ والإيمان وسطًا والإحسان كمالاً، وعلى هذا شمل لفظ المسلمين: النّاجي والهالك".

[3] في الأصل: سمي.

فشرق ذلك النّور على العالم، وفشا في قلوب البشر وأثّر فيها، وصار بمنْزلة بذر يبذره الزرّاع في أرضه؛ فمنه ما يقع على صخرة، ومنه ما يقع على سبخة، ومنه ما يقع على صعيد طيّب؛ فعلى حسب ذلك يزكو وينبت، كما قد ذكرنا أنّه مكتوبٌ في الإنجيل.

وبهذا وصَف -عزّ وجلّ- محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم- وأصحابه ومَن تبعه، وأخذ عنه، وقبل كلامه، فقال -عزّ وجلّ-: ﴿محمّد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفّار رحماءُ بينهم﴾[1] إلى قوله: ﴿كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزّراع ليغيظ بهم الكفّار﴾[2]؛ فشبّه -تبارك اسمه- محمّدًا ونبوّته بالزّرع؛ وشبّه أتباعه وأصحابه بشطأ الزّرع؛ والشّطأ هو فراخ الزّرع وصغاره التي تنْبت حوله بمنزلة الحبّة التي تنبت ساقًا واحدة، ثمّ ينْبت حول تلك السّاق فراخ كثيرة؛ فمَن أجاب محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم- إلى يوْمنا هذا، هم زرعه، وغذائهم: القرآن، وبه قِوامهم.

ولولا القرآن الذي ورّثه محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- أمّته، وما فيه من القوّة الشّديدة التي قد جمعت قلوب البشر على قبوله وقبول أحكامه، لَمَا استقام أمْر الأنام، ولا اعتدل أمْر العالم.

ولولا ما أثّرت تلك القوى الرّوحانيّة في أنْفس البشر، لَمَا قبلوه، ولَمَا بقي أثره في العالم إلى هذا اليوم. ولكنّه يزداد ويقوى على مرور الأيّام، لأنّها قوّة إلهيّة مُقدّسة من كلام الله -عزّ وجلّ-.

ولولا ذلك، لَكان سبيل القرآن سبيل مسيْلمة، وطلحة[3]، والأسود العنسيّ[1]، وغيرهم من المتنبّيين الكذّابين؛ ولَكان رسْمه لا يبقى في العالم، كما أنّ كلام أولئك ورسومهم لم تبقَ في العالم.

---

[1] سورة الفتح (48)، الآية 29.

[2] سورة الفتح (48)، الآية 29.

[3] أبوه: عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. أمّه: الصعبة بنت الحضرمي بن عبدة بن ضماد بن مالك من بني الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت وهي أخت الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي. قال أبو عبد الله بن منده: كان رجلا آدم كثير الشعر ليس بالجعد القطط ولا بالسبط حسن الوجه إذا مشى أسرع ولا يغير شعره. وعن موسى بن طلحة قال: كان أبي أبيض يضرب إلى الحمرة مربوعا إلى القصر هو أقرب رحب الصدّر بعيد ما بين المنكبين ضخم القدمين إذا التفت التفت جميعًا. كان طلحة في تجارة بأرض بصرى حين لقي راهبا من

خيار رهبانها، وأنبأه أن النبي الموعود سيخرج في مكّة، والذي تنبأ به الأنبياء وقد هل عصرة وأشرقت أيامه. ولم يرد طلحة أن يفوته هذ الموكب، فإنّه موكب الهدي والرحمه والخلاص. وحين عاد طلحة إلى مكة بعد شهور قضاها في بصرى وفي السّفر، فكلّما يلتقي بأحد أو بجماعة منهم يسمعهم يتحدثون عن محمد الأمين. وعن الوحي الذي يأتيه. وعن الرّسالة التي يحملها إلى العرب خاصّة، وإلى الناس كافة. وسأل طلحة أوّل ما سأل عن أبي بكر الصدّيق فعلم أنه عاد مع قافلته وتجارته من وقت قريب، وأنّه يقف إلى جوار محمّد -صلّى الله عليه وسلّم مؤمنا أوابا. وحدث طلحة نفسه: محمّد، وأبو بكر؟؟ ...تالله لا يجتمع الإثنان على ضلالة أبدا ولقد بلغ محمد الأربعين من عمره، وما عهدنا عليه خلال هذا العمر كذبة واحدة.. أفيكذب اليوم على الله، ويقول: إنه أرسلني وأرسل إلي وحيا...؟؟ فهذا هو الذي يصعب تصديقه. وأسرع طلحة الخطى إلى دار أبي بكر، ولم يطل بينهم الحديث، فقد كان شوقه إلى لقاء الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- ومبياعته أسرع من دقات قلبه. فصحبه أبو بكر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث أسلم وأخذ مكانه في القافلة المباركة، وهكذا كان طلحة من السابقين الأولين المبكرين للإسلام. كناه رسول الله محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- عدة كنى: هو صقر أحد. في غزوة أحد كناه بــطلحة الخير. في غزوة ذي العشيرة كناه بــطلحة الفياض. في غزوة خيبر كناه بــطلحة الجود. المشهور عند المحققين هو أن مروان بن الحكم قتل طلحة يوم الجمل. روي عن علقمة بن وقاص الليثي قال: لما خرج طلحة والزبير وعائشة للطلب بدم عثمان عرجوا عن منصرفهم بذات عرق فاستصغروا عروة بن الزبير وأبا بكر بن عبد الرحمن فردوهما قال ورأيت طلحة وأحبّ المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره فقلت يا أبا محمد إني أراك وأحبّ المجالس إليك أخلاها إن كنت تكره هذا الأمر فدعه. فقال: يا علقمة لا تلمني كنا أمس يدا واحدة على من سوانا فأصبحنا اليوم جبلين من حديد يزحف أحدنا إلى صاحبه ولكنه كان مني شيء في أمر عثمان مما لا أرى كفارته إلا سفك دمي وطلب دمه. قلت الذي كان منه في حقّ عثمان تأليب فعله باجتهاد ثم تغير عندما شاهد مصرع عثمان فندم على ترك نصرته ما، وكان طلحة أوّل من بايع عليا أرهقه قتلة عثمان وأحضروه حتى بايع، قال البخاري حدثنا موسى بن أعين حدثنا أبو عوانة عن حصين في حديث عمرو بن جاوان قال: التقى القوم يوم الجمل فقام كعب بن سور معه المصحف فنشره بين الفريقين وناشدهم الله والإسلام في دمائهم، فما زال حتّى قتل وكان طلحة أول قتيل وذهب الزبير ليلحق ببنيه فقتل. قال ابن سعد: أخبرني من سمع إسماعيل بن أبي خالد عن حكيم بن جابر قال: قال طلحة إنا داهنا في أمر عثمان فلا نجد اليوم أمثل من أن نبذل دماءنا فيه اللهم خذ لعثمان مني اليوم حتّى ترضى. وروي عن وكيع :حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم فوقع في ركبته فما زال ينسح حتى مات. وروي عن عبد الله بن إدريس عن ليث عن طلحة بن مصرف أن عليا انتهى إلى طلحة وقد مات فنزل عن دابته وأجلسه ومسح الغبار عن وجهه ولحيته وهو يترحّم عليه وقال: ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وروى زيد بن أبي أنيسة عن الأنصار عن أبيه أن عليا قال: بشروا

قاتل طلحة بالنّار. وكان قتله سنة ست وثلاثين في جمادى الآخرة وقيل في رجب وهو ابن ثنتين وستين سنة أو نحوها وقبره بظاهر البصرة.

انظر ترجمته في: سيرة ابن هشام .ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8، 191. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8، 191. محمّد بن طلحة بن عبيد الله سير أعلام النبلاء .ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8، 191. تفسير ابن كثير، سورة الممتحنة، تفسير الآية.10. تقريب التّهذيب، ص 765، ترجمة رقم: 8606 رجال حول الرّسول - خالد محمّد خالد. طلحة بن عبيد الله من كتاب سير أعلام النّبلاء - الذهبي.

[1] هو عبهلة بن كعب بن غوث العنسي المذحجي المعروف باسم "الأسود" و"ذي الخمار "كتب السيرة النبوية هي المصدر الوحيد لمعرفة الأسود العنسي فلا نقوش قديمة ولا آثار تشير إليه وحركته كما كانت العادة فلا يعرف الكثير عن وضع اليمن أيام الحكم الفارسي كان سيدا على مذحج وبعض قبائل اليمن ولذلك سمي بالأسود وزاد أهل الأخبار فقالوا أن أمه سوداء وتجاهل الإخباريون تفاصيل نسبه وكثيرا من حياته محاولة للتقليل من شأنه حاله حال كل من شابهه إلاّ أن المعروف أن عنس بطن من بطون مذحج طرد الفرس من اليمن وقاتل عامل النّبيّ محمّد وهرب معاذ بن جبل ولجأ إلى "بني السكون" أحد بطون كندة لأنّه كان متزوجا منهم واستولى على صنعاء ونجران وحضرموت و الإحساء تبعته قبائل من اليمن لتعصّب فيهم إذ أنّها رأت في الزكاة أتاوة يدفعونها لقريش وصفت حركته بأول ردة في الإسلام رغم عدم وجود دلائل على إسلامه فلم يذكر في أي من كتب السيرة أن الأسود العنسي أسلم ثم أرتد بل تكتفي بقول "أرتد من أسلم من مذحج". تشير الروايات أنه كان مشعوذًا يستعمل السحر لإقناع أتباعه ويغطي وجهه بخمار فلا يرى منه شيئًا. وكان له "شيطان" يأتيه بالإخبار يسمى بالملك إلاّ أن مصادر أخرى تشير إلى إدعاءه نبوة من "ذي السماء"(ذو سماوي) الإله اليمني القديم. وأعاد اسم "رحمن" الذي كان يزين أسماء ملوك اليمن القديم، وهو للصواب أقرب إذ يظهر من سلوك العنسي تعصبا لليمن وكراهية لكل ما هو قادم من خارجها إضافة إلى ظهور حركات مثل حركة مسيلمة بن حبيب و طليحة بن خويلد الأسدي. فكان مسيلمة نبيّ ربيعة وطليحة نبيّ مضر والعنسي نبيّ اليمن فكلهم فهم النبوة ملكا وسلطانا استفحل الأمر العنسي وعظم شأنه بعد أن قتل باذان وطرد معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري الذي كان متواجدا في مأرب وسيطر على نجران وأصبح يهدد الدولة الإسلامية الناشئة. فكتب النبي محمد كتابًا إلى المسلمين في اليمن يأمرهم بقتال العنسي تظاهر فيروز بالولاء للأسود العنسي، وعمل وغيره عنده في مناصب الدولة وأرسل إليه عامر بن شهر أمير همدان، وذي ظليم، وذي كلاع وغيرهم من أمراء اليمن يشاورونه قتال العنسي فطلب منهم فيروز الانتظار. كان العنسي "متزوّجًا" من زوجة باذان الفارسي "إزاد" والظاهر أنّه أخذها كراهية وسبيا شاورها فيروز في أمر العنسي فوافقت واتّفقوا على حيلة لدخول قصره. قامت "آزاد" الفارسية بسقي العنسي بالخمر حتّى سكر ونام. فأنتهز فيروز الفرصة ودخل غرفة العنسي وآزاد واقفة بانتظاره فطعن فيروز الأسود وهو نائم فسمع الحرّاس صراخه فسألوا عما يحدث فأجابتهم آزاد :"النّبيّ يوحى إليه" فمات العنسي

ومن أجل هذه القوّة التي في القرآن سمّوه: سحرًا، لأنّ محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم- كان يتلوه على النّاس، فيقع في أسماعهم وتؤدّيه الأسماع إلى القلوب، فيجْذب القلوب إلى طاعته بتلك القوّة الرّوحانيّة الإلهيّة التي هي مستترة كامنة فيه، التي من أجلها قالت قريش والعرب إنّه سحرٌ، وإنّ محمّدًا[1] هو ساحرٌ، على حسب ما يدّعيه النّاس أنّ السّحر يؤثّر في أنفس البشر، وأنّ كلام السَّحَرة وما يكون منهم من الرّقي[2]، والنّفث في العُقَد.

وأصناف السّحْر تؤثّر في القلوب، وتقلبها من الإلْف إلى التّعادي، ومن التّعادي إلى الإلْف، ومن المحبّة إلى العداوة، ومن العداوة إلى المحبّة ، إلى غير ذلك من التّأثيرات التي تقع من فعل السَّحَرة في أنفس البشر.

وهذا شيءٌ قد اتّفقت عليه أممٌ من النّاس، وإنّ أنْكره قومٌ ودفعوه؛ فإنّ أكْثر الأمم التي قد خلَتْ، فيما مضى من الدّهور والأعصار إلى يومنا هذا، قد قالت به، وصحّحته، وزعمت أنّ عيْنه قائمٌ؛ كما يُذكَر عن الهند خاصّة من الأمور العظيمة في الرُّقي[3] التي تُذكَر عنهم، أنّهم يحلّون بها ويعقدون. ويُذكَر أنّهم يرقون الملسوع، ومَن سُقِيَ السّم، فيُخرجون السمّ؛ وما يُذكَر أنّهم يظهرونه من التّخائيل التي يتحيّر فيها الأريب اللّبيب؛

وأذن المسلمون في صنعاء لصلاة الفجر وأعلنوا الخبر. أورد الرواة أن النبي محمد قال:"قتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين. قيل: ومن؟ قال: فيروز، فيروز".

انظر ترجمته في: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ص 1940؛ البداية والنهاية ويكي مصدر؛ الطبري ٣: ١٨٧ تاريخ إبن خياط ص ١١٦ فتوح البلدان - البلاذري ص ١١١ المؤرّخون العرب وحركة الردّة حتّى القرن الرّابع الهجري دراسة تاريخيّة منهجيّة جامعة النّجاح الوطنية نابلس جمهرة النسب لابن الكلبي ج ١ ظاهرة الردة في المجتمع الإسلامي الأوّل ص159 الكامل في التاريخ - ذكر أخبار الأسود العنسي باليمن عز الدين أبي الحسن عليّ بن أبي الكرم محمد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير تاريخ اليمن في الإسلام ص96-104 .علي (جواد) : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار الحرية، بيروت ط ١، ١٩٨٣؛ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام باذان الفارسي البلاذري، فتوح "113 وما بعدها "تاريخ الذهبي ج ٣ ص ١٥ الزركلي، خير الدين. فَيْرُوز الدَّيْلَمي. موسوعة الأعلام .الاسطوره والتراث - سيد القمني -1999 .

[1] في الأصل: محمد.

[2] في الأصل: الرقى.

[3] في الأصل: الرقى.

وما يُذكَر عنهم من أمر النُّكر، وما يفْعلونه في باب المطر، والبرد، وحبسه، وغير ذلك من أصناف السّحر.

هذا، وإن لم يصحّ كلّه، فإنّا نقول إنّ أصل السّحر صحيحٌ، وقد خُلط به كثير من المخاريق؛ لأنّ القرآن وسائر كتب الله -عزّ وجلّ- قد نطقت به، وجماهير النّاس يقرّون به، ولا يدْفعون أنّ أصل السّحر صحيحٌ.

ومن أجْل ذلك قالت الأمم لأنبيائهم: سَحَرة، كما قالت العرب إنّ محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم- هو ساحرٌ، وقوله: سِحرٌ. وكانوا يقعدون بكلّ سبيل ويصدّون عنه النّاس، مخافة أن يسمعوا كلامه، فيؤمنوا به. وكانوا يسمّون مَن صنع كلامه وآمن به: صائبًا، وقالوا: "صبأ فلان وفلان". ومعنى التّصابي في كلام العرب هو العشْق والمحبّة.

فلمّا رأوا مَن يسمع كلامه يحبّه، ويؤثّر في قلبه، ويختلط بنفسه، قالوا له: "قد صبأ".

وكانوا يصدّون كلّ مَن ورد مكّة من أهل الوبر والمدر عنه، وينهونه عن الاستماع منه. وذلك أنّ العرب كانت تأْتي مكّة حجّاجًا وفي التّجارات، وكانت مواسمهم بمكّة قائمة، وكان رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يعرض عليهم الإسلام، ويتلو عليهم القرآن، فيأمنون وتخبت له قلوبهم وينقادون له، ويرْجعون إلى قبائلهم، فيدعونهم إلى الإسلام؛ كما رُوي أنّ الطّفيل بن عمرو الدّوسي[1] ورَد بمكّة، وكان لبيبًا شاعرًا ورئيسًا

[1] هو الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن نصر بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ويكون الطفيلي الزهراني نسبةً إلى الطفيل بن عمرو الدوسي. أبناؤه: الصحابي الجليل الحارث بن الطفيل بن عمرو الدوسي، الصّحابي الجليل ذابل بن الطفيل بن عمرو الدوسي، الصّحابي الجليل عمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي. كان سيّدًا من سادة العرب وسيد قبيلة دوس في الجاهلية وشريف من أشراف العرب المرموقين وواحدًا من أصحاب المروءات المعدودين، يطعم الجائع ويؤمن الخائف ويجير المستجير، وهو إلى ذلك أديب أريب لبيب وشاعر مرهف الحسّ رقيق الشعور، بصير بحلو البيان ومره حيث تفعل فيه الكلمة فعل السّاحر. وقد قدم إلى مكّة للحجّ قبل الهجرة فاستقبلته قريش ولقي الرّسول فأسلم على يده ثمّ رجع لدوس ولبث عندهم يدعوهم إلى الإسلام والتحق بعدها بالرّسول بالمدينة بعد معركة أحد ومعه 80 بيتًا من دوس فشهد مع الرّسول معركة الخندق وفتح مكّة. لمّا فتح رسول الله حنينًا التي كانت في شهر شوّال من السنة الثامنة الهجريّة، وأراد المسير إلى الطّائف، بعث الطفيل إلى ذي الكفين صنم عمرو

في قوْمه، فاجتمعت إليه قريش، ونهوه أن يقرب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وقالوا له: "كلامه سحرٌ يفرّق بين المرء وزوجته [و]أحبّته وعشيرته، وإنّا نخشاه عليك وعلى قومك؛ فلا تكلّمه ولا تسمع من قوله، فإنّه يسحرك بكلامه".

فعمد على كرسفٍ وحشَا به أذنيْه فَرقا من أن يسمع قوله، وغدَا إلى المسجد وطاف بالبيت، وإذا رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يصلّي عند الكعبة، وهو يتلو[1] هذه الآية: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون﴾[2]؛ فوقر ذلك في أذنيْه.

فلمّا سمعها، أخرج الكرسف من أذنيْه، ورمى به، وقال: "واثكل أميّ، إنّ لبيب شاعر أعرف الحَسَن من القبيح، ما لي أتّهم عقلي ولا عقول قريش؟".

ثمّ أقْبل إلى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، فقال: "أعِدْ عليَّ كلامك يا محمّدا!"، فأعاد عليه وزاده. فقال: "والله إنّ هذا لو لم يكن أيضًا دينًا، لَكان حسنًا. وإنّي لأشهد أنّك صادقٌ". فأسلم، وحسن إسلامه، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام.

بن حممة، يهْدمه وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف فقال الطفيل : يا رسول الله أوصني قال: "افش السّلام، وابذل الطعام، واستحي من الله كما يستحي الرجل ذو الهيئة من أهله، إذا "أسأت فأحسن، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين". عاد الطفيل مع النبي من غزوة الطائف إلى المدينة المنورة فكان مع النبي بالمدينة حتى قبض... فلما ارتدت العرب خرج المسلمون لقتالهم، فجاهد حتى فرغوا من طليحة الأسدي وأرض نجد كلها. ثمّ بعثه أبو بكر الصديق إلى مسيلمة الكذاب، يقول: خرجت ومعي ابني مع المسلمين -عمرو بن الطفيل- حتّى إذا كنّا ببعض الطريق رأيت رؤيا فقلت لأصحابي إنّي رأيت رؤيا عبروها قالوا: وما رأيت قلت: رأيت رأسي حلق وأنه خرج من فمي طائر وأن امرأة لقيتني وأدخلتني في فرجها وكان ابني يطلبني طلبا حثيثا فحيل بيني وبينه. قالوا: خيرا فقال: أما أنا والله فقد أولتها. أمّا حلق رأسي فقطعه وأمّا الطائر فروحي وأمّا المرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض تحفر لي وأدفن فيها فقد رجوت أن أقتل شهيدا وأمّا طلب ابني إياي فلا رآه إلاّ سيغدو في طلب الشّهادة ولا أراه يلحق بسفرنا هذا. فقتل الطّفيل شهيدًا يوم اليمامة وجرح ابنه، ثمّ قتل باليرموك بعد ذلك في زمن عمر بن الخطّاب شهيدًا.

انظر ترجمته في: السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، الإصابة في تمييز الصّحابة لابن حجر العسقلاني، صفة الصّفوة لابن الجوزي، الاستيعاب لابن عبد البرّ.

[1] في الأصل: يتلوا.

[2] سورة النّحل (16)، الآية 90.

وقد كان سأل النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أن يعطيه آية، فقال: "اللهمّ أعطه آية"، ومسح سوطًا كان في يده. فلمّا طلع على قومه من الثّنيّة، رأى قومه نورًا يسطع من رأس سوطه؛ فسألوه عن شأنه، فأخبرهم؛ فأسلموا، وقدموا على رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وشهدوا معه فتح مكّة.

وله في ذلك شعر يقول فيه:

رأيتُ علامةً واللّـيل داجٍ   على ظهر الطّريق كضوء برق

علامة أحمد إذا سأل ربّي   فـكانـت آيـة مصداقَ صدقي

وهي قصيدة [طويلة].

فكان أصل إسلامه: ما وقع في قلبه من قوّة كلام رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-.

وهكذا سبيل هذه القوّة المُستتِرة[1] في القرآن التي وقعت في أنفس النّاس وألّفت بين قلوبهم بتأييد من الله -عزّ وجلّ-.

وهكذا قال الله -تعالى ذكره-: ﴿هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم﴾[2].

ولولا أنّ القرآن، وما فيه من القوّة التي ألّفت بين قلوب النّاس وجمعتهم على قبوله وقبول أحكامه، ثمّ اجتمع أهل الأرض على أن يفعلوا ذلك، لَمَا قدروا عليه.

والذي ذكَره المُلحِد: أنّ الذي جمع هذه الأمّة على قبول أحكام الإسلام والإقامة عليها، سببه: الإلْف، والعادة، ومرّ الأيّام، فليست له في ذلك حجّة؛ لأنّه لم يتقدّم إلْف ولا عادة لأصحاب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- الذين آمنوا به بمكّة[3] عند ظهوره قبل أن قوي الإسلام، ولم يعتادوا ذلك، ولا مرّت به الأيّام بالإلف.

وإنّما سمعوا كلامه، فقبلوه وآمنوا به، كما ذكرنا من شأن الطّفيل بن عمرو؛ وأثّر القرآن في قلوبهم، وجمع بينهم، وألّفها على طاعته، وصبروا معه على الأذى الشّديد.

---

[1] في الأصل: مستسرة.

[2] سورة الأنفال (8)، الآية 63.

[3] في الأصل: مكة.

فإنّهم كانوا يُفتَنون ويُعَذّبون بأنواع البلاء ليرجعوا عنه، فصبروا ولم يرجع عنه؛ كما رُوِي من حديث بلال[1]: "أنّ ورقة بن[2] نوفل مَرّ على بلال، وقد أخذه أميّة بن خلف الجمحي[3] وألْقاه على ظهره في الرّمضاء، ووضع الحجر على بطْنه، وهو يقول:

---

[1] هو بلال بن رباح الحبشي، أبو عبد الله، صحابي جليل من السابقين إلى الإسلام كان عبدا من عبيد قريش أعلن إسلامه فعذبه سيّده أمية بن خلف فابتاعه أبو بكر الصديق وأعتقه، اشتهر بصبره على التعذيب وقوله أحد أحد، كان جميل الصّوت يغني في الجاهلية، فعندما ظهر الأذان بعد إسلامه كلفه الرسول بمهمة الأذان. توفّي بلال في الشّام مرابطا في سبيل الله كما أراد، ودفن تحت ثرى دمشق سنة عشرين للهجرة، ويوجد قبر ومدفن ومقام للصّحابي الجليل بلال بن رباح في دمشق. كما أنّه في المملكة الأردنية الهاشمية يوجد ضريح له في حي الفقراء في منطقة وادي السير. حينما أتى بلالا الموت، قالت زوجته: وا حزناه فكشف الغطاء عن وجهه وهو في سكرات الموت، وقال: لا تقولي واحزناه، وقولي وا فرحاه ثمّ قال: غدا نلقى الأحبة، محمدًا وصحبه.
انظر ترجمته في: حياة محمد، د. محمد حسين هيكل؛ النّبيّ العربي، أحمد التاجي عبقرية محمد،عبّاس العقّاد.

[2] في الأصل: من.

[3] أمية بن خلف أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي الجمحي المكي; أحد رؤوس قريش وكبارهم; قتل في غزوة بدر في العام الثاني الهجري عندما كان أسيرا عند المسلمين; حيث تم أسره من قبل صديقه القديم في مكة عبدالرحمن بن عوف. "حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال حدثني يوسف بن الماجشون عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرّحمن بن عوف عن أبيه عن جده عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظني في صاغيتي بمكّة وأحفظه في صاغيته بالمدينة فلما ذكرت الرحمن قال لا أعرف الرحمن كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية فكاتبته عبد عمرو فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام النّاس فأبصره بلال فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار فقال أمية بن خلف لا نجوت إن نجا أمية فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثمّ أبوا حتّى يتبعونا وكان رجلا ثقيلا. فلمّا أدركونا قلت له ابرك فبرك فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتخللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه وأصاب أحدهم رجلي بسيفه وكان عبد الرّحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه. قال أبو عبد الله: سمع يوسف صالحًا وإبراهيم أباه". "وروى ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أميّة بن خلف لي صديقا بمكة، وكان اسمي عبد عمرو، فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن ونحن بمكّة، فكان يلقاني أميّة إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سمّاكه أبواك فأقول: نعم، فيقول: فإني لا أعرف الرّحمن، فاجعل بيني وبينك شيئا أدعوك به، أمّا أنت فلا تجبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، قال: فكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت له: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: فقلت: نعم، قال: فكنت إذا مررت

"هذا دأبي ودأبك أو أن تكفر بمحمّد". وبلال يقول: "أحدٌ، أحدٌ". وورقة بن نوفل يقول: "نعم يا بلال، أحَدٌ أحدٌ". فصبر على ذلك، ولم يرجع عن الإسلام.

ومثل حديث بلال، فيما كانوا يلقون من قريش، عددٌ كثير تطول الخُطب بذكرهم.

فعلى هذا كانوا يُؤذَون ويصبرون، ويزدادون إيمانًا ويقينًا، حتّى صار الأمْر بهم إلى الجلاء؛ فخرج كثيرٌ منهم مهاجرًا إلى أرض الحبشة.

ثمّ اشتدّ الأمر بهم، فهاجروا إلى المدينة، وهجروا الآباء، والأمّهات، والأبناء، والبنات، والإخوة، والأخوات، والعشائر، والقرابات؛ وقطعوا الأزواج والأحبّة، ولَحقوا برسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في دار الهجرة في المدينة؛ وخرجوا إليه أرسالاً كعُرف الفُرس يتبع بعضهم بعضًا، ينقطع الرّجال عن حلائلهم، والنّساء عن أزواجهنّ، طيّبة بذلك أنفسهم، مستميتين في حبّ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، تابعين له على دينه، قابلين لسنّته وأحكامه، باذلين له أنفسهم، ومُجهم، وأموالهم.

وعلى هذا تابعه مَن آمن به في دار هجرته لمّا سمعوا القرآن، وأثّرت قوّته في قلوبهم، فآووه ونصروه، وأحبّوا مَن هاجر إليهم، واتّخذ بعضهم بعضًا إخوانًا، وواسوهم

به، قال: يا عبد الإله فأجيبه، فأتحدث معه.حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه علي بن أمية آخذ بيده معي أدراع، قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآني قال لي: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك في فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك، قال قلت : نعم ها الله ذا، قال فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه، هو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن، قال ثم خرجت أمشي بهما. قال ابن اسحاق: قال عبد الرّحمن بن عوف قال: قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما: يا عبد الإله، من الرّجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره، قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد المطّلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل، قال عبد الرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال بن رباح معي وكان هو الذي يعذب بلالا بمكّة على ترك الإسلام فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيضجعه علي ظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثمّ يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحد أحد، قال: فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال أبأسيري، قال: لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أتسمع يا ابن السّوداء، قال: لا نجوت إن نجا، قال: ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة وأنا أذب عنه قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، قال: فقلت: انج بنفسك ولا نجاء بك فوالله ما أغني عنك شيئا، قال: فهبروهما بأسيافهم، حتى فرغوا منهما، قال: فكان عبد الرّحمن يقول: يرحم الله بلالا ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري.

بأموالهم، وآووهم في ديارهم، ونابذوا آباءهم وعشائرهم؛ فقطعوا كلّ عهْد وذمّة كانت بينهم وبين مَن يحاددهم، وردّوا كلّ جوار وحرمة كانت بينهم بعضهم في بعض، وآثروا محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم-، ومَن هاجر معه إليهم، على جميع مَن ذكرنا من القريب والبعيد، ونزلوا على حكمه.

ولم يُقبَل إيمانهم حتّى حكّموه في أنفسهم وأموالهم وذراريهم، ورضوا بذلك وسلّموا له، وهم مختارون غير مُجبَرين، وطائعون غير مُكْرَهين؛ وتلاَ عليهم قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتّى يُحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجًا ممّا قضيتَ ويُسلّموا تسليمًا﴾[1]، وقوله: ﴿ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرَةُ من أمرهم ومَن يعصِ الله ورسُولَهُ فقد ضلّ ضلالاً مُبينًا﴾[2]؛ فقبلوا ذلك منه، وألْزَمهم هذه الشّرائط؛ وهو رجلٌ وحيدٌ فريدٌ لا سلطان له عليهم، ولا مال له، ولا عشيرة تعينه، ولا قبيلة.

فقبلوا منه هذه الشّرائط طيّبة بذلك أنْفسهم، مع ما قد جبل الله عليه البشر من حبّ مَن أحسن إليها، والنّفور ممّن أساء إليها؛ ولم ينالوا منه من أمر الدّنيا شيئًا، من أعراضها التي يعدها مَن يُؤثّر الدّنيا إحسانًا؛ بل نالوا منه هذه الأسباب التي يعدّونها إساءة إذا آثروا الدّنيا على الآخرة؛ كما قالت له قريش: "قطعتَ أرحامنا، وسفّهتَ أحلامنا، وعبتَ أدياننا، وفرّقتَ بيننا".

ومَن آثر الدّين على الدّنيا، قَبِلَ ذلك من محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وعدّه إحسانًا.

وأثّرت قوّة كلام الله في قلوبهم؛ ولولا ذلك لمّا أجابوه إلى ما دعاهم إليه من ترك الشّهوات الدّنيويّة، ومن قطيعة مَن ذكرنا من الأحبّة؛ ولا تابعوه على بذل الأموال، والمهج له في حياته، والتّمسّك بما شرّعه لهم بعد وفاته والتّشديد فيه؛ وما ظهر منهم من استماتتهم في ذلك، واعتكافهم عليه، ومحبّتهم له، والْتزامهم له، والْتزامهم إيّاه طائعين غير مُكرَهين.

فأيّ إلْفٍ وعادةٍ تقدّمت لهم؟! وأيُّ أيّام مرَّت عليهم في بدْء أمْرهم، وسبيلهم ما قد وصفناه؟! وأيُّ حجّة تثبت للمُلحِدين بما يدّعونه في باب الإلف والعادة؟!

---

[1] سورة النّساء (4)، الآية 65.

[2] سورة الأحزاب (33)، الآية 36.

فإن قال قائلٌ: إنّه حارب مَن خالفوه، وأجبرهم على قبول ما أتى به.

قلْنا: قبلوه في بدْء أمْره وهم مختارون، حتّى قوي أمره؛ ثمّ عانده النّاس من كلّ وجه، وأظهروا منازعته؛ فلم يحبّ الله -عزّ وجلّ- له قبول الصّغار على نفْسه بعد أن أظهره الله.

فحينئذ أكْره المُستكبِرين والعتاة، الذين كانوا يفتنون أصحابه، على قبوله، وألْزمهم الذّلّ، وأعلّى المؤمنين به عليهم.

وبذلك أمَره الله -عزّ وجلّ-، فقال: ﴿وقاتلوهم حتّى لا تكون فتْنة ويكون الدّين كلّه لله﴾[1].

وإلاّ، فإنّ أوّل أمْره لا يخفى أنّه قام فيهم، وهو رجلٌ واحدٌ، ثار بين ظهراني قوْمه، وأظهر ما أوْحى إليه ربّه؛ فجفوه، واستخفّوا به، وبلغوا من أذاه كلّ غايةٍ.

وخرج في بعض أيّامه، حين أرْهقه[2] الأمر، إلى الطّائف، وعرَض نفسه على أهلها؛ فنظر إليه عبد ياليل بن عمرو، وهو قاعدٌ في ظلّ حائط له، يتّقي حمّارة القيظ عن نفسه، وكان عبد ياليل بن عمرو سيّدًا فيهم متكبّرًا طاغية. فقال له: "قُم يا مُحمّد عن ظلّ حائطي"، فرفَع رأسه إلى السّماء وقال: "يا ربّ، إليك أشكو ضعْفي، وقلّة حيلتي، وهواني على النّاس. إن لم يكن بك سخطٌ، فلا أبالي، ولكن عافيتك أوْسع لي".

واجتمعت قريش، وتعاقدوا فيما بينهم، وتحالفوا، وكتبوا بينهم كتابًا، وعلقوه في الكعبة؛ واتّفقوا أن يقطعوه ويقطعوا مَن تابعه، فلا يخالطوهم، ولا يبيعوا منهم طعامًا؛ وأن يمنعوا من مخالطتهم كلّ حاضر وبادٍ؛ وأخرجوهم إلى شعاب[3] مكّة؛ وبقوا فيه على هذا الحال. وكتبوا بذلك كتابًا، وعلّقوه في الكعبة، حتّى استقبح ذلك قومٌ من قريش، واجتمع نفرٌ منهم، ومزّقوا ذلك الكتاب، وقالوا: "مزّقُوا هذه الصّحيفة القاطعة!".

فلم يزل -صلّى [الله] عليه وآله-، ومَن آمن به، يَلقون هذا الأذى الشّديد من عشيرته وقومه إلى أن هاجر إلى المدينة، على السّبيل التي في شهرتها غنية عن تطويل الخطب بها؛ وهاجر على إثره أصحابه، على نحْو ما قد ذكرناه.

---

[1] سورة الأنفال (8)، الآية 39.

[2] في الأصل: رهقه.

[3] في الأصل: شعب.

فأيُّ إلْف جمع المسلمين مع هذه الشّدائد!؟ وأيُّ أيّام مرّتْ عليهم؟! وأيّ دهْر أتى عليهم في ابْتداء أمرهم؟!

فهذا كان أصْل بنْيانه، وتأسيس أمْر دينه؛ وما بعدُ، فهو فرعٌ لذلك الأصل. فإن كان ذلك الأصْل مبنيًّا على الإلف والعادة، فكذلك يجب أن يُحكم في الفرع. فإنّ الفروع تُقاس على الأصول، وإلاّ فحجّة المُلحِد داحضة في باب الإلْف والعادة.

وكانت سبيل الأنبياء (ع) كلّهم مثل سبيل محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وعزّاه [-سبحانه-] عمّا كان يتلقّى من قومه، وأمَره بأن يتأسّى بمَن تقدّمه من الأنبياء (ع)، فقال -تبارك اسمه-: ﴿ولقد كُذّبت رُسُلٌ من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأُوذوا حتّى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المُرسَلين﴾[1]. وعزّ مَن آمن به، فأمَرهم أن يتأسّوا بمَن تقدّمهم من أتباع الأنبياء (ع)، فقال -جلّ ذكره-: ﴿وكأيّن من نبيّ قاتل معه ربّيون كثير فما وهنوا لمَا أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استْكانوا والله يحبّ الصّابرين﴾[2].

وإنّما امْتحن الله -عزّ وجلّ- الأنبياء (ع) في ابتداء أمْرهم بهذه[3] المحن، لكي لا تثبت حجج المُبطِلين في دعواهم، أنّ الذين قبلوا الشّرائع قبلوها بالإلْف والعادة؛ ثمّ نصرهم الله بعد ذلك، وقوّاهم بعد الضّعف، وأعْلى أمرهم، وشدّ بنيانهم بتأييد منه، وبقوّة الكلام الذي أنْزله عليهم؛ وعمل ذلك في قلوب البشر هذا العمل العظيم، كما قد ذكرناه.

وإنّما أطلْنا الكلام بذلك، لأنّ المُلحِدين يحتجّون بهذه الحجّة الواهية، ويزعمون أنّ الذي جمع أهل الشّرائع على إقامتها، سببه: الإلْف والعادة، ومرور الأيّام والدّهور.

وهذه عندهم أوْكد الحُجج، جهلاً منهم، وقلّة إنصاف، وسوء تمييز؛ إذ لا يميّزون حال الأنبياء في ابتداء أمْرهم كيف كان؟ وكيف امْتحن الله الخلائق؟ لكي لا يقولوا إنّه إلْف وعادة، ولئلاّ يكون للنّاس على الله حجّة، وليعْرفوا عِظم شأن كُتب الله المُنزّلة وكلام الأنبياء (ع)، وما في ذلك من القوّة الجامعة لهم المُؤلِّفة بين قلوبهم على إقامة الشّرائع؛ كما نرى كيف اختلطت تلك القوّة بأنفسهم، ودبّت في عروقهم، وأثّرت في قلوبهم؛ كما تدبّ العقاقير في أبدان البشر، وتجري في عروقهم، وتؤثّر في طبائعهم.

---

[1] سورة الأنعام (6)، الآية 34.

[2] سورة آل عمران (3)، الآية 146.

[3] في الأصل: هذا.

وإن قال قائلٌ: فما بال هذه القوّة أثّرت في بعض الأنفس دون بعض؟ ولِمَ أثّرت في أنفس مَن تبع محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم-، ولم تؤثّر في أنفس مَن خالفه، وعاداه، وأخرجه عن أهله وداره؟

قلنا: قد تقدّم القول منّا أنّ هذه الأنفس تلحقها عوارض نفسانيّة لطيفة تفسدها وتنجّسها، حتّى لا تقبل تلك التّأثيرات، كما ذكرنا في باب الهوى، والحسد، والكبر، والجفاء، والبغْي، والطّغْيان، والطّعْن، والعداوة، والخيلاء، والنّخْوة، والافْتخار، والحرْص، والأمل، والشّك، والشّبْهة، والعتوّ، والشّقاق، والعزّة، وغير ذلك ممّا يُشاكل هذه الأسباب المُفسِدة للأنفس.

فهذا كان سبب امتناع تلك القوّة من التّأثير في قلوب مَن خالفه وعاداه.

ومثل ذلك موجودٌ بيّنٌ في العقاقير التي تؤثّر في طبائع النّاس؛ فإنّ الطّباع إذا عارضتها علّة قويّة، امتنعت من قبول أثر العقاقير فيها.

ومثل حجر المغناطيس إذا حُكّ عليه الثّوم لم يجذب الحديد، ولم يظهر أثر قوّته للعارض الذي منَعه.

فهكذا كان سبيل تلك القلوب التي لم تقْبل أثر القرآن.

كانت قريش قد بُليت بهذه العارض ما لم يُبلَ به سائر العرب، لأنّهم كانوا من معْدن الشّرف، والعزّ، ومصاص الفخر؛ وكانوا سكّان حرم الله ويقولون: "نحن آل الله، ونحن أهل الله".

وكانت العرب قاطبة تعرف ذلك لهم، فكانوا لا يغزونهم ولا يؤذونهم، كما كان يغزو بعضهم بعضًا، إكرامًا لهم واعترافًا بشرَفهم.

فكانت تلك النّخْوة وذلك الكبر والافتخار قد ران على قلوبهم، وأفسدتها تلك العوارض المذمومة وكدّرتها ونجّستها، فامْتنعت من قبول تلك القوّة الطّاهرة الطّيّبة. وقبلتها القلوب التي سلِمت من تلك العوارض وصفت منها.

فمن أجْل ذلك آمنوا بمحمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وصبروا معه على الأذى الشّديد والمِحن العظيمة، ولم يَهِنوا لذلك، ولا ملّوا، ولا ضعفت نيّاتهم؛ بل كانوا يزدادون إيمانًا إذا اشتدّ بهم الأمر وخوّفهم النّاس، ويقوى يقينهم، كما وصفهم الله به، فقال: ﴿الذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونِعْم

الوكيل فانقلبوا بنعْمة من الله وفضْل لم يمسسهم سوء واتّبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾[1].

فأولئك أسلافنا الذين هم أُسُّ دعوة الإسلام وقواعد الشّريعة.

هكذا جرى أمْرهم في قبول الملّة اختيارًا من غير إجبار ولا قهر، وابتداءًا من غير إلف، ولا عادة، ولا مرور أيّام عليهم، ولا دُهور؛ بل عملت تلك القوّة الإلهيّة في قلوبهم، وألّفت بينها، وجمعتْها على قلوبه.

ونحن فروع لتلك الأصول وخَلَف لذلك السّلف، وسبيلنا في حبّ الإسلام واجتماع القلوب عليه: سبيلهم.

فهذا فعْل القرآن العظيم بقلوب البشر، أعدْنا القول به مرّة بعد مرّة، لِتعرف -رحمك الله- عِظم شأنه، وما فيه من المعجز الكبير الدّالّ على نبوّة محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-؛ وهو ظاهرٌ قائمٌ في العالم، يزداد قوّة، على مرور الأيّام تشتدّ وتنمو في مشارق الأرض ومغاربها، وتثمر هذه القوّة هذه الثّمرة الزّكيّة؛ كما ترى في هذه الأمصار الكثيرة التي لا تُحصى عدًّا في كلّ مصر، في قصبته وسواده، من المساجد ما يعجز النّاس عن إحصائها، وكلّ مسْجد يقوم فيه منادٍ ينادي في كلّ يوم في خمسة أوقات، يشْهد بتوْحيد الله -عزّ وجلّ- وبتصْديق محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- وبنبوّته، ويدعو[2] إلى إقامة شريعته بأعْلى صوته مجدًّا مجتهدًا.

فأيّ قوّة في العالم عملت في أنفس البشر ما عملت قوّة كلام الله الذي جاء به محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-؟ وأيّ دلالة أوْكد من هذه؟ وأيّ معجزة أبْلغ من القرآن؟ وأيّ كتاب في العالم أعظم نفعًا للبشر منه في الدّين والدّنيا؛ به حُقنت الدّماء، وحُصّنت الأموال، ومُنعت أيدي الخلائق -بعضهم عن بعض- من الفساد في الأرض؟ ولولا ذلك لَهلك الحرث، والنّسل، وفسدت الأرض وما فيها[3].

---

[1] سورة آل عمران (3)، الآيتان 173-174.

[2] في الأصل: يدعوا.

[3] في الأصل: فيه.

وهذا هو المثل الذي طالب به محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- النّاس أن يأتوا به، حيث بلّغ عن الله -عزّ وجلّ-، فقال: ﴿لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا﴾[1].

وهذا هو المثل الذي طالبنا به المُلحِد في كتابه، فقال: "إنّا نطالبكم بالمثل الذي تزعمون أنّا لا نقدر أن نأتي به"؛ لا ما قاله المُلحِد: "إنّ شعر الشّعراء، وخطب البلغاء، وسجع الكهّان هي أفضل منه"؛ وأنّ القرآن خلْو من هذه، على زعم المُلحِد المعتوه. وزعم أنّه يأتي بألْف مثله.

وأيّ مثل يوجد للقرآن في العالم، مع ما قد وصفْناه به من هذه القوّة الشّديدة، وهذا الفضل العظيم؟! هيهات هيهات!! لا يوجد ذلك أبدًا!!

هذا، سوى ما فيه من المنْفعة الدّينية التي بها نجاة المؤمنين به المقيمين لِمَا فيه من الفرائض والسّنن، وما وعَدهم الله عليه من الثّواب العظيم، وأعدّ لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون. وتلك هي النّعمة الكبرى، والمنْفعة العظمى، والشّرف الأعلى، والجزاء الأوْفى.

وإنّ المُلحِد قد سخر بنفسه، وغرب فهْمه، وتاه عقْله حين زعم أنّ المجسطيّ، وكُتب الهندسة، والطبّ، والمنطق، والنّجوم أكْبر نفعًا من القرآن،؛ وأنّه ليس في القرآن فائدة، ولا نفعٌ ولا ضرٌّ. وأوْرد كلام المجانين الذين لا يعقلون ما يقولون.

وقد كشفْنا عمّا في القرآن من النّفع العظيم في الدّين والدّنيا؛ فلْيكشف لنا المُلحِدون عن الذي في المجسطيّ، وكتب الهندسة، والمنْطق، والنّجوم من النّفع، سوى ما فيها من الآداب التي لا يجوز نفْعها إلاّ مَن يتعلّمها، وذلك شيءٌ نزرٌ قليلٌ، يشاكل سائر الآداب التي يتأدّب بها النّاس، ويستغْني عنها مَن لا يشتغل بها في دينه ودنْياه.

وأنت لا تجد في دهْماء النّاس في كلّ مصْر مَن يشتغلون بها إلاّ رجلاً أو رجليْن، بل أمْصار كثيرة ليس فيها أحدٌ يعرفها.

وقد اتّفق المُسلِم والمُلحِد على أنّ المجسطي، وكتب الهندسة، والطبّ، والمنطق، والنّجوم ليس فيها نفعٌ من جهة الدّيانة.

وأمّا في أمور الدّنيا، فكلّ الصّناعات أكْبر نفعًا منها، وأهْلها أوْفر حظًّا، وأغْنى بما في أيديهم ممّن يكْسب بتلك الكتب.

---

[1] سورة الإسراء (17)، الآية 88.

ومَن ازْداد فيها نظرًا، إذا لم يكن متمسّكًا بحبل الشّريعة، والتّوحيد، والنّبوّة، مُستبصِرًا فيه، مُستحكِم المعرفة بأمر الدّين، أدّاه ذلك إلى التّعطيل، والخروج إلى الإلْحاد؛ ويدعوه ذلك إلى الاشتغال بكتب هؤلاء الذين تشبّهوا بالفلاسفة، والقدماء، الحكماء، وتسمّوا بأسمائهم، ووضعوا كتبًا مزخْرفة ليس فيها إلاّ الوساوس المتناقضة، على حسب ما فسّرنا وشرحنا اختلالها وتناقضها، التي تذْهل عقل مَن يشتغل بها، وتسْلبه لبّه، وتوقعه في حيرة مُهلِكة، ولا تزيده إلاّ عمًى[1] وضلالاً.

ولسْنا نطْعن على المجسطيّ، وإقليدس، وبطليموس[2]، وغير ذلك من الكتب في المنطق، والطّب، وما كان من هذا الجنس؛ فإنّ هذه من الحكماء، وأظهروا ما فيها من الحكمة بتأييد من الله –عزّ وجلّ–. ولكنّها ليست نظائر القرآن.

كما أنّ أولئك الحكماء لم يكونوا نظائر لمحمّد –صلّى الله عليه وسلّم–، لأنّ حكمة محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– عمّت أهل الأرض، المؤمن والكافر، على ما قد وَصفْنا.

والحكماء الذين وضعوا هذه الكتب أظهروا للنّاس حكمته ليعرّفوا النّاس مراتبهم؛ وكان نفْع ذلك راجعًا إليهم في أنفسهم، وإلى مَن عرف فضْلهم في أعصارهم، فأخذوا عنهم أمْر دينهم.

وكلّ واحد منهم كان حكيم دهْره، وكان نفْع كلامهم وضرّه في أمْر الدّيانة يصل في عصره إلى الذين شاهدوه؛ فمَن عرف منْزلته وفضْله، نفَعه ذلك في دينه ودنياه؛ ومَن جهِل فضْله ومنْزلته، لم ينتفع بحكمته إلاّ مقدار هذا النّفع الذي يصل إلى أهل هذا

---

[1] في الأصل: عمي.

[2] هو صاحب كتاب *المجسطي*، عاش في أيّام أدريانوس وأنونينوس، وفي زمانهما رصد الكواكب، ولأحدهما عمل كتاب *المجسطي*. وهو أوّل مَن عمل الإسطرلاب الكريّ والآلات النّجوميّة والمقاييس والأرصاد. ويُقال إنّه رصد النّجوم قبله جماعة منهم أبرخس، وقيل إنّه أستاذه وعنه أخذ، والرّصد لا يتمّ إلاّ بآلة، فالمبتدئ بالرّصد هو صانع الآلة. والكلام على كتاب *المجسطي*. وأوّل مَن عني بتفسيره وإخراجه إلى العربيّة: يحيى بن خالد بن برمك، ففسّره له جماعة فلم يتقنوه؛ ولم يرض ذلك، فندب لتفسيره أبا حسّان وسلم صاحب بيت الحكمة فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النّقلة المجوّدين، فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحّه. وقد قيل أنّ الحجّاج بن مطر نقله أيضًا. وله من الكتب بعد ذلك كتاب *الأربعة*، كتاب *المواليد*، كتاب *الحرب والقتال*، كتاب *في الأسراء والمحبوسين*، كتاب *في أسر السّعود واصطناعها*، كتاب *المرض وشرب الدّواء*، كتاب *اقتصاص أحوال الكواكب*... حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص267– ص268. بيروت. د. ت.

الدّهر. فلمّا خرجوا عن العالم، لم يبقَ نفْع هذا الكلام وهذه الكتب إلاّ ما فيها حتّى يومنا هذا.

وليست قوّة تلك الكتب، مثل قوّة كتب أصحاب الشّرائع الذين كانوا أئمّة أهل الأرض دهرًا طويلاً، مثل موسى وعيسى وغيرهما، ومثل محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- الذي هو إمام العالم إلى يوم القيامة، وفي كلامه من النّفع والضرّ ما قد فسّرناه.

وقد عَمّ ذلك أهلَ الأرض، واشْترك في نفعه المؤمنون به المُخلِصون فيه، وأصناف المُلحِدين، والمُعطِّلين، والمُنافِقين الذين يستَترون بالإسلام.

ولولا أحْكام الشّريعة، وما في القرآن من الرّسوم، والسّنن، والفرائض في المنكحات والمواريث، وقسْمة الأموال، وغير ذلك؛ لَكان سبيل المُلحِدين في الأزواج والأولاد سبيل البهائم؛ وكان لا يُعرَف لهم رحمٌ ولا نَسَبٌ؛ ولَكانت أموالهم نهبًا.

فقبحًا للمُلحِدين الذين رضوْا لأنفسهم أن يخرجوا عن أحكام القرآن، فتكون أمّهاتهم وبناتهم وأخواتهم بغايا، يُنكحن بلا مهور ولا تزويج، وينزوي[1] عليهم كلّ مسلم وكافر؛ وأن يكون أوْلادهم لغير رشدة، فلا يُعرف لهم أبٌ؛ وتكون أموالهم مُنتهَبة في حياتهم، ومُستباحة بعد مَماتهم؛ ويكون سبيلهم سبيل بهائم الأنعام.

فلولاَ الإسْلام وأحكام القرآن، لَماج النّاس بعضهم في بعض، وتهارجوا؛ فلم يكن نكاح بتزويج، ولا قسمة بالسّوية، ولا مبايعة على العدْل والصّلاح.

ومَن خلع ربقة الإسلام من عنقه، فاتتْه نفسه قبل أن يرتدّ إليه طرفه.

ولكن قد أحاطت سلاسل الدّين برقابهم، وجُعِلت ربقة الإسلام في أعناقهم، ورُبِطوا بها أوْثق رباط؛ كما قال بعض الشُّعراء المُخضرَمين، حين أسْلم، وقبل أحكام الإسلام، وترك أمْر الجاهليّة من الزّنى، وشرب الخمور، والميْسر، وغير ذلك من الفحشاء والمُنكَر، فقال في شعره:

وليس كعهد الدّار يا أمّ مالــك ... ولكن أحاطــت بالرّقــاب السّلاسلُ

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدْل شيئًا فاستراح العواذلُ

فهذا نفْع القرآن وضرّه في الدّنيا والآخرة.

فإن قال قائلٌ: إنّ أمْر الآخرة غائبٌ، ولا يُدرى ما يكون من نفْعه وضرّه هناك.

---

[1] في الأصل: ينزو.

قلنا: فإن كان ذلك أمرًا غائبًا يقدر المُلحِد على إنكاره، فكيف يجوز دفْع ما يعاينه ويشاهده في الدّنيا؟ أوَلَيس مَن قد دخل تحت أحكام القرآن، قد آوى إلى ركْن وثيق وحصْن منيع، لا حصْن في العالم أمنع منه؛ ومَن خرج عن أحكامه فلا مأْوى له ولا وزر، ولا ملْجأ ولا عنصر؟ فأيّ كتاب يعدل القرآن؟ وأيّ شاهد أعْدل من هذه القوّة التي قد ظهرت منه؟ وأيّ دليل أوْكد من هذا: أنّه كلام الله ومعْجز محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، ولا يقْدر على مثل هذه القوّة إلاّ الله؟ ومَن يقْدر على دفْع هذا إلاّ مباهتٌ مكابرٌ أو مجنونٌ مختبلٌ؟!

فإن قال قائلٌ: إنّ أهل الملل لم يدخلوا تحت أحكام القرآن، وقد نجوْا من هذه الأسباب التي قد ذكرناها.

قلنا: إنّ مَن هم منهم في دار الإسلام قد دخلوا تحت أحكامه، لقبولهم الجِزية، والْتزامهم الذّلّة والصّغار. وبذلك حقنوا دماءهم، وحصّنوا أموالهم وذراريهم.

ومَن هم في الممالك التي هي خارجة عن دار الإسلام، فإنّهم متعلّقون برسوم الأنبياء (ع) التي قد بقيت آثارهم في أيديهم؛ وإن كانت قوّة كتاب محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- هي أعظم وأجلُّ منها[1]، كما أنّ مقدار مرْتبته، ورفيع درجته، وعلوّ منزلته عند الله فوق درجات النّبيين. وهذه معْجزته القائمة في العالم.

وممّا يزيد في تأكيدها وإيضاحها: أنّ الله -عزّ وجلّ- لمّا أنْزَل عليه هذا الكتاب، وَعَده فيه أن يؤثّر في هذا العالم هذا الأثر العظيم، وبشّره في ذلك في أوّل أمْره ومبتدأ شأنه قبل أن كان، فأنْجز له ما وَعَده.

وقد كان بشّر محمّدٌ -صلّى الله عليه وسلّم- بذلك أمّته، وصدّق الله -عزّ وجلّ- بشْراه، وأنّه وعَده أن تعلو ملّته على جميع الملل والأديان علوًّا ظاهرًا، على حسب ما قد انكشف وظهر للعالِمين؛ فقال: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرْسل رسوله بالهُدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كلّه ولو كره المُشرِكون﴾[2]؛ فأنزل هذه الآية عليه، ووّعده فيها أن يظهر دينه على جميع

---

[1] في الأصل: منا.

[2] سورة التّوبة (9)، الآيتان 32-33.

الأديان في مشارق الأرض ومغاربها[1]؛ فقد ظهر عليها وقَهرها، وهو يزيد قوّة وعلوًّا على مرور الأيّام.

وأعلم -صلّى الله عليه وسلّم- أمّته أنّ الله -عزّ وجلّ- قد كشف له عن الذي يكون بعده، وأنّه قد عاين ذلك؛ وأنّ الله سيُنجز له ما بشّره به، فقال: "زُويتْ لي مشارق الأرض ومغاربها، وسيبلغ مُلك أُمّتي ما زوى لي منها".

فكيف ترى صنَع الله له في تصديق قوله بعد خروجه عن العالم؟ وكيف ترى صحّة هذه الآيات التي في القرآن والخبر الذي رُوي عنه -صلّى الله عليه وسلّم-؟

ولو كان كذّابًا، كما يدّعيه المُلحِدون وأعداء الله -لعنهم الله-، لَبطلت دعاويه، ولَمَا أنجز الله له عداته، ولَسقط بنْيانه بعد وفاته؛ ولكنّ سبيله سبيل مَن كان بنْيانه على غير أصل صحيح، وكان أساس أمره من عنده غير الله.

فإنّا نرَى كلّ مَن يدّعي رياسة في الدّين والدّنيا، ويكون له أتباعٌ، يبطل أمره عند موته من الملوك والرّؤساء من جميع الأصناف؛ فإذا خرجوا عن العالم يتفرّق جمْعهم، وتنقطع رسومهم وآثارهم، وينْهدم بنيانهم، إلاّ ما كان من رسوم الأنبياء البرَرة الطّاهرين (ع).

فإن ادّعى مُشاغِب[2] أنّ كثيرًا من المُبتدِعين قد بقيت رسومهم في العالم، وبقي جمعهم وأتباعهم؛ واحتجّ بالمنّانيّة[3]، والدّيصانيّة[1]، وأشباههم من المُبتدِعين في الشّرائع، وبأهل الأديان في البلدان التي هي في أطراف الأرض، مثل التّرك، والهند، وغير ذلك.

---

[1] في الأصل: مغاربه.

[2] في الأصل: مشغب.

[3] هو دين استحدثه ماني من النّصرانيّة والمجوسيّة. وهو ماني بن فاتك -أو فتّق-، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من " العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولا للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.

قلنا: قد تقدّم القول منّا أنّ هؤلاء بنوا بدَعهم على رسوم الأنبياء (ع)، وخلطوا بدَعهم بآثارهم، ونسبوا ما رسموه إلى الأنبياء (ع).

وإن كانوا مُبتدِعين، فإنّهم متعلّقون بحبلهم، يحتذون حذْوَهم، ويتشبّهون بهم، ويدعون إلى زخارف قد مثّلوها برُسوم الأنبياء (ع)، وأقاموها بتلك الرّيح.

وهكذا سنّ لخم أوائلهم الذين وَضعوا لهم هذه البدع؛ ولولا ذلك، لَمَا قام لهم رسمٌ ولا أثرٌ. ولكن مقْدار ما يثبت من رسومهم هو ريح الرّسوم التي كانت من الأنبياء (ع)، ومن خمير كلامهم.

ومع ذلك، فإنّ بنيانهم قد ضعف، ويضْعف على مرور الأيّام؛ لا كبنْيان محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– الذي لا يزداد في كلّ يوم إلاّ علوًّا وظهورًا؛ لأنّه خرج –صلّى الله عليه وسلّم– عن العالم والأمصار التي دخلها الإسلام قليلة العدد.

مضَى –صلّى الله عليه وسلّم– والإسلام بأرْض الحجاز، وتهامة في الحرمين: مكّة، والمدينة، وما والاهما من المخاليف مثل قرى خيبر، وفدك، ووادي القرى، والطّائف، واليمن، والبحريْن، وما والاهُما، مثل نجران وعُمان.

فكانت عمّاله –صلّى الله عليه وسلّم– في هذه الأمصار، وفي البوادي على صدَقات القبائل. فأمّا سائر الممالك والأمصار، فقد فُتِحت بعده بسيْفه، وقوّة كتابه، وشريعته؛ وأُقيمَت فيها أحكامه وسُننه، وثَبَت فيها زرْعه.

انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفراييني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *المنية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250– ص251.

[1] هم أتباع رجل اسمه ديصان، سمّي باسم نهر وُلد عليه قبل ماني. وهم يقولون كالمانويّة بالنّور والظّلمة. والفرق بينهم وبين المانويّة أنّ المانويّة يقولون: إنّ النّور والظّلمة حيّان، والدّيصانيّة يقولون: إنّ النّور حيّ والظّلمة ميّتة. وحول اختلاط النّور بالظّلمة اختلفت الدّيصانيّة فرقتين: فرقة زعمت أنّ النّور خالط الظّلمة باختيار منه ليصلحها، فلمّا حصل فيها ورام الخروج عنها، امتنع ذلك عليه. وفرقة زعمت أنّ النّور أراد أن يرفع الظّلمة عنه، لمّا أحسّ بخشونتها ونتنها، شابكها بغير اختيار... إلخ. وقد نسب ابن النّديم لديصان من الكتب: *النّور والظّلمة*، وروحانيّة الحقّ، *والمتحرّك والجماد*...

انظر: الشّهرستاني، (طبعة كيلاني) ج1/ص250، و(طبعة بدران) ج1/ص230؛ *المنية والأمل*، ص63؛ *نشأة الفكر الفلسفي*، ج1/ص194؛ *الفهرست*، ص402.

وكان –صلّى الله عليه وسلّم– يبشّر أمّته ويخبرهم أنّ هذه الممالك تُفتَح عليهم بعده، كما ذكرنا من آيات القرآن والأخبار التي جاءت عنه.

ورُوي عنه –صلّى الله عليه وسلّم– أنّه قال: "إذا فتح الله عليهم مِصرَ، فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإنّ لهم رحمًا"، يعني بذلك: إبراهيم (ع) ولده، وكان من مارية القبطيّة.

وما رُوي عنه[1] في يوم الخندق: أنّ سلمان قال: "كنتُ أضرب في ناحية من الخندق صخرة، فغلظت عليَّ؛ فرآني –صلّى الله عليه وسلّم–، ورأى شدّة المكان؛ فنزل وأخذ المعول[2] من يدي، فضرب به ضربة، فلمعت برقة تحت المعول؛ ثمّ ضرب أخرى، فلمعتْ برقة؛ ثمّ ضرَب الثّالثة، فلمعتْ برقة. فقلتُ: "يا رسول الله، ما هذا الذي رأيتُ يلْمع تحت المعول؟"، قال –صلّى الله عليه وسلّم–: "رأيتَ ذلك يا سلمان؟"، قلتُ: "نعم"، قال: "أمّا الأولى، فإنّي رأيتُ فيها فتح اليمن؛ والثانيّة: فتح الشّام؛ والثّالثة: فتْح المَشْرق".

وقد رُويت عنه في هذا أخبار كثيرة قد صحّت بعْده.

فإن قال قائلٌ من المُلحِدين: "إنّ الحديد إذا ضُرب به الحجر فَعَل هذا الفِعْل".

قلْنا: لا ننْكر ذلك، ولكنّا أردْنا أن نذكر ما قاله –صلّى الله عليه وسلّم– من أمْر الفتوح التي كانت بعْده؛ فبشّر بذلك كما أراه الله –عزّ وجلّ–، ثمّ ظهر صدْقه بعد ذلك.

ومثْل هذا كثيرٌ تركنا ذكره، من الأخبار التي ظهَر صدْقه فيها بعد وفاته –صلّى الله عليه وسلّم– وصحّت، ولم ينْطل شيءٌ منها كما بطلت دعاوى الكذّابين المتنبّئين الذين ظهروا في العرب، مثل مسيلمة الكذّاب بن حبيب –المتنبّي باليمامة–، وطليحة بن خويلد[3]

---

[1] في الأصل: عن.

[2] في الأصل: المعلول.

[3] طليحة بن خويلد الأسدي (ع) من قادة حروب الردة بعد وفاة النبي محمّد سنة 11هـ (632 م). ادّعى النّبوّة في قومه بني أسد وتبعه بعض طيء وغطفان في أرض نجد، إلاّ أنّه هزم مع أتباعه على يد خالد بن الوليد في معركة بزاخة ودخل الإسلام على إثر ذلك. شارك طليحة في الفتوحات الإسلامية واستشهد في معركة نهاوند سنة 21 هـ (642 م). كان ممّن شهد غزوة الخندق في صفوف المشركين. أسلم سنة تسع، ثمّ ارتدّ بعد وفاة رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، وتنبّأ بنجد، وحارب المسلمين ثم انهزم على يد جيش خالد بن الوليد، وتفرّق جنده فهرب ولحق بآل جفنة "الغساسنة" بالشّام. عاد طليحة بعد ذلك وأسلم وحسن إسلامه، ثمّ اتّجه إلى مكّة يريد العمرة في عهد أبي بكر الصدّيق (ع) واستحيا أن يواجهه مدة حياته، وقد رجع فشهد القتال مع خالد بن الوليد، وكتب الصدّيق إلى خالد أن استشره في الحرب ولا تؤمره، وهذا من فقه الصديق (ع) وأرضاه، لأنّ الذي جعل طليحة يدّعي النّبوّة حبه للرّياسة

–المتنبّي في أرض بني أسد–، والأسود العنسي –المتنبّي بصنْعاء–، وسجاح بنت الحرث اليربوعيّة[1] التي تنبّأت[1] في بني تميم، فتبعتها عامّتهم وأطاعوها، حتّى قال فيها بعض شعرائهم:

والزعامة، ولذا سأل خالد أحد أتباع طليحة ممن أسلموا وتابوا معه: اخبرنا عما كان يقول لكم طليحة من الوحي؟ فقال إنّه كان يقول: "الحمام واليمام والصرد الصوام، قد صمن قبلكم بأعوام، ليبلغنّ ملكنا العراق والشّام". ولمّا جاء وسلم على عمر قال له: "اغرب عن وجهي فإنك قاتل الرجلين الصالحين، عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم "فقال: "يا أمير المؤمنين هما رجلان أكرمهما الله على يدي ولم يهني بأيديهما"، فأعجب عمر كلامه، وأوصى الأمراء أن يشاور ولا يولى من الأمر شيئاً. شهد معركة اليرموك وكذلك كانت وصية عمر إلى سعد بن أبي وقاص في القادسية، فلما كان يوم أرماث قام طليحة في بني أسد يدفعهم إلى القتال وإلى الدفاع عن الإسلام والمسلمين يقول: "ابتدئوا الشدة، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحربة، فإنما سميتم أسدًا لتفعلوا فعلة الأسد". ثمّ بارز الفرس وقادتهم وعلى رأسهم "الجالينوس" فقتل منهم وأصاب. وفي يوم عماس كان مقداماً لا يهاب الموت، وهاجم الفرس وحده من خلفهم ثم كبر ثلاث تكبيرات ارتاع لها الفرس، فظنّوا أنّ جيش الإسلام جاءهم من ورائهم. وفي القادسية خرج هو وعمرو بن معد يكرب و(قيس بن المكشوح) للاستطلاع فأبى ان يرجع حتى يتم المهمة، واتهمه البعض بالغدر وعايروه بقتله عكاشة وصاحبه، لكنه أصر أن يكمل المهمة وحده دون عون منهم، فخاض في الماء يريد الوصول إلى معسكر رستم قائد الفرس، الذي يضم أكثر من ثمانين ألف مقاتل. وكذلك وهو يركب فرسًا من خيلهم وكان يحب الخيل وأخذ يعدو به، وخرج الفرس في أثره يريدون القبض عليه أو التخلص منه، فقتل منهم اثنين من خيرة قادتهم وفرسانهم، ثم أسر الثالث وسار به حتى وصل معسكر المسلمين، فدخل على سعد فقال له سعد: "ويحك ما وراءك؟" قال طليحة: "أسرته فاستخبره فاستدعى سعد المترجم" فقال الأسير: "أتؤمنني على دمي إن صدقتك؟" قال سعد: "نعم". قال: "أخبركم عن صاحبكم قبل أن أخبركم عمن قبلي". ثمّ راح يحدّثهم عن بطولة وشجاعة طليحة النّادرة، واختراقه معسكرًا فيه ما فيه من الجنود والقادة، وشهد له بأنه يعدل ألف فارس، ثمّ أسلم هذا الأسير، وحسن إسلامه، واستفاد منه المسلمون استفادة عظيمة نظرًا لخبرته بمعسكر الفرس. قاتل طليحة في معركة نها وند قتال الأبطال حتّى نال الشهادة عام 21 هـــ.

[1] كانت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية اليربوعية يربوع ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم قد تنبت وتبعها نفر كثير منهم الزبرقان ابن بدر، وعطارد بن حاجب بن زرارة، وشبث بن ربعي وكان مؤذنها، وعمرو ابن الهتم التميميون، وسارت إلى مسيلمة إلى اليمامة فتزوجها وأقامت عنده ثلاثاً وفي ذلك يقول الطرماح بن حكيم الطائي:

لعمر لقد سارت سجاح بقومهـــا ** فلما أتت عز اليمامة حـــلـــت
فدارسها البكري حتى استزلهـــا ** فأضحت عروساً فيهم قد تجلت
فتلك بني الحنظليين أصحبـــت ** مضمخة في خدرها قد تظلـــت

أمست[2] نبيّتنا أنثى نطيف بها   وأصبحت أنبياء النّاس ذكرانا

ثمّ صارت إلى اليمامة، وتزوّجها مسيلمة الكذّاب.

وهؤلاء كلّهم كان لهم أتْباع، ونهَض معهم قومٌ آمنوا بهم، وأطاعوهم، ونصروهم؛ وكانوا يسجعون، ويعدون النّاس.

وربّما سجعوا، وتكهّنوا، وأصابوا بكهانتهم، فيفتتن بهم النّاس؛ كما فعل طليحة[3] حين نهضت معه بنو فزارة وبنو أسد، وأمَرَهم أن يصلّوا قيامًا، لا يركعون ولا يسْجدون، وقال: "اذْكروا الله قيامًا، فإنّي أشْهد أنّ الصريخ يحبّ الدّعوة، ما يفعل الله بتعفير خدودكم وفتْح أدباركم؟"؛ فأطاعوه، وقبلوا منه؛ وأصابه هو وأصحابه عطشٌ، فسجع وتكهّن، فقال: "اركبو غلالاً، واضْربوا أميالاً، تجدوا بلالاً"؛ وغلال: فرسه. فركبوه، وفعلوا ما قال، فوجدوا ماءً، ففُتِن به النّاس.

وكانت قاتلتْ عنه أسد وفزارة، وهو متلفّف بكساء له في بناء بيْته عليهم، والنّاس يقتتلون، حتّى قُتل منهم خلقٌ عظيمٌ، وهو يقول: "يأتيني ذو النّون الذي لا يكْذب ولا يخون، ولا يكون إلاّ ما يكون".

وكان عُيَيْنَةُ بن حصن -سيّد بني فزارة- يقاتل بين يديْه، ويرْجع إليه، ويقول: "جاءك ذو النّون؟"، فيقول: "لا"، حتّى رجع إليه مرارًا، والحرب قد طحنتهم، وعُيينة يقول: "حنق حتّى متى"؛ ثمّ جاءه، فقال له: "هل أتاك ذو النّون؟"، قال: "نعم". قال: "فما قال لك؟". قال: قال لي: "رحاءً كرحاه، وحديثًا لا تنساه"، فقال عيينة: "أظنّ -والله- يكون لك حديث لا تنْساه! يا بني فزارة! انْصرفوا، فإنّه كذّابٌ"، فانْصرفوا عنه وخذلوه.

وكذلك كان حديث مسيْلمة، نهضتْ معه بنو حنيفة وغيرهم، وقالوا: "منّا نبيٌّ، ومنكم نبيٌّ"؛ وكان يسجع لهم ويقاتلون معه، حتّى قُتل منهم ستّة ألف رجل، ثمّ قُتل.

وقال عطارد بن حاجب بن زرارة:

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها ** وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

ويريد بالأنبياء الأسود العنسي وطليحة بن خويلد ومسيلمة، وجهّز أبو بكر الجيوش لغزْو الرّوم بالشّام.

[1] في الأصل: تنبت.

[2] في الأصل: أمت.

[3] في الأصل: طلحة.

وسأل أبو بكر[1] قومًا من بني حنيفة، فقال: "ما كان يقول صاحبكم؟"، قالوا: "كان يقول: يا ضفدع نقّي نقّي، لا الماء تكدّرين ولا الشّراب تمنعين"، فقال: "ويْحكم! إنّ هذا كلام لم يخرج من آل، فأين يتاه بكم؟!".

وكذلك كان الأسود العنسي، الذي كان يُقال له "ذو الخمار"، تنبّى على أهل صنعاء، وتبعه عالمٌ من النّاس كثير، ونهضتْ معه كندة وبقايا ملوكها، منهم: الأشعث بن قيس[2]، وحارثة بن سراقة بن معدي كرب وغيرهما، وجمع كثير من الأبناء الذين كانوا باليمن؛ فحاربوا معه، ونصروه حتّى قُتل، وقُتل معه خلقٌ كثيرٌ.

---

[1] هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة -و اسمه عثمان- بن عامر، من ولد تيم ابن مرّة -تيم قريش-. كان اسمه في الجاهليّة عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- عبد الله، ولقبه عتيق، لُقّب به لجمال وجهه -رضي الله عنه-، وسمّي صدّيقًا لتصديقه خبر المسرى. وأمّه سلمى وتكنى أمّ الخير بنت صخر، وهي بنت عمّ أبيه. بويع له يوم الاثنين الذي توفّي فيه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وتوفّي بالسلّ ليلة الثّلاثاء، وقيل يوم الجمعة، لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، وسنّه ثلاث وستّون سنة. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيّام، وصلّى عليه عمر -رضي الله عنه-. ودُفن في حجرة عائشة ورأسه بين كتفي رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-.

حول ترجمته راجع: ابن خلّكان، *وفيّات الأعيان*، ج3/ص64 إلى ص71؛ *الرّياض النّضرة*؛ الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*؛ *غاية النّهاية*.

[2] هو معد يكرب بن قيس. ولد في شبوة عام 23 قبل الهجرة. وكان جده معد يكرب بن معاوية أول ملوك كندة في هذه الناحية و اقتتل مع قبائل من كندة من بنو تجيب مع بني عمرو بن معاوية وقبائل أخرى فانقسمت القبيلة على أكثر من ملك أقتتل والد الأشعث مع قبيلة مراد وقتل في المعركة وهو الذي عرف بالأشج خلف الأشعث أباه وكان آخر الملوك في قومه وذكرت كتب الشيعة أنه وأباه كانا يهوديان. وهو ما لم يظهر في كتب الأخبار الأخرى. ملك على أهل نجران في الجاهلية قبل الإسلام وسقطت عنهم العبودية في خلافة عمر بن الخطّاب. حريرا على عنقه فسأله النّبيّ: "أو لم تسلموا؟" قالوا بلى فسألهم عن الحرير في أعناقهم وشقّوه، ثمّ قال الأشعث: "يا رسول الله نحن بنو آكل المرار وأنت إبن آكل المرار"، فتبسّم النّبيّ قائلاً: "ناسبوا هذا النّسب العبّاس بن عبد المطّلب وربيعة بن الحارث" ذلك بأنهما كانا يقولان بأنهما أبناء آكل المرار عند ترحالهما. ثمّ قال رسول الله لهم: "لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا، ولا ننتفي من أبينا"، فقال لهم الأشعث: "والله يا معشر كندة لا أسمع رجلا يقولها إلاّ ضربته بثمانين". وفي هذه الرّواية نظرٌ، لأنّ كتب الإخباريين لم تذكر حجر بن عمرو المعروف بآكل المرار من أجداد الأشعث بل إنّ جدّ الأشعث اقتتل مع أبناء آكل المرار جدّ الشّاعر الجاهلي إمرؤ القيس. ومَن أخذ بهذه الرّواية قال إنّ للنّبيّ محمّد جدّة من كندة هي أمّ كلاب بن مرّة إياها أراد الأشعث، وهي مَن قصدها النّبيّ بقوله: "لا نقفوا أمّنا"، أي لا نتّبع أنساب أمّهاتنا؛ بينما المثبت عند الإخباريين أنّ

وكانت قبيلة من كندة يُقال لها: بنو قتيرة، قد انضمّوا إلى المُهاجِرين وخالفوه وحاربوه، فسجع لهم وقال:

صباح سوء لبني قتيرة   وللأمير من بني مغيرة

أمّ كلاب بن مرة هذا كانت من كنانة فلا يوجد سبب لقول النّبيّ "لا نقفوا أمنا"، فوضعت الرواية على الأشعث. فسكت روّاة عن هذه الرّواية مكتفين بذكر أنّ الأشعث قدم على رأس سبعين راكب على النّبيّ. وورد أنه قدم على الرّسول و شعره يصل لمنكبه فقال رجل عندما رأى الأشعث: "الحمد لله يا أشعث الذي نصر دينه وأعزّ نبيّه وأدخلك وقومك في هذا الدّين كارهين". فأمر الأشعث أحد عبيده ليضربه وجاء في نفس الرّواية أنّ الأشعث وقومه مكثوا بضعة أيّام في المدينة ينحرون الجزر ويطعمون النّاس. وورد أن الأشعث قال للرّسول : "أتتكافؤ دماؤنا" فرد النبي :"نعم ولو قتلت رجلا من باهلة لقتلتك به". ولاّه عثمان بن عفان ولاية أذربيجان وكان ممن شارك في يوم اليرموك وأصيبت عينه فيها. شارك في القادسية وأصفهان مع النعمان بن مقرن والمدائن وجلولاء ونهاوند، واختط بالكوفة دارًا في كندة ونزلها. وشهد تحكيم الحكمين، وكان آخر شهود الكتاب. وكان كبير أمراء جيش علي بن أبي طالب في معركة صفين. توفّي سنة 40 للهجرة وقال بعضهم بعد علي ابن أبي طالب بأربعين ليلة. أمر الحسن بن علي أن يغسل بالكافور وأن يوضؤوه. كانت ابنة الأشعث جعدة وقيل جعيدة زوجة للحسن بن علي وصلّى عليه الحسن. خلف الأشعث إبنا اسمه محمّد كان من كبار الأمراء وأشرافهم، وهو والد الأمير عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث المعروف ابن الأشعث وإسحاق، وإسماعيل، وحبابة، وقريبة، وأمّهم أم فروة أخت أبى بكر الصديق.

انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء 2 ص 37؛ عقائد السنة وعقائد الشيعة – صالح الورداني ص 189؛ الأنساب للصحاري (44/1)؛ سير أعلام النبلاء 2 ص 39؛ البلاذرى ص 106؛ الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي دار الجيل – بيروت الطبعة الأولى ، 1412 , تحقيق : علي محمد البجاوي (92/8)؛ الطبقات الكبرى لإبن سعد جـ10/ص 236؛ بحوث في الملل والنحل لأية الله الشيخ جعفر السبحاني ، (ج5 377)؛ الأخبار الطوال – الدينوري – الصفحة ١٥٦؛ سير أعلام النبلاء ص 42؛ الأعلام، خير الدين الزركلي، 1980؛ كتاب الأنساب للصحاري (151/1)؛ الأعلام، خير الدين الزركلي؛ المحبر – محمد بن حبيب البغدادي ص244؛ المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام المؤلف الدكتور جواد علي الناشر دار الساقي الطبعة : الطبعة الرابعة 1422هـ/ 2001م؛ البداية والنّهاية؛ الطبري 3/ 139؛ زاد المعاد الإمام شمس الدّين أبي عبد الله ابن القيّم الجوزية ص 540؛ الطبقات الكبرى – محمّد بن سعد – ج ١– الصفحة ٦٥؛ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم الجزء الرّابع؛ الإصابة ابن حجر ج ٦ ص ٥٠٣؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ابن خلكان ج ٤ ص ٩٠.

Gil, Moshe (1997), A history of Palestine, 634–1099, Cambridge University Press, ISBN 0521599849 p.49

فلمّا قُتل الكذّاب، قال رجب من بني قتيرة في ذلك:

صباح صدق لبني قتيرة ولِلأمير من بني مغيـرة

إذ آثروا الله على العشيرة

فهؤلاء الكذّابون الذين تنبّوا، وتبعهم عالم من النّاس، وكانوا يسجعون، ويتكهّنون، ويعدون أتباعهم؛ فلمّا قُتلوا، بطل أمرهم، وتهدّم بنيانهم.

وإنّما ذكرنا شأنهم ليعلم المُلحِدون أنّ أمر محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- لم يكن مثل أمر هؤلاء الكذّابين الذي تشبّهوا بالأنبياء. فلمّا هلكوا، بطلت دعواهم، ودرس كلامهم، وسقط بنيانهم، لأنّه كان على شفًا جرُف هاوٍ، فانْهار به في نار جهنّم؛ لا كبنْيان محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- الذي أسّسه على تقوى من الله ورضْوان؛ فهو يعلو ويزداد قوّة على مرور الأيّام، والشّهور، وانْقضاء السّنين والدّهور، ولو كره المُشرِكون.

ومعجزته قائمة في العالم، وهي التي يجب أن تُدعَى: معجزة على الحقيقة، لا ما ادّعاه المُلحِد من فعل أصحاب الخفّة والشّعبذة، كالرّقص على الأرسان، والدّوران على رؤوس الأسنّة فوْق الرّماح، وغير ذلك ممّا يجوز أن يأتي بمثله كثير من النّاس، وسمّاها: مُعجزات، وشبّهها بمُعجِزات محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-.

وإنّما سُمّيت المُعجِزة: مُعجِزةً، لأنّ النّاس يعْجزون أن يأتوا بمثْلها.

فأمّا الأسباب التي يشْترك فيها الصّادق والكاذب، ويشْتبه الأمر فيها على النّاس، حتّى ينساغ لهم القول، ويشبّهوها بفعْل السّحرة، وتبطل كما يبطل فعل السَّحَرة، فلا يُقال لها: معجزات؛ بل المعجزة على الحقيقة ما قد ذكرنا من شأن القرآن وشريعة محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وما قد ظهر من قوّته التي قد كبس بها الأرض تحت أحكامه وسُننه، وهو يزداد حتّى لا يبقى في الأرض إقليم، ولا جزيرة، ولا مصْر، ولا بلَد إلاّ ويدْخله الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها؛ فيتمُّ آخره كما تمّ أوّله، وينْجز الله وعْده، إنّ الله لا يخلف الميعاد.

فهذه هي المُعجِزة التي لا يقْدر أحدٌ أن يأتي بمثلها.

فإن قال قائلٌ: فلعلّ ما تدّعون لا يصحُّ ولا يكون.

قلْنا: هذه الدّعوى هي لمحمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وهي فرْع لدعواه التي ذكر أنّ الله -عزّ وجلّ- يُظْهر دينه على كلّ دين، ولو كرِه المُشرِكون.

وقد صحّ ذلك الأصل، والفرْع تابعٌ للأصل؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- قد أظْهر دينه على جميع الأديان.

وأمارات هذه الدّعوى، التي هي الفرْع، قد ظهرت؛ لأنّ الإسلام يزْداد، وظهوره يقْوى على مرور الزّمان، كما قلنا.

فإن شغب معاندٌ، واحتجّ بمثل ما قاله المُلحِد بأنّ النّصرانيّة[1] قد غلَبَت برومّية، واليهوديّة[2] بالخزر، والمجوسيّة[3] في بعض الجبال.

---

[1] المعهود في عصرنا استعمال لفظ: مسيحيّ. ولكنّ النّصوص القرآنيّة والحديثة لا تذكر غير لفظ: نصرانيّ، نصارى. وقد اختُلف كثيرًا في معرفة إذا كانت مشتقّة أو منقولة عن صفة أو معربّة. فأرجعها البعض إلى "ناصريّ" نسبة إلى ناصرة، أو إلى "أنصاري"، باعتبار أنّ الحواريّين أنصار الله كما جاء في القرآن الكريم، وأرجعها آخرون -كالزّمخشري- إلى نصران ونصرانة، بمعنى أنّهم نصروا المسيح. وفي موسوعة *الدّين والأخلاق* (ج3/ص574) لفظة "نصرانيّة" و"نصارى" تطلق في العربيّة على أتباع المسيح. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سريانيّ هو: نصرويو Nosroyo ونصرايا Nasraya. ويرى البعض الآخر أنّها من Nazarenes التّسمية العبرانيّة التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح.

انظر: تفسير *الرّازي*، ج3/ص105؛ *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586؛ *القاموس الإسلامي* لهيوقس، ص431؛ *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.

[2] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص210 إلى ص219): "هاد الرّجل: أي رجع وتاب. وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى -عليه السّلام-: "إنّا هدنا إليك": أي رجعنا وتضرّعنا. وهم أمّة موسى -عليه السّلام- وكتابهم التّوراة، وهو أوّل كتاب نزل من السّماء... واليهود تدّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى -عليه السّلام- وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة إلاّ حدود عقليّة وأحكام مصلحيّة... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرّجعة واستحالتها... وأشهر فرق اليهود هي: العنانيّة، العيسويّة، المقاربة واليوذعانيّة، السّامرة".

[3] في موسوعة *الإسلام المختصرة* (ج /ص298): "اللّفظة مرّت قبل وصولها إلى اللّغة العربيّة بنقل من اللّغة الفارسيّة إلى الآراميّة". واللّفظة وردت في القرآن الكريم في الآية 17 من سورة الحجّ. وفي *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245): "المجوسيّة دين قديم، وإنّما زرادشت جدّده وأظهره وزاد فيه، قاله شيخنا، قال: هو معرّب أصله منج كوش معرّب مجوس". ومسائل المجوس، كما يذكر الشّهرستاني في *الملل* (ج1/ص232) تدور على قاعدتيْن اثنتيْن : أوّلهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة؛ وثانيهما: بيان خلاص النّور من الظّلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا. وقد قسّمها إلى ثلاث جماعات:

قلنا: إنّ الظّهور هو الغلبة والاستعلاء. وقد غلب الإسلام هذه الملل، واستعلى عليها؛ لأنّ الأمصار التي قد ملكها أهل الإسلام كانت كلّها ممالك لأهل هذه الملل، مثل بلاد العجم من أرض بابل العراق؛ وكور الأهواز، وفارس، وكرمان، وسجستان، وإصبهان؛ وسائر الجبال إلى خراسان، وطخارستان، وبغرغر؛ وإلى حدّ السّند، والهند؛ وإلى حدود الصّين، وفيافي التّرك، ونواحي الخزر، وغيرها من الممالك العظيمة التي كان يملكها الأكاسرة، وملوك الهياطلة، وكانوا في المجوسيّة؛ وكذلك أرض الحجاز وتهامة إلى البحرين ونجران، إلى أقصى الحجر باليمن؛ وكانت ممالك لأهل أديان مختلفة من اليهود، والنّصارى، والمجوس، سوى ما كان في مملكة عبدة الأصنام[1] من العرَب.

ثمّ بلاد الشّام، والأردن إلى طنجة، وفرنجة، وتاهرت الأقصى التي ملكها إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ (ع)[2]، وإلى جزيرة وراء البحريْن ببلاد

الكيومرثيّة: الذين أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن، والأوّل أزليّ والثّاني محدث. والزّروانيّة: قالوا: إنّ الله أبدع أشخاصا من نور كلّها روحانيّة نورانيّة ربّانيّة، ولكنّ الشّخص الأعظم الذي اسمه زروان شكّ في شيء من الأشياء، فحدث أهرمن الشّيطان، يعني إبليس. والزّرادشتيّة.

[1] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص259 إلى ص262): "اعلم أنّ الأصناف التي ذكرنا مذاهبهم يرجعون في آخر الأمر إلى عبادة الأصنام، إذ كان لا يستمرّ لهم طريقة إلاّ بشخص حاضر، ينظرون إليه ويعكفون عليه. وعن هذا اتّخذ أصحاب الرّوحانيّات والكواكب أصناما زعموا أنّها على صورتها... لكنّ القوم لمّا عكفوا على التّوجّه إليها، كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهيّة لها، وعن هذا كانوا يقولون: "ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى"، فقد كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الرّبوبيّة والإلهيّة لما تعدّوا عنها إلى ربّ الأرباب. ومن أشهر فرق عبدة الأصنام: المهاكاليّة، البركسهيكيّة، الدّهكينيّة، الجلهكيّة (أي عبّاد الماء)، الأكنواطريّة (أي عبّاد النّار).

[2] إدريس الثاني أو إدريس الأزهر، هو إدريس الأزهر بن إدريس (الأول (بن عبد الله الكامل ثاني حاكم مسلم للمغرب. والظاهر أن إدريس لم يبتدئ بمباشرة شؤون الدولة بنفسه إلا بعد سنة 190 .فالمصادر لا تذكر له أي عمل بيّن قبل ذلك التاريخ الذي بدأ يعمل فيه من أجل نقل عاصمة دولته من وليلي إلى فاس. وكل ما يمكن الإشارة إليه هو أن صمود الدولة الفتية للمكايد والصدمات أكسبها سمعة في جهات متعددة من بلاد الإسلام. فاتجهت إليها الأنظار وقصدتها الوفود والمهاجرة من أفريقية والأندلس بالخصوص فيذكر القرطاس هجرة خمسمائة فارس من القيسية والأزد ومدلج وبني يحصب والصدف وغيرهم. وتشير الروايات التاريخية، من جهة أخرى، إلى أن إدريس تحرك بجيشه لتوطيد نفوذ دولته بالمغرب، وتجاوز الحدود التي كان قد وصل إليها والده. فتقدم نحو الأطلس الكبير، واستولى على مدينتي نفيس وأغمات وأقام نفوذ الدولة في بلاد مصامدة الجنوب، وكان ذلك في سنة 197 / 812. ثمّ اتجه بعد ذلك إلى الشرق نحو نفزة وتلمسان التي دخل إليها وأنجز فيها بعض البناءات وأقام بها ثلاث

الأندلس وتاهرت الأدنى التي ملكها الدّيمسي الإباضي فلان بن عبد الرّحمن بن عبد الوهاب بن رستم الفارسي الذي كان يسلّم عليه بالخلافة.

ثمّ وراء بحْر الأندلس في بلاد ولد عبد الرّحمن بن معاوية الأموي من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان، وإلى حدود وادي الرّمل الذي قد نصب على طرفه تمثال من نحاس، قد كُتب عليه: "ليس ورائي مذْهب، ولا يطأ تلك الأرض أحدٌ إلاّ ابْتلعه النّمل".

ثمّ إلى باب النّوبة، ثمّ إلى الجزائر، ثمّ إلى صقلّية ومدائنها، ثمّ الثّغور الحرريّة والشّاميّة من شمشاط، وملطيّة، وطرطوس، وغيرها إلى قليقلا، وما وراء ذلك من بلاد أرمنيّة، وأذربيجان إلى الباب والحرن، والداب، وتفليس، والباب إلى روميّة.

سنين. وتؤكد لنا دراسة البقايا من النّقود الإدريسية الأماكن التي بلغ إليها نفوذ الدولة في عهد إدريس الثاني، وهي الأماكن التي وجدت بها دور السكّة. إذ نجد عددها يبلغ ستة عشر وفيها مدن مثل أصيلا والبصرة وتدغة وتلمسان وتهليت وسبو وطنجة والعالية) فاس (ومريرة (مريرت الحالية). وورغة ووازقور (ناحية أم الربيع) وطيط ووليلي وايكم. هذه الأسماء تدلنا، ولو نسبيا، على مدى اتّساع المملكة التي كان يحكمها إدريس الثّاني، وتبيّن لنا أن هذا الأمير كان يسير بخطى وئيدة في تنفيذ خطة أبيه الذي كان يهدف إلى تأسيس دولة كبيرة ينافس بها دولة العبّاسيّين. إلاّ أنّ هؤلاء كانوا واعين بخطر الأدارسة وحذرين منه أشد حذر، ولذلك، فإنّهم ظلّوا يحرضون الأغالبة على الكيد لهم. وهكذا مات إدريس فجأة في 10 جمادى الآخر سنة 213 (29 غشت 828) في العهد الذي كان فيه زيادة الله بن الأغلب واليا على أفريقية، وكان سن إدريس عند وفاته ستّا وثلاثين سنة. ولئن ذكر القرطاس أنّ سبب موته هو أنّه شرق بحبّة عنب، فإن مصادر أخرى مثل البكري وابن عذاري تذكر أنّه مات مسمومًا. بل إنّ ابن الأبّار يؤكّد أنّ "زيادة الله احتال عليه حتّى اغتاله " الحلّة السيراء.

وبموت إدريس ينتهي طموح الأدارسة إلى تأسيس دولة قوية موحدة، ويدب إليهم الانقسام والتشتت شيئا فشيئا. فتبدأ صفحة غير وضيئة في تاريخهم. توفّي إدريس الثاني سنة 213 هـ وترك من الولد اثنى عشر ة، تولّى منهم محمّد ففرّق البلاد على إخوته واستمالوا القبائل.

انظر ترجمته في: أ. البكري، المغرب، الجزائر 1985 ؛ ا. ابن عذاري، البيان ج 1، بيروت 1948؛ ع. ابن أبي زرع، القرطاس، الرباط 1973 ؛ أ. ابن الأبار، الحلة السيراء، القاهرة ء 1963 ؛ أ. الجزنائي، زهرة الآس، الرباط ؛ ل، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، الدار البيضاء 1964 ؛ ع. ابن خلدون، العبر، بيروت 1959؛ النويري، تاريخ المغرب الإسلامي، الدار البيضاء 1984 ؛ م. إسماعيل، الأغالبة، فاس 1978 ؛ إ. العربي، دولة الأدارسة، بيروت 1983.

E.I., 2e éd. ; D. Eustache, Le corpus des dirhams Idrissides, Bulletin de la Société d'histoire du Maroc n° 2, 1969. محمّد زنيبر

هذه كلّها كانت ممالك الرّوم وقد غلب أهل الإسلام أهل الأديان على هذه الممالك، وقهروا ملوكها، واستعلوا عليها[1].

وأمّا المجوس، فقد صار أمْرهم إلى ما ترى.

وأمّا النّصارى، فقد الْتجأوا إلى روميّة وتحصّنوا فيها، بمنْزلة مَن يأوي إلى قلْعة أو حصْن يمْتنع فيه من عدوّه.

وكذلك سبيل اليهود بخزر، والمجوس الذين في رؤوس الجبال -كما ذكر المُلحِد-، وسائر الأديان في أطْراف الأرض كلّهم مَقْهورون مَغلوبون. فمَن كان منهم في دار الإسلام، قد الْتزم الجزية الصّغار. ومَن كان ملتجئًا إلى ممالكهم، فالسّيف على رقابهم.

وأهْل الإسلام لم يؤدُّوا إلى أحَد جزْية، ولا دخلوا تحت أحكام متسلّط في الدّين والدّنيا، بل الإسلام على عليتهم قاهر لهم قد بنيت المساجد بروميّة على صغر منهم وقمأة، لا يجسرون أن يمنعوا من بنيانهم إذعانًا لأهل الإسلام، وانقيادًا لهم.

فإن قال قائلٌ: فإنّ البيع، والكنائس، وبيوت النّيران في دار الإسلام.

قلنا: ليْس سبيل الكنائس، والبيع، وبيوت النّيران في دار الإسلام تلك السّبيل، لأنّ محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم- ترك هذه الأبنية اختيارًا لا اضطرارًا؛ ولو شاء، لأمر بقلعها؛ بل لو شاء، لَمَا ترك في دار الإسلام ذميًّا واحدًا. ولكن أراد أن تبقى رسوم الأنبياء في العالم، وشهد لهم بالتّصديق، وسالم أهْل المِلل بأخْذ الجزية منهم، لتبقى رسوم الأنبياء (ع)؛ فيكون حجّة الله -عزّ وجلّ- على خلْقه. ولولا ذلك لاستنّ فيهم بسنّة العرب؛ فإنّه لم يرضَ منهم إلاّ بالإسلام أو القتْل، ولم يقْبل منهم الجزية. ولو فعَل ذلك بأهل الملل، لكان قادرًا على ذلك. فلهذه العلّة أقرّ هذه الأبنية.

وليس سبيل المساجد بروميّة هكذا، لأنّ النّصارى لا تشْهد لمحمّد -صلّى الله عليه وسلّم- بالتّصديق، كما شهد محمّد لعيسى (ع). ولو قدرت الرّوم على إخبارها، لَمَا تركتها، ولكنّهم أقرّوها اضطرارًا.

ثمّ نقول: إنّ هذه الممالك، التي هي تحت أحكام القرآن، هي أعْدل الجزائر طبائع، وأفضل أقاليم الأرض؛ وهي أرض الأنبياء والرّسل، وفيها مبْعثهم؛ وهي منشأ

---

[1] في الأصل: لها.

الحكماء، وأهل الفضل؛ وقد صارت ممالك لأهل الإسلام، والإسلام قد طبّق العالم تطبيقًا. ولم يغلب أحدٌ من أهل سائر الملل أهل الإسلام في شيء من ممالكهم.

فهذا هو القهْر والغلبة والظُّهور الذي وعَد الله محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم- أن يظْهر دينه على الدّين كلّه، ولو كره المُشرِكون.

وقد أُنْجز له وعْده، وظهرت حجّته، وصحّت هذه الدّلالة الواضحة والمعجزة البيّنة، وبان صدقه؛ وهو -عزّ وجلّ- يتمّم ذلك كلّه له، حتّى يملأ الأرض عدلاً، كما مُلِئت جورًا، والله بالغ أمره ولو كره الكافرون.

وتأوّل قومٌ في هذه الآية: ﴿ليُظهره على الدّين كلّه ولو كره المُشرِكون﴾[1]، فقالوا: "إنّ الله وعد محمّدًا أن يظْهره على الدّين كلّه. فخرج عن الدّنيا، ولم يظهره على الدّين كلّه"، واحتجّوا بذلك.

وليست لهم حجّة في هذه الآية. قال -جلّ ذكره-: ﴿أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه﴾[2]، يعني: يظهر الدّين الذي أتى به محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وهو دين الحقّ، على الدّين كلّه، فالهاء في قوله: ﴿ليظهره﴾[3] راجعة على دين الحقّ؛ وقد ظهر دين الحقّ على الدّين كلّه. وهذا صحيحٌ من جهة اللّغة العربيّة، وليس لمعاند فيه مقالٌ. ولو كانت الهاء راجعةً على رسوله، لَكان[4] المعنى صحيحًا؛ لأنّ ظهور دينه على الدّين كلّه هو ظهوره. ولكن إذا أردتَ الهاء على دين الحقّ، سقطت حجّة المعاند، ولم يكن له مقالٌ.

---

[1] سورة الصفّ (61)، الآية 9.

[2] سورة الصفّ (61)، الآية 9.

[3] سورة الصفّ (61)، الآية 9.

[4] في الأصل: لكن.

الباب السّابع

الفصل الأوّل

الأنبياء أصل التّعاليم ومورّثو الحكماء

الآن، بعد فراغنا من القول في معجز محمّد (ص) الذي هو القرآن العظيم، وكشفنا عن الدّلالة الكبيرة له القائمة في العالم، وتكرير القول بذلك، لإيضاح المعاني التي فيه، وتنوير الحجّة؛ نقول في جواب ما ادّعاه المُلحِد:

إنّ الفلاسفة استدركوا هذه العلوم بآرائهم، واستنبطوها بدقّة نظرهم، وألهموا ذلك بلطافة طبْعهم؛ يعني ما في كتب الطبّ من معرفة طبائع العقاقير والخصوصيّات التي فيها؛ وما في المجسطي وبطليموس من معرفة حركات الفلك، والكواكب، وحساب النّجوم؛ وما فيه من اللّطائف والأحكام؛ وما في إقليدس من علم الهندسة، والمساحات، ومعرفة مقدار عرض الأرض وطولها، ومسافة ما بين السّماوات، وغير ذلك ممّا في هذه الكتب.

فزعَم المُلحِد أنّ ذلك كلّه باستنباط وإلهام، وأنّهم استغنوا عن أئمّتنا في ذلك، يعني: الأنبياء (ع).

ثمّ افْتخر وقال: إنّ نفْعها وضرّها أكْبر من نفْع كتب أهل الشّرائع وضرّها، وتبجّح بذلك.

ثمّ قال: أخْبرونا أين ما دلّت عليه أئمّتكم من التّفرقة بين السّموم، والأغذية، وأفعال العقاقير؟

أرُونا منْه ورقة واحدة، كما نُقِل عن بقراط وجالينوس الألف لا الآحاد؛ وقد نفعت النّاس.

وأرُونا شيئًا من علوم حركات الفلك وعلله نُقِل عن رجل من أئمّتكم، أو شيئًا من الطّبائع اللّطيفة الطّريفة، نحو الهندسة، وغير ذلك من أمر اللّغات، لم تكن معروفة اخْترعها أئمّتكم.

ثمّ قال: إن قلتم إنّ هذا كلّه أخذ أصلَه من أئمّتنا؛ قلنا: هذه دعْوى غير صحيحة ولا مُسلَّمة لكم. وإنّا لنعْرف ما تدّعون أنّه من الآن، أئمّتكم؛ وهو الضّعْف الوقح الذي شاع ذكْره في عوامّ النّاس وخواصّهم.

ثمّ قال: فإن قلتم: فمن أين عرف النّاس أفعال العقاقير في الأبْدان، وحركة الفلك؟ وبأيّ لغة تُدعى النّاس إلى اختراع اللّغات؟ فإنّ لنا في ذلك أقاويل تستغني عن أئمتكم.

فمنْها ما تكون مُستخرَجة على رسومها المعروفة المشورة عند أهلها، كالأرصاد للنّجوم، ومعرفة أفعال العقاقير في الأبدان، ومعرفة قوامها بالطّعوم والأرائح.

ومنْها ما أُخِذت أوّلاً عن أوّل إلى نهاية الزّمان.

ومنْها أن تكون معرفتها بالطّبع، كما يُحسِن الإوزُّ السّباحة من غير تعليم من أئمّتكم؛ ويدْحض الاحْتجاج الذي احتججْتم به.

هذا قوْل المُلحِد حكيْته على وجْهه.

ونقول في جوابه: أمّا القول في باب نفع[1] الكتب التي ذكرها وضرّها، وفي تفضيله إيّاها على القرآن العظيم، وعلى سائر الكتب المُنزّلة؛ فقد شرحْنا ما فيه كفاية لِمَن أنصف، ولم يعاند، ولم يغشّ نفسه. ﴿فأمّا مَن طَغى وآثر الحياة الدّنيا فإنّ الجحيم هي المأوى وأمّا مَن خاف مقام ربّه ونهى النّفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى﴾[2].

وأمّا هذه الكتب التي ذكرها، وذكر أنّها عن أئمّتهم، فإنّا نقول: إنّها من رسوم الحُكماء الصّادقين المُؤيَّدين من الله -عزّ وجلّ-، وليس أسماء أئمّتهم فيها إلاّ عارية، وهذه الأسماء التي تُنسَب هذه الكتب إليها، مثل جالينوس[3]، وبقراط[1]، وإقليدس،

---

[1] في الأصل: النفع.

[2] سورة النّازعات (79)، الآيات 37 إلى 41.

[3] ظهر جالينوس بعد ستّمائة وخمس وستّين سنة من وفاة بقراط، وانتهت إليه الرّئاسة في عصره. وهو الثّامن من الرّؤساء الذين أوّلهم أسقلبيلدس مخترع الطبّ. وكان معلّم جالينوس: أرمينيوس الرّومي. وأخذ عن أغلوقن، وله إليه مقالات، وبينهما مناظرات. وقيل: كان جالينوس في أيّام ملوك الطّوائف في أيّام قباذ بن سابور بن أشغان. وكان جالينوس وجيهًا عند الملوك كثير الوفادة عليها، كثير التّنقّل في البلدان، وأكثر أسفاره إلى مدينة روميّة. وكان جالينوس كثيرًا ما يلتقي مع الإسكندر الأفروديسي. وكان الإسكندر يلقّبه برأس البغل لعظم رأسه. وتوفّي جالينوس في أيّام ملوك الطّوائف، وبين المسيح وبينه سبع وخمسون سنة، المسيح -عليه السّلام- أقدم منه. وقد نُقل إلى العربيّة أكثر من سبعين كتابًا لجالينوس على حدّ الكشف الذي حدّده ابن النّديم في *الفهرست*.

حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص289. بيروت. د. ت.

[1] هو ابن إقليدس بن أبقراط ولد ب جزيرة كوس حوالي سنة 460 قبل الميلاد وهو أشهر الأطباء الأقدمين. عاش خمسة وتسعين سنة، تعلم خلالها الطب من أبيه وجده وبرع فيه. لما رأى أن العلوم الطبية آخذة في الانقراض بانقراض أعلامها ونوابغها رأى أن الذريعة لحفظها هو إذاعتها في سائر أرجاء العالم وتسهيل تناولها على الناس أجمعين لتصل إلى النفوس المستعدة للنبوغ فيها قائلا: "إن الجود بالخير يجب أن يكون على كل أحد يستحقه قريبا كان أو بعيدا". يعد أبقراط أول من دون الطب، وسلك في تأليف الكتب ثلاث مسالك، فكتب بعضها بطريق الألغاز، وبعضها بطريقة الإيجاز، وفي مسلكه الثالث اعتمد البيان والتصريح، وقد علم عنه العرب نحوا من ثلاثين كتابا وقيل ستين كتابا منها كتاب الأجنة وكتاب طبيعة الإنسان وكتاب الأهوية والمياه والبلدان وكتاب الفصول وغيرها. نقل إلى العربية في العصر العباسي عدد من الكتب التي تحمل اسمه ذكر منها صاحب الفهرست (كتاب عهد بقراط بتفسير جالينوس)، الذي ترجمه حنين إلى السّريانية وأضاف إليه، وترجمه حبيش وعيسى بن يحيى إلى العربية، وكتاب (الفصول بتفسير جالينوس) الذي ترجمه حنين إلى العربية، وكتاب (تقدمة المعرفة بتفسير جالينوس) فقد ترجم حنين متنه إلى العربية ثم ترجم التفسير عيسى بن يحيى، وكتاب (الأمراض الحادة بتفسير جالينوس)، وهو خمس مقالات ترجم عيسى بن يحيى ثلاثاً منها، وكتاب (الكسر بتفسير جالينوس) ترجمه حنين إلى العربية، وكتاب (إبيديميا) نقله إلى العربية عيسى بن يحيى، وكتاب (الأخلاط بتفسير جالينوس (نقله إلى العربية عيسى بن يحيى، وكتاب (قاطيطيون بتفسير جالينوس) ترجمه حنين إلى العربية، وكتاب (الماء والهواء بتفسير جالينوس) ترجم حنين متنه إلى العربية وترجم التفسير حبيش بن الحسن، وكتاب (طبيعة الإنسان بتفسير جالينوس)، ترجم حنين متنه إلى العربية وترجم التفسير عيسى بن يحيى. وورد في دائرة المعارف الإسلامية: لم يكتف علماء المشرق بترجمة مؤلفات هذا الطبيب اليوناني العظيم ولكنهم أضافوا إليها شروحاً وتفاسير، وفسروا كتابيه (تقدمة المعرفة والفصول). كذلك كتب ثابت بن قرة موجزاً لكتاب بقراط عن الماء والهواء والبلدان، وصنف الفيلسوف الكندي الطب الأبقراطي عن منهج أبقراط في الطبّ. أصبح من الثابت أن الكتب التي تنسب إلى أبقراط ليست من عمل رجل واحد، ومن العسير التفريق بين الكتب التي وضعها وتلك التي ألفها تلاميذه المقربون أو التي كتبها بعض المؤلفين المتأخرين الذين تأثروا بما أحاط به من شهرة فنسبوا الكتب له. توفى أبو الطب سنة 377 قبل الميلاد بعد أن وضع أساس الطب. تحتفل اليونان بيوم أبقراط في 19سبتمبر من كل عام. وقد أعلن 19سبتمبر عام 2003 يوم عالمي لأبقراط.

انظر ترجمته في: أبقراط عدنان تكريتي الموسوعة العربية دائرة معارف القرن العشرين – المجلد الأول لمحمد فريد وجدي، دار المعرفة للطباعة والنشر لبنان .عيون الأنباء في طبقات الأطباء -لابن أبي أصيبعة.

وبطليموس[1]، وغير ذلك ممّا يشاكلها،؛ فهي أسماء كُني بها عن أسماء الحُكماء الذين وضعوا هذه الكتب. وهذه الكتب هي مبْنيّة على الحكمة الصّحيحة، والأصول المُنتظِمة.

وقد كنتُ ناظرتُ المُلحِد على أشياء في كتاب بلينس[2]، وقد كان ذكر لنا أن صاحب هذا الكتاب "حدوثيّ"، وأنّه كان في هذه الشّريعة، وتَسَمّى بهذا الاسم، ووضَع هذا الكتاب. وقد ذكرنا شيئًا من كلامه، والأمثال التي ضربها في كتابه.

فذاكرتُ المُلْحِد بذلك، فقال: "هذا هو صحيحٌ، وقد عرفناه، واسْم هذا الرّجل فلان، وكان أيّام المأمون[3]، وكان حكيمًا متفلسفًا. وهكذا كنّا سمعْناه من غيره. فهذا الرّجل سلك

---

[1] هو صاحب كتاب *المجسطي*، عاش في أيّام أدريانوس وأنونينوس، وفي زمانهما رصد الكواكب، ولأحدهما عمل كتاب *المجسطي*. وهو أوّل مَن عمل الإسطرلاب الكريّ والآلات النّجوميّة والمقاييس والأرصاد. ويُقال إنّه رصد النّجوم قبله جماعة منهم أبرخس، وقيل إنّه أستاذه وعنه أخذ، والرّصد لا يتمّ إلاّ بآلة، فالمبتدئ بالرّصد هو صانع الآلة. والكلام على كتاب *المجسطي*. وأوّل مَن عني بتفسيره وإخراجه إلى العربيّة: يحيى بن خالد بن برمك، ففسّره له جماعة فلم يتقنوه؛ ولم يرض ذلك، فندب لتفسيره أبا حسّان وسلم صاحب بيت الحكمة فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النّقلة المجوّدين، فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحّه. وقد قيل أنّ الحجّاج بن مطر نقله أيضا. وله من الكتب بعد ذلك كتاب *الأربعة*، كتاب *المواليد*، كتاب *الحرب والقتال*، كتاب *في الأسراء والمحبوسين*، كتاب *في أسر السّعود واصطناعها*، كتاب *المرض وشرب الدّواء*، كتاب *اقتصاص أحوال الكواكب*... حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص267– ص268. بيروت. د. ت.

[2] في الأصل: بليناس.

[3] هو عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، أبو العبّاس المأمون بن الرّشيد بن المهديّ. وُلد سنة 170 هـ. وتوفّي سنة 218 هـ.، وكانت خلافته عشرين سنة وستّة أشهر. قرأ العلم في صغره وسمع من هشيم وعباد بن العوامّ ويوسف بن عطيّة وأبي معاوية الضّرير وطبقتهم. وروى عنه يحيى بن أكثم وجعفر بن أبي عثمان الطّيالسي والأمير عبد الله بن طاهر. وبرع في الفقه والعربيّة وأيّام النّاس. ولمّا كبر علي بعلوم الأوائل ومهر في الفلسفة، فجرّه ذلك إلى القول بخلق القرآن. ولمّا خلعه الأمين غضب ودعا إلى نفسه بخراسان.فبايعه النّاس. وادّعى المأمون الخلافة وأخوه حيّ في آخر سنة 195 هـ. إلى أن قتل الأمين، فاجتمع النّاس عليه ببغداد في أوّل سنة 198 هـ. رجع عن إباحة المتعة، ولكنّه لم يرجع عن مسألة خلق القرآن، وصمّم عليها في سنة 218 هـ.، وامتحن العلماء. وفي نفس السّنة توجّه غازيًا إلى أرض الرّوم، فلمّا وصل البدندون مرض، وأوصى بالخلافة إلى أخيه المعتصم، ثمّ توفّي بالبدندون، فحمله ابنه العبّاس إلى طرسوس، ودفنه بها في دار خاقان خادم أبيه.

سبيل أولئك الحُكماء القُدَماء، وتسمّى بهذا الاسم الذي يشاكل تلك الأسماء، وكلامه من ذلك النّوع؛ ولكنّه قد جرّد القول في التّوحيد، وردّ على أصحاب الاثنيْن وسائر المُلحِدين، وأثبت حدث العالم، وأوْرد في ذلك حججًا كثيرة قويّة؛ ثمّ تكلّم في كوْن العالم، وعلى عِلَل الأشياء، وضرب أمثالاً كثيرةً، منها سهلة تلْحق معانيها، ومنها مُستغلِقة. وهكذا كان سبيل سائر الحكماء الذين تسمّوا بهذه الأسماء.

وقرأتُ في كتاب دانيال[1] أنّ بخت نصر لمّا فتح بيْت المقْدس وسبى أهْله، انْتخب غلمانًا من ذلك السَّبْي لخدْمته، وكان فيهم دانيال؛ فكانوا يخدمونه، حتّى رأى تلك الرّؤيا؛

حول ترجمته راجع: *فوات الوفيّات*، ج2/ص235 إلى ص239؛ الزّركشي، ص156؛ الرّوحي، ص51؛ *تاريخ الخلفاء*، ص355 إلى ص384؛ الفخري، ص197؛ *خلاصة الذّهب المسبوك*، ص186؛ *تاريخ بغداد*، ج10/ص183؛ *تاريخ* الخميس، ج2/ص334؛ *البدء والتّاريخ*، ج6/ص112.

[1] النّبيّ دانيال كان ممن تم أسرهم ونقلهم إلى بابل إبان السبي البابلي لبيت المقدس وتدميرها على زمن نبوخذ نصر. ودانيال نبي من أنبياء بني إسرائيل ممن لا يُعلم وقته على اليقين، إلا أنه كان في الزمن الذي بعد داود ، وقبل زكريا و يحيى عليهم السلام، وكان في الوقت الذي قدم فيه بختنصر إلى بيت المقدس وخربه، وقتل فيه من قتل من بنى إسرائيل وسبى من سبى وأحرق التوراة. وقيل: إنه أسر دانيال الأصغر، وقيل: بل وجدوه ميّتًا عندما دخل بختنصر بيت المقدس، والظّاهر أنّه كان في بني إسرائيل دانيال الأكبر و دانيال الأصغر. والله أعلم. وقد أورد ابن أبي الدّنيا بإسناده إلى عبد الله بن أبي الهذيل أن بختنصر سلط أسدين على دانيال بعد أن ألقاه في جُب –أي بئر– فلم يفعلا به شيئًا. فمكث ما شاء الله ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب، فأوحى الله إلى أرمياء، وهو من أنبياء بني إسرائيل، وهو بالشّام أن أعد طعامًا وشرابًا لـــ دانيال. فقال: يا رب أنا بالأرض المقدسة، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله إليه أن أعد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب، فقال دانيال من هذا؟ قال أنا أرمياء فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلني إليك ربك، قال: وقد ذكرني ربي؟ قال :نعم. فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي يجيب من دعاه، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانًا. والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي هو يكشف ضرّنا وكربنا، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنّا... واشتهر أنّ الصحابة عثروا على قبره عندما فتحوا (تستر) ثمّ أمرهم عمر بن الخطّاب أن يغيبوا قبره خشية أن يتّخذه النّاس معبدًا أو يشرك بالله عنده. وقيل إن الذي وجدوه رجلاً صالحًا. والأوّل أشهر. وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناد حسن –كما قال الحافظ ابن كثير– عن أبي الزناد قال: رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتما نقش فصه (أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرّجل) قال أبو بردة وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة

فسأل السَّحَرة، وأصحاب الرّقى، والمجوس[1]، والكلدانيّين، والمُنجّمين، والكَهَنة عنها وعن تعبيرها؛ فلم يخبروه بها، ولم يقْدروا على ذلك؛ فأخْبره به دانيال وعبّرها له، فقال له بخت نصر: "ليس في جميع مملكتي مَن يقدر أن يخبرني بها وتعبيرها، وأنت يا دانيال تقْدر على ذلك، لأنّ فيك روح الله الطّاهرة، وأنت اسْمك بلطشاسر".

ثمّ رأى بعد ذلك رؤيا أخرى، فقال: "أدخلوا إليَّ دانيال عظيم الحُكماء الذي سمّيته باسم إلهي بلطشاسر"؛ فأدخلوه إليه، فعبّرها له بعد أن أخبره بها، وقال: "بلطشاسر معناه، صورة بال، وهو الوثَن الذي كانوا يعبدون".

وإنّما ذكرْنا هذا لما قلنا إنّ هذه الأسماء، التي نُسبت إليها هذه الكتب، هي كنايات عن الحكماء الذين وَضَعوها، ولها معانٍ يعرفها مَن يعرف تلك اللّغة، وتَسمّى بها أولئك الحكماء، وكنّوا بها عن أسمائهم.

ثمّ تشبّه بهم هؤلاء الكذّابون الضُلاّل الذين نظروا في تلك الرّسوم، وعوّلوا عليها دون التّمسّك برسوم أصحاب الشّرائع، وتأسّوا بآرائهم وتعمّقوا، وابتدعوا تلك الوَسَاوس[2] الكبيرة التي زعموا أنّها حكمة وفلسفة، وأنّهم سلكوا مسالك الحُكماء، وتكلّموا في الباري

أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه أي يوم دفن دانيال. قال أبو بردة فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا: إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه، جاءه المنجّمون وأصحاب العلم، فقالوا له: إنه يولد كذا وكذا غلام يُذهب ملكك ويفسده، فقال الملك: والله لا يبقى تلك الليلة مولود إلاّ قتلته. إلاّ أنّهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضراه. فجاءت أمّه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك، حتّى بلغ ما بلغ. قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسديْن يلحسانه في فصّ خاتمه لئلاّ ينسى نعمة الله عليه في ذلك.

[1] في *موسوعة الإسلام المختصرة* (ج /ص298): "اللّفظة مرّت قبل وصولها إلى اللّغة العربيّة بنقل من اللّغة الفارسيّة إلى الآراميّة". واللّفظة وردت في القرآن الكريم فيَ الآية 17 من سورة الحجّ. وفي *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245): "المجوسيّة دين قديم، وإنّما زرادشت جدّده وأظهره وزاد فيه، قاله شيخنا، قال: هو معرّب أصله منج كوش معرّب مجوس". ومسائل المجوس، كما يذكر الشّهرستاني في *الملل* (ج1/ص232) تدور على قاعدتين اثنتين: أوّلهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة؛ وثانيهما: بيان خلاص النّور من الظّلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا. وقد قسّمها إلى ثلاث جماعات: الكيومرثيّة: الذين أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن، والأوّل أزليّ والثّاني محدث. والزّروانيّة: قالوا: إنّ الله أبدع أشخاصا من نور كلّها روحانيّة نورانيّة ربّانيّة، ولكنّ الشّخص الأعظم الذي اسمه زروان شكّ في شيء من الأشياء، فحدث أهرمن الشّيطان، يعني إبليس. والزّرادشتيّة.

[2] في الأصل: الوسواس.

–جلّ وعزّ–، وفي مبادئ الأشياء، وتحيّروا فيها وتاهوا؛ وزعموا أنّهم يستخرجون بفطنهم وطبْعهم ما أغفله مَن تقدّمهم من الحُكماء.

فأوْردوا هذه الوَساوس التي ذكرناها، وذكرْنا اختلافهم فيها، وتنازعهم، وتحيّرهم، وتناقضهم، وانْهماكهم في تلك الضّلالات؛ كما زعم المُلحِد أنّه استدرك بفطْنته ما لم يفطن له مَن تقدّمه، وابتدع مقالته السّخيفة، وزعم أنّه نظير بقراط في الطّب، وسقراط[1] في استخراج اللّطائف.

وهكذا كان سبيل أولئك الكذّابين الذين تقدّموه ممَّن تشبّهوا بالفلاسفة، وتسمّوا بأسمائهم، واتّخذوا الإلْحاد شريعة ورسمًا، ودانوا بالتّعطيل.

وقد رأيتُ مَن كانت سبيله هكذا، وكان قد تسمّى بنسطلوس وآخر بنسطوس.

فهكذا كان سبيل هؤلاء الكذّابين.

فأمّا الحُكماء الأوائل المُحِقّون الذين وضعوا هذه الرّسوم الصّحيحة في النّجوم، والطّب، والهندسة، وغير ذلك من علم الطّبيعة؛ فإنّهم كانوا حكماء أهْل دهرهم، وأئمّة في أعصارهم، حُجَج الله على خلْقه في أزمنتهم؛ وأيّدهم الله بوحْي منه، وعلّمهم هذه الحكمة.

فكلّ واحد منْهم أُعطِي نوعًا من الحكمة.

فمنْهم مَن أُعطي علم الطّب، وغير ذلك من علوم الهندسة والطّبائع، فأخرجوها إلى النّاس، وأخذها عنهم النّاس لمّا أراد الله –عزّ وجلّ– أن يعرّف خلْقه ما في هذه الأصول من الحكمة، وليُظهر مراتب هؤلاء الأنبياء في أزْمِنتهم، وتظهر حُجَج الله على خَلْقه على ألْسِنتهم.

كما قد رُوِي أنّ أصْل علم النّجوم من إدريس النّبيّ (ع).

وتأوّل قوْمٌ في قول الله –عزّ وجلّ– في قصّة قوله: ﴿ورفعْناه مكانًا عليًّا﴾[2] أنّ الله –عزّ وجلّ– رَفَعه إلى الجبل الذي هو في سرّة الأرض، وبعث إليه ملكًا، حتّى علّمه

---

[1] هو سقراط بن سقراطيس، من أهل مدينة أثينا. وقد تكلّم سقراط على الفلسفة بكلام لم يدروا منه كثير شيء. والذي خرج من كتبه: *مقالة في السّياسة*، وقيل إنّ رسالته في السّيرة الجميلة له صحيح. وسقراطيس معناه ماسك الصحّة. وكان زاهدًا خطيبًا حكيمًا، وقتله اليونانيّون لأنّه خالفهم. وكان الملك الذي تولّى قتله: أرطاخشت. ومن أصحاب سقراط: أفلاطون. وقال إسحاق بن حنين: عاش سقراط قريبًا ممّا عاش أفلاطون، وقد عاش أفلاطون ثمانين سنة.

حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص245.

[2] سورة مريم (19)، الآية 57.

أسباب الفلك، وما فيه من الحدود والبروج والكواكب، ومقْدار سيرها؛ وسائر ذلك من علوم النّجوم.

وقالوا إنّ هرمس المذكور في الفلاسفة هو إدريس، فاسْمه في الفلسفة: هرمس، وفي القرآن: إدريس.

وهذان الاسمان مشاكلان لتلك الأسماء، مثل: جالينوس، وأرسطاطاليس[1]، وغير ذلك ممّا في آخرها "سين"؛ واسمه في سائر الكتب المُنزّلة: أخنوخ.

فهذا دليلٌ بأنّهم كانوا يُكنّون بهذه الأسماء، وعلى هذا التّقطع، عن أسماء الأنبياء.

وممّن ذُكِر منهم في القرآن: إلياس وإدريس؛ ومَن هو مذكور عند أهل الكتاب من الأنبياء والحُكَماء: شمعون تلميذ المسيح (ع)، كان يُقال له فطروس، وأخوه أيضًا -أحد الاثني عشر- اسمه: أندريوس؛ ومن الحواريّين الاثني عشر فيلوس ومارقوس -أحد الأربعة-، وملغوس الرّسول المُطاع فيهم؛ ومن الأنبياء المذكورين عندهم، سراقسيس، وآغاينوس، ولوقس، وبولس، وفيلدفيوس.

فهذه أسماء الأنبياء والحُكماء، ومثْلها أسماء كثيرة، وهي تشاكل أسماء الفلاسفة القُدماء الذين وَضعوا كتب الطّب، والنُّجوم، والهندسة، وكنّوا عن أنفسهم بهذه الأسماء؛ كما ذكرنا من شأن إدريس أنّه أوّل مَن علّم النّاس علم النّجوم، وأنّه هرمس المعروف عند الفلاسفة بهذا الاسْم.

---

[1] يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطرن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر، فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، و يسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف له. فمن ذلك قول سمّاه *ثالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه *خرميدس* في العفّة، قولان سمّاهما *القيبادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245–ص246. بيروت. د. ت.

فإن قال قائل: فلِمَ نهى محمّدٌ -صلّى الله عليه وسلّم- عن النّظر في النّجوم، وهي من علوم الأنبياء؟

قلْنا: لأنّه أمرٌ منسوخٌ، وسبيله سبيل سائر رسوم الأنبياء المنسوخة، المُنهى عنها. فأمَرَهم أن لا يشتغلوا به عن النّظر في شرائع الإسلام، ولم يُحرّمه تحريمًا جزمًا.

إنّما نهى عنه ترغيبًا عنه، ولأنّ الإنسان إذا تعمّق فيه، ولم يكن مُستبصِرًا بالشّرائع، وبأمْر التّوحيد، ولطائف العلوم الحقيقيّة، تحيّر وأدّاه ذلك إلى الإلْحاد، ويكون سبيله سبيل هؤلاء الضّالّين الذين تسمّوا بالفلاسفة؛ فنهى عن التّعمّق فيه.

ولأنّ النّاظر فيه يتكلّف ما لا يحْسنه، ويكْذب، ويتشبّه بالكهّان، ويغلو في القول، ويُكثر الدّعاوي الباطلة في الأحكام.

كما رُوي عنه أنّه قال: "إيّاكم والنّظر في النّجوم، فإنّه يدعو[1] إلى الكهانة"؛ فرغّب -صلّى الله عليه وسلّم- بالمسلمين[2] عن الكذب، والدّعاوي الباطلة، وما يخاف عليهم من ذهول العقل، إذا لم يكونوا مستبصرين في الدّين.

فهذه هي العلّة في النّهي عن النّجوم، والنّظر فيه، ولم يحرّمه تحريمًا. ولو حرّمه، لا جاز لمسلم أن ينظر فيه أصلاً، ولَكان سبيله سبيل الأشياء المُحرّمة مثل الخمْر، والميّتة، والدّم، ولحم الخنزير.

فعلْم النّجوم أصله من إدريس (ع)، وهرمس هو إدريس، وهو نبيٌّ، وهو من أئمّتنا، لا من أئمّة المُلحِدين؛ وكان بيْنه وبيْن آدم (ع) خمسة آباء.

وأمّا معرفة طبائع الأشياء، فإنّ الله -عزّ وجلّ- لمّا خلق آدم (ع)، وكان جسده مُركّبًا من طبائع الأرض وغذاؤه ممّا أخرجتْ الأرض، وكانت الطّبائع مُتضادّة مُتشاكِلة

---

1 في الأصل: يدعوا.

2 يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج1/ص40-ص41): "فرق في التّفسير بين الإسلام والإيمان. والإسلام قد يرد بمعنى الاستسلام ظاهرا، ويشترك فيه المؤمن والمنافق. قال الله -تعالى-: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ (سورة الحجرات (49)، الآية 13)، ففرّق التّنزيل بينهما. فإذا كان الإسلام بمعنى التّسليم والانقياد ظاهرا موضع الاشتراك، فهو المبدأ؛ ثمّ إذا كان الإخلاص معه بأن يصدّق بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، ويقرّ عقدا بأنّ القدر خيره وشرّه من الله تعالى، بمعنى أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ كان مؤمنا حقّا. ثمّ إذا جمع بين الإسلام والتّصديق، وقرن المجاهدة بالمشاهدة، وصار غيبه شهادة؛ فهو الكمال. فكان الإسلام مبدأ والإيمان وسطا والإحسان كمالا، وعلى هذا شمل لفظ المسلمين: النّاجي والهالك".

ضارّة ونافعة، علّم -عزّ وجلّ- آدم الأسماء كلّها؛ إذ كان بدنه وأبدان ولده لا تصحّ إلاّ بالغذاء؛ والغذاء منه ما يضرّ، ومنه ما ينْفع؛ وإذ كانت الأدواء تلْحق أبدانهم، ولا بدّ لكلّ داءٍ من دواء؛ فعرّفه -عزّ وجلّ- من أيّ شيء يتولّد الدّاء، وما دواء كلّ داء، إذ لم يستغْنِ عن ذلك.

وإذ كان الله -عزّ وجلّ- أرْحم به وبولده أن يدووا، ولا يعرفوا لأدوائهم أدْوية، فعلّمه هذه الطّبائع كلّها، وعلّم هو ولده، فوَعى ذلك منهم مَن وَعَى، ونسي مَن نسي.

ثمّ أخذه الخَلَف عن السّلَف، كما قال الله -عزّ وجلّ- في القرآن العظيم: ﴿وعلّم آدَمَ الأسماء كلّها﴾[1]، فعلّمه كلّ شيء يحتاج إليه من أمْر دينه ودُنياه.

ولم يجز في حكمة الله إلاّ هكذا، لأنّهم لم يستغنوا عن عبادة الله -عزّ وجلّ- ومعْرفته طرْفة عيْن، ولا جازت لهم الحياة في هذا العالم يومًا واحدًا، إلاّ ويعرفون ما يُصلْح أبدانهم، وما يُفسدُها، وما يضرُّها، وما ينفعُها.

فهذه هي النّهاية في معرفة طبائع الأشياء التي ذكرها المُلحِد، وقال: "أخَذه الأوّل عن الأوّل إلى نهاية الزّمان"، وقد صدق في هذا القول، ولكنّ النّهاية ليست ما ذهب هو إليها أنّ نهايتها إلى بقراط وجالينوس. وذكر أنّه روى عنهم الألف والآحاد من الطّب ومعرفة العقاقير.

فما خبرُ الأُمَم الذين كانوا قبل بقراط وجالينوس؟ هل استغنوا عن معرفة العقاقير أم لا؟ فإنّ الذين مشوا قبلهما كانوا في مثل طبائع مَن كان بعدهما إلى يومنا هذا!

وإن كان قبْل بقراط وجالينوس مَن عرف طبائع العقاقير، فإنّهما أخذَا عمّن تقدّمهما إلى أن ينتهي الأمْر فيه إلى بدْء الخلْق الذي هو آدم (ع)، وهو النّهاية.

وإن كان بقراط وجالينوس زادَا[2] شيئًا، فإنّ سبيلهما ما قد ذكرنا أنّهما قدرَا على ذلك بتأييد من الله -عزّ وجلّ ذكره-، ووَحْي منه.

ومَن كانت سبيله هكذا، فهو نبيٌّ مؤيّدٌ من الله، والأنبياء هم أئمّتنا، لا أئمّة المُلحِدين. ولا ينكر أنّه[3] -عزّ وجلّ- يوحي إلى الأنبياء فيما ينْساه النّاس ممّا يحتاجون إليه، ويجدّد التّعليم لهم بذلك.

---

[1] سورة البقرة (2)، الآية 31.

[2] في الأصل: زاد.

[3] في الأصل: أن.

كما قالوا إنّ المسيح (ع) كان لا يمرّ بحجر ولا شجر إلاّ وكلّمه. فليس معنى الكلام هاهنا معنى المجاوبة، إنّما معناه: الاعتبار والاستدلال. ومَن أعتبر بالشّيء، وعلم ما فيه من النّفع والضرّ، فقد كلّمه ذلك الشّيء. وهذا بابٌ مشهورٌ عند أهل المعرفة والتّمييز.

فهكذا كان أمْر المسيح (ع)، كان لا يمرّ بشيء إلاّ ويعرف طبْع ذلك الشّيء بوحْي من الله -عزّ وجلّ-.

وهكذا كان سبيل الحكماء الذين وضعوا هذه الرّسوم، ولم يقدروا على ذلك إلاّ بوحْي من الله وبتأييد منه، وكانوا أنبياء؛ ولا يقْدر أحدٌ أن يعرف طبيعة شيء بعقْله وفطْنته، ولا يصحّ ذلك من جهة العقول.

وقد أحال المُلحِد حين زعَم أنّ ذلك باستخراج، وإلْهام، ونظَر، وتجارب بالذّوق والأرائح، وغير ذلك ممّا ذكَره؛ وزعم أنّهم أُلهموا هذه في طبْعهم من غير تعْليم؛ وأنّ الله أغناهم عن أئمّتنا، كما أُلْهم الإوزّ السّباحة بالطّبع، وأغناها عن أئمّتنا.

وأقول: "سبحان الله!" تعجّبًا من المُلحِد! كيف اهْتدى لهذه الحجّة التي تشبه عمى قلْبه، وقلّة عقْله، حين ادّعى أنّ الحكماء أُلهموا استخراج هذه اللّطائف من غير تأييد من الله -عزّ وجلّ-، ومن غير تعليم من الأئمّة، بل بطبْعهم، كما يسبح الإوزُّ بطبعه؛ وأنّهم لم يحوجوا إلى أئمّتنا، كما لم يحوج الإوزّ إلى أئمّتنا؟!

أوَلَم يعلم الجاهل أنّ الأمْر لو كان أيضًا كما ادّعاه، أنّهم استخرجوا هذه الأشياء بالطّبع، لَمَا وجب أن يشبّه هذا الإلْهام والطّبع بإلْهام الإوزّ وطبْعه؛ لأنّ الإوزّ مطبوعٌ على السّباحة، لا يحتاج في ذلك إلى فكْر، ولا استنْباط؛ كما قد طُبع جميع الحيوان على شيء ما: فطُبع الطّير على الطّيران في الهواء، ودوابّ الماء على السّباحة في الماء. وكلُّ جنْس لا يقدر أن يخالف ما قد طُبع عليه، لأنّه مُجبَرٌ على ذلك لا مُختارٌ؟!

فمنْه ما يطير ويسْبح، كالإوزّ؛ ومنه ما يسْبح ولا يطير، كالسّمك؛ ومنه ما يطير ولا يسْبح، كالحمام. والإوزُّ مطبوع على السّباحة والطّيران، صغارها وكبارها مطبوعة على ذلك؛ كما ترى فراخها، إذا انفْلق عنها البيض، سبَحت؛ وليْس في كلّ الإوزّ واحدة تخالف هذا الطّبع.

وكذلك سائر الحيوان، ليس جنْس إلاّ وكلُّه لا يخالف ما طُبِع عليه، لأنّها مطبوعة على ذلك.

وليس حكْم البَشَر في استخراج العلوم واستنْباطها هكذا؛ لأنّه ليس في ألْف إنسان، وما فوْق ذلك من العدد، إلاّ واحدٌ يقْدر على استخراج هذه اللّطائف، إذا صحّت أيضًا دعْوى المُلحِد من جهة الطّبع والإلْهام.

وأصحاب المعرفة بالحساب، والهندسة، والنّجوم، والطّب عددهم قليل جدًّا ما بين هذا الخلْق الكثير. ولو كان مثالهم في استخراج هذه اللّطائف بالطّبع، كما يسبح الإوزّ بالطّبع، لَوَجب أن يكون النّاس كلّهم حُسّابًا، ومُهندِسين، ومُنجِّمين، وأطبّاء؛ ووَجَب أن لا يكون أصحاب الهنْدسة، والأطبّاء، والمنجّمون مخصوصين بذلك دون سائر النّاس، لأنّ الإوزّ كلّه يسبَح صغاره وكباره؛ ولَوجب أن يرْتفع عنهم باب التّعليم، كما قد ارْتفع عن الإوزّ باب التّعليم في السّباحة، فكانوا لا يحتاجون إلى أئمّتنا، كما لا يحوج الإوزُّ إلى أئمّتنا.

فإن زعَم زاعمٌ أنّ كلّ النّاس لو صرفوا هِمَمهم إلى ذلك، لَكانوا مهندسين، وحسّابًا، ومنجّمين، وأطبّاء؛ كما احتجّ به المُلحِد حين زعم أنّ النّاس، لو صرفوا هِمَمهم إلى تعلّم الفلسفة بطبْعه، قبل أن عرف أصول الفلسفة، ونظر في قوانين الفلاسفة، وقبل أن ابْتدأ بالتّعلّم من تلك الأصول، ثمّ نظر وقاس بعد التّعلّم؟ فإن قال: "نعم"، فقد باهَت وكابَر. وإن قال: "لا"، فهذا أوّله التّعلّم، ثمّ بعد ذلك نظرٌ وقياسٌ.

وإنّ الإوزّ لا يحتاج إلى تعلّم في ابتداء أمْره، لا إلى مسبّح ولا إلى معلّم على وجْه السّباحة، بل كلّها تسبح طبعًا صغارها وكبارها، كما ذكرنا.

والإنسان لا بدّ له من التّعلّم في أوّل أمْره، وإن ترك التّعلّم في أوّل أمْره، لم يدْرك بطبْعه شيئًا؛ وليس ذلك في وسْعه، ولا هو مطبوعٌ عليه؛ ولا مُجبَرٌ عليه[1]؛ ولا بدّ له من الرّجوع إلى إمام يعلّمه، وإلاّ لم ينفعه طبْعه، ولم يُغْنه شيئًا؛ كما استغْنى الإوزُّ عن التّعلّم من أئمّتنا، والرّجوع إليهم.

وإنّما يفْعل الإنسان بطبْعه الأشياء التي لا يقْدر على مخالفة طبْعه فيها، مثل فعْله بالحواسّ كالنّظر، والسّمع، والشّم، والذّوق، واللّمس؛ فإنّه مُجبَرٌ على ذلك؛ إذا نظر إلى الشّيء، رأى؛ وإذا وقَع الصّوت في أذنه، سمع؛ وإذا وقعت في خياشيمه ريح، شمّها. هذا إذا سلمتْ حواسُّه.

---

[1] في الأصل: فيه.

ثمّ هو مطبوعٌ على المشْي برجليْه، والتّناول بيديْه[1]. فالنّاس كلّهم قد طُبعوا على هذا، كما طُبع الإوزّ على السّباحة؛ واستووا فيه، كما أنّ الإوزّ قد استوى في السّباحة.

فهذا الطّبع من النّاس هو الذي يشاكل طبع الإوزّ في السّباحة. وكلُّ جنس الحيوان هو مطبوعٌ على فعْله، لا يخالف ما طُبع عليه؛ والإنسان هو مطبوعٌ ومُخيَّرٌ، قد شارك الحيوان فيما طُبع عليه، وخُصّ بما هو مُخيّرٌ فيه؛ مثل تعلُّم العلوم التي النّاس فيها خاصٌّ وعامٌّ؛ ومنهم مَن ليس في وسْعه أن يتعلّم حرفًا واحدًا. ولا بدّ أن يكون فيهم إمامٌ ومأمومٌ، وعالمٌ وجاهلٌ.

وهذا بابٌ لا يخْفى على عوّام النّاس، فكيْف على أهْل المعرفة والتّمييز؟!

فهل رأيتَ أعْمى قلْبًا وأقلّ عقلاً ممَّن يشبّه سباحة الإوزّ بطبْعه، باستخراج علْم الفلسفة، ومعْرفة حركات الفلك، وطبائع العقاقير، وسائر العلوم اللّطيفة من الهنْدسة وغير ذلك؟!

وهل رأيتَ أجهل ممَّن زعَم أنّ النّاس استخْرجوا هذه اللّطائف واستغنوا عن أئمّتنا، كما استغنى الإوزّ حين سبح بطبْعه عن أئمّتنا؛ ثمّ يدّعي أنّه فيلسوف العالم في زمان، وحكيم أهْل دهْره؟!

ولَعمري، لا تنْكر له هذه الدّعوى مع هذا القياس وهذا التّشبيه، ثمّ يعيّر المسلمين، ويقول: "مسلّم لهم بما قد حلّ بهم من آفة سُكر العقل، وغَلَبة الهوى". فأيُّ سُكر عقلٍ وغلبة هوى أشدُّ من سكْر عقْل صاحب هذا القياس، وغلبة هواه؟!

ونقول: مسلّم له بقياسه وفلسفته هذه التي أعْمى الله قلْبه فيها، وأسْكر عقله.

وأمّا قوله: أخبرونا بأيّ لغة وقف أوّل إمام من أئمّتكم على اللّغات؟ وهل في ذلك بدٌّ من الإلْهام؟ على أنّ إمامًا لو عرف لغة، ثمّ أراد أن يعرّفها النّاس، لَمَا قدر على ذلك؛ وإذا لم تكن عندهم سابقة، فليس بدٌّ من الرّجوع إلى الإلْهام بتّة بتّة.

هذا قوْلُ المُلحِد.

نقول في جوابه: إنّ للمُلحِد أن يقول بقِدَم العالم أو بحدثه.

فإنْ ادَّعى قِدَم العالم، فقد ارتفع القول معه في باب اللّغات، لأنّها قديمة مع العالم، على دعْوى مَن ادّعى قدم العالم؛ وانْقطع القول في باب الإلْهام والتّعلّم.

---

[1] في الأصل: يده.

وإنْ أقَرّ بحدث العالم، قلنا: إنّ مُحدِث العالم، لمّا خلق هذا البَشَر علّمه اللّغات، كما قلنا إنّه -عزّ وجلّ- علّم آدم الأسماء كلّها. وجائزٌ أن يكون علّمه جميع اللّغات، فعلّم هو ولده. وجائزٌ أن يكون علّمه بعضها دون بعض، ثمّ علّم -عزّ وجلّ- ولده، الذين كانوا في مثل منزلته من النّبوّة، سائر اللّغات؛ كما قيل أنّ آدم (ع) كانت له اللّغة السّريانيّة.

فلمّا كان انْتشاء النّسْل من آدم، تعلّم ولده لغته؛ كما نرى أنّ الأولاد يتبعون آباءهم في لغاتهم في جميع الأقاليم والجزائر.

وكذلك كلُّ نبيٍّ لمّا علّمه اللّغة لغة، اقتدتْ به أمّته، وتعلّمت لغته؛ كما نرى ونشاهد أنّ العجَم لم تعرف لغة العرَب، إلاّ النّبذ منهم اليسير. فلمّا قبلوا شريعة الإسلام، أقبلوا على تعلّم العربيّة، حتّى قد مهر بها أكثرهم تعلّمًا لا إلهامًا.

فهلْ رأيتَ عجميًّا أُلهم لغة العرب من غير تعلّم، كما قال المُلْحِد: إنّه لو أراد أن يعلّم النّاس لغة لَمَا قدر عليه، إذا لم تكن سابقة، وإنّه لا بدّ من الرّجوع إلى الإلهام بتّة بتّة؟!

فهذه العجَم قد تعلّمت العربيّة، ولم يكن لهم سابقة، ولم يتكلّموا بها إلهامًا بل تعلُّمًا. وكذلك سبيل مَن يتعلّم لغة لم يعتدها: أن يأخذها بالتّعلّم، لا بالإلْهام.

ولا بدّ أن يكون لكلّ لغة إمامٌ قد علّمها الله إيّاه، ثمّ يعلّمها النّاس.

كما قد ذُكر أنّ أوّل مَن تكلّم بالعربيّة: إسماعيل بن إبراهيم (ع)، فَتَقَ اللهُ بها لسانه وعلّمه إيّاها، لأنّه كان نبيًّا؛ ثمّ علّمها هو ولده، فأخذوها عنه تعلّمًا لا إلهامًا؛ وهذا واضحٌ لا مريّة فيه.

وإذا وَضحتْ الحجّة بالمشاهدة في هذه اللُّغة، فهو دليلٌ على أنّ سائر اللّغات هكذا كان سبيلها، وأنّ البدء فيها كان من رجل واحد. وذلك الرّجل علّمه الله لغة ما، فعلّمها هو مَن اقْتدى به.

وإذا وَضح أنّ الفرع هو تعلّمٌ، وليس هو إلْهامٌ، صحّ أنّ الأصل هو تعلّمٌ لا إلهامٌ.

وإذا صَحّ أنّ ذلك الأصل الذي هو من رجل واحد تعلّم، ولم نجد له أوّلاً، صحّ أنّ ذلك الأوّل كان تعلّمه من خالق اللّغات؛ كما أنّ الأوّل خلقه خالق اللّغات، وخالق الخَلْق كلّه؛ وأنّ الله علّمه على سبيل الوحْي.

فإن كان إلهامًا، فهو من الله -عزّ وجلّ-، وهو جنسٌ من الوحْي.

وليس له بدٌّ من الرّجوع إلى قول أصحاب الشّرائع: إنّ بدْء تعلُّم الأشياء كلّها من الله -جلّ ذكره-، بوحْي منه إلى أنبيائه (ع)، ثمّ علّموها النّاس.

كما قد ذُكِر أنّ بابل سُمّيت بابل، لأنّ الألْسن تبلْبلت فيها بعد خروج نوح من السّفينة، لأنّ ولد نوح، ومَن كان معه في السّفينة، تفرّقوا في البلدان، وتكلّم كلّ واحد منهم بلغة ما، فأخذ أولادهم عنهم اللّغات؛ وأنّ ذلك الواحد في كلّ بلد علّمه الله إيّاه.

فإن كان إلهامًا، فهو وحيٌ من الله -عزّ وجلّ-، وهو تعلّمٌ منه؛ لأنّ الأنبياء (ع) تفاوتت مراتبهم، وفضّل بعضهم على بعض درجات؛ فمنهم مَن أتاه المَلك بالوحْي، وتراءى له، حتّى عاينه؛ ومنهم مَن رأى الملك بروحه، كما أنّ محمّدًا[1] -صلّى الله عليه وسلّم- كان يأتيه جبرائيل -صلّى الله عليه وسلّم- في أوْقات في صورة إنسان، وفي أوْقات كان يغفو، إذ أتاه الوحْي، ثمّ يفيق، فيتلو[2] ما أوْحى[3] الله [له]؛ ومنهم مَن يُقذَف في قلْبه، فيكون ذلك إلهامًا، وتأييدًا من الله -عزّ وجلّ-، ووحيًا منه؛ ومنهم مَن يُوحَى[4] إليه في منامه؛ ومنهم مَن ينظر في الشّيء، فيعتبر به، ويلقي[5] الله في روْعه، ويعلّمه ما في ذلك الشّيء من النّفع والضرّ.

كما ذكرْنا في قصّة المسيح (ع) أنّه كان لا يمرّ بحجر، ولا شجرة، إلاّ وكان يكلّمه.

والوحْي من الله -عزّ وجلّ- إلى أنبيائه (ع) على هذه الجهات كلّها؛ يوحي[6] إليهم كيف يشاء على حسب درجاتهم.

فإن قال قائلٌ: إنّ النّاس يُلْهَمون أشياء، وإنّهم يروْن في منامهم أشياء.

قلْنا: الإلْهام يكون على ثلاثة أوجه:

- فما كان يُوحَى من الله -عزّ وجلّ-، صحّ ما يتكلّم به مَن يلْهمه الله، ويظْهر صدْق قوْله وحكْمته فيما ينطق به من ذلك الإلْهام. وإذا صحّ، علمنا أنّه من الله؛ كما ذكر الله

---

[1] في الأصل: محمد.
[2] في الأصل: فيتلوا.
[3] في الأصل: أوحي.
[4] في الأصل: يوحي.
[5] في الأصل: يلقى.
[6] في الأصل: يوحى.

-عزّ وجلّ-: ﴿وأوحينا إلى أمّ موسى﴾[1] إلى قوله: ﴿فألقيه في اليم﴾[2]؛ ثمّ قال: ﴿إنّا رادّوه إليكِ وجاعلوه منَ المُرسَلين﴾[3]. فهذا كان إلهامًا من الله -عزّ وجلّ-، وصحّ، لأنّ الله ردّ موسى إليها، وجعله من المُرسَلين.

- ومنه ما يكون توفيقًا من الله -عزّ وجلّ- للصّالحين من عباده، فيما يأتون ويذرون من أمور دينهم ودُنياهم.

- ومنه إلهامٌ يكون من وسْواس النّفْس، مثل كلام هؤلاء المُوسْوسين الذين ليس لكلامهم نظام ولا حقيقة، وهو من جهة الطّبيعة، وخفّة الدّماغ، وتغوية الشّيطان على ذلك.

فهذا سبيل الإلْهام.

وكذلك الرّؤيا تكون على وجوه: فالذي يراه الأنبياء (ع) في منامهم لا يبْطل بتّة بتّة، ولا يحتاج إلى بارة؛ وإذا رأوا شيئًا، كان ذلك الشّيء بعيْنه. فهذا ما خُصّوا به.

ثمّ يشْتركون مع النّاس، فربّما رأوا في منامهم شيئًا يحتاج إلى التّأويل؛ وسبيله سبيل سائر المنامات التي يراها النّاس ممّا إذا عُبّر كانت له حقيقة؛ وهذا جنسٌ من الرّؤيا يشترك الأنبياء (ع) مع سائر النّاس في ذلك، ويُخَصّون بالنّوع الآخر الذي قد ذكرْناه.

ومن الرُؤيا ما يكون من جهة الطّبيعة، ومنها ما يكون من بقايا الفكر؛ فهذان النّوعان لا حقيقة لهما، والأنبياء (ع) مُنزّهون عن هذه الرّؤيا؛ وهي التي يُقال لها "أضغاث أحلام"، ولا تأويل لها، ولا تصحّ عبارتها؛ كما تصحّ عبارة الرّؤيا الصّحيحة التي تكون من أسرار العالم العلويّ، فيراها الإنسان الصّالح، التي هي من جنْس الرّؤيا التي يراها الأنبياء، فتصحّ بالتّأويل، وإن لم تكن على ذلك الصّفاء، كما قال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: "الرّؤيا الصّالحة من الرّجل الصّالح جزءٌ من أربعين جزءًا من النّبوّة".

فهكذا كان سبيل الرّؤيا التي هي وحْي الأنبياء، وهي على ما ذكرنا لا يحتاج فيها إلى عبارة ولا تأويل، وهم مخصوصون بها دون سائر النّاس.

فهكذا مراتب الأنبياء (ع) ودرجاتهم.

وكان لمحمّد في هذه المراتب كلّها حظٌّ وافرٌ، وفضّله الله على مَن لم يكن في درجته بذلك. والإلْهام الذي هو وحْيٌ من الله، سبيله على ما ذكرنا.

---

[1] سورة القصص (28)، الآية 7.

[2] سورة القصص (28)، الآية 7.

[3] سورة القصص (28)، الآية 7.

ومَن أُلهم اللّغاتِ، كان ذلك الإلْهامُ وحيًا من الله -عزّ وجلّ-، وتوقيفًا، وتعليمًا؛ وهي نبُوّة.

وليس سبيله سبيل الإلْهام الذي هو وساوس المُلحِدين الذين زعموا أنّه عامٌ في النّاس على حسب ما يوردونه من كلامهم؛ بل هو للأنبياء خاصّة دون سائر النّاس.

ومن اللّغات ما هي أفضل، كما أنّ في الأنبياء مَن هو أعْلى درجةً. وأفْضل اللّغات الأربع: العربيّة، والسّريانيّة، والعبرانيّة، والفارسيّة؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- أنْزل كتبه على أنبيائه بهذه اللّغات، ثمّ تُرجمت الكتب بسائر اللّغات للأمم إلاّ القرآن العظيم، فإنّه باللّغة العربيّة، وهي أفضل الأربع، وهي مُتمنّعة عن التّرجمة لأسباب تركنا ذكرها للإطالة. وقد فسّرنا ذلك في غير هذا الكتاب.

فأصْل اللّغات كلّها ما ذكرْنا، هي بتوقيف من الله -عزّ وجلّ- لأنبيائه، وهم علّموها النّاس.

وليس سبيلها، على ما ذكره المُلحِد، أنّها باستخراج من النّاس بلا وحْي من الله، وأنّه جائزٌ أن يلْهم النّاس كلّهم ذلك.

ولوْ كان الأمْر على هذا، لَمَا انتظمت لغةٌ؛ بل كانت تتفاوت، حتّى لا يكون لها نظامٌ؛ لأنّ الشّيء إذا كان من قوْم شتّى، واختلفت فيه الآراء، اختلف ولم ينتظم؛ كالاختلاف الذي قد ذكرْناه من كلام هؤلاء المُتَسمّين بالفلاسفة الذي ينقض بعضه بعضًا.

فلمّا وجدْنا كلّ لغة منتظمة قد اتّفقت عليها أمّة من النّاس، علمْنا أنّ أصل كلّ لغة من رجل واحد مُؤيَّد بوحْي من الله -عزّ وجلّ-، وصحّ أنّ اللّغات كلّها من الأنبياء (ع).

وأيضًا لو كان الأمْر على ما ادّعاه المُلحِد، لَوجب أن يُلهَم أهلُ كلّ دهْر لغةً ما، كانوا يبتدئونها ويستكْملون بها.

فكيْف قد انْقطع هذا الإلْهام، وغارت هذه القريحة، ولم يَطُل هذا الطّبع، حتّى لا يقدر أحدٌ أن يذكر قومًا أبدعوا لغةً أخذتها النّاس عنهم منذ دهْر طويل بلا توقّف على غاية، إلاّ ما يذْكر من أمْر هذه اللّغات؟

فإن كان هذا عامًّا، وَجَب أن يذكروا لنا لغة مُحدَثة. ولن يأتوا بذلك أبدًا، لأنّ اللّغات أصْلها من الأنبياء، كما ذكرنا.

فلمّا خُتِمت النّبوّة، ختِمت اللّغات، كما خُتم سائر هذه الأسباب التي هي من أصول الأنبياء والحكماء بوحْي من الله -عزّ وجلّ-، ولم يبْق في العالم إلاّ رسومهم. فلا نجد في العالم غير رسومهم، وبُني على أصولهم.

ووَجدْنا من الرّسوم المُحدَثة التي تشاكل حكمة الحكيم، ما أحدث في هذه الأمّة، واستخرج من اللّغة العربيّة، وهو النّحْو والعَروض؛ وهما معياران لكلام العرب. وأُخذ أصلهما عن حكماء الأمّة وأئمّة الهدى؛ لأنّ النّحو رسَمه أمير المؤمنين عليّ[1] (ع) لأبي الأسود الدّؤلي[2]؛ وكان أمير المؤمنين (ع) حكيم دهْره، بل رأس الحُكماء بعد رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في هذه الأمّة. فألْهَمه الله -عزّ وجلّ- استخْراج ذلك. ولم يكن نبيًّا، بل كان مروّعًا محدثًّا؛ وسبيل المروّعين المُحدّثين في هذه الأمّة سبيل الأنبياء في الأُمم؛ وحكمتهم مُستفادَة من محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-.

وكان عليّ -صلّى الله عليه وسلّم- مُختصًّا بذلك من بين الأمّة، أوْدَعه النّبيّ أسرارًا فضبّله بها على غيره، فعلّمها هو المُستحِقّين من الأمّة.

فمنها ما اختصّ بها قومًا من الخاصّة، وسترها عن العامّة؛ ومنها ما بذلها للخاصّة والعامّة.

والنّحو يشاكل حكمة الحكماء، وإن لم يكن من أسباب الدّيانة. وهو (ع) استخْرجه من لغة العرب، ورسمه لأبي الأسود الدّؤلي؛ فأخذه عنه، وقاس عليه؛ ثمّ أخذ عنه النّاس، فاتّسعوا في القياس فيه.

---

1 واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هامش بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى. وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لمّا قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.

حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

2 أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي الكناني، (16 ق.هـ – 69 هـ)، من سادات التابعين وأعيانهم وفقهائهم وشعرائهم ومن حاضري الجواب. وهو كذلك نحوي عالم وضع علم النّحو في اللّغة العربيّة وشكل المصحف، ووضع النّقاط على الأحرف العربيّة. ولد قبل بعثة النّبيّ وآمن به لكنّه لم يره، فهو معدودٌ في طبقات التّابعين. وصحب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب الذي ولاّه إمارة البصرة في خلافته، وشهد معه وقعة صفّين والجمل ومحاربة الخوارج. ويلقّب بلقب ملك النّحو لوضعه علم النّحو. وهو أيضًا الذي شكّل الأحرف في القرآن الكريم.

وكذلك العَروض، أخذ أصله الخليل بن أحمد[1] من رجل من أصحاب عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (ع)؛ وكان أيضًا حكيم دهْره[2] وإمام زمانه. ثمّ قاس عليه الخليل بن أحمد، وأخْرجه إلى النّاس.

فهذان الأصلان أُحدثا في هذه الأمّة، وهما من حُكماء الدّيانة وأئمّة الهُدى.

وهكذا كلّ حكمة في العالم، صغُرت أو كبُرت، أصلها من الأنبياء (ع)، وهم ورّثوها الحُكماء والعُلماء من بعدهم؛ ثمّ صار ذلك تعليمًا في النّاس؛ وكذلك سبيل اللّغات.

ولوْ كان الأمْر على ما ادّعاه المُلحِد أنّ النّاس شرعٌ واحدٌ في الحكمة، وأنّ كلّ النّاس يلْهمونها ويدركونها بالطّبع لا بوحْي من الله -عزّ وجلّ- ولا بتعْليم، وأنّ سبيل اللّغات كذلك، لَمَا انتظم أصل، ولا اعتدل الأمْر فيه، كما نرى من انتظام أمْر اللّغات واعتدالها.

وكذلك السّبيل في كلّ كتاب أُلِّف على حكمة، مثل المجسطيّ، وإقليدس، وغير ذلك ممّا يشبههما، هي على نظام واعتدال يدلّ على أنّ كلّ أصل هو من رجل واحد، لم يشْركه في تأليفه غيره.

---

1 الخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ عصره في اللغة العربية وأحد أهم علماء اللغة العربية، ولد في عمان عام 718م. توجه إلى البصرة ليتلقى العلم هناك ولُقّب بـ*البصري* .كما تميز الفراهيدي في علم الموسيقى، والرياضة والترجمة. تتلمذ على يد كبار العلماء وفي مقدمتهم أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر. تلقّى العلم على يديه العديد من علماء الذين أصبح لهم شأن عظيم في اللغة منهم سيبويه والأصمعي والكسائي والنضر بن شميل وهارون بن موسى النحوي ووهب بن جرير وعلي بن نصر الجهضمي. وحدث عن أيوب السختياني وعاصم الأحول والعوام بن حوشب وغالب القطان وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي. كان الخليل زاهدًا ورعًا. وقد نقل ابن خلكان عن تلميذ الخليل النضر بن شميل قوله: "أقام الخليل في خص له بالبصرة، لا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال". كما نقل عن سفيان بن عيينة قوله: "مّن أحبّ أن ينظر إلى رجلٍ خلق من الذهب والمسك، فلينظر إلى الخليل بن أحمد". ومن مؤلّفاته: كتاب معجم العين وهو أوّل معجم في العربية وقد فكّر فيه الخليل بن أحمد وطلب من تلميذه اللّيث بن المظفر أن يكتب عنه ثمّ بعد موته أتمّ تلميذه هذا الكتاب؛ كتاب النّغم؛ كتاب العروض؛ كتاب الشواهد؛ كتاب النقط والشكل؛ كتاب الإيقاع؛ كتاب معاني الحروف. وتوفّي في البصرة في يوم الجمعة لثلاث بقين من جمادي الآخرة سنة 173هـ–789/ م في أوائل خلافة هارون الرّشيد وهو نفس يوم وفاة الخيزران بنت عطاء والدة هارون الرّشيد.

انظر ترجمته في: الذّهبي سير أعلام النّبلاء؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء.

2 في الأصل: دهر.

وإذا ثبَت هذا، صحّ أنّه بتوقيف من الله -عزّ وجلّ-، ووحْي منه؛ وأنّ ذلك ليس هو استخراجًا بطبْع، لأنّه لا يجوز أن يُخَصّ رجلٌ واحدٌ من بين جميع الأنام الذين نشأوا في أعصار كثيرة؛ وذلك الرّجل الواحد يكون مُختَصًّا بذلك، وهو في مثْل طبْعهم، دون أن تكون فيه قوّة إلهيّة موهوبة من الباري خالق الخلْق -جلّ وتعالى-.

وتلك القوّة هي الوحْي الذي يوجب لصاحبه اسْم النّبوّة، على ما شرحناه من مراتب الأنبياء (ع).

ومَن تدبّر ما قلنا، ونظر بعيْن النّصفة، لم تخْف عليه هذه الحال؛ ولا يبعد الله إلاّ مَن عاند، وظلم نفسه.

الفصل الثّاني
مبدأ النّجوم والرّصْد

وأمّا قول المُلحِد: أين ما دلّت إليه أئمّتكم من التّفرّقة بين السّموم والأغذية وأفعال العقاقير؟ أرُونا منه ورَقة واحدة كما نُقل عن بقراط وجالينوس الألف لا الآحاد، وقد نفَع النّاس! وأرُونا شيئًا من علوم حركات الفلك وعلله نُقل عن رجل من أئمّتكم، أو شيء من الطّبائع الطّريفة، نحْو الهنْدسة، وغير ذلك!

ثمّ قال: فإن قُلْتم: من أين عرف النّاس أفعال العقاقير في الأبدان؟ وما ذكره في هذا الباب.

وقد حكيْنا دعْواه في ذلك، وقُلْنا في باب إلْهام الإوزّ السّباحة، وفي باب اللّغات ما فيه مُقنع -إن شاء الله-.

وقد قدّمْنا القول في باب الحُكماء الذين كنوا عن أسمائهم ووضعوا هذه الأصول، وأنّهم كانوا أنبياء، وهم أئمّتنا.

وليْس أولئك الحُكماء معدودين في جملة أئمّة المُلحِدين الذين درسوا تلك الكتب والأصول بعْدهم، ثمّ تسمّوا بأسمائهم، ورفضوا الشّرائع، وتكلّموا في الباري -جلّ وتعالى- وفي مبادئ الأشياء، وابْتدعوا ذلك الغثاء المتناقض الذي يدلّ على حيرتهم ويشْهَد بضلالتهم.

وليْس للمُلحِد أن يتبجّح بأولئك الحكماء المُحِقّين الذين لهم تلك الأصول، فإنّهم أئمّتنا لا أئمّة المُلحِدين.

وما مثل المُلحِد في التّبجّح بهم والافْتخار بتلك الأصول إلاّ مثل شيخ كان واقفًا في رأس حلبة، وقد أُرسِلت خيلٌ في السّباق، فجاء فرس سابقًا. فلمّا رأى الشّيخ ذلك الفرس، استشاط فرحًا، وجعل يصفّق بيديْه، ويضْطرب ويطْرب؛ فقال له قائل: "أيّها الشّيخ! أهذا الفرَس لك؟". قال: "لا، ولكن اللّجام الذي عليه، هو لي!"؛.

وكذلك سبيل المُلحِد بافْتخاره بأولئك الحكماء وبأصولهم. وما قرابته منهم إلاّ كقرابة جار النّجّار الذي ضُرب به المثل المشهور. لأنّ المُلحِد منْكرٌ للنّبوّة، وهؤلاء كانوا أنبياء كما ذكرنا من شأن إدريس وغيره.

وإنّما نظر المُلحِد في أصولهم وتعلّم منها، وجهل فضلْهم ومراتبهم، وحطّهم عن تلك المراتب التي فضلّهم الله بها إلى المنزلة الخسيسة التي اختارها لنفْسه، جهلاً منه وضلالاً.

ولو تأمّل حالهم وأنْصَف، لَعلم أنّه ليس في وسْع البشَر أن يدركوا مسافة ما بين مصريْن متدانييْن لا تبْلغ مساحتهما مائة ميل، إلاّ بعْد أن يمْسحها بالحبال والقصب المذروعة المُقوَّمة المُقاسَة، وإلاّ بعد أن يشاهد تلك المساحة ويباشرها بنفسه؛ وإنْ مسَحها رجلان أو ثلاثة، لم يسلْموا من الاختلاف.

فكيف يجوز أن يُقال إنّ أحدًا يقْدر على مساحة ما بين الأفلاك الغائبة عن تناول أوْهام البشَر؟! كيف... عن مشاهدتها؟! وكيف يجوز أن يحكموا في مقاديرها، ثمّ يدوّنوا ذلك في كتبهم؟! كما قد رسموا فيها وقالوا: إنّ عرض الفلك مائة ألف فرْسخ، وإنّ ما بين الفلك الأدْنى إلى قبالة الأرض مائة ألف فرْسخ وتسعمائة فرْسخ. هذا إلى سائر ما ذكروا من مسافة ما بين كلّ فلكيْن نحْو هذا الحساب، تركنا ذكْره للاختْصار.

ثمّ قالوا: إنّ جميع ذلك من الفلك الأعْلى إلى الوجه الذي بيْن السّماء والأرْض ألف ألف فرسخ وتسعمائة وثمانون فرسخًا، وقالوا: إنّ استْدارة الأرض أربعمائة وعشرون ألْف ميْل، وقطْرها سبعة ألف وثلاثون ميلاً؛ وإنّ عرض الأرض من القطْب الجنوبي، الذي يدور حوله سهيل، إلى القطْب الشّمالي، الذي يدور حوله بنات نعش في موضع خطّ الاستواء، ثلاثمائة وستّون درجة، والدّرجة خمسة وعشرون فرسخًا، والفرْسخ اثنَا عشر ألف ذراع، والذّراع أربع وعشرون إصبعًا، والإصبع ستّ حبّات؛ وإنّ بيْن خطّ الاستواء وكلّ واحد من القُطبيْن تسعين درجة، واستْدارتها عرضًا مثل ذلك، وفي الأرْض بعد خطّ الاستواء أربع وعشرون درجة، ثمّ باقي ذلك قد غمره البحر الكبير. وكلّ ربع من الشّمالي والجنوبيّ سبعة أقاليم؛ وإنّ مدن الأرض أربعة ألْف ومائتًا مدينة؛ وإنّ طول البحر، من القلزم إلى مشارق الصّين بلاد الواق واق، أربعة ألف وخمسمائة فرْسخ.

ثمّ قالوا في مقادير الكواكب السّيّارة إنّ مقدار الشّمس، مثل الأرض والماء، أربعمائة وستّون مرّة وربع وثُمن.

هذا، مع سائر ما تكلّموا فيه من مقادير سائر الكواكب.

فهذه أسباب تتحيّر العقول من استماعها وتكلّ الألْسن عن وصْفها، فكيف عن الحكْم فيها؟!

ومَن الذي يقْدر أن يدرك هذا بطبْعه، ويستخْرجه بفطْنته، ويبلغ هذه الغايات باستنْباطه؛ ويقْدر على وضع المجسطي الذي عمَل على الأرْصاد، وتركيبات الأفلاك وعِللها، وآلات الرّصد، وذات الصّفائح، وذات الحلق، وغير ذلك من الآلات والمقادير التي هي في أيدي النّاس، ونُقِلت عن الحكماء، وتعلّمها الخاصّ والعامّ؟!

ومَن قدر على وضْع إقليدس، وأشكاله، ومعرفة الأكر، والأوتار، والأضْلاع، والمراكز بالمقادير الضّروريّة والهندسيّة؟!

وهل يجوز لعاقل أن يحكم في هذه الأسباب بأنّها استُدركت بالفطْنة، واستنْبطها هؤلاء الحُكماء بطبائعهم، ولحقتْها عقولهم، وارْتقوا إلى السّماء، واطّلعوا في الأفلاك؛ فعلموا عددها، وعدد الكواكب السيّارة، وفرّقوا بينها وبين الكواكب الثّابتة التي تُعرَف بها الطّوالع والغوارب، وعرفوا منازل القمر، وقسّموا الفلك إلى اثنى عشر برجًا، والبروج إلى الدّرجات، والدّرجات إلى الدّقائق، والدّقائق إلى الثّواني، والثّواني إلى الثّوالث حتّى يدقّ الحساب.

ثمّ عرفوا محلّ كلّ كوكب في فَلَكه، ثمّ مقدار سيْر الكواكب الخمسة في استقامتها ورجوعها، ومقدار سيْر النيّرين مع اختلاف سيْرها. فإنّ منها ما يقطع الفلك في زيادة على ثلاثين سنة، ومنها ما يقطعه في أقلّ من شهر.

ثمّ موَاضع سعودها ونحوسها وهبوطها، وصعودها على حسب ما قد رسمَه الحكماء في كتبهم، مع استقامة هذا الحساب واعْتداله الذي لا اختلاف فيه إلاّ الشّيء اليسير الذي بيْن الزّيجات؛ وهو حساب مُنتظِم مُنتسِق يُركَّب على انقضاء السّنين، وتُقوَّم به الكواكب، ويُعرَف به محلُّ كلّ كوكب في برجه، ودرجته، ودقيقته في كلّ سنة، وكلّ يوم، وكلّ ساعة.

ثمّ ما تكلّموا فيه من الأحكام بعلوم السّماء؛ وما يحدث من الأشخاص العالية في الهواء؛ وما يكون ويحدث في التّركيبات المحيطات بالأقاليم؛ وما تحت الثّرى إلى أعلى علّيتين من أسرار ربّ العالمِين؛ وفي الدّعة، والسّعة، والرّخص، والغلاء، والصّحّة، والوباء؛ ومتى تكون الأمطار والأنداء؛ ومتى تهيج الرّياح، وتكون الظّلمة والضّياء.

وما ارْتاض عليه وأفْنى عمره في تعلّمه من العُلماء بهذا الشّأن، وتوقيف منهم، ومدارسة كتبهم، ومداومة النّظر في قوانينهم.

وكيْف مَن يدّعي أنّ هذا عُرِف كلّه باستنْباط وفطْنة من غير تعليم، ولا تقديم أصلْ فيه، ولا نظر في أصول الحكماء الذين وَضعوا هذه الكتب؟!

وهل يجوز أن يُحكَم أنّ أحدًا من البريّة في وسْعه أن يبلغ معرفة هذه الأسباب بفطْنته وطبْعه بلا معلّم ولا تعلّم، أو يقْدر على وضْع هذه الكتب ابتداءً منه واختراعًا؟!

وهل يجوز أن يكون نهاية العلم والتّعلّم في ذلك إلاّ إلى معلّم سماويّ من عند الله -عزّ وجلّ- خالِق هذه الأشياء التي قد أحاط بها علْمه، ولا يخفى عليه منها خافية؛ وأنّه هو الذي علّم أهل الأرض بوحْي منه إلى أنبيائه (ع)، وهو الذي وقّفهم على هذا الحساب؛ وأنّ هذه الأصول التي قد انتظم أمْرها واتّسق، لو لم يكن من واحد لاختلفتْ[1] وتناقضتْ؟!

فإنّ كلّ أمْر، يجتمع عليه نفرٌ، من الأمور التي هي أرضيّة ويشاهدونها ويباشرونها، يختلفون فيها؛ فكيْف بأسباب سماويّة، على ما قد فسّرنا، وعلى انتظام الأمْر فيها؟!

هيْهات!!! هيْهات!!

إنّ مَن أنْكر أنّ هذا أصلْه من الأنبياء بوحْي من الله -إله السّماء-، وادّعى أنّه استخراجٌ بالفطن والطّبائع، قد اشتدّ عماه، وعظم جهله، وعزب عقله؛ والذي قاله المُلحِد، وادّعاه بعمى قلبه: إنّ ذلك استخراجٌ بالأرصاد، ومن الأصول الموْسومة مثل المجسطيّ، وإقليدس، وبطليموس، والكتب المعروفة عند أهلها؛ وإنّ منه ما يكون معرفته بالطّبع؛ فقد تقدّم في هذا الباب صدْر من هذا الكلام.

ونقول أيضًا: لو اجتمعتْ أممٌ من النّاس من أهل العقول الكاملة، والفهم، والتّمييز، والعدالة؛ ومَن لا يُرتاب بأصالة رأيه، ولَطافة طبْعه، وصحّة قريحته ممّن لم يتقدّم له معرفة بشأن النّجوم، ولم ينْظر في هذه الرّسوم التي وُضِعت على هذا الحساب؛ ثمّ نظروا بآرائهم، ودبّروا بعقولهم، وقاسوا بأفهامهم، وأفنوا أعمارهم، واجْتهدوا أن يلحقوا من حساب النّجوم حرفًا واحدًا، ويميّزوا بين الكواكب السيّارة والكواكب الثّابتة، لَمَا قدروا أن يفرّقوا بين الزّهرة والمشتري، فضلاً من غيره. فكيف بأن يقسّموا حساب الأفلاك هذه القسْمة، ويرتّبوا الكواكب السّيّارة هذا التّرتيب؟!

بل لو اجْتمعوا على آلة من هذه الآلات المُتّخذَة، مثل صفائح الأسطرلاب أو ذات الحلق وغير ذلك، ثمّ سُئلوا عن كيفيّتها، وكيف العمَل بها، وهم يقلّبونها بأيديهم ظهرًا

[1] في الأصل: لا اختلفت.

لبطْنٍ، ويرون العمَل الذي قد نُقِش عليها من الحدود، والبروج، والدّرج، والسّاعات، والأوْتاد، ومحلّ الكواكب الثّابتة، وغير ذلك؛ ثمّ طولبوا بأن يقوّموا قوْس النّهار في اليوم الذي هم فيه، ويقدّروا السّاعة التي هم فيها، ومقْدار ما مضى من نهارهم؛ أو ينظروا إلى الطّالع، وارتفاع الشّمس؛ أو ينظروا في أيّ برْج الشّمس أو سائر الكواكب، من غير معلّم يعلّمهم ويعرّفهم؛ ثمّ أفنوا أعمارهم بالنّظر في ذلك، واجْتهدوا لأن يستخرجوه بعقولهم وطباعهم؛ لَمَا ازدادوا على مرور الأيّام إلاّ عمًى فيه، وقلّة هداية إليه.

هذا في آلة منٍ هذه الآلات، وهم يقلّبونها بأيديهم، ويباشرونها بحواسّهم، وينظرون إلى كيفيّتها بأعينهم، ويحيط بها نظرهم؛ فكيف يستخرجون بالطّبع حركات الفلك الذي لا يقدرون أن يعرفوا كيفيّته؟! وكيف يقدرون أن يلحقوا حساب الكواكب، ومقدار سيرها في استْقامتها ورجوعها، وغير ذلك من الأمور الدّقيقة التي قد تقدّم القوْل فيها؟! وكيف تلْحق أوْهامهم تلك الأسباب التي لا يشاهدونها ولا يقْدرون أن يتوَهّموها؟!

وهذا عيانٌ لا يقدر أحدٌ على دفعه إلاّ بالبهت والمعاندة.

وهكذا السّبيل في باب الرّصد: لو نُدبت للرّصد أممٌ من النّاس، على ما وَصفْنا من العقل، والرّأي، والتّدبير، والعدالة؛ ثمّ جُمّعوا في مفازة سبخاء، وكُلّفوا أنّ يرصدوا النّيريْن اللّذيْن لا يخفى طلوعهما وغروبهما على الصّبيان والضّعفاء من النّاس، دون الكواكب الخمسة التي لا يعرفونها بأعيانها؛ ثمّ كُلّفوا أن يرصدوا حركات الفلك، ويعرفوا الطّوالع والغوارب، من غير أن سبقت لهم معرفة بذلك، ومن غير أن تكون معهم آلات الرّصد من الزّيجات والأسطرلابات؛ ثمّ بقوا في ذلك دهْرهم؛ لَمَا خلصوا إلاّ على النّظر إلى الكواكب، ورؤْية طلوع النّيّرين وغروبهما؛ ولَمَا كانت معرفتهم تزيد في ذلك على معرفة البهائم في النّظر إليها؛ إلاّ أن يكون لهم قدمة في العلم بذلك، ومعْرفة مُستحكمة؛ وحتّى يحضروا آلات الرّصد من الزّيجات والأسطرلابات وغير ذلك. ويكون ذلك بعلْم بارع قد تقدّم، ورياضة من العلماء.

وإذا كان هكذا، فقد دحضت حجّة المُلحِد حين زعَم أنّهم يدْركون بالأرصاد شيئًا من هذه العلوم. وإذا كان الاستدراك بالرّصد لا يمكن إلاّ بهذه الآلات التي قد تقدّمت، فما الذي اخترعوا بفطنهم من غير تعلّم، ولا رياضة، وغير أصْل قد تقدّم؟!

فإن احتجّ محتجٌّ أنّ المأمون ندب للرّصد قومًا، فاستدركوا تَفاوُتًا بين الزّيجات التي قد تقدّمت، وأحدث باستدراكهم الممتحن؛ وأنّه مُخترع مُستدرك بالرّصْد.

قلْنا: فإنّ هؤلاء الذين استذركوا هذا لم يقدروا على هذا إلاّ بعد إحْضار هذه الآلات، ونظروا في الزّيجات المقدّمة، وكانت معرفتهم قد تقدّمت بهذا الشّأن بالتّعليم والرّياضة وعلم بارع؛ ولم يكن ذلك اختراعًا ولا استخراجًا بطبْع، بل برجوع إلى أصول، ومُعوّل على تقدير علم ومعرفة؛ وباب الرّصد هو داخلٌ في هذه الجملة، على هذه الجملة، على هذا القياس.

ولا حجّة للمُلحِد في باب الرّصد والطّبع، ولم يبْق إلاّ الرّجوع إلى أنّ ذلك كلّه مُستخرَجٌ من الرّسوم المعروفة المشهورة عند أهلها دون الأرصاد والطّبع. وليس يصحّ بها اخْتراع شيء من هذه الأسباب إلاّ من جهة التّعلّم والرّجوع في قوانين الحُكماء التي رسموها بتأييد من الله -عزّ وجلّ- ووَحْي منه. وليس في وسْع النّاس اختراع شيء دون ذلك.

وإذا صحّ هذا، صحّ أنّ أولئك الحُكماء لم يقْدروا على اختراع شيء بالفطْنة والطّبع؛ وأنّ ذلك أصلُه بالوحْي، كما قلنا؛ وأنّهم لم يقْدروا أن يرْقوا إلى السّماء ويقفوا على هذه الغيوب، بل الله أطلعهم عليها بوحْي منه، لأنّه -عزّ وجلّ- عالمٌ الغيب، ولا يُطلِع على غيبه أحدًا إلاّ مَن ارْتضى من رسول.

سبحانه عن أن يشاركه أحدٌ في علم هذه الغيوب من غير أن يمنّ هو بها عليه، وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

الفصل الثّالث

أصل معرفة العقاقير

قد قلْنا في باب النّجوم ما فيه كفاية -إن شاء الله-. وقد ذكرنا طرفًا في باب الطّب، ونعيد ذكره، ونشبع القول فيه.

زعَم المُلحِد أنّ النّاس عرفوا أفعال العقاقير في الأبدان، ومعرفة قوامها بالطّعوم والأرائح، واستدركوا ذلك بالطّبع، وأدْخل هذه الدّعوى أيضًا في جملة ما ذكر في باب سباحة الإوزّ بالطّبع.

نقول في جوابه: إنّ سبيل معْرفة العقاقير بالطّبع سبيل النّجوم.

فإن قال قائلٌ: إنّ هذا الباب أقرب مأْخذًا من ذلك، لأنّ العقاقير هي في الأرض، ويمكن مباشرتها بالحواسّ، كما ادّعى المُلحِد أنّهم يعرفونها بالطّعوم والأرائح؛ فإنّ النّجوم هي في السّماء، وإنّ الفلك لا يُحَسّ ولا يُمَسّ، وليس سبيل العقاقير سبيل ما قد فات أيدي المُتناولِين.

قلنا: صدقتَ في باب مباشرة العقاقير بالحواسّ، وتناولها بالذّوق والشمّ.

ولكنّا نقول: إنّ هذه العقاقير تكون في بلْدان مختلفة بعيدة بعضها من بعض.

فمنها ما يُجلب من بلدان بالمغرب، ومن بلدان في ناحية الجنوب وناحية الشّمال، كالأهليلج الذي يُجلَب من الهند، والمصطكّ من الرّوم، والمسك من التّبت، والدّارصين من الصّين، وحصى الخزّ من التّرك، والأفيون من مصر، والصّبر من اليمن، والبورق من أرمينيّة. وهكذا سبيل جميع العقاقير التي تكون من مشارق الأرض ومغاربها.

ومنها ما تكون منتنة، ومنها ما تكون طيّبة الرّوح، ومنها مُرّة، ومنها حلوة، ومنها عفصة، ومنها حرّيفة -على اختلاف طعومها-، ومنها ما هي لحاء الشّجر، ومنها عروقه، ومنها ورقه[1]، ومنها ثمره، ومنها زهره، ومنها صمغه، ومنها حجارة؛ ومنها أصناف جواهر الأرض، كالشّبوب، والبورقات المختلفات الأجناس والألوان التي تُنقَل من بلدان شتّى من أرمينيّة، والرّوم، وكرمان، وسائر البلدان، وغير ذلك من أعضائها؛

---

[1] في الأصل: ورقة.

ومنها ما هي لحوم الحيّات ذوات السّموم النّافعة التي تدخل في التّرياق وغيره؛ ومنها أصناف الكحل من الطيارة والدّابابة من السّامّة والهامّة؛ كالعقارب التي تُجفّف وتُستعمل في معْجون يصلّح النّقرس، وتُحرَق ويسقى رمادها صاحب الحصاة، وتُنقع في الدّهن، فتنتفع للأورام الغليظة؛ وكالذّباب الذي يُستعمل في الكحل، ويضمّد على لدغة العقرب؛ وكالضّفادع التي يُقلَع بها الأضراس الضّاربة؛ وكالزّنابير والذّراريح التي يُعالَج بها في إنبات الشّعر؛ ومنها أبوال أصناف الحيوان من البهائم والسّباع، وأحشاؤها وذرق الطّيور، حتّى غائط الإنسان وبوله؛ كأعبرة الإبل التي تُستعمَل في معجون لحمّى الرّبع؛ وكبول الإبل العراب التي تُستعمل في دواء للرّياح المُعقّدة؛ وكبول الإنسان ينقع فيه بعض العقاقير للبهق؛ وكغائط الإنسان يُسحَق جافّة، ويُنفَخ في حلق مَن يأخذه الخناق، ويضمّد بالرّطب منه؛ وكذرق الحمام يدخل في معجون يتخذ للباءة؛ وكذرق للباءة؛ وكذرق الخطاطيف يُستعمَل في بعض الأدْوية.

هذا إلى سائر ما لم نذْكره من العقاقير التي تُجلَب من بلدان شتّى، وتُسمَّى بأسماء مختلفة وبلغات أهل تلك البلاد الذين هم أمم مختلفون، متعادون متغالون.

فأين هؤلاء الحكماء الذين اتّفقت آراؤهم، وكملت عقولهم، وتمّت طبائعهم، وقويت أبدانهم، وطالت أعمارهم، واتّفقت كلمتهم، وتظاهروا، وتعاونوا، وطافوا في أقاليم الأرضين، وجالوا في جزائرها وبلدانها، وعاشروا كلّ أمّة، وأقاموا في كلّ بلدة، وعرفوا لغات أهل كلّ بلد وكلّ جزيرة، حتّى عرفوا أسماء العقاقير في كلّ مكان، وجرّبوها، وعرفوا أشجارها وبقولها، وأدركوا صفاتها، وعرفوا بالطّعوم والأرائح الخصوصيّات التي في جميع العقاقير المختلفة العمال والطّبائع؟

ومنْها ما يعْمل في الدّماغ، ومنها ما يعْمل في الكبد، ومنها ما يعْمل في الطّحال، ومنها ما يعْمل في المثانة؛ ومنها ما يُحَلّ، ومنها ما يعقد؛ لكلّ واحد منها خصوصيّة تعْمل في عضو من الأعضاء، في أعالي البدن وأسافله؛ ومنها ما هي سموم قاتلة، لا يلبث ساعة مَن ذاقها حتّى تذيقه حتفه، بل تدوى بالشّم دون الذّوق.

فأيْن مَن عرف هذه الخصوصيّات في هذه العقاقير بالذّوق والشّم، وعرف مقاديرها، وأوْزانها بالطّبع والإلهام، وقراريطها، ومثاقيلها؟ لأنّ منها ما يُستعمَل في خلط مقدار قيراط، فما دونه؛ ومنها ما يُستعمَل في خلط عشرين مثقالاً، فما فوقها؛ وإن زادت

أو نقصت، كان ضرّها[1] أكثر من نفعها[2]؛ لأنّ الذي يكون منها سمومًا، إن زدْته على المقدار، قتل؛ وإن نقصته، بَطُل.

ومنْها ما يدْخل في خلط واحدٍ خمسون صنفًا من العقاقير فما فوق ذلك، بأوزان مختلفة وأجزاء محدودة، لا يجوز الزّيادة والنّقصان عنها[3].

فأيْن هؤلاء الحُكماء الذين تتبّعوا هذه العقاقير، فذاقوا شجرة شجرة وثمرة ثمرة، وعرفوا نباتها، ووقفوا على صفاتها، ووضعوا نسبها وأمثالها ومقاديرها، وتتبّعوا جميع طيْر الدّنيا وسباعها ودوابّها، دابّة دابّة، وطائرًا طائرًا؛ فذاقوا مرارتها، وغاصوا في البحار، واستخْرجوا دوابّه؛ فذاقوا لحومها، وأدمغتها، وأبوالها، وأحشاءها؛ حتّى ذاقوا بول الإنسان وغائطه، فعرفوه بالذّوق والشّم، وعلموا بالطّبع والاستدْراك عمل كلّ شيء من هذه الأجناس، وكيف يدبّ في العروق؛ حتّى يؤدي كلّ دواء فعْله إلى الدّاء الذي عمل له في أعْلى البدن، وأسفله، وداخله، وخارجه، بعد أن يصير إلى المعدة ويختلط بالدّم، فيصير شيئًا واحدًا، ثمّ يتفرّق من المعدة في الأعضاء والعروق التي هي مجْرى الدّم؟

فهلْ يجوز أن يحكم أنّ قومًا تعاونوا وجالوا في الدّنيا بأبدان صحيحة وأعمار طويلة، حتّى عرفوا هذه الأشياء بعد أن جمعوها وجرّبوها بالذّوق والأرائح، فأدركوا طبائعها بالطّبع والإلْهام، كما ادّعاه المُلْحد؛ ثمّ اتّفقوا، فلم يختلفوا في شيء من ذلك؛ لأنّ هذا، إن كان من جماعة تعاونوا على ذلك، لا بدّ أن يقع في شيء منها خلافٌ؛ فكان لا ينْتظم أمْر هذا النّظام الذي نراه في باب العقاقير مع اتّفاق الأطبّاء عليه وأهْل المعْرفة بالطّبائع؛ ولو اجتمعوا أيضًا في بلد واحد، وجمعوا هذه العقاقير عندهم، فكيف مع تباين هذه البلدان، وصعوبة الأمر في جميع هذه العقاقير وتجْربتها من غير معرفة تقدّمت من المُجرّبين لها، ولا أصْل يرجعون إليه؟!

فإنْ زعَم أنّ أهل كلّ بلد جرّبوا ما ببلدهم وعرفوها، ثمّ نُقلت من بلد إلى بلد وجُمّعَت.

قلنا: هذا غير جائز، لأنّه لا يظهر علْمها إلاّ بعد أن تُجْمع وتُخلَط. فكيف يعرف أهْل كلّ بلد ما في بلدهم على الإنفراد، قبل أن تُجمع وتُخْلط؟! وكيف عرفوا مقدار

---

[1] في الأصل: ضره.

[2] في الأصل: نفعه.

[3] في الأصل: بها.

كلّ شيء في بلدهم على الانفراد من غير أن يُعرف مقْدار شكله وخلطه الذي هو في بلد آخر، وهو لم يعرفه ولم يجرّبه؟!

ونقول: إنّه لا بدّ أن تكون المعْرفة بطبائع هذه العقاقير أصلها من رجل واحد، أو من جماعة.

فإن كانت من جماعة، فسبيلها ما قد ذكرنا.

فإن قال قائلٌ: إنّ قومًا اجتمعوا في دهْر واحد، واتّفقوا هذا الاتّفاق، ولَحقوا هذه المعرفة، فقد أوْرد ما لا تقْبله العقول؛ لأنّه غير ممْكن أن يكون قومٌ يتفرّقون في هذه البلدان في مشارق الأرض ومغاربها، فيلْحق كلّ واحد معرفة شيء منها ممّا في ذلك البلد، وسبيلهم ما قد ذكرنا؛ ثمّ يجتمعون[1]، ويجمعوها، ويتّفقون[2]؛ ثمّ لا يلحقهم موْت، ولا شيء من آفات الدّنيا، حتّى يحكموا ذلك. هذا خُلْفٌ جدًّا.

وإن ادّعى أنّ قوْمًا بعد قوْم عرفوا ذلك بطباعهم في دهور شتّى وأزْمنة مختلفة، ثمّ جمعوها بعد ذلك، فهذا أمْحل؛ لأنّ الدّواء الواحد الذي يخْلط من خمسين لونًا من العقاقير، لا يجوز أن يكون اجتمعت على معرفتها الآراء من قوْم شتّى في دهور مختلفة وأزْمنة متفاوتة، قد لحق كلّ رجلٍ معرفة شيءٍ في دهْر ما جاء؛ ثمّ جاء آخر في دهْر آخر، فيدرك معرفة شيء آخر؛ ثمّ تجتمع الآراء على ذلك الخلط الواحد الذي هو من الخمسين لونًا، ولا يقع فيه شيء من الخلاف. هذا أنْكر من الباب الأوّل.

فإن زعَم أنّ رجلاً واحدًا عرف هذه الطّبائع، وعاش، وعمّر حتّى جال الدّنيا ووقَف عليها، مع اختلاف أجناسها على ما وصفنا؛ فهذا أبْعد من العقول!

وهل يقْدر أحدٌ أن يجرّب هذه العقاقير كلّها دون أن يمْتحن جميع الشّجر والنّبات، ثمرها، وورقها، وعروقها، وغير ذلك؛ ويمْتحن جميع الحيوان من الوّحش، والسّباع، والبهائم، والطّير، ودوابّ الماء، والهوامّ، وغير ذلك؛ حتّى يعرف الضّار من النّافع، والمُستعمَل من المُهمَل من لحومها ومن مرارتها؛ وسائر أعضائها، وأبوالها، وأحشائها؛ وحتّى يعْرف الخصوصيّات التي فيها؟! فأيّ عقل لا ينكر هذا؟! وأيّ عقل يصْغي إليه ويقْبله؟!

---

[1] في الأصل: يجتمعوا.

[2] في الأصل: يتفقوا.

وهؤلاء الذين أدركوا معرفة طبائع هذه العقاقير بالطّعوم والرّوائح[1]، جماعة كانوا أم واحدًا، في دهْر واحد كانوا أو في دهور مختلفة؟

وهبْهم صبروا على ذوْق هذه القذرات التي ذكرناها من الأبوال، والأحشاء، وغير ذلك، على نتنها وكراهة شمّها وذوْقها؛ كيف يسلّمون من سمومها[2] القاتلة؟ لأنّ منها مَن هو سمّ ساعة؛ وقد رأينا حشيشة تنبت في صحارين، إذا أكلها مَن لا يعرفها، قتلتْه على المكان؛ ومثل ذلك كثير.

فأيْن في العالم مَن يقْدر على إدْراك طبائع هذه الأشياء بالطّعوم، والأرائح، والطّبع، والإلْهام؟! وأين في زماننا مَن أدْرك من ذلك، فيحْكم بالشّاهد على الغائب؟!

أوَليس مَن يدّعي هذه هو مسلوب العقل عازب الفهْم؟! أوَليس مَن يصغي إليه ولا ينْكره هو أعْمَى قلبًا منه، وأضلّ سبيلاً؟!

ولَعَمري إنّ قومًا من المتّسمين بالفلسفة قد ادّعوا مثل هذه التّرّهات، وكذبوا على الحكماء القدماء، وعلّقوا عليهم الخرافات التي لا تليق بهم؛ فقالوا: إنّ أفلاطون[3] دخل في جبال تكون في الشّمال، حيث لا تُرى الشّمس، وحيث لا يكون نبات، ومكَث فيها حينًا يطلب حيلة للموت بالتّجارب والأدوية، ويطلب الخلاط التي تزيد في العمر؛ وإنّه كان

---

[1] في الأصل: الرائح.

[2] في الأصل: سموما.

[3] في الأصل: افلاطن.

يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطرن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر، فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، و يسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف له. فمن ذلك قول سمّاه *ثالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه *خرميس* في العفّة، قولان سمّاهما *القيبادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245–ص246. بيروت. د. ت.

عنده ألْف رجل، فأرْسلهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، وإلى ناحية الشّمال والجنوب ليذوقوا الأرض، ويطلبوا العقاقير.

وإنّ أرسطاطاليس بعث قومًا مع ذي القرنيْن[1] ليعلموا تخوم الأرض، وكيف قوامها، وأيّ مكان أخفّ، وأيّ مكان أثْقل، وأيّ مكان أصفى، وأيّ مكان أكْدر، وكمْ أقاليم الدّنيا، وكمْ فرسخًا هوّ كلّ إقليم؛ ويجلبوا العقاقير، ويجرّبوها؛ فحفروا أسرابًا في الأرْض، ودخلوا فيها.

والذين مضوا إلى المغرب ذهبوا إلى موضع لم يقدروا أن يجوزوه من كثرة البخار وشدّته، وقالوا: "رأينا الشّمس دخلت في البحر"؛ ومنهم مَن قال: "دخلت في السّماء"؛ ومنهم مَن قال: "خلف البحار[2]".

والذين ذهبوا نحو الشّمال لم يقدروا أن يجوزا من البرد والثّلج، حتّى مرضوا، ثمّ رجعوا.

والذين ذهبوا نحْو الجنوب وصلوا إلى أرْض ما يكون فيها العقاقير، والأدوية، والجواهر التي لا تكون ببلادنا.

---

[1] وُلد الإسكندر في بيلا، العاصمة القديمة لمقدونيا القديمة. ابن فيليبوس الثاني المقدوني ملك مقدونيا القديمة وابن الأميرة أوليمبياس أميرة إيبيروس (Epirus). كان أرسطو معلمه الخاص. درّبه تدريبا شاملا في فن الخطابة والأدب وحفزه على الاهتمام بالعلوم والطب والفلسفة. في صيف عام 336 ق.م. اغتيل فيليبوس الثاني فاعتلى العرش ابنه الإسكندر، فوجد نفسه محاطًا بالأعداء ومهدد بالتمرد والعصيان من الخارج. فتخلص مباشرة من المتآمرين عليه وأعدائه في الداخل فحكم عليهم بالإعدام. كما فعل مع أمينتاس الرابع المقدوني. ثمّ انتقل إلى ثيساليا (Thessaly) حيث حصل حلفاءه هناك على استقلالهم وسيطرتهم واستعادة الحكم في مقدونيا. وقبل نهاية صيف 336 ق.م. أعادَ تأسيس موقعه في اليونان وتم اختياره من قبل الكونغرس في كورينث قائدًا. وصل الإسكندر إلى مدينة بابل (بالإنجليزية: Babylon) في ربيع 323 ق.م في بلدة تدعى الأسكندريّة على نهر الفرات في بلاد ما بين النهرين اي العراق حاليًا. حيث قام الإسكندر بنصب معسكره بالقرب من نهر الفرات في الجهة الشرقية منه؛ لذا سميت هذه المنطقة باسمه بعد موته. حيث انه بعد مده وبالتحديد في شهر يونيو من عام 323 ق.م أصيب بحمى شديدة مات على أثرها تاركًا وراءه إمبراطورية عظيمة واسعة الأطراف.

[2] في الأصل: البخار.

هذا ما ادّعوه لأفلاطون[1] وأرسطاطاليس؛ وادّعوا أنّ بثاغورس[2] ارتقى في الهواء حتّى صار إلى عالم الطّبيعة، وعالم النّفس، وعالم العقل؛ فنظر إلى جميع ما فيها من الصّور، والحسْن، والبهاء، والنّوار.

وبثاغورس هو الذي تتلمذ[3] له فلانوس الذي صار إلى الهنْد وأخذ عنه برخمس الفلسفة، وقد تقدّم ذكْره في باب قبل هذا.

فادّعوا هذه التّرّهات، مع دعاويهم أنّ أصول الأشياء كلّها منهم، وأنّ كلّ شيء ينتفع به بنو آدم وصار علْمه إلى النّاس، من علْم النّجوم، والطّب، وغير ذلك، هم استخرجوها، وهم قسّموا ذلك في الآفاق؛ وأنّهم وضعوا لأهل فارس ثمانين كتابًا[4] من كتب الطّب، وثلاثة عشر كتابًا للهند من الطّب، والحكمة، والأمثال؛ وأنّهم وضعوا هذه الكتب كلّها بآرائهم، ودبّروها بعقولهم إلهامًا وطبعًا، من غير تأييد من الله –عزّ وجلّ–.

وادّعوا أنّهم أبْدعوا إجانة النّار التي لا تطفأ بفارس، التي يعْبدها المجوس، مع دعاوى مُزخرَفة من هذا النّوع لا تقْبلها العقول.

فأيْن المُلحِد لم يذكر هذه الخرافات التي يدّعيها هؤلاء الضّلاّل الكذّابون، حين ذكر دعاوى المجوس والمنّانيّة[5]، والخرافات التي حكاها عن المُبتدِعين منهم[1]؛ كقولهم: إنّ

---

[1] في الأصل: افلاطن.

[2] (أو فيثاغورس) قال أبو الخير بن الخمّار بحضرة أبي القاسم عيسى بن عليّ، وقد سئل عن أوّل مَن تكلّم في الفلسفة، فقال: "زعم فرفوريوس الصّوري في *كتاب التّاريخ*، وهو سريانيّ، أنّ أوّل الفلاسفة السّبعة: ثالس بن مالس الإمليسي. وقد نقل من هذا الكتاب مقالتين إلى العربي، فقال أبو القاسم: كذا هو وما أنكره. وقال آخرون إنّ أوّل مَن تكلّم في الفلسفة بيثاغورس. وهو بيثاغورس بن ميسارخس من أهل سامنيا. وقال فلوطرخس إنّ بيثاغورس أوّل مَن سمّى الفلسفة بهذا الاسم، وله رسائل تُعرف *بالذّهبيّات*. وإنّما سمّيت بهذا الاسم، لأنّ جالينوس كان يكتبها بالذّهب إعظامًا لها وإجلالاً. والذي رأينا لبيثاغورس من الكتب: *رسالته في السّياسة العقليّة*، *رسالته إلى متمرّد سقلّية*، *رسالته إلى سيفانس في استخراج المعاني*. وقد تُصاب هذه الرّسائل بتفسير امليخس.

حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص245.

[3] في الأصل: تلمذ.

[4] في الأصل: كتاب.

[5] هو دين استحدثه ماني من النّصرانيّة والمجوسيّة. وهو ماني بن فاتك –أو فتّق–، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في*

ماني كان يُختطف من بين أيديهم، فيصير في الهواء يحاذي الشّمس؛ فربّما مكَث ساعات، وربّما مكَث أيّامًا ثمّ نزل؛ وإنّه الذي رفع سابور الذي عمل له الشابرقان إلى الجوّ، وأخْفاه حينًا هناك؟!

فإنّ هذه الدّعاوى مثل ما ادّعاه أولئك الكذّابون أنّ بثاغورس ارْتقى إلى الهواء، وإلى عالم الطّبيعة، وعالم النّفس، وعالم العقل، حتّى عايَن هذه العلوم وأدْركها.

أوَليس هذا مثل ما ادّعاه المنّانيّة لماني، حذْو النّعْل بالنّعْل، والقذّة بالقذّة؟!

فكيْف لم يعبْ مَن على مذهبه من المُتفلسِفين بهذه الدّعْوى؟! ولكن عيّر المُسلِمين وعابهم بدعْوى المنّانيّة لماني!

وكيف لم يعلّق هذا الجلجل في عنْق نفسه وأهْل مذْهبه!؟ فإنّه أوْلى به وأحقّ؛ إذ كان على مذهب هؤلاء ادّعوا لبثاغورس هذه الدّعوى، ولأفلاطون[2] وأرسطاطاليس هذه الأكاذيب.

فأمّا القرابة بين المسلمين وبين المجوس والمنّانية، فكالفيل من ولد الأتان.

فإنْ زعَم أنّ هذا، لأنّ المنانيّة والمجوس أقرّوا بالنّبوّة، كما أقرّ بها المسلمون.

قلْنا: ليس كلّ مَن أقرّ بالأنبياء هو مُصدّق في جميع دعاويه، ولا هو صادقٌ مصيبٌ في بدعهم التي يبتدعونها. إنّما نصدّقه في إقراره بالنّبوّة، ونكذّبه في هذه التّرهات التي يبتدعونها. فإن ادّعى المُلحِد أنّ مَن ادّعى لبثاغورس هذه الدّعوى، ولأفلاطون[3]

عهد *الساسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من "العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولا للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.

انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفراييني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *المنية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250– ص251.

1 في الأصل: عنه.

2 في الأصل: لأفلاطن.

3 في الأصل: افلاطن.

وأرسطاطاليس، هو مُتكذّبٌ عليهم؛ وأنّهم قد اخْتلفوا في ذلك، واخْتلفوا في الأصول التي ذكرْناها؛ وذكرْنا تناقض كلامهم، وتكذيب بعضهم لبعض؛ فلِمَ احتجّ على أهل المِلل بالخلاف، والخلاف الذي بين أئمّته هو في القُبْح والشّناعة بحيث لا غاية وراءه؟!

ولكنّه لعلّه يحتجّ بحجّة قد كان ذكرها لي، لأنّي ناظرتُه في هذا الباب، وطالبتُه وقلتُ له: "الخلاف الذي بينكم هو أقْبح وأشْنع ممّا تدّعيه على أهل الشّرائع؟"، فقال مجيبًا: "مثلنا ومثلكم في هذا مثل رجليْن اخْتصمَا، فقال أحدهما لصاحبه: "أليستْ أختك معروفة بالزّنى؟"، فقال الآخر: "يجوز، فإنّ ابْنتك أيضًا مشهورة بالفجور". فكان هذا جوابه، والْتجأ إلى هذه السّخافة يريد بذلك أنّه يجوز؛ وإن اختلفنا، فقد اختلف أصحاب الشّرائع.

قلتُ له: "إذا كان الأمْر هكذا، فالتّمسّك بشريعة محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- أوْلى وأنْفع في العاجل والآجل!

أمّا في العاجل، فلِحقْن[1] الدّم، وتحْصين المال والأهل، وصيانة الفروج، وتصحيح النّسب بالولادة الطّيبة بتزويج حلال. فإنّ ذلك أجْمَل في المروءة لمَن لا يعْتقد الإسلام أيضًا، من إباحة فروج الأمّهات والبنات والأخوات. هذا إلى سائر المنَافع التي قد جرى ذكرها.

وأمّا في الآجل، فللْوَعد بالثّواب الجزيل العظيم الذي لا يُقدَّر[2] قدره، والوعيد بالعذاب الأليم الذي لا ألَم فوْقه.

فالأخْذ بالوثيقة في هذا أحْزم من الدّخول في التّعطيل، والقوْل بالإلْحاد الذي لا يُحقن فيه دمٌ، ولا يُحصَّن مالٌ ولا أهلٌ، ولا يُصان فرجٌ ولا يصحّ نسبٌ، وفي الآخرة عذابٌ أليمٌ.

نقول لمَن يصحّح هذا الدّعوى لأفلاطون[3] وجالينوس: أفلا علَم أفلاطون[4]، مع حكْمته واستحْكام معْرفته، أنّه إذا لم يجد للموْت حيلة في هذه الأرض العامرة التي تطلع عليها الشّمس وينبت فيها من كلّ نبات، وأنّ هذه الأخلاط التي يُعالَج بها جميع الأدواء،

---

[1] في الأصل: فحقن.

[2] في الأصل: يقادر.

[3] في الأصل: افلاطن.

[4] في الأصل: افلاطن.

تكون في العمران. فإذا لم يوجد هاهنا دواء يدفع به الموت، فكيف يجده في الخراب، وفي جبال لا تطلع عليها الشّمس، ولا يكون فيها نبات؟!

أو كيف غرّته نفسه واغترّ بالأماني، وقد عايَن وعرف أنّ أحدًا من العالِمين لم يسلم من الموت؟! فهل اعتبر بذلك؟! أوَلم يكن له من العقل، مع حكمته، أن يعرف هذه الحال؟ وهل هذا إلاّ كذبٌ من هؤلاء الضّلاّل الذين أرادوا أن يعظّموا شأن أفلاطون[1]، فشانوه بما قدّروا أنّهم يزيّنونه به؟

وأمّا القول في الذين ادّعوا أنّ أفلاطون[2] بعَث ألْف رجل في مشارق الأرض ومغاربها؛ وأنّ أرسطاطاليس بعث قومًا مع ذي القرنيْن ليعرفوا التّخوم، والأقاليم، والجزائر، ويجلبوا العقاقير ويجرّبوها. فإنّ فيما ذكرنا في شأن العقاقير، ومَن يدّعي أنّهم عرفوها بالطّبع والفطْنة، كفاية.

وهو جوابٌ يجمع هؤلاء وأولئك؛ لأنّ سبيل هؤلاء سبيل أولئك. وفي ذلك مقْنع لمَن أنْصف -إن شاء الله تعالى-.

وبعدُ، فإنّا نقول: إن كان هؤلاء عرفوا من العقاقير في هذه البلدان التي صاروا إليها ما لم يعرفه أفلاطون[3] وجالينوس، فهؤلاء قدْوة لأفلاطون[4] وجالينوس.

فأيْن أسْماء هؤلاء الذين كانوا أشدّ عناية بهذا الشّأن من هذيْن الرّجليْن، وتحمّلوا من المشقّة ما لم يتحمّله هذان الرّجلان؟ وأيْن تلك العقاقير التي جلبوها من هذه البلدان؟ ولِمَ لَمْ تُنسَب إليهم كما نُسبَت كتب أفلاطون[5] وجالينوس إليهما؟

ومحصولُ هذه الدّعاوى أنّها زخارف وأكاذيب، وهو من سخْف المُلحِدين، ودعاويهم الكاذبة.

وذكرنا ذلك، لأنّ المُلحِد ترَك هذه الدّعاوى وعاب المسلمين بما تدّعيه الماجوس والمنّانيّة لزرادشت[6] وماني[1] من الأباطيل المُبتدعة إلحادًا منه، وشدّة عداوة للإسلام.

---

[1] في الأصل: افلاطن.

[2] في الأصل: افلاطن.

[3] في الأصل: افلاطن.

[4] في الأصل: افلاطن.

[5] في الأصل: افلاطن.

[6] في الأصل: لزرهشت.

وما مثله في ذلك إلاّ كما قال الأوّل:

كناطح صخرةٍ يومًا ليفلقَها   فلم يضرّها وأوْهى قرنَه الوعلُ

وعاش زردشت في منتصف القرن السّابع قبل المسيح، وتوفّي على الأرجح سنة 582 ق. م. وُلد في أذربيجان، وولادته تشبه إلى حدّ بعيد ولادة المسيح. انتقل إلى فلسطين، واستمع إلى بعض أنبياء بني إسرائيل من تلاميذ النّبيّ أرميا، ثمّ عاد إلى أذربيجان، ولم تطمئنّ نفسه إلى اليهوديّة، فبدأ يدرس الأديان الفارسيّة القديمة. وحين بلغ ثلاثين سنة زعموا أنّه بعثه الله نبيّا ورسولا إلى الخلق. ونُسبت إليه معجزات كإحياء الموتى وردّ البصر. وأهمّ كتاب نُسب إليه هو *الأبستا* (أو *الأفستا*) وشرحه *الزّند أفستا*. ويظهر أنّ مذهبه الثّنوي في إرجاع أصل العلم إلى النّور والظّلمة يعود إلى مبدإ خلقي الخير والشرّ. فمذهبه الوجودي متّصل بالمشكلة الخلقيّة الأنطولوجيّة. فمن امتزاج النّور بالظّلمة وُجدت الأشياء وحدثت الصّور من التّراكيب المختلفة. وصراع النّور والظّلمة ينتهي بتغلّب النّور، وتخلّص الخير إلى عالمه وانحطاط الشرّ إلى عالمه. وقد أورد الشّهرستاني محاورات بين زرادشت وأومرزد، وفيه نزعة تشبيهيّة وعضويّة صريحة.

حول ترجمته راجع: *الملل* للشّهرستاني (طبعة كيلاني) ج1/ص236 و(طبعة بدران)، ج1/ص216؛ *التّبصير*، ص105؛ *المنية*، ص64؛ *نشأة الفكر الفلسفي*، ج1/ص191–ص192؛ *قاموس الفلسفة*، ص343؛ *مروج الذّهب*، ج1/ص229–ص230.

[1] وهو ماني بن فاتك – أو فتّق –، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من " العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولا للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.

انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفرابيني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *المنية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250– ص251.

الفصل الرّابع

كلّ معرفة عائدة إلى الحكيم الأوّل

قد ذكرنا في باب العقاقير التي هي في الأرض ويمكن مباشرتها بالحواسّ، بالذّوق والأرائح، وجهًا من صعوبة الأمْر فيها ما يقارب صعوبة الأمْر في باب النّجوم، وإن كانت في السّماء. والسّبيل في معرفة العقاقير بالطّبع والفطْنة مثل السّبيل في معرفة النّجوم.

وبيّنّا أنّ تناول ذلك عَسر جدًّا، وليس إلاّ الرّجوع في ذلك إلى أصول الحُكماء، وأنّ ذلك لا يحقّ إلاّ بالتّعلّم، والرّياضة، والاقتداء بقوانينهم؛ وما سوى ذلك من الدّعاوى في باب إدْراك شيء منه بالطّبع والفطْنة هو باطل؛ ومَن يدّعي ذلك، فهو كاذبٌ أثيمٌ ذو إفك عظيم.

وإنّما يعْرف هذه العقاقير بالطّعوم والأرائح مَن تقدّمت معرفته بها، فيذوق ويشمّ ما يعْلم أنّها تضرّه إذا ذاقها وشمّها ولا يخشى غائلتها، فيميّز الأجْوَد من الأدْوَن، والخالص من المغشوش، والصّافي من المُختلِط. فمن هذه الجهة تُعرَف بالشّم والذّوق.

فأمّا أن يعرف إنسانٌ طبعها بالشّم والذّوق، ويعرف الخصوصيّة التي فيها من غير معرفة تقدّمت منها بها، فهو أمْحل المُحال.

وسبيل الطّبيب الحاذق المتفلسف، الذي يعرف العقاقير، وسبيل مَن لم يمارس هذا الشّأن، ولا يعرف شيئًا منه في معرفة طبيعة شيء لم تتقدّم معرفته به، واحدٌ. ومَن ادّعى سوى ذلك، فهو مبطلٌ.

وقد كنتُ ذاكرتُ المُلحِد في ذلك، فباهتَ وأصرَّ على هذه الدّعْوى.

فقلتُ له: هل أدركتَ أنتَ بطبْعك وفطْنتك ما لم يسبُق إليه مَنْ تقدّمك في هذه الدّعوى؟

قال: نعم، أُخبرك في هذا بأمْر عجيب: كانت لي قصّة مع أحمد بن إسماعيل[1] وقتَ مقامي ببخارى عجيبة.

وذلك أنّه قد كان خرج يومًا من الأيّام مُتنزّهًا، وكنتُ معه في موكبه. فدفعنا إلى موضع نزه كثير العشب والنّور؛ فنزل ونزلنا معه، ونظر إلى حشيشة قريبة منه؛ فقال لي: "يا فلان! لماذا تصلح هذه الحشيشة؟"، فأجبته على البديهة وقلتُ: "تدرّ البول". فأمر أن تختلي تلك. وحضر الطّعام، وقُدّمت المائدة؛ فوُضِعت تلك الحشيشة على طرف المائدة، وقعدنا معه. ودَعَا بغلام له كان يأكل معه، فأقْعده في ناحية المائدة التي عليها تلك الحشيشة، وأقبلنا نأكل. فتناول الغلام تلك الحشيشة على سبيل مَن تناول البقل، وهو لم يعرف خبرها وما جرى في أمْرها. فما استَتمّ طعامه، حتّى قام عن المائدة، وغاب عنّا، وبال. فلمّا انصرف، قال له صاحبه: "ما شأنك؟ ولِمَ قمتَ عن الطّعام؟"، قال: "غلَبني البول، ولم أقْدر على ضبْطه"؛ فتعجّب هو من ذلك، وتعجّب النّاس.

قلتُ له: "فهل كنتَ عرفتَ هذه الحشيشة قبل ذلك؟". قال: "لا والله! ما كنتُ رأيتُها، ولا عرفتُها". قلتُ: "هل توجد في بلدنا؟ وهل تعرفها الآن؟". قال: "لا والله! ما أعْرفها، ولا أدْري توجد ها هنا أم لا". قلتُ له: "ألستَ تعرف شأن هؤلاء الزرّاقين الذين يقعدون على السّبيل ويخدعون عوامّ النّاس بالزّرق؟". قال: "هل أحدٌ أعْرَف بهم منّي؟". قلتُ: "فإنّ حديثك هذا هو نوعٌ من الزّرق؟". قال: "وأيّ فطْنة ألْطف من هذه؟".

قلتُ: "كيف تعدّ هذا من الفطْنة؟! وكيف تشبّه هذا بفطْنة الحُكماء الذين تزعَم أنّهم أدْركوا معرفة طبائع الأشياء بفطْنتهم، واستخرجوا ذلك بالذّوق والشّم، وكانوا بزعمك لا يعرفون ذلك إلاّ بتدْبير، وتأمّل، وقياس، وتجْربة، وشمّ، وذوْق؛ ثمّ كانوا يدوّنون في كتُبهم ما يلحقون معرفته حتّى يصير أصلاً يُعْتمَد عليه، وتزْعم أنّ هذه الأصول كان سبيلها هكذا؛ وأنتَ تزْعم أنّك تكلّمتَ في هذه الحشيشة على البديهة من غير فكرة، ولا رويّة،

---

[1] هو أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني شهاب الدّين الشّافعي ثمّ الحنفي (813 هـ – 1410 م / 893 هـ – 1488 م). مفسر كردي الأصل من أهل شهرزور. تعلّم بمصر ورحل إلى بلاد الترك، فعهد إليه السّلطان مراد بن عثمان بتعليم وليّ عهده محمّد الفاتح. تولّى القضاء في عهد محمّد الفاتح. له عدة كتب منها: غاية الأماني في تفسير السبع المثاني، الدّرر اللوامع في شرح جمع الجوامع للسّبكي وهو كتاب في الأصول، شرح الكافية لابن الحاجب. توفّي بالقسطنطينيّة، وصلّى عليه السّلطان بايزيد الثّاني.

ولا تجربة؛ وأنّك لم تعرف هذه الحشيشة قبل ذلك، ولا ذقتَها، ولا شممتَها، ولا تعْرفها الآن؛ ولا تدْري هل توجد في هذه البلدان أم لا؟! أوَليس قولك هذا هو زرقٌ، ودعواك هي الزّرق[1] بعيْنه؟! أوَلستَ تزْعم أنّك أعرف النّاس بالزّراقين؟! فهل هذا إلاّ الزّرق بعيْنه؟! أوَليس الزّرق هو خديعة وسخرية؟!

فإن كان أولئك الحكماء سبيلهم في معرفة طبائع العقاقير هكذا، فكانوا زرّاقين يخدعون النّاس ويسْخرون. ولو كان كذلك لَمّا صحّ شيء من رسومهم، ولا انْتفع النّاس بشيء من كتبهم؛ لأنّ الزّرق باطلٌ وخديعةٌ، ولا قوام له ولا نظام. وأنت، وإن تمّ لك ذلك الزّرق على ذلك الإنسان، فإنّا لا ننْخدع لك؛ وهذه أوْهى حجّة أوْردتَها!"؛ فانْقطع.

وأستغفر الله من الزّيادة والنّقصان في هذه الحكاية، فإنّ الكلام يزيد وينقص؛ ولكنّ هذا جملته.

وإنّما ذكرتُ هذا، لأنّ المُلحِد حين طالبْته بما لحقه بطبْعه وفطْنته من معرفة طبائع العقاقير طول عمره، لم يحصل من دعواه إلاّ على ما ذكرْناه عنه، مع دعواه أنّه نظير بقراط وجالينوس في الطّب، وسقراط وأرسطاطاليس في سائر علوم الفلسفة والعلم بالطّبائع.

وهكذا تحْصل جميع دعاوى المُلحِدين في باب معرفة الأشياء بالفطْنة والطّبْع، وهي سخيفة متناقضة.

فإن كان قد صدَق في هذه الحكاية، فهو سخيفٌ كما ترى؛ وإن كان كذبٌ، فالكذب أوْلى به.

وأمّا ما ذكَره المُلحِد في كتابه في هذا الباب أنّ منها ما أخذه الأوّل عن الأوّل إلى نهاية الزّمان؛ فإن كان أراد بقوله: "نهاية الزّمان" ما كان يعتقده من القول بقِدم الزّمان المُطلَق الذي جعله أصلَ مقالته وزعَم أنّهما زمانان: زمان مُطلَقٌ، وزمان مُضافٌ؛ فقد أحال في الدّعوى ونقض قوله؛ لأنّ الزّمان المُطلَق عنده قديمٌ بلا نهاية، ولم يدّع هو أنّ الطّب قديمٌ مع الزّمان.

وإن كان أراد الزّمان المُضاف الذي هو بحركات الفلك، فقد أحال أيضًا؛ لأنّ الطّب وحساب النّجوم أُخِذت بعد حدوث البَشَر، والبَشَر آخر متولّدات العالم عند أهل الشّرائع وعند الفلاسفة، والفلك وحركاته وما فيه أقْدم من جميع المتولّدات.

---

[1] في الأصل: بالزرق.

وليْست النّهاية في معرفة هذه الأسباب إلى نهاية الزّمان في هذا الوجْه أيضًا.

ولكنّا نقول: إنّ علم الطّب، ومعرفة طبائع العقاقير، وغير ذلك من علم النّجوم والفلسفة، أخذه الخَلف عن السّلف إلى أن ينْتهي إلى الحكيم الذي كان الأوّل فيها؛ وإنّ ذلك الحكيم عرف هذه اللّطائف تأييدًا من الله -عزّ وجلّ-، ووحيًا منه؛ وهو داخلٌ في جملة الأنبياء (ع)، لأنّ أحدًا ليس في وسْعه أن يبلغ معرفتها إلاّ كذلك.

وكفَى بما تقدّم من الاحتجاج برهانًا ودليلاً على ذلك.

ونقول: إنّ هؤلاء الحكماء الذين تُنسَب إليهم هذه الأصول إن كانت ابتداءً منهم، فكما ذكرنا. وإلاّ، فأخذوها عمَّن تقدّمهم شيئًا في شيء فيها؛ فكان سبيله سبيل مَن تقدّمه في التّأييد من الله -عزّ وجلّ-، حتّى ينتهي الأمْر إلى الأوّل الذي ابْتدأه الله بتعليم ذلك؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- بعث أنبياءه، فعلّمهم من كلّ شيء يحتاج إليه النّاس في أمورهم دينًا ودنيًا، ولذلك اسْتقام أمْر العالم.

ولولا أنّ الله -عزّ وجلّ- علّمهم لَمَا علموا؛ لأنّه خلق جميع الخلائق، وعلم ما ظهر وما بطن، ولم يُشرك أحدًا من خلْقه في العلم بها إلاّ النّبيّ؛ وهو عالم الغيب، لا يُظهر على غيبه أحدًا إلاّ مَن ارْتضى من رسول، وهو أعْلم حيث يجعل رسالته، ولا يُشرك في حكمه أحدًا.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

المذكورة في المقدّمة

- *تاريخ الحكماء* لجمال الدّين القفطي. تحقيق جوليوس ليبرت. ليبسك. 1903.
- ذيل كتاب *دراسات في الأدب العربيّ* لكارل بروكلمان، ج 1.
- *شذرات الذّهب في أخبار من ذهب* للعماد الحنبلي. في ثمانية أجزاء. القاهرة. 1350 هـ. - 1351 هـ.
- *عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء* لابن أبي أصيبعة. في جـزأين. المطبعـة الوهبيّـة. القاهرة. 1300 هـ. (أعيد طبعه في بيروت سنة 1956).
- *كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون* لحاجّي خليفة. فـي جـزأين. بعنايـة وكالـة المعارف. القاهرة. 1941- 1943.
- *وفيّات الأعيان* لابن خلّكان. في ثمانية أجزاء. تحقيق إحسـان عبّـاس. دار الثّقافـة. بيروت. د. ت.

قائمة مصادر ومراجع التّحقيق

-أ-

- *الأئمّة الإثنا عشر* لابن طولون. تحقيق صلاح الدّين المنجد. بيروت. 1958.
- *أبجد العلوم* لصدّيق بن حسن القنوجي، ج 2.
- *ابن حنبل* لمحمّد أبو زهرة.
- *ابن الرّاوندي* مقالة لبول كراوس نشرت باللّغة الألمانيّة في *مجلّة الدّراسات الشّرقيّة* وترجمها عبد الرّحمان بدوي في كتابه *من تاريخ الإلحاد في الإسلام* (ص75 إلى ص188). القاهرة. 1945.
- *إتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمّة الفاطميّين الخلفا* لتقيّ الدّين المقريزي. تحقيق جمال الدّين الشيّال. القاهرة. 1967.
- (كتاب) *أخبار الرّاضي والمتّقي* للصّولي.
- *أخبار الظّرّاف والمتماجنين* لابن الجوزي. دمشق. 1347 هـ.
- *أخبار العبّاس وولده*. تحقيق عبد العزيز الدّوري. بيروت. 1971.
- *أخبار العلماء بأخبار الحكماء* للقفطي.
- *أخبار القضاة* لوكيع محمّد بن خلف. في ثلاثة أجزاء. القاهرة. 1366 – 1369 هـ.
- *أخبار النّحويّين البصريّين* لأبي سعيد السّيرافي. تحقيق طه محمّد الزّيني ومحمّد عبد المنعم خفاجة. القاهرة. 1955.
- *أرسطو* لعبد الرّحمان بدوي.
- *الإستيعاب في معرفة الأصحاب* لأبي عمر بن عبد البرّ. في أربعة أجزاء. تحقيق علي محمّد البجاوي. مطبعة نهضة مصر. القاهرة.
- *أسد الغابة في معرفة الصّحابة* لعزّ الدّين ابن الأثير الجزري. في خمسة أجزاء. طهران. 1342 هـ.
- *الإسماعيليّون في المرحلة القرمطيّة* لسامي العيّاش.
- *الإشارة إلى من نال الوزارة* لابن الصّيرفي. تحقيق عبد الله مخلص. مصر. 1924.

- *الإصابة في تمييز الصّحابة* لابن حجر العسقلاني. في ثمانية أجزاء. القاهرة. 1323 هـ.
- *إصطلاحات الصّوفيّة* للقاشاني.
- *الإعتقادات* للرّازي.
- *الأعلام* لخير الدّين الزّركلي. في عشرة أجزاء. الطّبعة الثّانية. مصر.
- *أعمال الأعلام* للسان الدّين ابن الخطيب.
* تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت. 1956.
* القسم الثّالث. تحقيق العبّادي والكتّاني. الدّار البيضاء. 1964.
- *أعيان الشّيعة*، في 23 جزء.
- *الأغاني* لأبي الفرج الأصبهاني.
* في 25 جزء. دار الثّقافة. بيروت.
* في 21 جزء. طبعة السّاسي.
- *إلجام العوامّ عن علم الكلام* لأبي حامد الغزالي.
- *الإمام زيد* لمحمّد أبو زهرة.
- *إنباه الروّاة على أنباه النّحاة* لجمال الدّين القفطي. في ثلاثة أجزاء. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتب المصريّة. القاهرة. 1950.
- *الإنتصار والردّ على ابن الرّاوندي الملحد* لأبي الحسين عبد الرّحيم بن محمّد الخيّاط المعتزلي. تحقيق نيبرج. دار الكتب المصريّة. 1925.
- *الإنتقاء في فضائل الثّلاثة الأئمّة الفقهاء* لابن عبد البرّ. القاهرة. 1350 هـ.
- *أنساب الأشراف* للبلاذري.
* الجزء الأوّل. تحقيق محمّد حميد الله. دار المعارف. القاهرة. 1959.
* الجزء الرّابع والجزء الخامس. تحقيق جويتاين. القدس. 1936-1938.
- *الأنساب* للسّمعاني. في ستّة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1962-1964.
- *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن.

-ب-

- *البخلاء* للجاحظ. تحقيق طه الحاجري. القاهرة. 1948.

- *بحار الأنوار*، في 11 جزء.
- *البدء والتّاريخ* لمطهّر بن طاهر المقدسي. في خمسة أجزاء. نشر كلمان هوار. باريس. 1899-1919.
- *بغية الطّلب من تاريخ حلب* لابن العديم. (صورة عن نسخة خطّية محفوظة بمكتبة الجامعة الأمريكيّة في بيروت).
- *بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة* لجلال الدّين السّيوطي. الطّبعة الأولى. 1926.
- *بلغة الظّرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء* لعليّ بن محمّد بن أبي السّرور الرّوحي. مصر. 1327 هـ.
- *البيان المغرب* لابن عذارى المرّاكشي. (القسم الخاصّ بتاريخ الموحّدين). تحقيق أمبروسي هويسي ميراندا ومساهمة محمّد بن تاويت ومحمّد بن إبراهيم الكتاني. تطوان. 1960.
- *البيان والتّبيين* للجاحظ. في أربعة أجزاء. تحقيق عبد السّلام هارون. القاهرة. 1961.

-ت-

- *تاج التّراجم في طبقات الحنفيّة* لأبي العدل زين الدّين قاسم بن قطلوبغا. بغداد. 1962.
- *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245). المطبعة الخيريّة. مصر. 1306 هـ.
- *تاريخ* ابن العبري.
- *تاريخ أبي الفدا* لأبي الفداء، ج 2.
- *تاريخ الأدب العربي* لكارل بروكلمان. في ثلاثة أجزاء. ترجمة عبد الحليم النّجّار. دار المعارف. القاهرة. 1959- 1962.
- *تاريخ الإسلام* للذّهبي. في ستّة أجزاء. طبعة القدسي. القاهرة.
- *تاريخ بغداد* للخطيب البغدادي. في 14 جزء. (طبعة مصوّرة عن الطّبعة الأولى). نشر دار الكتاب العربي. بيروت.
- *تاريخ التّراث العربي* لفؤاد سزكين. ج 2.
- *تاريخ التّصوّف الإسلامي* لعبد الرّحمان بدوي.
- *تاريخ الجهميّة والمعتزلة* للقاسمي.
- *تاريخ الحكماء* لجمال الدّين القفطي. تحقيق جوليوس ليبرت. ليبسك. 1903.

- *تاريخ الخلفاء* لجلال الدّين السّيوطي.
- *تاريخ* خليفة لخليفة بن خيّاط. تحقيق سهيل زكار. دمشق. 1967-1968.
- *تاريخ الخميس* للدّيار بكري. طبعة بولاق. 1283 هـ. (*تاريخ* الخميس. ج 2).
- *تاريخ الدّعوة الإسماعيليّة* لمصطفى غالب.
- *تاريخ* الطّبري للطّبري.
* في 15 جزء. نسخة مصوّرة عن الطّبعة الأوروبيّة. مكتبة خيّاط. بيروت.
* في 11 جزء. المطبعة الحسينيّة. القاهرة. 1326 هـ.
- *تاريخ الفكر العربي إلى أيّام ابن خلدون* لعمر فرّوخ. الطّبعة الثّالثة. دار العلم للملايين. بيروت. 1981.
- *تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام* لمحمّد علي أبو ريّان. الطّبعة الثّانية. دار النّهضة العربيّة. بيروت. 1983.
- *تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب*. لمحمّد لطفي جمعة. نشر المكتبة العلميّة. القاهرة. 1927.
- *تاريخ الفلسفة الإسلاميّة* لهنري كوربان. ترجمة نصير مروّة وحسن قبيسي، مراجعة موسى الصّدر وعارف ثامر. الطّبعة الثّالثة. منشورات عويدات. بيروت. 1981.
- *تاريخ الفلسفة العربيّة* لجميل صليبا. الطّبعة الثّانية. دار الكتاب اللّبناني. بيروت. 1973.
- *تاريخ الفلسفة العربيّة* لحنّا الفاخوري وخليل الجرّ. في جزأين. الطّبعة الثّانية. منشورات دار الجيل. بيروت. 1982.
- *تاريخ الفلسفة في الإسلام* لت. ج. دي بور. نقله إلى العربيّة وعلّق عليه محمّد عبد الهادي أبو ريدة. الطّبعة الخامسة. دار النّهضة العربيّة. بيروت. 1981.
- *.تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا.
- *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* ليوسف كرم.
- *التّاريخ الكبير* للبخاري. في خمسة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1360 هـ- 1364 هـ.
- *تاريخ* المسعودي، ج3.
- *التّبصير في الدّين* للإسفراييني. القاهرة. 1955.

- *تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري* لأبي القاسم ابن عساكر الدّمشقي. طبعة القدسي. القاهرة.
- *تتمّة المختصر في أخبار البشر* لابن الوردي (المسمّى *تاريخ ابن الوردي*). في جزأين. مصر. 1285 هـ.
- *تحقيق ما للهند من مقولة* للبيروني.
- *تذكرة الحفّاظ* لشمس الدّين الذّهبي. في أربعة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1955.
- (مجلّة) *التّراث العربي*، عدد 5-6 (عدد خاص بمناسبة ألفيّة ابن سينا).
- *التّراث اليوناني في الحضارة الإسلاميّة*، كارلو نللينو (مقال في) ص173 إلى ص198.
- *ترتيب المدارك وتقريب المسالك* للقاضي عياض. في أرعة أجزاء. تحقيق أحمد بكير محمود. دار مكتبة الحياة-دار مكتبة الفكر. بيروت-طرابلس.
- *التّصوّف في الأدب والأخلاق* لزكي مبارك، ج1.
- *التّصوّف في الإسلام* لعمر فرّوخ.
- *تفسير الرّازي*، ج3/ص105.
- *تفسير القرآن* للطّبري (المسمّى *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*). ج 1 إلى ج 16. تحقيق محمود محمّد شاكر. دار المعارف بمصر. القاهرة.
- *التّفسير الكبير* للرّازي، (ج3/ص105)
- *التّفكير الفلسفي في الإسلام* لعبد الحليم محمود.
- *تلبيس إبليس* لابن الجوزي.
- *التّنبيه* للملطي.
- *تهذيب الأسماء واللّغات*، ج1، ج2.
- *تهذيب تاريخ ابن عساكر* لعبد القادر بدران. في سبعة أجزاء. دمشق. 1329 هـ- 1349 هـ.
- *تهذيب التّهذيب* لابن حجر العسقلاني. في 12 جزء. حيدر أباد الدّكن. 1325 هـ- 1327 هـ.

-ج-

- *الجاحظ حياته وآثاره* لطه الحاجري.

- *الجرح والتّعديل* لأبي حاتم الرّازي. في ثمانية أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1371 هـ-1373 هـ.

- جمهرة *أنساب العرب* لأبي محمّد ابن حزم الظّاهري. تحقيق عبد السّلام هارون. دار المعارف. القاهرة. 1962.

- *الجواهر المضيّة في طبقات الحنفيّة* لابن أبي الوفا القرشي. في جزأين. حيدر أباد الدّكن. 1332 هـ.

-ح-

- حسن *المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة* لجلال الدّين السّيوطي. في جزأين. تحقيق محمّد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة. 1967-1968.

- *الحقيقة في نظر الغزالي* لسليمان دنيا. دار المعارف. مصر.

- *حلية الأولياء* لأبي نعيم الأصفهاني. في عشرة أجزاء. القاهرة. 1938.

- *الحوادث الجامعة والتّجارب النّافعة في المائة السّابعة* لأبي الفضل عبد الرزّاق ابن الفوطي البغدادي.. بغداد. 1351 هـ.

- *الحور العين* لنشوان بن سعيد الحميري. تحقيق كمال مصطفى. القاهرة. 1948.

- *الحياة الرّوحيّة في الإسلام* لمصطفى حلمي.

- (كتاب) *الحيوان* للجاحظ. ج7. القاهرة. 1324 هـ-1906 م.

-خ-

- *خزانة الأدب ولبّ لباب العرب* لعبد القادر البغدادي. في أربعة أجزاء. طبعة بولاق.

- *خطط* المقريزي (المسمّاة: المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار). في جزأين. طبعة بولاق. 1270 هـ.

-د-

- *دائرة المعارف الإسلاميّة*.

- *دراسات في الفرق والعقائد الإسلاميّة* لعرفان عبد الحميد.
- *الدرّة المضيّة في أخبار الدّولة الفاطميّة* لأبي بكر بن عبد الله بن أبيك الدّواداري. تحقيق صلاح الدّين المنجد. القاهرة. 1961.
- *الدّيارات* للشّباشتي. تحقيق كوركيس عوّاد. بغداد. 1951.
- *الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب* لابن فرحون المالكي. مصر. 1351 هـ.

-ذ-

- *ذيل الرّوضتين* لأبي شامة (تراجم رجال القرنين السّادس والسّابع). القاهرة. 1947.

-ر-

- *رجال* ابن حبان. تحقيق فلايشهمر. القاهرة. 1909.
- *رجال الكشي* لأبي عمرو محمّد بن عمر الكشي. تحقيق أحمد الحسيني. كربلاء.
- *رجال* النّجاشي لأحمد بن علي النّجاشي. طبعة طهران.
- *رسالة إفتتاح الدّعوة* للقاضي النّعمان بن محمّد. تحقيق وداد القاضي. بيروت. 1970.
- *الرّسالة القشيريّة* لعبد الكريم القشيري.
* في جزأين. تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشّريف. القاهرة. 1966.
* بشرحي الأنصاري والعروسي، ج4.
- *رسالة الهداية والضّلالة للصّاحب* (المقدّمة) لحسين علي محفوظ.
- *روضات الجنّات* للخوانساري. طهران. 1367 هـ.

-ز-

- (كتاب) *الزّينة في الكلمات الإسلاميّة العربيّة* لأبي حاتم أحمد بن حمدان الرّازي.

-س-

- *سمط الآلي في شرح أمالي القالي* لأبي عبيد البكري. في جزأين. تحقيق عبد العزيز الميمني. القاهرة. 1936.
- *سيرة الغزالي* لعبد الكريم العثمان. دار الفكر. دمشق.

-ش-

- *شذرات الذّهب في أخبار من ذهب* العماد الحنبلي. في ثمانية أجزاء. القاهرة. 1350 هـ.-1351 هـ.
- *شرح الأزهار* للجنداري، ج1.
- *شرح البسامة* (شرح قصيدة ابن عبدون). القاهرة. 1340 هـ.
- *شرح عيون المسائل* للحاكم الجشمي. (ضمن كتاب *فضل الإعتزال وطبقات المعتزلة*).
- *شرح نهج البلاغة* لابن أبي الحديد.
* الجزء الأوّل. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. 1959.
* ج2.
- *الشّعر والشّعراء* لابن قتيبة. في جزأين. دار الثّقافة. بيروت. 1964.
- *الشّيعة في التّاريخ* لمحمّد حسن الزّين.

-ص-

- *صفة الصّفوة* لابن الجوزي. في أربعة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1355 هـ.
- *الصّلة بين التّصوّف والتّشيّع* لكامل مصطفى الشّيبي.

-ط-

- *طبقات الأطبّاء والحكماء* لابن جلجل. تحقيق فؤاد سيّد. القاهرة. 1955.
- *طبقات الأمم* لصاعد الأندلسي. نشر لويس شيخو. بيروت. 1912.
- *طبقات الحنابلة* لأبي الحسين محمّد بن أبي يعلى. في جزأين. القاهرة. 1952.
- *طبقات* خليفة.
- *طبقات الشّافعيّة* لجمال الدّين عبد الرّحيم الأسنوي. الجزء الأوّل. تحقيق عبد الله الجبور. بغداد. 1970.
- *طبقات الشّافعيّة* للحسيني. بغداد. 1356 هـ.
- *طبقات الشّافعيّة الكبرى* لتاج الدّين السّبكي. في ستّة أجزاء. المطبعة الحسينيّة. القاهرة. 1324 هـ.

- *طبقات الشّعراء* لابن المعتزّ. تحقيق عبد السّتّار أحمد فراج. دار المعارف. القاهرة. 1956.
- *طبقات الصّوفيّة* لأبي عبد الرّحمان السّلمي. تحقيق نور الدّين شريبه. القاهرة. 1953.
- *طبقات القرّاء* للجزري. ج1.
- *طبقات الفقهاء* لأبي إسحاق الشّيرازي. تحقيق إحسان عبّاس. بيروت. 1970.
- *طبقات الفقهاء الشّافعيّة* لأبي عاصم العبادي. تحقيق فيتستام. ليدن. 1963.
- *طبقات الفقهاء المالكيّة* للقاضي عياض.
- *الطّبقات الكبرى* لابن سعد.
* في ثمانية أجزاء. دار صادر ودار بيروت. بيروت. 1957-1958.
* في تسعة أجزاء. تحقيق إدور سخو. ليدن. 1904-1940.
- *الطّبقات الكبرى* للشّعراني (المسمّاة *لواقح الأنوار في طبقات الأخيار*). في جزأين. القاهرة. 1299 هـ.
- *طبقات المعتزلة* لأحمد بن يحيى ابن المرتضى. تحقيق سوسنه ديفلد-فلزر. بيروت. 1961.
- *طبقات المفسّرين* لجلال الدّين السّيوطي.
* ليدن. 1839.
* طهران. 1960.
- *طبقات النّحويّين واللّغويّين* للزّبيدي النّحوي. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. 1954.
- *طبقات* ابن هداية الله.

-ع-

- *العبر في خبر من غبر* للحافظ الذّهبي. تحقيق صلاح الدّين المنجد وفؤاد السيّد. الكويت. 1960-1966.
- (كتاب) *العبر وديوان المبتدأ والخبر* لابن خلدون. في سبعة أجزاء. بولاق 1284 هـ.
- *العقد الثّمين في تاريخ البلد الأمين* لتقيّ الدّين المكّي. تحقيق فؤاد سيّد ومحمّد طاهر الطناحي. القاهرة. 1959-1969.

- *عقيدة الشّيعة الإماميّة* للسيّد هاشم معروف. بيروت. 1956.
- *عمدة الطّالب في أنساب آل أبي طالب* للسيّد أحمد بن علي الدّاودي الحسني. تحقيق نزار رضا. دار مكتبة الحياة. بيروت.
- *عوارف المعارف* للسّهروردي.
- *عيون الأخبار* لابن قتيبة. في أربعة أجزاء. طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب. القاهرة. 1963.
- *عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء* لابن أبي أصيبعة. في جزأين.
* المطبعة الوهبيّة. القاهرة.
* بيروت. 1956.
- *عيون التّواريخ* لابن شاكر الكتبي. (مخطوط). (مخطوطة طوبقبوسراي رقم:2922/21 ومخطوطة كوبللي رقم: 1121).
- *العيون والحدائق في أخبار الحقائق* لمؤلّف مجهول. تحقيق دي خويه ود. يونج. ليدن. 1869.

-غ-

- *الغرر والدّرر* للشّريف المرتضى.
- *الغزالي* لكارّا دي فو. ترجمة عادل زعيتر. القاهرة. 1959.
- *الغلوّ والفرق الغالية في الحضارة الإسلاميّة* لعبد الله سلوم السّامرّائي.

-ف-

- فتوح ابن أعثم لابن أعثم. في أربعة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1968-1971.
- *الفرق بين الفرق* لعبد القاهر البغدادي.
* تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. القاهرة.
* طبعة آفاق.
- *فرق الشّيعة* للنّوبختي. تحقيق هـ. ريتر. إستنبول. 1931.
- *فرق وطبقات المعتزلة* للقاضي عبد الجبّار.

- *الفصل في الملل والأهواء والنّحل* لابن حزم (وبهامشه *الملل والنّحل* للشّهرستاني). في جزأين. القاهرة. 1347 هـ.
- *الفهرست* لابن النّديم. طبعة مصوّرة عن الطّبعة الأوروبيّة بتحقيق فلوجل. مكتبة خيّاط. بيروت. 1964.
- *فهرست* الطّوسي
- *فوات الوفيّات* لابن شاكر الكتبي.
* في جزأين. تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. القاهرة. 1956.
* في خمسة أجزاء. تحقيق إحسان عبّاس. دار صادر. بيروت.
- *في علم الكلام* لأحمد صبحي، ج1.

-ق-

- قاموس هيوقس الإسلامي.

-ك-

- *الكامل في التّاريخ* لابن الأثير. في 13 جزء. دار صادر-دار بيروت. بيروت. 1965-1967.
- *كشّاف إصطلاحات الفنون* للتّهانوي.
- كشف *الظّنون* لحاجّي خليفة. في جزأين. بعناية وكالة المعارف. 1941-1942.
- *الكشف والبيان* للقلهاتي.

-ل-

- *اللّباب في تهذيب الأنساب* لابن الأثير. في ثلاثة أجزاء. القاهرة. 1356 - 1369 هـ.
- *لسان الميزان* لابن حجر العسقلاني. في ستّة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1331 هـ.

-م-

- مؤلّفات *الغزالي* لعبد الرّحمان بدوي. القاهرة. 1961.
- *المؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس* لابن أبي دينار. تحقيق محمّد شمّام. تونس. 1967.

- *مجالس الشّيخ* مفيد، ج2.
- *مجالس المؤمنين*
- *المحبّر* لابن حبيب. حيدر أباد الدّكن. 1361 هـ.
- مختصر *الدّول* لابن العبري. نشر أنطوان صالحاني اليسوعي. الطّبعة الثّانية. بيروت. 1958.
- مختصر *الفرق بين الفرق* لعبد الرزّاق ابن رزق الله الرّسعني. تحقيق فيليب حتّى. مصر. 1964.
- *المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ عبد الله الدّبيثي* لأبي عبد الله الدّبيثي. تحقيق مصطفى جوّاد. بغداد. 1951.
- مدخل *التّعريفات* للجرجاني.
- *المذاهب الإسلاميّة* لأبي زهرة.
- *المذاهب الإسلاميّة للمتكلّمين في الإسلام* لماكس هرتان.
- *مرآة الجنان* لأبي محمّد اليافعي. في أربعة أجزاء. حيدر أباد الدكن. 1337-1339 هـ.
- *مراتب النّحويّين* لأبي الطيّب عبد الواحد بن علي اللّغوي. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. 1955.
- مروج *الذّهب* للمسعودي. في أربعة أجزاء. تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. الطّبعة الثّالثة. القاهرة. 1958.
- *مطالع البدور في منازل السّرور* لعلاء الدّين الغزولي.
- *المعارف* لابن قتيبة. تحقيق ثروت عكاشة.. دار الكتب المصريّة. 1960.
- *معالم العلماء* لابن شهراشوب.
- *معاهد التّنصيص* لعبد الرّحيم العبّاسي. في أربعة أجزاء. تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. القاهرة. 1947.
- معجم *الأدباء* لياقوت الحموي. في 20 جزء. القاهرة. 1936-1938.
- معجم *البلدان* لياقوت الحموي. في خمسة أجزاء. دار صادر ودار بيروت. بيروت. 1955-1957.
- معجم *الشّعراء* للمرزباني. تحقيق عبد السّتّار أحمد فراج. القاهرة. 1960.

- *المعجم الفلسفي* لجميل صليبا. في جزأين. بيروت.
- *المعجم الكبير* للطّبراني، ج8.
- *مفتاح السّعادة* لطاش كبرى زاده، ج2.
- *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586.
- *مقاتل الطّالبيّين* لأبي الفرج الأصبهاني. تحقيق أحمد صقر. القاهرة. 1949.
- *مقالات الإسلاميّين* لأبي الحسن الأشعري.
* تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. في جزأين.
* تحقيق هلموت ريتر. الطّبعة الثّانية. فيسبادن. 1963.
- *المقدّمة* لابن خلدون. في أربعة أجزاء. تحقيق علي عبد الواحد وافي. القاهرة. 1957-1962.
- *مقدّمة تبيين كذب المفتري* لمحمّد زاهد الكوثري.
- (كتاب) *المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى* لأبي حامد الغزالي.
- *الملل والنّحل* للشّهرستاني.

في جزأين. تحقيق محمّد سيّد كيلاني. دار المعرفة. بيروت. 1961.

في جزأين. تحقيق. بدران. مكتبة الأنجلو المصريّة. القاهرة.

في جزأين. (على هامش *الفصل* لابن حزم). القاهرة. 1347 هـ.

- *مناقب الإمام أحمد* لابن الجوزي.
- *مناهج السّنّة النّبويّة* لابن تيميّة. في جزأين. تحقيق محمّد رشاد سالم. مكتبة خيّاط. بيروت.
- *من تاريخ الإلحاد في الإسلام* لعبد الرّحمان بدوي. القاهرة. 1945.
- *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم* لابن الجوزي. في عشرة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1357 هـ.
- *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا. الطّبعة الثّانية. منشورات بحر المتوسّط ومنشورات عويدات. بيروت-باريس. 1981.
- *المنقذ من الضّلال* لأبي حامد الغزالي.
- *المنهل الصّافي والمستوفي بعد الوافي* لابن تغري بردي. الجزء الأوّل. تحقيق أحمد يوسف نجاتي. مطبعة دار الكتب. القاهرة. 1956.

- (كتاب) *المنية والأمل في شرح الملل والنّحل* لابن المرتضى.
- (كتاب) مهرجان *الغزالي* في دمشق 1961.
- *الموسوعة الإسلاميّة*، ج1.
- موسوعة *الدّين والأخلاق* (ج3/ص574)
- موسوعة *الفلسفة* لعبد الرّحمان بدوي. في جزأين.
- *الموسوعة* المختصرة *للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.
- *الموشّح* للمرزباني. تحقيق علي محمّد البجاوي. القاهرة. 1965.
- ميزان *الإعتدال في نقد الرّجال* للذّهبي. في أربعة أجزاء. تحقيق على محمّد البجاوي. مصر. 1963.

-ن-

- *النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة* لابن تغري بردي. في 13 جزء. دار الكتب المصريّة. القاهرة.
- *النّزعة الكلاميّة في أسلوب الجاحظ* لفكتور شلحت اليسوعي.
- *نزهة الألباء في طبقات الأدباء* لكمال الدّين ابن الأنباري. تحقيق إبراهيم السّامرائي. بغداد. 1959.
- *نشأة التّصوّف الإسلامي* لإبراهيم بسيوني.
- *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194.
- *نكت الهيمان في نكت العميان* للصّلاح الصّفدي. طبعة مصر.
- *نور القبس المختصر من المقتبس للمرزباني* لأبي المحاسن اليغموري. تحقيق رودلف زلهايم. بيروت. 1964.

-و-

- *الوافي بالوفيّات* للصّلاح الصّفدي. ج1 وج4 وج7. باعتناء هلموت ريتر وس. ديدرينغ. من سلسلة النّشرات الإسلاميّة لجمعيّة المستشرقين الألمانيّة. مطابع مختلفة. 1931-1959.

- *الوزراء والكتّاب* لمحمّد بن عبدوس الجهشياري. تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي. القاهرة. 1938.
- *الوفيّات* لابن قنفد.
- *وفيّات أبي الفدا* لأبي الفداء، ج1.
- *وفيّات الأعيان* لابن خلّكان. تحقيق إحسان عبّاس. في ثمانية أجزاء. دار الثّقافة. بيروت.
- *ولاّة مصر* للكندي.
- *الولاّة والقضاة* لأبي عمر محمّد بن يوسف الكندي المصري. بيروت. 1908.

-ي-

- *يتيمة الدّهر* للثّعالبي. في أربعة أجزاء. تحقيق الشّيخ محمّد محيي الدّين عبد الحميد. القاهرة. 1375 هـ.-1377 هـ.

محتويات كتاب

اعلام النّبوّة

محتويات كتاب أعلام النّبوّة

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة - عمارة عدد 3 - شقّة عدد 2 - المنار 2 - أريانة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر : 02-9938
عدد الطّبعة: الثّانية
ت د م ك : 978-9938-02-034-2
تمّ سحب 1000 نسخة من هذا الكتاب

المؤلف في سطور

قال الذّهبي عن مؤلف كتابنا: "محمّد بن ادريس أبو حاتم الرّازي، الحافظ، سمع الأنصاري وعبيد الله بن موسى وعنه درس، وولده عبد الرّحمن بن أبي حاتم، والمحاملي. قال موسى بن اسحاق الأنصاري: ما رأيت أحفظ منه مات في شعبان سنة 277". وكان مولده سنة خمس وتسعين ومائة. وحلاّه السّمعاني بقوله: "إمام عصره والمرجوع إليه في مشكلات الحديث، من مشاهير العلماء المذكورين، الموصوفين بالفضل والحفظ والرّحلة ولقي العلماء ."

الكتاب في سطور

ينفرد أعلام النبوّة بأنّه صان فلسفة "المُلحِد" أبي بكر الرّازي من الضّياع، وكرّسه فيلسوفا عقلانيًّا، اعتقد منذ القرن الرابع الهجري بغلبة العقل والمنطق والفلسفة على الفكر الدّيني، ومهّد لِمَا عادت وقامت عليه بعد قرون طويلة "فلسفة الأنوار" في عصر النّهضة الأوروبية، وبشّر بها فيلسوفها العقلاني فولتيرز. كما جاء نموذجًا مكتملاً ومعبّرًا عن أدب المساجلات والمناظرات الفكريّة التي تفتقده الثّقافة العربيّة المعاصرة في زمن انحدارها ويطرح هذا الكتاب إشكاليّة المواجهة بين منطق العقل ومنطق المعجزة، ويقدّم نموذجًا نادرًا عن تفكير -وبالتالي تكفير- فيلسوف رجيم أربك المؤسّسة الدينيّة المهيمنة بآرائه الفلسفيّة العقلانيّة



أبو حاتم الرازي
أعلام النبوة

الثمن : 25 دت

ت.د.م.ك : 978-9938-02-034-2